المركز القومي للترجمة

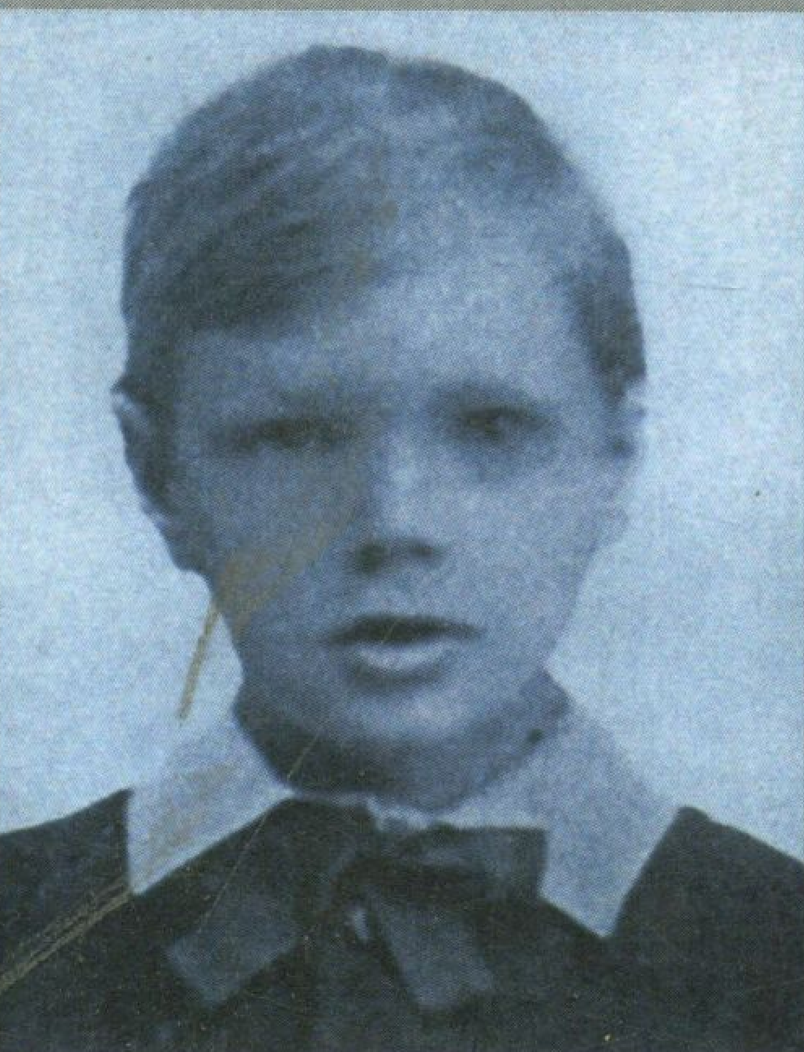
المشروع القومي للترجمة

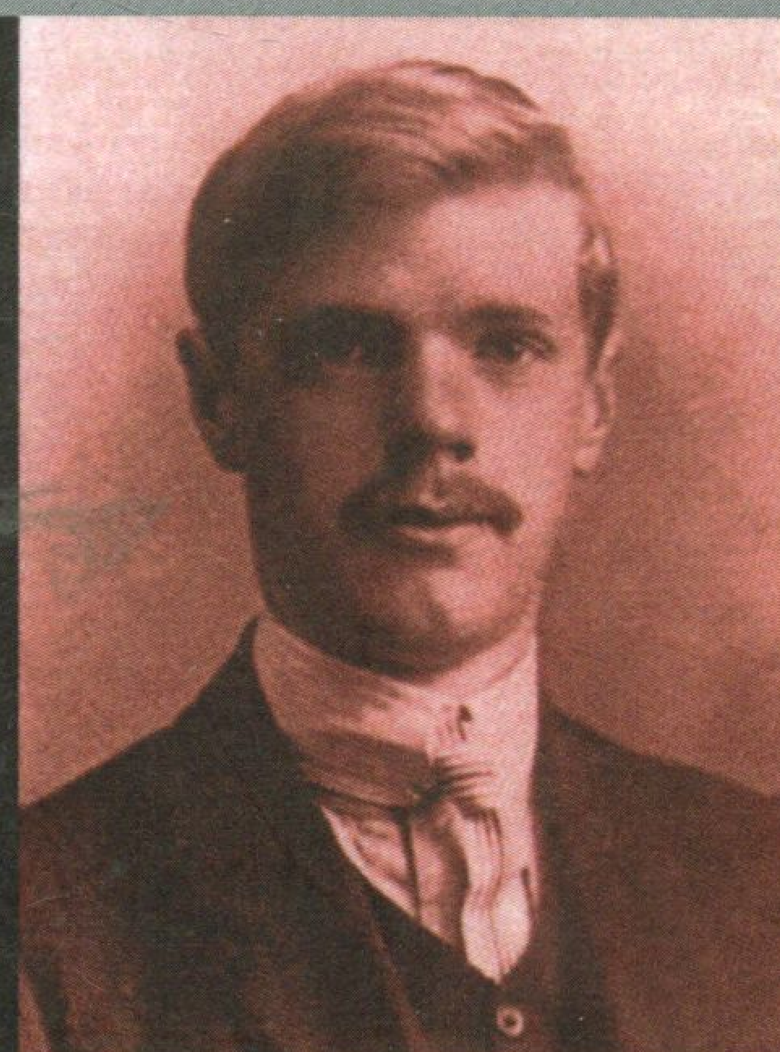


كيث ساغار

حياة د. هـ. لورنس

سيرة مصوَّرة




ترجمة: ابتسام عبد الله

مراجعة: صبرى محمد حسن

1633

حياة د. هـ . لورنس
(سيرة مصورة)

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: 1633
- حياة د. هـ . لورنس (سيرة مصورة)
- كيث ساغار
- إبتسام عبد الله
- صبرى محمد حسن
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :
The life of D.H. Lawrence
An illustrated biography
By : Keith Sagar

Published by Chaucer Press
An imprint of Caxton Publishing Group
20 Bloomsbury Street, London WC1 3QA

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ، ت : ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ ، فاكس : ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

حياة د. هـ. لورنس

سيرة مصوَّرة

تأليف : كيث ساغار

ترجمة : إبتسام عبد الله

مراجعة : صبرى محمد حسن



2010

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ساغار ؛ كيث

حياة د. هـ لورنس (سيرة مصورة) .

تأليف : كيث ساغار ، ترجمة : إبتسام عبد الله ، مراجعة : صبرى محمد حسن

ط ١ ، القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠

٣٠٨ ص ، ١٧سم

١ - لورنس ، ديفيد هربرت ريتشارد ، ١٨٨٥ - ١٩٣٠

٢ - عبد الله ؛ إبتسام (مترجمة)

٣ - حسن ؛ صبرى محمد (مراجع)

٤ - المسرحيون الإنجليزيون

٥ - العنوان ٩٢٨,٢٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢١٨١٣

الترقيم الدولى : 1 - 686 - 479 - 977 - 978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

مقدمة المراجع

اسمه بالكامل ديفيد هربرت ريتشارد لورنس، وهو من مواليد اليوم الحادى عشر من شهر سبتمبر من العام ١٨٨٥ الميلادى، ووافته المنية فى اليوم الثانى من شهر مارس من العام ١٩٣٠ الميلادى، أى أنه توفى عن عمر يناهز خمسة وأربعين عامًا. كان لورنس مؤلفًا إنجليزيًا، وشاعرًا، وكاتبًا مسرحيًا، وصاحب مقال، كما كان ناقدًا أدبيًا. وتمثل مجموعة أعمال هذا الرجل تدبرًا متأنيًا ومدروسًا للآثار غير الإنسانية الناجمة عن الحداثة والتصنيع. ولورانس من خلال مؤلفاته وكتاباته يواجه المشكلات ذوات العلاقة بالصحة العاطفية، والحيوية، والعفوية والغرائز والجنسية البشرية.

أفكار هذا المؤلف، أكسبته كثيرًا من الأعداء، وجعلته يتحمل الكثير من الاضطهاد الرسمى، والرقابة الرسمية، وإساءة سمعة عمله الإبداعى طوال النصف الثانى من حياته، الذى آثر أن يمضيه فى منفى اختيارى، وسمه بأنه "ترحال قاسٍ". وصفوا الرجل عند مماته بأنه "أديب داعر" بدد مواهبه العظيمة؛ ومع ذلك فإن الناقد إى .م. فورستر وسم هذا الرجل، وهو يؤبِّنه بأنه "أعظم الروائيين الخياليين فى جيلنا". ومن بعد فورستر جاء ف. ر. ليفز ناقد جامعة كيمبردج ذائع الصيت يقول: إن "نزاهة لورنس الفنية، وجدته الأخلاقية" يضعان أعمال الرجل ضمن "الموروث العظيم" من الرواية الإنجليزية . ولورنس مصنف حاليًا على أنه من بين الممثلين الكبار للحداثة فى الأدب الإنجليزى، على الرغم من اعتراض بعض الكاتبات على موقفه من كل من المرأة والجنس فى مؤلفاته.

حياته الباكرة

لورنس هو الابن الرابع للسيد / آرثر جون لورنس، عامل المنجم الذى يكاد يعرف القراءة والكتابة، وأمه هى ليديا، التى كانت من قبل ناظرة لإحدى المدارس. أمضى لورنس سنواته الأولى فى بلده إيستوود التى يجرى فيها تعدين الفحم. ومحل ميلاد لورنس فى ٨ أ شارع فيكتوريا، فى إيستوود، متحف فى الوقت الحالى. كانت خلفية لورنس العمالية هى والتوترات التى دارت بين والديه بمنزله المعين الذى استقى لورنس منه المادة الخام لبعض أعماله الباكرة. كان الرجل يحن إلى موطنه، وهو الأمر الذى دفعه إلى أن يجعل ذلك الموطن خلفية فى كثير من أعماله الروائية، وكان يطلق عليه اسم "بلد قلبى."

التحق لورنس بمدرسة بوفيل الداخلية فى الفترة من العام ١٨٩١ الميلادى إلى العام ١٨٩٨؛ هذه المدرسة يطلق عليها حاليًا اسم مدرسة جريسلى بوفيل ديفيد هربرت لورنس الابتدائية وذلك تكريمًا لهذا الكاتب العظيم، وفى هذه المدرسة أصبح لورنس أول تلميذ محلى يفوز بمنحة من مجلس المقاطعة للدراسة فى مدرسة نوتنجهام الثانوية فى نونتجهام القريبة من إستوود. هذه المدرسة فيها منزل يحمل اسم هذا الصبى. ترك لورنس المدرسة فى العام ١٩٠١ الميلادى، ليعمل كاتبًا صغيرًا، طوال ثلاثة أشهر، فى مصنع هيوود للأدوات الجراحية، لكن نوبة الالتهاب الرئوى، التى أصابته بفعل بعض بنات المصنع، هى التى أنهت عمل لورنس فى هذا المكان. كان لورنس طوال فترة نقاهته يتردد على مزرعة هاج، التى كانت موطنًا لعائلة شيمبرز، وهو الأمر الذى جعله يستبدئ علاقة مع جيسى شيمبرز. كانت مسألة حب الكتب عاملاً مهمًا فى العلاقة التى كانت تربط بين لورنس وجيسى وبعض المراهقات الأخريات؛ حب لورنس للكتب استمر معه إلى آخر يوم فى حياته.

وفى الفترة من العام ١٩٠٢ إلى العام ١٩٠٦ عمل لورنس تلميذًا مدرسًا فى المدرسة البريطانية فى إيستوود. تقدم لورنس وأصبح طالبًا منتظمًا وحصل على شهادة فى التدريس من كلية نوتنجهام الجامعية فى العام ١٩٠٨. كان لورنس فى هذه الفترة الباكرة مشغولاً بقصائده الأولى، وبعض القصص القصيرة، ومسودة رواية اسمها لايتيتيا Laetitia التى أصبحت فيما بعد "الطاووس الأبيض". فاز لورانس فى نهاية العام ١٩٠٧ الميلادى فى مسابقة للقصة القصيرة نظمتها جريدة نوتنجهام جارديان، وكانت تلك أول مرة يحظى فيها الرجل باعتراف كبير بمواهبه الأدبية.

آفاق أوسع :

غادر لورنس المتأهل الحديث موطن طفولته، فى خريف العام ١٩٠٨ الميلادى، قاصدًا مدينة لندن. ويواصل لورنس الكتابة طوال عمله بالتدريس فى مدرسة ديفيدسُن رود، فى كرويدُن، وصلت بعض أشعار لورنس الباكرة، من خلال جيسى شيمبرز، إلى يدى فورد مادوكسى فورد، واسترعت انتباه الرجل؛ كان فورد مادوكسى فى ذلك الوقت معروفًا باسم فورد هيرمان هيوفر، وكان أيضًا رئيسًا لتحرير مجلة "إنجلش ريفيو" واسعة الانتشار. نشر هيوفر قصة "عبيق الأقحوان"، وهو الأمر الذى شجع هاينمان الناشر اللندنى، على طلب المزيد من أعمال لورنس. وبذلك يكون لورنس قد بدأ مستقبله العملى بوصفه مؤلِّفًا، على الرغم من استمراره فى التدريس عامًا آخر. وتوافى المنية والدة لورنس بعد فترة قصيرة من التجارب النهائية لنشر روايته الأولى "الطاووس الأبيض" فى العام ١٩١٠. كانت والدة لورنس مريضة بالسرطان. ضمر الشاب إلى حد أنه وصف الأشهر القليلة التى تلت ذلك بأنها "عام المرض" من الواضح أن لورنس كانت تربطه بوالدته علاقة وثيقة للغاية، الأمر الذى جعل من حزنه على وفاة والدته، نقطة تحول فى حياته، وأصدق مثال على ذلك هو وفاة السيد موريل، التى شكلت نقطة تحول رئيسة فى رواية لورنس السِّيريّة "أبناء وعشاق"، تلك الرواية المبنية على قدر كبير من تنشئة المؤلف الإقليمية.

جرى فى العام ١٩١١ الميلادى تقديم لورنس إلى القارئ الناشر، إدوارد جارنت، الذى قام بدور الناصح للورنس، وأعطاه المزيد من التشجيع، وصار صديقًا مقربًا من لورنس، كما أصبح ديفيد ولد جارنت صديقًا مقربًا أيضًا من لورنس. قام المؤلف الشاب خلال هذه الفترة بمراجعة روايته " بول موريل"، تلك المسودة الأولى التى تحولت فيما بعد إلى "أبناء وعشاق" . يزاد على ذلك، أن هيلين كورك، زميلته فى التدريس، أطلعته على يومياتها الحميمه عن قصة حب فاشلة، جعلها لورنس أساسًا لروايته الثانية "الخطَّاء". وفى العام ١٩١١ الميلادى داهم الالتهاب الرئوى لورنس مرة ثانية. وبعد أن استعاد لورنس عافيته قرر التخلى عن التدريس حتى يمكن أن يتفرغ للتأليف، كما أنهى أيضًا خطبته للوى بوروز، تلك الصديقة القديمة من نوتنجهام وايستوود.

التقى لورنس فى شهر مارس من العام ١٩١٢ الميلادى فريدا ويكلى، التى شاركته بقية حياته. كانت فريدا تكبر لورنس بست سنوات، كانت فريدا قد سبق لها الزواج من إيرنست ويكلى، أستاذ لورنس فى اللغات الحديثة فى جامعة نوتنجهام، وكانت قد أنجبت منه ثلاثة أطفال. كانت فريدا قد هربت مع لورنس إلى منزل والديها فى ميتز Metz التى كانت مدينة محصنة عسكريًا فى ذلك الوقت فى ألمانيا، وكانت على مقربة من الحدود المتنازع عليها مع فرنسا. وقد صادفت إقامتهم فى بلدة ميتز أول خبرة من خبرات لورنس العسكرية، حيث جرى القبض عليه واتهامه بالجاسوسية لصالح بريطانيا، وذلك قبل إطلاق سراحه بعد تدخل من جانب والد فريدا ويكلى. بعد هذه المصادفة غادر لورنس بلدة ميتز إلى كفر (قرية صغيرة) فى جنوب ميونخ حيث لحقت به فريدا ويكلى لقضاء شهر العسل، الذى خلَّده لورنس فيما بعد فى سلسلة من قصائد الحب بعنوان "انظر لقد اجتمع شملنا" والتى صدرت فى العام ١٩١٧.

توجه كل من لورنس وفريدا جنوبًا عبر جبال الألب قاصدين إيطاليا، وهذه هى الرحلة الأولى التى دونها لورنس فى كتب أسفاره، التى هى عبارة عن مجموعة من المقالات المترابطة التى أعطاها عنوانًا هو "الغسق فى إيطاليا"، وفى روايته غير المكتملة المعنونة "السيد نون". أكمل لورنس أثناء مقامه فى إيطاليا النسخة النهائية من روايته "أبناء وعشاق"، التى اعتُرف بها بعد نشرها بأنها صورة تمثل حقائق الطبقة العاملة فى حيواتهم المحلية. وعلى الرغم من ذلك، سئم لورنس ذلك العمل إلى الحد الذى جعله يسمح لإدوارد جارنيت بحذف حوالى مائة صفحة من نص هذه الرواية.

عاد لورنس وفريدا إلى إنجلترا فى العام ١٩١٣ فى زيارة قصيرة. فى ذلك الوقت كان لورنس قد التقى وصادق الناقد جون ميدلتون هو والكاتبة كاثرين مانسفيلد كاتبة القصة القصيرة، والمولودة فى نيوزيلندا. وسرعان ما عاد لورنس هو وويكلى إلى إيطاليا، ليقيما فى كوخ فى "فيازشيرينو" على خليج سبيزيا. وفى فيازشيرينو بدأ لورنس كتابة المسودة الأولى لعمل من أعماله القصصية قدر له أن يتحول إلى روايتين من أفضل رواياته"قوس القزح" و"نساء عاشقات". استطاعت فريدا ويكلى الحصول على الطلاق فى نهاية المطاف. وعاد الثنائى إلى إنجلترا مع مطلع الحرب العالمية الأولى وتزوجا فى اليوم الثالث عشر من شهر يوليو من العام ١٩١٤ الميلادى. طوال هذه الفترة كان لورنس يعمل مع كتاب لندن ومفكريها أمثال دورا مايسون والعاملين فى مجلة "الأيجوست" **The Egoist** (أمثال ت. س. إليوت وإزرا باوند وآخرين)، مجلة الحداثة الأدبية المهمة، التى نشرت بعض أعمال لورنس. كان لورنس يقرأ ويعدل فى مانيفستو المستقبل الذى ألفه ماريانيتى.

كانت أبوة فريدا ويكلى الألمانية هى واحتقار لورنس السافر للنظرية العسكرية سببين جعلاهما محطًا للشك فى إنجلترا فى زمن الحرب، وكانا يعيشان فيما يشبه العزلة. وجرت مصادرة رواية "قوس قزح" فى العام ١٩١٥ بدعوى بذاءتها وانحطاطها الخلقى. بل وجرى بعد ذلك اتهام كل من لورنس وفريدا بالجاسوسية وبإصدار إشارات للغواصات الألمانية من بعد على شاطئ كورنول حيث كانا يعيشان فى زنُّور. أنهى لورنس خلال هذه الفترة روايته "نساء عاشقات". ولورنس فى هذه الرواية يستكشف الخصائص والسمات المدمرة فى الحضارة المعاصرة، وذلك من خلال العلاقات التى تنشأ بين أربع شخصيات رئيسية عندما تروح تتدبر وتعمل الفكر فى قيمة الفنون، والسياسة، والاقتصاد، والخبرة الجنسية، والصداقة والزواج. رواية "نساء عاشقات" عبارة عن رؤية مُرة ومكشوفة للإنسانية، وتأكدت استحالة نشرها فى زمن الحرب. ولما كانت رواية "نساء عاشقات" لم تنشر إلا بعد العام ١٩٢٠، فهى معترف بها حاليًا بأنها رواية إنجليزية تمتاز بقوة درامية كبيرة وغموض فكرى.

فى أواخر العام ١٩١٧ الميلادى، وبعد مداهمات مستمرة من سلطات القوات المسلحة، اضطر لورنس هو وفريدا ويكلى إلى مغادرة كورنول، طبقًا لقوانين الدفاع. وصف لورنس هذا الاضطهاد فى فصل من فصول روايته "الكنغر" التى كتبها فى استراليا والتى نشرت فى العام ١٩٢٣. أمضى لورنس بضعة أشهر فى مطلع العام ١٩١٨ فى قرية ريفية صغيرة من قرى هيرمتاج بالقرب من نيوبرى **Newbury** ، فى بيريكشايد. عاش لورنس بعد ذلك مدة تقل عن عام واحد (أو بالأحرى الفترة من منتصف العام ١٩١٨ إلى مطلع العام ١٩١٩ (فى أحد الأكواخ الجبلية، الذى كتب فيه واحدة من أفضل قصصه القصيرة الشاعرية، هى "الطاووس الشتوى". بقى لورنس إلى العام ١٩١٩ تحت وطأة الفقر، الذى اضطره إلى التنقل من عنوان إلى آخر، ولم يكن يقوى على مقاومة أية نزلة من نزلات الأنفلونزا.

بداية الترحال القاسى

ابتدأ لورنس بعد صدمة تجربة سنوات الحرب، فترة من حياته أطلق عليها اسم "الترحال الشاق" وهذه هى الفترة التى آثر الرجل فيها النفى الاختيارى. هرب لورنس من إنجلترا مع أول فرصة تهيأت له، ولم يعد خلال فترة النفى هذه، إلى إنجلترا سوى مرة أو مرتين على سبيل الزيارة القصيرة المدى، وآثر أن يمضى بقية حياته جائلاً مع زوجته. أوصلته جولاته هذه إلى أستراليا، وإيطاليا، وسيلان (التى يطلق عليها حالياً اسم سيرلانكا)، والولايات المتحدة الأمريكية، والمكسيك وجنوب فرنسا.

تخلى لورنس فى شهر نوفمبر من العام ١٩١٩، عن إنجلترا وغادرها إلى الجنوب؛ قصد لورنس إقليم آبروزى فى البداية، وهذا الإقليم يقع فى وسط إيطاليا، ثم واصل تجواله إلى كابرى وفونتانا فيكيا فى تورمينا، بجزيرة صقلية. ومن صقلية قام لورنس برحلة قصيرة إلى كل من سردينيا، ومونت كاسينو، ومالطة، وشمال إيطاليا، والنمسا، وجنوب ألمانيا. وقد ظهر كثير من هذه المدن فى كتابات الرجل. كانت "البنت الضائعة(*)"، من بين الروايات التى كتبها لورنس فى تلك الفترة. ونشر لورنس أيضاً روايته " عصا إيرون" فى هذه الفترة أيضاً. وجرب أشكالاً جديدة مثل الأقصوصات أو الروايات القصيرة التى من قبيل "الكابتن دول" و "الثعلب" و"ليدى بيرد". يزاد على ذلك أن بعضاً من قصصه القصيرة، صدرت فى تلك الفترة، ضمن مجموعة تحمل العنوان "إنجلترا، قصصى التى كتبتها فى إنجلترا وقصص أخرى". كتب لورنس فى هذه الفترة أيضاً عدداً من القصائد عن العالم الطبيعى بين الطيور، والوحوش، والزهور. ويحظى لورنس باعتراف كبير بأنه واحد من أحسن كتَّاب الترحال فى اللغة الإنجليزية. كتابه "البحر وسردينيا" يصف الرحلة القصيرة التى قام بها من تورمينا فى شهر يناير من العام ١٩٢١، والقصة بحد ذاتها عمل إبداعى لحياة سكان ذلك الجزء من البحر الأبيض المتوسط. يزاد على ذلك أن ذكريات موريس ماجنوس (التى صدرت على شكل كتاب بعنوان ذكريات الفيلق الأجنبى) يستعيد لورنس فيها ذكرياته عن الرحلة التى قام بها إلى دير مونت كازينو. هناك كتابان آخران لا يدخلان ضمن أعمال لورنس الأدبية هما عبارة عن دراستين للتحليل النفسى الفرويدى، أما الكتاب الثانى فهو بعنوان "تحركات فى التاريخ الأوروبى"، وهو من الكتب المدرسية التى نشرت مجهولة المؤلف، والكتاب عبارة عن تأملات فى سمعته التى جرى تخريبها فى إنجلترا.

حياة لورنس ومستقبله العملى فيما بعد الترحال القاسى

غادر لورنس فى أواخر شهر فبراير من العام ١٩٢٢ الميلادى أوروبا قاصداً الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. سلك لورنس هو وفريدا مسلكاً شرقياً ابتداءه أولاً بجزيرة سيلان، ثم أستراليا. وأقاما فترة قصيرة فى دارلنجتون، فى غربى أستراليا؛ والتقيا خلال هذه الفترة الكاتب مُوْلِى Mollie سكنر، وتوقفا بعد ذلك فترة قصيرة فى مدينة ثيريول الساحلية فى نيوثوث ويلز، وأكمل لورنس خلال هذه الفترة رواية "الكنغر"، تلك الرواية التى تتناول السياسة الداخلية، كما ضمنها لورنس الكثير من التجارب والخبرات التى مر بها فى زمن الحرب فى كورنول.

(*) حصل لورنس على جائزة جيمس تيت التذكارية السوداء عن هذه الرواية.

وصل لورنس وفريدا، فى نهاية المطاف، إلى الولايات المتحدة في شهر سبتمبر من العام ١٩٢٢. والتقيا ميبل دودج لوهان، الأخصائية الاجتماعية البارزة وراح الجميع يفكرون فى إنشاء طائفة فاضلة على تلك المساحة التى تقدر بحوالى ٦٥٫٠ كيلاً مترياً مربعاً، على مقربة من مزرعة كيوا بالقرب من تاوس، فى نيومكسيكو، وبذلك يحصل لورنس فى العام ١٩٢٤ على ما يسمى وقتئذ مزرعة د. هـ. لورنس، مقابل مخطوطته عن رواية " أبناء وعشاق". بقى لورنس فى نيومكسيكو مدة عامين، قام خلالهما بزيارات مطولة إلى كل من بحيرة شابالا وأوكساكا فى المكسيك. زار الناقد الإنجليزى الدوس هكسلى د. هـ. لورنس أثناء وجوده فى نيومكسيكو. وتزوجت فريدا بعد وفاة لورنس إنجليو رفاجلى. جرى نقل رفاة لورنس بعد وفاته إلى ضريح فى المزرعة التى أمضت فيها فريدا وزوجها السنوات الأخيرة من حياتهما.

أعاد لورنس أثناء وجوده فى الولايات المتحدة الأمريكية كتابة ونشر كتابه المعنون "دراسات فى الأدب الأمريكى الكلاسيكى"؛ هذا الكتاب عبارة عن سلسلة من المقالات النقدية بدأ الرجل كتابتها فى العام ١٩١٧؛ وقد وصف أدموند ويلسون ذلك الكتاب مؤخراً بأنه "واحد من أحسن الكتب التى كتبت حول هذا الموضوع". شكلت هذه الشروح هى والتبصرات فى مسألة الرمزية، وكذلك الإحساس البيوريتانى، عاملاً قيماً فى إحياء سمعه هيرمان ميلفل(*)، فى مطلع عشرينيات القرن العشرين. وفى تلك الأثناء أيضاً أتم لورنس بعض الأعمال الروائية، من بينها "صبى الأدغال" و "الحية المريشة". وتيسر للورنس أيضا وقت استطاع أن يؤلف فيه بعض كتب الترحال، كما هو الحال فى كتابه المعنون "إصباحات فى المكسيك".

فشلت الرحلة القصيرة التى قام بها لورنس إلى نيو إنجلند في نهاية العام ١٩٢٣، وهو الأمر الذى جعله يعجِّل بالعودة إلى تاوس، اقتناعاً منه بأن أمريكا هى مستقر حياته ككاتب ومؤلف. وفى شهر مارس من العام ١٩٢٥، أصيب لورنس بنوبة حادة من الملاريا والسل الرئوى أثناء قيامه بزيارة للمكسيك للمرة الثالثة. وعلى الرغم من شفائه من تلك النوبة، فإن تشخيص حالته المرضية أجبره على العودة مرة ثانية إلى أوروبا. هذا يعنى أن الرجل كان مريضاً مرضاً خطيراً، كما تدهورت صحته على نحو أعجزه عن الترحال طوال الفترة المتبقية من حياته.

أقام لورنس وفريدا فى فيلا فى شمال إيطاليا، وكان يعيش بالقرب من فلورنسا عندما كان يكتب رواية "العذراء والغجرى"؛ والصياغات المتعددة لروايته "عشيق الليدى شاترلى" والتى أصدرها فى العام ١٩٢٨. هذه الرواية كان قد سبق نشرها فى طبقات خاصة فى كل من فلورنسا وباريس. ورد لورنس على منتقدى هذه الرواية بعدد من القصائد الساخرة التى نشرها تحت عنوان "بنفسجيات" و " قرّاصيّات"، و "أدب مكشوف".

سمحت عودة لورنس إلى إيطاليا بتجديد صداقاته؛ فقد وطد الرجل علاقات خلال هذه الفترة مع الدوس هكسلى، الذى كان أول من قام بتحرير رسائل د. هـ. لورنس بعد وفاته، بالإضافة إلى مذكراته. كما زار لورنس بصحبة إيرل برويستر بعض المناطق الأثرية فى شهر إبريل من العام ١٩٢٧، الأمر الذى أسفر عن بضع مقالات قيمة عن زيارته لتلك المقابر القيمة.

واصل لورنس الكتابة على الرغم من تردى حالته الصحية. وقد كتب خلال الأشهر الأخيرة من حياته عديداً من القصائد، والمراجعات الأدبية، والمقالات فضلاً عن دفاع قوى عن روايته الأخيرة فى مواجهة أولئك الذين حاولوا قمعها وإسكات صوتها. بعد خروج لورنس من المصحَّة، لقى الرجل ربه فى فيلا روبرموند فى فينس Vence، فى فرنسا بسبب ازدياد مضاعفات مرض السل. وعادت فريدا ويكلى للعيش فى المزرعة فى تاوس، وقام زوجها الثالث بعد ذلك بإحضار رفاة لورنس إلى كنيس صغير أقامته فريدا بين جبال نيومكسيكو.

(*) هيرمان ميلفل: مؤلف رواية "موبى ديك" (أى الحوت الأبيض) التى تعد معلماً رئيساً فى أدب الرواية الأمريكية.

لغة لورنس الشاعرية :

يجمع النقاد: المؤيدون منهم والمعارضون على أن لغة لورنس لغة شاعرية، وقد كان الرجل شاعراً بالفعل، ولكنى آثرت هنا اختيار مقطوعة قصيرة من رواية لورنس "عشيق الليدى تشاترلى":

And it seemed she was like the sea, nothing but dark

Waves rising and heaving, heaving with great swell,

So that slowly her whole darkness was in motion,

And she was ocean rolling its dark dumb mass.

يبدو أنها كانت مثل البحر لا شيء سوى الأمواج

المظلمة ترتفع وتجيش، ثم تجيش من جديد بعاطفة أقوى،

حتى يتحرك ظلامها كله ببطء،

وكانت محيطاً يدحرج ظلمته، كتلة خرساء.

هذا الاقتباس بطبيعته مقطّع إلى أبيات خماسية عمقية إلى الحد الذى يجعلنا نجزم أن صاحبها إنما كتبها من هذا المنظور.

هذا الاقتباس يدخل فى عداد العروض الخماسى القوى. وبعد أن قطّعته إلى أبيات خماسية التفاعيل، أصبح من قبيل العروض المُنَوَّع ، فضلاً عن لغته الرنانة. والأدهى من ذلك أن كلمات هذا الاقتباس فى إطارها النثرى أقوى بكثير جداً من الكلمات نفسها بعد أن قطعتها إلى أبيات من الشعر. ولعل القارئ يحس الإيقاعات التى فى هذه الأبيات بعد أن قطعتها تقطيعاً عروضياً:

And SEEMED\ she was LIKE\ the SEA, \ NOTHING' but DARK

WAVES RIS\ ing and HEAV\ ing WITH a GREAT SWELL.

So that SLOW\ ly her\ WHOLE DARK\ ness WAS\ in MOtion

And SHE\ was O\ cean Roll\ ing its DARK\ DUMB MASS.

يتمثل التصوير الرمزى فى هذا الاقتباس فى رمزيته المركزية: إذ إن البحر يمثل القوى الأولية التى استُطْلِقت فى الليدى تشلترى أثناء المعاشرة الجنسية، ويجب أن نلاحظ هنا أن الاقتباس يبدأ بتشبيه يقول : " كانت مثل البحر" **She was like sea** ويستطرد بعد ذلك إلى أن يصل إلى استعارة تصريحيه تعقد المقارنة نفسها **She was ocean** فى هذا الاقتباس أيضاً شكل من أشكال الإزاحة، استبدلت فيه الصورة الفنية للبحر بصورة أخرى غير موشاة تصف العملية الجنسية، وربما كانت فى حقيقة الأمر تجيش وترتفع وتتدحرج بعاطفة قوية، ومع ذلك فإن لورنس يعمد إلى حثنا على تعرف تجربتها وخبرتها مع البحر مما ينسينا التفكير فى المعنى الحرفى وذلك على العكس من المعنى الرمزى. معنى ذلك أن لورنس يستغرقنا مع البحر محولاً التجربة المادية إلى تجربة روحية أو معنوية إن شئت، ويطلق الكثيرون على هذا النوع من الكتابة اسم الكتابة الشاعرية، حتى وإن وردت فى منتصف رواية نثرية مثل رواية " عشيق الليدى تشاترلى" .

الجنسية المثلية :

عندما كان لورنس يكتب روايته "نساء عاشقات" فى كورنول خلال الفترة من ١٩١٦ - ١٧، نشأت بينه وبين فلاح من كورنيش يدعى وليام هنرى هوكنج، صداقة قوية وربما كانت رومانسية إلى حد بعيد. وعلى الرغم من عدم وضوح ما إذا كانت تلك العلاقة جنسية أو لا، فإن فريدا ويكلى زوجته قالت : إنها كانت كذلك. وهنا يمكن أن نعزو انبهار لورنس بموضوعات الجنسية المثلية إلى توجهه الجنسى الخاص. هذه التيمة واضحة جلية فى رواية " نساء عاشقات". يزاد على ذلك أن لورنس فى واحدة من رسائله التى كتبها فى العام ١٩١٣ يقول :

"أود أن أعرف السبب الذى يجعل كل أولئك الذين يقتربون من العظمة، يغلب عليهم الميل إلى الجنسية المثلية، سواء اعترفوا أو لم يعترفوا بذلك ... " وهناك عبارة أخرى مقتبسة عنه يقول فيها : "أعتقد أن أقرب الناس إلىّ" والذى وصلت معه إلى مرحلة الحب الكامل، كان شاباً من عمال المناجم يوم أن كنت أنا فى السادسة عشرة من العمر".

ماذا قالوا عن الرجل بعد وفاته ؟

جاءت مقالات النعى التى نشرت بعد وفاة د. هـ. لورنس بوقت قصير، باستثناء المقال الذى كتبه أى. م فورستر، كلها معادية للرجل وغير متعاطفة معه. ومع ذلك، كان من بين هؤلاء الكتاب أناس اعترفوا بأهمية حياة وقيمة هذا المؤلف؛ من بين هؤلاء على سبيل المثال، السيدة كاثرين كارسويل، صديقه عمر لورنس، التى أوجزت حياة هذا الرجل فى رسالة نشرتها دورية تايم آند تايد Time- and Tide ، ونشرت فى اليوم السادس عشر من شهر مارس من العام ١٩١٩: " طوال مواجهة لورنس للأضرار المبدئية الكبيرة، وطوال ضعف مقاومته للمرض الذى لازمه طوال حياته، وطوال الفقر والفاقة الذى شغل مساحة زمنية تقدر بثلاثة أرباع حياة هذا الرجل، وعلى امتداد العداء الذى ناصبه الكثيرون إياه بعد وفاته، يمكن القول : إن هذا الرجل لم يفعل سوى ذلك الذى كان يريد عمله بحق، ويمكن، فى هذا الصدد، القول : إنه أنجز القسم الأكبر من كل ذلك الذى كان يود عمله. لقد جاب لورنس العالم كله، وكان صاحب مزرعة، وعاش فى أجمل أحياء أوروبا، والتقى كل أولئك الذين أراد لقاءهم، وأبلغهم، بل وقال لهم وجهاً لوجه : إنهم مخطئون وهو على صواب."

وهذا الدوس هكسلى يهب مدافعاً عن الرجل، فى العام ١٩٣٢ الميلادى، فى المقدمة الساخنة التى قدم بها مجموعة من رسائل لورنس؛ وهذا أيضاً ف. ر. ليفس، ناقد كمبردج الأدبى يؤكد على أهمية إسهام لورنس فى الموروث القصصى الإنجليزى، كما أكد أيضاً على ذيوع صيت الرجل على المستوى الشعبى.

لم يقتصر الدفاع عن لورنس على الرجال فقط؛ إذ قامت بعض الناقدات، وبخاصة كان ميليت بالهجوم على الرجل، وراحت تسائله عن تناوله لموضوع الجنس، مما أدى إلى تخريب سمعة الرجل فى بعض المناطق. وهنا هبت نورمان ميلر للدفاع عن الرجل فى الكتاب الذى صدر بعنوان "سجين الجنس" الذى نشر فى العام ١٩٧١ الميلادى.

ولم يغب عن أذهان أولئك المؤيدين والمعارضين أن لورنس كان متعدد المواهب؛ إذ كان كاتباً روائياً، وكاتب قصة قصيرة، وشاعراً، وناقداً أدبياً، وصاحب فلسفة شخصية، ورساماً. ففى مجال الرواية كتب الرجل ما يزيد على ثلاث عشرة رواية، وفى مجال القصة القصيرة كتب ما يزيد على إحدى عشرة قصة، وكتب حوالى أربع عشرة قصيدة، وكتب أيضاً حوالى عشر مسرحيات، وفى مجال النثر كتب ما يزيد على اثنى عشر مقالاً، وألف أيضاً أربعة كتب فى مجال كتب الأسفار، وترجم أيضاً أكثر من ستة أعمال كبيرة عن لغات غير الإنجليزية، ورسم أيضاً حوالى ثلاث لوحات رائعة.

بقى أن أقول : إن المترجمة الأستاذة إبتسام عبد الله بذلت جهداً محموداً، لكنها فى ترجمتها نقلت البنية الإنجليزية إلى البنية العربية للترجمة ويكفى أن أورد هنا مثالاً واحداً : على صفحة ٤٣٥ من الترجمة العربية وردت الجملة التالية " فى أدا استرا، كتب لورنس شيئًا واحداً فقط وهو نقده لكتاب هراء الفن، لأيريك جيل. وبناء على فريدا" : كان يمكن أن تكون الجملة على هذا النحو "كتب لورنس، فى آد أسترا، شيئًا واحداً فقط، وهو نقده لكتاب إريك جيل المعنون "هراء الفن". ونقلاً عن فريدا:" وبذلك تكون قد حققت القاعدة التى تقول : إن الجار والمجرور يكون متعلقًا بالفعل." كما أن نقلاً عن" هى الأدق لأن الفقرة التالية لها عبارة عن اقتباس مباشر من كلام فريدا، يضاف إلى ذلك أنها واجهت بعض المصاعب التى انعكست على ترجمتها للعبارات الاسمية **Noun phrases** والعبارات الظرفية **Adverbial phrases** وكيفية التغلب عليها، على النحو الذى يضفى على الترجمة الطابع العربى السليم.

سقطت أجزاء كثيرة من النص الإنجليزى المصور ولا وجود لها فى النص العربى، وقد قمنا بترجمة تلك الأجزاء فى أماكنها؛ كما غاب عن المترجمة أن عنوان الكتاب حياة د. هـ. لورنس ولم تنتبه إلى "سيرة مصوَّرة"، ولذلك قمنا بترجمة التعليقات الخاصة بالصور، وتحديد مواقعها فى متن الكتاب. فى ثبت مراجع الكتاب. وقد أوردت المترجمة بعض المراجع، لكن الطبعة التى أرسلها المؤلف للمركز والتى تمت المراجعة بناء عليها، أسقطت عدداً كبيراً من قائمة المراجع التى ترجمتها المترجمة، من منطلق عدم الوثوق بها، وأضاف المؤلف بعضاً آخر من المراجع، وقد ترتب على ذلك إحداث تغييرات كثيرة فى مراجع الكتاب المشار إليها فى المتن. وهذا كله لا ينقص أو يقلل من قيمة الجهد الذى بذلته الأستاذة إبتسام فى ترجمة الكتاب.



الصورة من الصور التى تعبر عن الصَّلْب . المسيح الأصفر الشاحب معلق على الصليب ، على خلفية من غروب الشمس برتقالى اللون. وبهذا القدر من القوة قبل الوفاة ، راح يحملق فى رؤية الشكل الذى أمامه - عيناه تتراءيان ، شكله متوتر ويقظ . من أمامه مفرشخ على صخرة، وشبه عجيب ونصف مبتسم ، شكل (الإله) بان، ممسكا بعنقود من عنب للمسيح الذى يحتضر : شكل ذهبى داكن يميل إلى الاحمرار له قرنان وحوافر . رأسا بان والمسيح كلاهما رأسك، (بريت).

تصدير

السِّيرة أنوع مختلفة. وأنا لا أبغى من هذا الكتاب جمع كل ما هو معروف أو ذلك الذى يمكن اكتشافه عن د. هـ. لورنس؛ لأننا نستطيع تحصيل هذه الأشياء من السيرة الرائعة التى أعدتها جامعة كيمبردج فى ثلاثة مجلدات عن حياة هذا الرجل؛ ولا أبغى أيضًا من وراء هذا الكتاب ربط حياة هذا الرجل بأية تفصيلة من التفاصيل، نظرًا لأنى أنهيت ذلك كله فى كتاب آخر عنوانه "د. هـ. لورنس: حياة فى فن"؛ ولا أنوى أيضًا من وراء هذا الكتاب التصغير من شأن لورنس أو الدفاع عنه؛ ولا حتى تقديم رواية شخصيه عن معنى لورنس عندى.

تحدث لورنس عن "ذلك الجزء من الفن الرفيع، المتمثل فى حياة الإنسان" وأنا بدورى تعرفت بطريقة متدرجة عن أن حياة لورنس الخاصة كانت لها سمات كثيرة من سمات العمل الفنى. لا لأنه قصد عن عمد جعل حياته على هذا النحو؛ ولكن لأن لورنس أخذ الحياة مأخذ الجد، وواجه تحدياتها بشجاعة، وضحى بأمنه وطمأنينته بحثًا عن شيء ذى قيمة أكبر، بحثًا عن حياة كاملة متعمقة فى الدين هنا على سطح الأرض، ومن هنا اكتسبت قصته بطريقة تلقائية شكل وديناميات السواد الأعظم من الأعمال الفنية العريقة والشائعة، ألا وهى الحكى أو السرد الاستشرافى .

البطل المستشرف فى هذا الكتاب ليس قديسًا، بطبيعة الحال. وهو يتعلم عن طريقه الإحباط وخيبه الأمل، ومن أخطائه التى يجعل الكثير منها فى أخطاء الجنس البشرى (أو بالأحرى النصف الذكورى من هذا العرق). هذا يعنى أن البطل محبوس دومًا فى معركة مستمرة مع "المجتمع"، مع الأنثى بكل أشكالها، ومع ذاته هو شخصيًا. هذا التعلم، "أو التدرج" كما يسميه لورنس، لا يمكن أن يتحقق بدون أخطاء، أو فشل، أى المعركة التى يستحيل كسبها أو الانتصار فيها مطلقًا.

لقد حاولت تحاشى إغراء فرض هذا الشكل على الحياة من خلال إقحام عبارات لا وجود لها فى النص الأصلى، أو التأويل، مستهدفًا بذلك السماح للقصة أن تروى نفسها بنفسها، من خلال كلام لورنس نفسه، وكلام أقرب المقربين إليه، حتى يمكن أن تكون مباشرة وأصيلة عند قياسها على اللقطات الفوتوغرافية المرافقة.

كما انتهزت فرصة الطبعة الثانية هذه فى تصحيح بعض الأخطاء القليلة، وبعض المحذوفات، كما أضفت أيضًا قليلاً من المادة الجديدة، مع بضع صور قليلة. وبذلك أصبح فى الكتاب قدر كبير من الصور الملونة.

كيث ساغار ، كليثرو، ٢٠٠٣ .

شكر وتقدير

أنتهز الفرصة هنا وأعبر عن خالص شكرى وامتناني للسير السابقة التى كتبها أصحابها عن ديفيد هربرت لورنس، وبخاصة الرواد أمثال هارى ت. مور وإدوارد نيهلز؛ وأخص بالشكر ساكى كارافاس على ضيافته التى لا تعرف حدوداً، وسماحه لى بتصوير الصور التى رسمها؛ وأشكر أيضًا مارجريت نيضام، وجوان كنج، وبوب فورستر وكذلك جورج لازاروس على استضافتهم لى وتمكينى من الاطلاع على مجموعات الصور التى لديهم؛ وأشكر أيضًا لين فاسى وكل العاملين فى مركز الدراسات الإنسانية التابع لجامعة تكساس، الذين كانوا يتحملوننى يوميًا على امتداد حوالى ثلاثة أشهر فى العام ١٩٧٧؛ وأشكر أيضًا جيمس ت. بولتون من جامعة برمنجهام الذى قام بالرد على كثير من تساؤلاتى ردوداً كاملة وعاجلة؛ وشكرى أيضًا جزيل للسيدة ولشى من جامعة توكسا؛ وأشكر أيضًا جون مانشستر لسماحه لى بعمل نسخ من الرسوم والصور التى التقطتها المكرمة دوروثى بريت؛ وأخص بالشكر أيضًا جون هارفى لسماحه لى بتصوير الرسوم التى رسمها كل من لورنس وبريت؛ وأشكر أيضًا ويتر بينر، كما أشكر أفراداً آخرين كثيرين هم المؤسسات المندرجة تحت اسم "مصادر الصور"، والذين زودونى أو سمحوا لى بتصوير هذه الصور. كما أشكر أيضًا شركة لورنس بولينجر المحدودة، كما أشكر أيضًا ورثة المرحومة فريدا لورنس على سماحهم لى بالاقتباس عن بول موريل، العديد من خطابات لورنس غير المنشورة، وعن الرسالة غير المنشورة التى أرسلتها فريدا لورنس إلى أى.م. فورستر؛ وأعرب عن شكرى أيضًا لدار نشر لورنس بولنجر المحدودة، كما أشكر بصفة خاصة ورثة المرحومة فريدا لورنس، ويجب التنويه هنا أيضًا بمؤسسة فايكنج بوكس المحدودة على سماحها لى باقتباس الكثير من أعمال لورنس المنشورة؛ وأشكر أيضًا مطبعة جامعة كيمبردج على سماحها لى بالاقتباس عن كتاب رسائل د. هـ. لورنس؛ وأشكر أيضًا مطبعة جامعة وسكنسون على سماحها لى بالاقتباس عن كتاب "د. هـ. لورنس: سيرة مركبة" لمؤلفه إداورد نيهلز.

كيث ساغار ، مانشستر، ١٩٧٩ .

الطبعة الثانية :

يتعين علىَّ هنا أن أضيف إلى قائمة كتاب السيرة أسماء جون ورذن، ومارك لينكيد - ويكس، وديفيد إليس، مؤلفو مجلد السيرة الصادر عن مطبعة جامعة كيمبردج، لمساعدتهم جميعًا لى فى الحصول على صور جديدة لهذه الطبعة.

كيث ساغار ، كليزرو، ٢٠٠٣ .

"..تلك القطعة من الفن الرفيع، حياة رجل"

(١)

بيرت الصغير

فونيكس ص١٣٥ : تقع إستوود على حدود نوتنغهام شاير- ديربى شاير، على بعد تسعة أميال شمال غرب نوتنغهام، مطلّة على وادى إريووش. وعلى الرغم من شدة انحدارها وغاباتها فقد كانت منطقة ريفية جميلة ، حيث تقع على مسافة قليلة منها وفى اتجاه الشمال بعضٌ من أجمل المشاهد الطبيعية فى العالم.

فونيكس ص١٣٣ : وتجثم إستوود على مستودع غنى بالفحم والحديد. وتنساب قناة إريووش فى نهر ترينت ومن ثم إلى البحر، وفى عهد لورنس، كان خط سكة الحديد الوحيد ما بين لندن ولانكشاير، يمر عبر الوادى. حيث كان عدد سكان إستوود، فى زمن ولادة لورنس، حوالى ٣٠٠٠ نسمة، وقد تضاعف هذا الرقم إبان حياة لورنس ثم تضاعف ثانية منذ ذلك الحين. وكانت المسافة بين المدينة والريف قريبة جداً حيث كان على والد لورنس - وهو فى الطريق إلى عمله، فى مقلع برينسلى، للفحم الحجرى - أن يبدأ رحلته فجراً عبر الحقول فى كونى غرى، يبحث عن الفطر بين الحشائش الطويلة، أو ربما يصادف أرنبًا متواريًا؛ فيجلبه للبيت مساء، حاملاً إياه داخل بطانة سترة العمل".

أما موطن لورنس فلا يزال محلا لتناقضات مربكة. فعلى جانب من طريق مور غرين يقع مقلعا إستوود ومور غرين، وعلى الجانب الآخر يقع مستودع مور غرين (الذى أطلق عليه لورنس اسم نيثر مير وويلى ووتر)، ثم أنيسلى وغابات هاى بارك، وبيوفيل برايورى وينبوع روبن هود، وفيلى ميل ومزرعة هاغز (مهجورة حاليًا). فى الصيف، عندما يبلغ المجموع الخَضَرِى النباتى من السمك مبلغا يجعله يحول، دون وصول ضوضاء حركة المرور والآلات، وتحتفظ معه الروائح العطرية بأريجها على الرغم من السخام والكبريت، يصبح السير من إستوود إلى هاغز بمنزلة الانتقال المفاجئ من عالم إلى آخر، من المدينة الحضرية الصناعية القبيحة إلى "إنكلترا الغابرة ذات الغابات والأراضى الزراعية". خارطة موطن لورنس هى أيضًا خارطة نفسية لورنس؛ لأن ذلك الصدع قد شطره إلى نصفين، ممتداً عبره، ثم قتله إلى حدّ ما. ذلك أن نصفه اقتلعه من مكانه ببساطة ودفعه إلى الهرب عائداً إلى الطبيعة، إلى بلدان أخرى، لم تصبح بعد صناعية، وإلى ثقافات تحتفظ بأصولها، حيث طريقة حياة وروعة لا تزال ممكنة التحقيق. بينما النصف الثانى منه أكد على إقراره بإنكليزيته وطبقته ووعيه المتطور إلى حد كبير، وتعهده بالمبادرة إلى الكفاح حيث تكون المشاكل أكثر حدة، ليس الكفاح ضد الآلة التى يجب أن تبجّل لما حققته، حتى الآن، من إبعاد الرجال عن الواجبات الميكانيكية ودفعهم تجاه خيار الوجود والإبداع، ولكن ضد كافة تلك القوى التى تمنع الرجال من تكريس أنفسهم لمواجهة خيار التحدى ذلك:

فونيكس ص١٣٧ : "الأولاد الذين التحقت معهم بالمدرسة، هم عمال مناجم اليوم، وهم جميعًا مسحوقون ، ماذا عن ضجيج وجلبة المدارس الداخلية، الكتب، دور السينما، رجال الدين، الوعى الوطنى والإنسانى بأكمله، الذى يدق باستمرار على حقيقة كون الرخاء المادى فوق كل شىء ".



خزان مورغرين

غادر لورنس إنكلترا عام ١٩١٢، وفى زيارته الأخيرة لإستوود عام ١٩٢٦، سجل مشاعره الممزقة:

فونيكس (٢) ص٢٥٧ : "يحزننى دومًا العودة إلى المنطقة التى ولدت فيها. أصبحت الآن فى الأربعين، وكنت بمعنى من المعانى، جوّالاً حوالى عشرين عامًا، ربما أحس أنى أكثر غربة فى مسقط رأسى عنى فى أى مكان آخر فى العالم... المكان مبنى بأكمله. لست متأكدًا تمامًا أين أنا فى شارع نوتنغهام. ومع أن شارع ووكر لم يتغير كثيرًا، إذ إن شجرة السدر كانت قد قطعت، وأنا فى السادسة عشرة، عندما كنت مريضًا. لم تزل المنازل على جانب واحد من الشارع، والحقول على الجانب الآخر. ولا يزال المرء ينظر عبرها نحو الأرض المنبسطة التى تكتنفها الكثبان التى لا أزال أجدها جميلة، على الرغم من وجود رقع من مساحات صغيرة لمنازل حمراء ودخان أسود. ولما تزل كريك عند خط السماء غربًا، وغابات أنيسلى شمالاً، ولما تزل مزرعة كونى غرى تقبع فى المقدمة. ولا يزال للريف سحره الخاص.

فونيكس (٢) ص٥٩٧ : وسيجد الأمر أشد صعوبة فى التعرف على المكان. لقد اختفت الميادين، و "الكونكو"- الأبرشية المستقلة – حيث تعلم بيرت الصغير "التراتيل المبتذلة إلى حد ما وغير الملتزمة بأعراف الكنيسة الإنجليزية، والتى تسللت عبر الأشياء وعبر طفولتى"- والمدرسة البريطانية فى شارع ألبرت حيث أمضى مدة تدريبه كمعلم؛ مشهد البريج (يدعى الآن شارع غاردن) غير واضح بسبب المنازل الجديدة شبه المنفصلة بعضها عن بعض.



طريق نونتغهام ، إيستوود ، فى العام ١٩٠٠ ، يواجه الناحية الغربية "ويمتد طريق نونتغهام بطول قمة التل ، بدكاكينه غير المتجانسة التى تنتمى إلى منتصف العهد الفيكتورى" شارع فيكتوريا على اليمين ، وهو الشارع الذى ولد فيه لورنس .



طريق نونتغهام ، فى العام ١٩١٣ ، من ناحية الشرق ، وفيه أول ترام من نونتغهام إلى رابيلى . شارع فيكتوريا على اليسار . وخلف الترام توجد الكنيسة الأبرشية .

فونيكس ص ١٣٤، ١٣٨-٩ : أفضل ما يمكن أن يقال عن المبانى الجديدة هو كونها أقل قذارة من القديمة. إستوود لا تزال بعيدة كل البعد عن التشابه مع "المدن الإيطالية البديعة الواقعة على التلال"، و كان بمقدورها أن تكون كذلك "إن كان لها ذلك الموقع الجميل لاستغلاله". لم يكن لورنس يبكى من أجل ماضٍ ذهبى ليس فيه غير قرى ريفية. فقد شاهد فى إيطاليا وحتى فى أميركا، أن "المدينة الكبيرة تعنى الجمال والوقار وأبهة معينة" ولكنه لم ير فى إستوود غير الغدر بعنصرين أساسيين من الغرائز الإنسانية، غريزة الميل إلى الجمال وغريزة الميل إلى التجمع".

والأكثر أهمية من مشاعره تجاه المكان، كان إحساسه تجاه الرجال:

فـــونيكس (٢) ص٢٦٤ : "أحس أنى لا أكاد أعرف شيئًا عن الناس الذين أنتمى إليهم. عمال مناجم مقاطعة وادى إريووش. لقد تغيروا، وأعتقد أنى قد تغيرت. أجد أيضًا أن العيش فى إيطاليا أسهل من هنا. لقد تكون لديهم نوع جديد من الوعى السطحى، كله من الصحف والسينما، التى لا صلة لى بها. وفى الوقت نفسه، أعتقد أنهم يعانون من وجع داخلى يماثل وجعى. لابد أن الأمر كذلك، لأننى عندما أراهم، أحس به بشدة.

فـــــونيكس : إنهم الناس الوحيدون الذين يؤثرون فى بشدة، وهم الذين أحس أنى مرتبط معهم بمصير أعمق لأنهم يسكنونَ إلىّ بطريقة غريبة. وأنا أبتعد عنهم وأحن إليهم حنينًا مبرحًا .

والآن، فى هذه المرة الأخيرة، أحس بقدر مشؤوم يتعلق بالبلد، وظل من اليأس يحوم حول قلوب الرجال، يسلبنى الراحة، ذلك أن القدر نفسه يخصنى أيضًا، أينما أذهب، واليأس نفسه يلامس قلبى".

* * *

كان والد لورنس، آرثر جون، قد ولد فى برينسلى عام ١٨٤٦، الثالث من ستة أبناء لجون لورنس من نوتنغهام، الذى تمرس على مهنة الخياطة هناك، تزوج سارة بارسونز، ابنة صاحب معمل للمخرّمات(*)، وجاء إلى برينسلى كى يعمل خياطًا للشركة فى منجم برينسلى. هذا ما تذكره لورنس:




صورة عامل فى منجم فحم فى منجم برينسلى التقطها السيد / ف . و . كوب فى مطلع هذا القرن .

(*) المخرمات " الدنتلة (المراجع) .

فونيكس ص١٣٣ : "اللفائف الضخمة من قماش الفانيلة الخشن، وملابس المنجم، التى كانت تقف فى زاوية من مخزن جدى عندما كنت صغيراً، وماكينة الخياطة الكبيرة، القديمة والغريبة التى يبدو أنه ليس لها مثيل على الأرض، والتى كانت تخيط كميات كبيرة من سراويل المناجم".

كان جون لورنس رجلاً ضخمًا، معروفًا بموهبته الفذة فى الملاكمة والتجديف. وقد ورث آرثر، ابنه الأكبر، بعض سمات والده الجسمانية، رغم أن شهرته كانت، على نطاق محلى، فى الرقص والغناء والميل إلى الدعابة. بدأ آرثر العمل فى منجم برينسلى وهو فى السابعة من العمر. وفى عام ١٨٧٤، عندما أصبح فى الثامنة والعشرين، ذهب إلى كليفتون للمساعدة فى حفر منجم جديد، وهناك دُعى لحضور حفل عيد الميلاد فى منزل عمته أليس. كانت أليس بارسونز متزوجة من جون نيوتن الذى كان قد دعا لحضور الحفل ابنة أخيه ليديا بيردسول. كانت ليديا فى الثانية والعشرين، وكان ذلك هو لقاء هما الأول. تزوجا بعد عام.

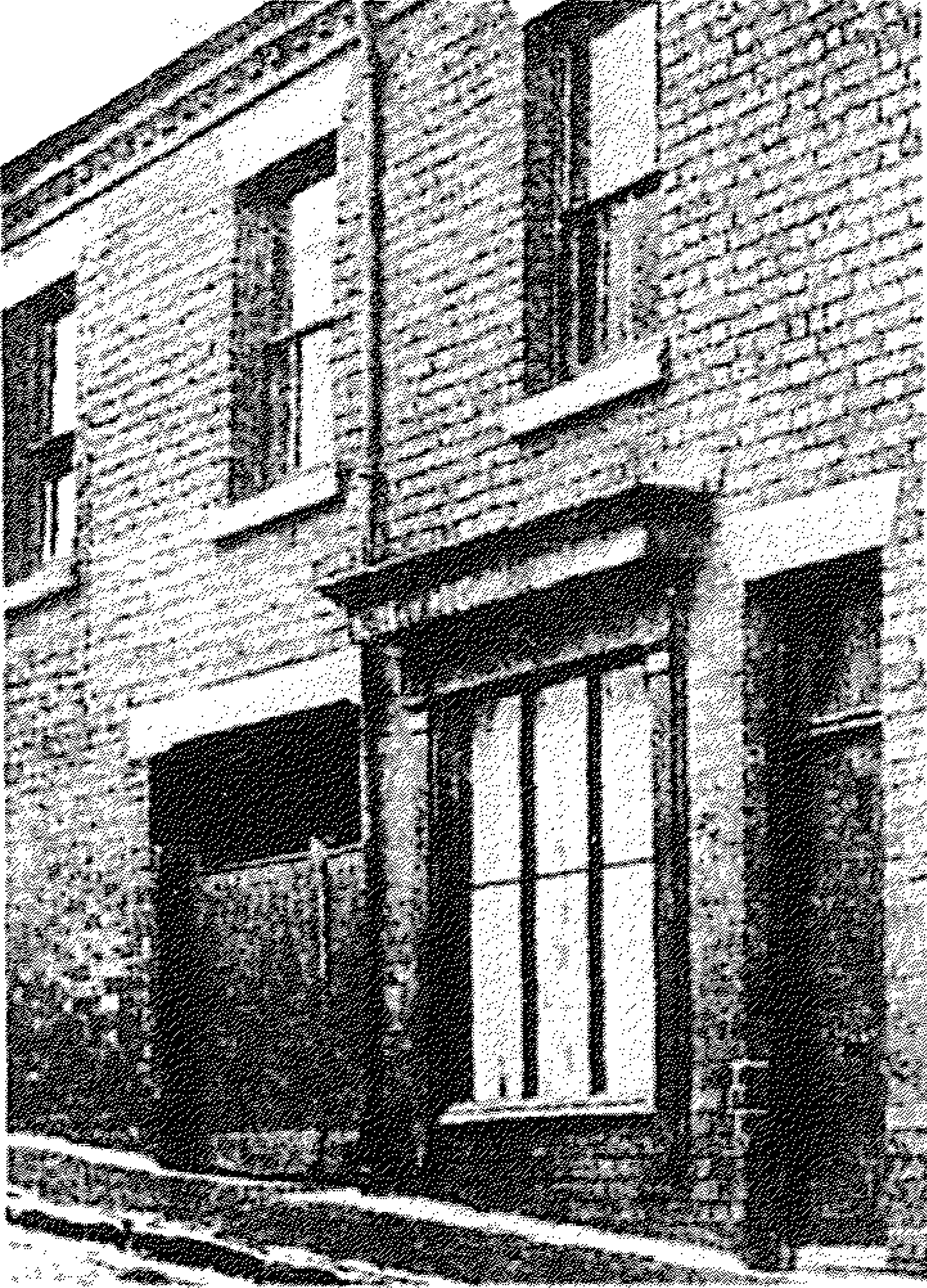


آرثر جون لورنس – "كان حسن البنية ، منتصب القامة ، شديد الأناقة ، كان أسود الشعر ، ولحية سوداء تنبض بالحيوية لم يحلقها قط . كان خدَّاه متوردين . وكان فمه الأحمر الرطب شيئًا ملحوظًا لأنه كان كثير الضحك ، وكان يضحك من قلبه عن رواية أبناء وعشاق .

كانت ليديا الابنة الثانية من ثمانية أبناء لجورج بيردسول. وكانت عائلته قد كوّنت ثروة ثم خسرتها مع تقلبات صناعة المخرّمات فى نوتنغهام. كان جورج بيردسول مهندسًا عمل معظم حياته فى أحواض السفن فى شيرنيس، وكان أيضًا واعظًا علمانيًا منهجيًا(*). أما جد ليديا من جهة الأم جون نيوتن، فكان يعمل فى صناعة المخرّمات، وكان إلى جانب ذلك مؤلفًا لعدد من التراتيل الويزليانية(**) التى ستعنى الكثير، لاحقًا بالنسبة لحفيده، وكان أيضًا رفيقًا لويليم بوث فى تشكيل جيش الخلاص(***).

كانت ليديا نبيلة المشاعر، تقية ورعة، عملت فى التدريس وكتبت الشعر. لقد كرهت القذارة والمسكرات والفقر. كان الأمر تجاذب نقيضين لا يمكن استمراره. كان آرثر فقيرًا غير قادر على تحمل المسؤولية، ونادرًا ما كان يذهب إلى الكنيسة بعد أن توقف عن مشاركته فى جوقة كنيسة برينسلى. كانت تحب القراءة والمحادثة أكثر من أى شيء آخر، ومع ذلك لم تكن قادرة على التحدث معه. كان بالكاد يعرف الكتابة، ولم تتجاوز قراءاته الصحف اليومية، ويفهم القليل مما يقرأ. "حبيبتى ما معنى هذا أو ذلك"، كان يسأل بلهجته المحلية التى تسقط منها بعض الأحرف، وكانت زوجته تجيب بنفاد صبر. كان عاجزًا عن التعبير عن آرائه، ساكتًا فى الغالب (على الأقل فى المنزل) وعندما يتحدث كان يتلعثم بعض الشيء.

وصف آرثر نفسه لها كمتعهد بناء مناجم، وبدا الأمر لها فخمًا. وكان ذلك هو الاصطلاح الرسمى لما يطلق عليه الرجال سمسار مناجم(****). كان للسماسرة موقف خاص وكانوا المسؤولين عن تأجير الرجال للعمل اليومى، حيث تدفع أجورهم كل يوم جمعة مقابل كمية الفحم التى تم استخراجها فى ذلك الأسبوع، يدفعون منها ما يستوجب حسب الاتفاق للرجال الذين عملوا فى المنجم، ثم يتقاسمون ما تبقى فيما بينهم. كان سمسار المناجم أفضل مكانة بقليل من العامل اليومى، ذا دخل قابل للتقلب بشكل مخيف، وكان أقرب إلى عامل فى نهاية نفق المنجم. فى المرة الأولى التى عاد فيها آرثر من العمل، لم تتعرف عليه ليديا. تصورته زنجيًا. كان يغسل يديه فحسب قبل الطعام، مؤكدًا أنها "قذارة نظيفة". وبعدئذ كان عليها دعك ظهره. اعتقدت أن بالإمكان دفعه إلى الإقلاع عن المسكرات، لكنه لم يستطع المداومة على الأمر طويلاً. ظلت لأعوام ترتعد بعد موعد انتهاء العمل، وتسمع خطى أقدام مجموعة العمال وهى تنحدر من التل، وهم يغنون "قدنا بحنان نورك".



شارع فيكتوريا، إيستوود، محل ميلاد لورنس، بالشكل الذى كان عليه فى العام ١٩٣٠. تحول الآن إلى متحف.

استعادت أدا فى ذهنها:

(*)"منهجيًا Methodist"، أحد أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التى قادها فى أكسفورد عام ١٧٢٩شارلز وجون ويزلى فى محاولتين لإحياء كنيسة إنكلترا. (المترجمة)

(**) نسبة إلى تشارلز أوجون ويزلى قائدى الحركه الميثورية الإصلاحية (المراجع).

(***)"جيش الخلاص Salvalion Army"، منظمة شبه عسكرية لنشر الدين ومساعدة الفقراء أنشأها فى إنكلترا بوث عام ١٨٦٥. (المترجمة)

(****) وسيط أو سمسار يعمل بين ملاك المناجم وعمال المناجم (المراجع).

أدا ص ٢٥ : (كانت أمى تنتظره ليلاً بغيظ محتدم مهتاج، وعند وصوله، كانت تتفجر غضباً بسيل من حقائق لاذعة، تغير مزاجه من سكران بدرجة خفيفة، معتذراً برقة، إلى وحش قاس جلف).

لم تكن ليديا تتوقع الفقر، فسوف يسيء أرثر معاملة مدرائه فى العمل فى الحانة، وسيعود الأمر عليه وبالاً، فقد وجد نفسه عند "سماسرة" مناجم أسوأ وأسوأ. وكان الأطفال قادمين: جورج فى ١٨٧٦، ويليام أرنست ١٨٧٨، إيملى ١٨٨٢. مع ذلك لم يكن ينقصهم شيء، فالسيدة لورنس لم تجلب على نفسها الديون، كما أنها قامت بدفع ما على زوجها. قدمت تضحيات متواصلة من أجل إبعاد أبنائها عن المناجم ووفرت لهم تعليماً جيداً. كان المنزل نظيفًا على الدوام، أفضل إلى حد ما - من منازل الجيران، ذلك أن السيدة لورنس فضلت منزلاً خاليًا من الأثاث على شراء أشياء رديئة أو مبهرجة. لكنها لم تغفر قط لزوجها إيصالها إلى ذلك المستوى. وبكلمات أدا:

أدا : (لم تفق من صدمة إدراك أن حياتها ستكون واحدة من حيوات مملة رتيبة متواصلة بين القذارة والبشاعة. كانت تهرب إلى نفسها وعندما يعود الأطفال، كانت تعيش وحدها معهم وكان هو الغريب فى المنزل).

نيـــــــهلز : كانت عائلة لورنس تعيش عام ١٨٨٥، فى شارع فيكتوريا، إيست وود. استغلّت السيدة لورنس الغرفة الأمامية بنافذتها العريضة دكانًا لبيع المخرّمات والصدريات والبياضات. كان ويليام إدوارد هوبكن يمر يومًا، ورأى السيدة لورنس وهى تدفع عربة فيها أصغر أطفالها، قالت له: "إنه مثل أرنب هزيل، أخشى أن لا أكون قادرة على رعايته أبدًا". ورعته ليصبح أعظم كتاب عصره.

ولد ديفيد هيربت ريتشارد لورنس فى ١١ أيلول (سبتمبر) ١٨٨٥، وولد للعائلة طفل آخر لاحقًا هى ليتيك أدا فى ١٨٨٧. بعد ذلك بقليل انتقلت العائلة إلى بريك (بريش):

پول مـــــوريل : (كانت بريك (بريش) نفسها مؤلفة من ستة مجمعات سكنية، صفان مع زقاق طويل بينهما، مثل النقاط التى على حجر رقم ٦ للدومينو. كان للصفين مظهر جيد، المنازل الأخيرة ذات جملونات عالية، وكانت للعلّيات نوافذ ناتئة من السقوف المائلة. لم يكن هناك أى شيء وضيع بالنسبة لهذه المساكن: كانت مساكن العاملين فى المنجم. وأمر الانتقال إلى هناك ضايق السيدة موريل. كان الباب الخلفى، فى نهاية الحديقة الخلفية، يطل على حفرة الرماد فى الأسفل. وكان الممشى فى الخارج يمتد بين طريق من حفر الرماد كريهة المنظر. فى هذا الممشى كانت النسوة تتجمع للثرثرة، والأطفال للَّعب ويجلس الرجال خارج أوقات العمل على أعقابهم يدخنون وظهورهم تجاه حفر الرمال).

كان هناك بعض العزاء للسيدة لورنس فى أن تمتلك منزلاً فى نهاية الصف، أكبر قليلاً، وذا حديقة أوسع، مما حتم عليها دفع مبلغ ستة بنسات إضافية أسبوعيًا. كانت محترمة غير محبوبة تمامًا والشخص الوحيد الذى بمقدورها التحدث معه حقًا، كان الكاهن البروتستانتى. لم تكن تحترمه تمامًا. إنه لم يكن حسب تصورها، الشخص الناجح حقًا.



جاء أول لقاء لي بديفد هربرت لورنس ، أو بالأحرى أول مرة رأيته فيها ، في العام ١٨٨٥ عندما كان عمره بضعة أسابيع . في يوم ما كنت أجتاز الأرض الفضاء قاصداً شارع فيكتوريا ، إيستوود ، التقتني السيدة لورنس على الطريق ومعها أصغر أبنائها في عربة أطفال بثلاث عجلات. وقفت ورحت أسأل عن تغذية الطفل . وكشفت وجهه ورأيت عينه صغيرة هشة هزيلة .

(وليام) ادوارد هوبكن)



ليديا لورنس

فنموذج الرجل الذى كانت تعجب به بحق والذى علّمت أولادها التطلع إليه باهتمام كان هنرى ساكتون مالك دكان البقالة المجاور للمنزل فى شارع فيكتوريا. كان رجلاً متنمراً كثير الكلام، ولكنه كان شماس الكنيسة، وناظر مدرسة الأحد(*)، والأهم من ذلك، أنه كان يمتلك مالاً كافياً يسمح له بإهانة زبائنه، وخاصة زوجات عمال مناجم الفحم. كان هو "الشخص الناجح".

فونيكس (٢) ص٥٩٢-٣ : (كانت والدتى كما أعتقد تتمتع بمنزلة رفيعة. قدمت من المدينة منتمية إلى البرجوازية العامة، متحدثة إنكليزية فصحى لا تشوبها لهجة محلية، ولم تستطع قط فى حياتها تقليد جملة من اللهجة التى كان يتحدث بها والدى، تلك التى كنا ونحن أطفال نتحدث بها خارج الدار. كانت تكتب بخط جميل مائل، رسالة جيدة وممتعة إن أحست برغبة لذلك. ومع تقدمها فى السن أخذت تقرأ الروايات ثانية، وضاقت ذرعا برواية ديانا مفترق الطرق، وانفعلت انفعالا مخيفا برواية إيست لين.

لكنها كانت زوجة رجل عامل، ولا شيء أكثر، بقبعتها الصغيرة البالية السوداء ووجهها الماكر المشرق، "المختلف").

أخفت السيدة استياءها عن زوجها. فقد كان يحب العمل وتصليح الحاجيات المنزلية، يرقّع الأحذية ويلحمها، يعمل فتائل المفرقعات للمنجم، ويغنى الأغانى الشعبية القديمة عن الخياطين والغجر. كان "يمتلك حيوية غير مكبوحة، وحضوراً خاصاً أضفى على المنزل توهجاً، وذلك عندما لا يكون فى حالة مزاجية سيئة.

(*) مدرسة الأحد: مدرسة للتعليم الدينى تفتح أبوابها أيام الأحد (الترجمة)



كان يحكى للأطفال قصصًا عن المنجم، عن تافى الحصان الذى يسرق التبغ من جيبه، وعن فأرة تركض على أكمامه، قصص سردت بشكل رائع ومثير إلى حد أنها ستبقى فى ذاكرة الصغار، فترة أطول من بقاء حكايات هانز كريستيان أندرسن، التى قصّتها والدتهم عليهم. كان الأسعد حالاً وهو يقلى شريحة لحم مملحة من لحم الخنزير أو سمكة رنجة لإفطاره فى الساعة التى تسبق الفجر، عندما يكون الآخرون نيامًا. كان الامتعاض يساور زوجته تجاه إحساسه بالسعادة وحبه تجاه أولاده، محاولة جعلهم يقفون ضده. وبكلمات أدا:

أدا : (مع تقدمنا فى العمر، أخذنا بعزلة أكثر فأكثر عن حياتنا، متوجهين غريزيًا نحو والدتنا، وهو يشعر بذلك، أصبح أكثر اشمئزازًا فى عاداته. إنه لم يكن على الإطلاق غير محتمل، ولو كنا بدلاً من طلب المستحيل منه قد حاولنا تسلية أنفسنا بالأمور التى كان يهتم بها حقًا، لكنّا تخلصنا من مشاهد كثيرة حزينة ودنيئة).

ظل بيرت يصلى لأعوام من أجل أن يتحول والده إلى رجل دين أو أن يموت. كان ذلك أفضل دعاء يعتقد أنه فى صالح والدته. وعندما أصبح فى الرابعة عشرة، رأى والده يعود إلى الدار من دار الشفاء التى مكث فيها إثر تحطم ساقه فى حادث منجم، ورأى أن والدته للمرة الأولى تحب والده مثل أى فتاة، وكان عليها مقاومة حبها له باستمرار، وبشكل دفاعى كانت تقريبًا تزدرى أولادها لأنهم كانوا أولاده أيضًا، وبالتالى أقل شأنًا منها شخصيًا. وقد قيل: إن بيرت كان يمتدح والده لشيء واحد وهو إجادته الرقص، ومع ذلك كان كلما وجد فطرًا بريًا، بادر إلى حشو جيوبه به من أجل شاى والده مدركًا كم كان يحبه. بيرت ووالده كانا معًا يهتمان بالحياة البريّة. ولهما معرفة جيدة بها. وعلى الرغم من ذلك، كان ذلك اهتمامًا نادرًا ما اشتركا فيه. كان بيرت أحيانًا يجلب إلى البيت حيوانات برية صغيرة، والتى عادة تعاند وتهزل رافضة الحياة مسببة عواصف من الدموع. أدولف أرنب برى، نما بقوة مسببًا مشكلة أكبر. وكانت هناك مشكلة الفئران البيض التى كان آرثر قد شيد لها زريبة صغيرة، ومشكلة أكبر بالنسبة لـ ريكس، كلب خالهم الصغير الذى احتفظ به الأطفال مدة من الزمن. كانت السيدة لورنس تعتقد أنه، متى كان الأمر متعلقًا بالحيوانات فإنها كانت بأجمعها مجنونة.

كان بيرت ولداً رقيقاً، شاحب الوجه، يتدخل فيما لا يعنيه، ضئيلاً. وفى مدرسته بيوفيل، كان طالباً مجتهداً، ولكن حساساً إلى الحد الذى لم يتح له الاختلاط مع الآخرين بشكل جيد. كان صغيراً وهزيلاً وخجولاً ومتكبراً. فهو لم يشارك فى الألعاب الخشنة المتسمة بالقسوة السائدة فى الساحة، مفضلاً ملازمة الفتيات. أطلق عليه أبناء بريك (بريش) مستهزئين اسم "مارديراس"، وأنشدوا من خلفه، "دِكى .. دِكى.. دينجيز، يلعب مع الفتيات".

كان لورنس فى السادسة من عمره عندما انتقلت عائلته إلى منزل فى أعلى الهضبة (وأعلى مرتبة اجتماعية)، فى شارع ووكر رقم ٣ (تغير اليوم إلى ٨) وأذكى الأمر سلسلة متواصلة من الصور التى لم ينسها لورنس قط. فى ١٩٢٦، كتب إلى رولف غاردنر:

مـــــــور : (اذهب إلى شارع ووكر، وتوقف أمام المنزل الثالث – وتطلع إلى كريج، على اليسار، غابة فى الأسفل – غابات هاى بارك وآنيسلى على اليمين. عشت فى ذلك المنزل من السادسة إلى الثامنة عشرة من عمرى، وأعرف ذلك المشهد أكثر من معرفتى لأى مشهد فى العالم).

فى مقابل ذلك المنزل تماماً، تقف شجرة سدر عتيقة، أصبحت مركزاً للعب الأولاد، على الرغم من أن عويلها كان يخيفهم فى ليالى الشتاء وكان على لورنس أن ينظر إلى تلك الشجرة باعتبارها صورة ذهنية للنزاع الدائر داخل المنزل.



البرك (البريس)، ومن خلفها منجم فحم برينسلى بدأ من وصلة شارع ووكر وحقل لين. كان منزل لورنس عند نهاية الطرف الأيسر من المجمع السكنى الموجود على الجانب الأيمن.



فصل لورنس الدراسى فى مدرسة بنين بوفال ، فى العام ١٩٨٤ . لورنس فى الصف الثالث عداً من الخلف . أمام لورنس مباشرة يوجد صديقه جورج هنرى نيفل.

اعتياديًا لم يكن صخب الوالد وتبجحاته الجسدية مساوية لتوبيخات الوالدة. كان يصيح أحيانًا، "سأجعلك ترتعدين لصوت خطواتي". وتجيب هي، "وأى حذاء سترتدى؟".

ويكون رده: "لا يهم أى حذاء سأرتدى"، وهكذا جعلته مُسْخة بعد أن سحبت الريح من تحت أشرعته. وسرعان ما تعلم بيرت الصغير كيف يستخدم لسانه من أجل الدفاع عن نفسه تجاه الأولاد الأقوى بنية جسدية منه.

ربما كانت مابل ثيردلى أول حبيبة للورنس فى طفولته، على الرغم من أنه كان يختفى عندما يروح الأولاد الآخرون يتحرشون بها، كما حذرها قبل الأوان من أن لا تعقد عليه آمالا:

سأكتب عندما أكبر شعرا مثل الشعر الذى تقرؤه علينا الآنسة ماما ثيوز، سوف أتزوج سيدة جميلة، لا تشبهك. وسنضع شريطا أزرق فى شعرها وليس شريطا من الصوف. سوف أكسب مالا كثيرا وأشترى لأمى قبعة جميلة وسيكون لها حديقة عامرة بالورود. سألته مابل: "ما الذى ستشتريه لوالدك؟" ويجيبها بيرت: "أنا لا أحب سوى أمى" **نيهلز (١) ص٢٩ :**

لم تكن الحياة مضجرة أو كئيبة بالنسبة للأولاد فى العائلة؛ إذ كان هناك باستمرار عدد كاف من الصغار فى المنزل. وعلى الرغم من عدم ميل بيرت للرياضة، فإنه كان يحب الألعاب المنزلية، ممتازًا فيها، مكتشفًا بنفسه ألعابًا جديدة كثيرة، مستمتعًا بكل جوانحه، مهتمًا بفوزه هو أو فريقه فيها. واللعبة المفضلة بالنسبة إليه كانت التمثيلية التحزيرية(*)، حتى وهو راشد. كان هناك بعدئذ الغناء المشترك للقصائد. والدتى أو أدا

(*) charade لعبة قوامها مشهد تمثيلى يصور مقاطع كلمة معينة يطلب إلى المشترك فى اللعبة أن يحزّرها.(المترجمة)

فى الأعوام الأخيرة كانت ترافقهم فى العزف على البيانو، وكانوا يغنون جميع القصائد الغنائية التى يتضمنها كتاب أوكسفورد للأغانى. وعندما تكون الأم فى الخارج كانت إيميلى تقرأ للأخوة الأصغر من كتاب جزيرة المرجان أو من كتاب عائلة روبنسون السويسرية أو صيادى الغوريللا.

كان بيرت يقوم غالبًا برفقة شقيقاته برحلات قصيرة إلى الحقول والغابات المجاورة، يجمعون فيها ثمار التوت البرى أو باحثين عن حشيشة السعال من أجل البيرة العشبية التى تصنعها الأم، أو عن نبات الأيلكس ذى الورق الصقيل الشائك من أجل عيد الميلاد (الكريسماس). كان بيرت دائمًا أول من يلاحظ الأشياء قبل أى واحد آخر، مكتشفًا إياها بحماس وإدراك أنه يفعل ذلك من أجل الآخرين.

يوما الجمعة والأحد كانا من الأيام التى تثير المخاوف. ففى يوم الجمعة، كان على بيرت أن يقبض أجرة والده الأسبوعية. كان يعانى من عذاب إخضاع نفسه لسخرية المحاسب الفردبرينتنول:

"هو يا ولد، أين أبوك، سكران، لا يقدر أن يأتى ليأخذ أجرته، هو نفسه؟". ولكن كان هناك عزاء فى المساء، عندما تخرج الأم لتتسوق مشتريات الأسبوع تاركة الصغار وحدهم فى البيت. وفى غيابها كانوا يرتدون ملابسها أو يحاولون إجراء تجارب فى الطبخ أكثر ما كانوا يكرهونه، "اللياقة التافهة الباطلة التى كانت تستولى علينا فى أيام الآحاد، مثل نوع من قيد مدروس مفروض على النفس ذاتيا": ولكن، كانت هناك تراتيل لإنشادها، وقد توهجت مخيلة لورنس بفعل الإنجيل، وكلماته الذهبية الساحرة مثل "جليلى" و "كنعان".

كان عيد الميلاد (الكريسماس) ذروة العام بطبيعة الحال، عندما يقومون بتزيين المنزل بنبات الأيلكس والهدال، وصور الملائكة، والكريات الزجاجية وكل شيء ذى بريق، ثم ينتظرون صبيحة الكريسماس، حيث سيُملأ كل جورب بالدمى والكتب وخنزير من الحلوى وفوق كل ذلك فطيرة المزيج المفروم، استرجعت مابل ثبردلى:

نيــــهلز (١) ص٣١ : كان يجرى فى احتفال الملاكمة كل عام دعوة أطفال عمال المناجم من مناطق بعيدة للحضور إلى لامب كلوس هاوس، منزل مالك المنجم، السيد باربر، وكان كل واحد منهم يحصل على بنس جديد وبرتقالة واحدة كبيرة. لم يتجرأ بيرت فى واحدة من تلك المناسبات على التقدم إلى الأمام، وعليه أخذت هداياى وأعطيته إياها، ثم ذهبت بعد ذلك لتسلُّم هدايـاه.



لامب كلوس هاوس "مقرها الباربر" ورد تحت اسم "هارى كلوس" فى رواية الطاووس الأبيض، وورد تحت اسم "شورتلندس" فى رواية نساء عاشقات

وبينما كنا عائدين إلى منازلنا، وبعد أن عبرنا الغدير القريب من شجر المغث رحنا نلمّع عُمْلتينا على أكمامنا، وغيرنا رأينا مرارا بشأن إنفاق هاتين العملتين المعدنيتين. قرر بيرت إعطاء عملته لأمه، وأن نشترى بعملتى حلوى ونقتسمها سويا.

لم تكن إستوود بعيدة تمامًا عن الخارطة الثقافية. كان لفرقة تيدى راينر شعبية فيها، وهى فرقة كانت تمثل داخل خيمة (كانت تعرف باسم "بلود تاب") وتقدم مسرحيات الميلودراما الفيكتورية الكلاسيكية، بل وحتى مسرحيات شكسبير فى بعض الأحيان:

(عندما كنت صغيراً ذهبت إلى مسرح القرشين الجوّال لمشاهدة هاملت، جلسوا فاغرى أفواههم فى المسرح الذى كان يحمل اسما مستعارا وطشت الدم، وهم يشاهدون الأبطال يموتون يتلوّون ويتصورون ويقفون متأوهن ليقولوا كلمة واحدة، وينهارون ثانية دون أن يقولوها، كان للشبح خوذة ودرع. جلس بيرت الصغير نشوانَ غائبًا عمًّا حوله" أمبلت آمبلت أنا شبح والدك". وجاء صوت من الحضور الصامت المظلم، مثل سكين يشق روحى المولعة: "ولماذا هذه الحلبة، أستطيع أن أتعرف على صوتك".

كان لإستوود حصتها الطيبة من "الشخصيات" المحلية للتحدث عنها. عائلة باربر، أصحاب شركة باربر ووكر المتحدة، وقد شهد ملاّك الفحم فى المنطقة، مأساتين فى مرحلة طفولة لورنس. كانت زوجة توماس باربر قد توفيت وهى فى الخامسة والعشرين، وفى عام ١٨٩٠، أطلق ابنه الأكبر توماس فيليب النار عرضاً وقتل شقيقه الأصغر. وبعد عامين، وفى خلال حفل الماء عند خزان مور غرين (والذى يقام سنوياً فى يوم الاثنين عادة) غرقت ابنته سيسيللا إثر سقوطها من زورق بخارى، وفى صبيحة اليوم التالى وجدت جثتها. كانت ذراعاها ملتفتين حول رقبة الطبيب الشاب بينغهام، الذى كان قد ألقى بنفسه خلفها. بيرت الذى كان آنذاك فى السادسة من عمره، كان موجودا هناك بالتأكيد. وبعد عشرين عاماً، كان عليه وصف ما حدث بأسلوب مفعم بالحيوية فى روايته، "نساء عاشقات". وبعد عام من ذلك الحادث، توفى توماس باربر نفسه وهو فى سن الخمسين وتولى توماس فيليب المسؤولية، وجلب الأجهزة الميكانيكية الحديثة إلى المناجم وأقام نظاماً أكثر فاعلية وأقل إنسانية.

كان والد مابل قد فقد إحدى ذراعيه فى حادث، وأصبح حارسا لمعبر مورغدين، بالقرب من لامب كلوس هاوس. كانت مابل هى وبيرت ينتظران مرور أحد القطارات، عندما جاء توماس فيليب باربر راكبا حصانا وطلب السماح له بالمرور من المزلقان. قال السيد ثيردلى: "هل ستتسبب فى جعل فم الحصان ينزف؟ "ورفض فتح البوابات . استعمل لورنس ذلك الحادث فى روايته نساء عاشقات.

أما الشخصية المحلية الأخرى فكان جورج هنرى كولن، رجل ذو موهبة فى التخطيط لمشاريع مبالغ فيها، محكومة بالفشل - مثل تأسيس دار لندن (دار مانشستر فى رواية الفتاة الضائعة) والتى حاول فيها بيع أزياء راقية جداً أكثر ملاء مة لزبائن محل فى لندن، ومنجم ثروتل هاف بينى بفحمه غير القابل للاتقاد، ودار سينما فى منطقة طاحونة لانجلى، والعديد من المشاريع الحمقاء الأخرى.

* * *



الرائد توماس فيليب باربر الأنموذج الأصيل لجيرالد فى رواية نساء عاشقات



من اليسار إلى اليمين ، الصف الأمامي ليتايس أدا (١٨٨٧ – ١٩٤٨) ليديا (١٨٥١ – ١٩١٠) ديفيد هربرت (١٨٥٥ – ١٩٣٠) ، آرثر جون (١٨٤٦ – ١٩٢٤) ؛ الصف الخلفي : إميلي أونا «باميلا» جورج آرثر (١٨٧٦ – ١٩٦٧) وليام إيرنست (١٨٧٨ – ١٩٠١) .

في صيف عام ١٨٩٧، جرى شحن عائلة لورنس مع عائلة ثورلبى فى عربة مرتدين أجمل ملابسهم التى ترتدى فى أيام الآحاد إلى نوتنغهام كى تلتقط لهم صور فوتوغرافية. ذهب الوالدان، مسبقًا على أقدامهما كى يكون بإمكانهما احتساء بعض الشراب فى الطريق. كان بيرت فى الحادية عشرة آنذاك. فى ذلك الصيف نفسه، كتب قصيدة جميلة لمابل:

نيــــهلز (٢) ص٣٢ :

جلسنا فى سهل جميل

حبيبتى وأنا

أواه.. كم نحن سعداء

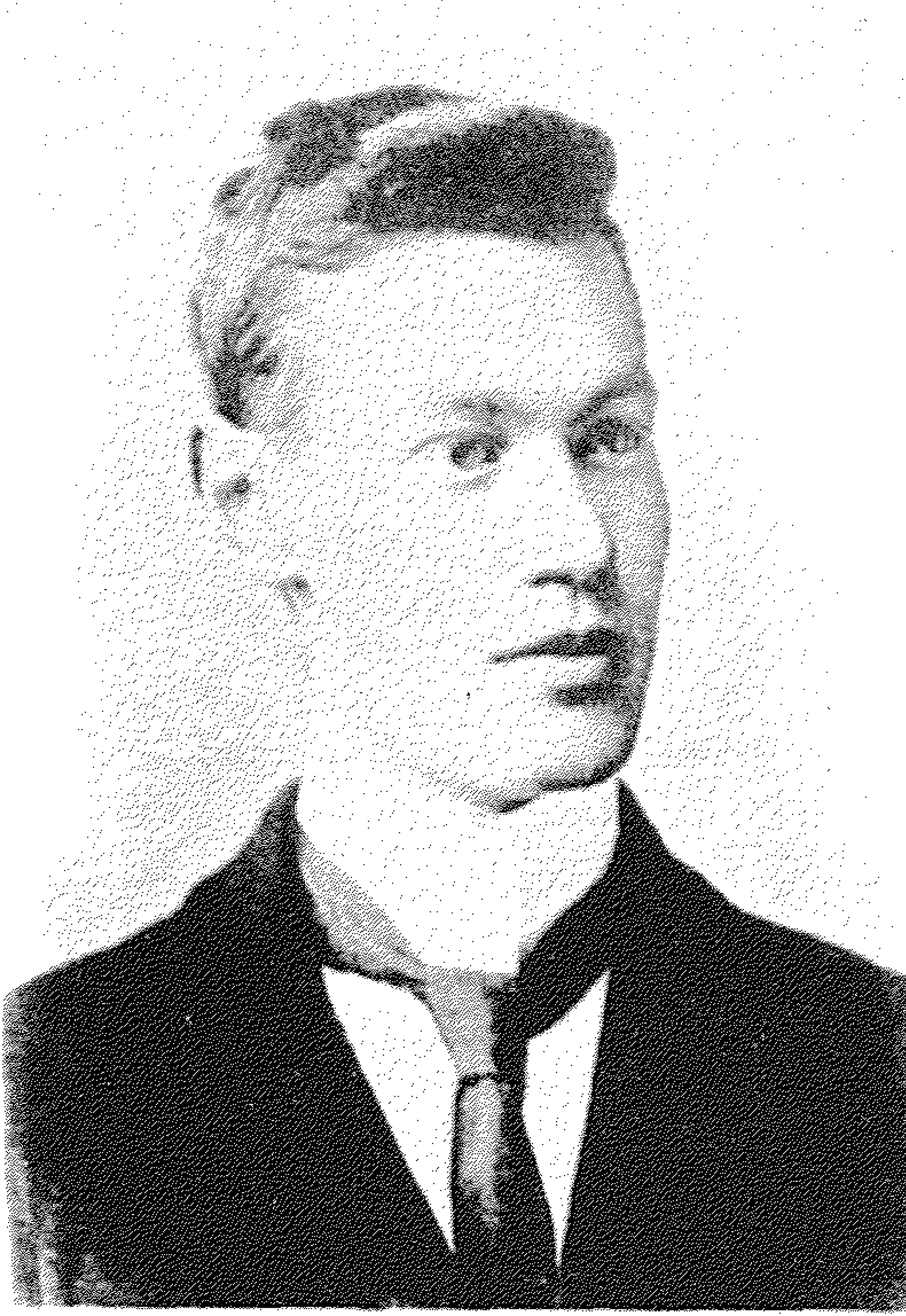
بين الزهور والطيور والنحل.

ربما لم تكن تلك القصيدة تختلف كثيراً عن تلك التى كانت تقرأها عليهم الآنسة ماثيوز.

وعندما بلغ الثانية عشرة، كان أول صبى من مدرسته يفوز بمنحة خصصت حديثًا من مؤسسة مجلس البلدية، والتى تعادل ١٢ جنيهًا إسترلينيًا، فى السنة، ومقعداً فى ثانوية نوتنغهام. المبلغ بالكاد غطى نفقاته، كما عانت صحة لورنس جراء السفر اليومى - ساعتين ذهابًا ومثلهما إيابًا. ومع ذلك، فقد تلقى للسنوات الثلاث اللاحقة تعليمًا ممتازاً هناك. كان غالبية الطلاب ينتمون إلى الطبقة الوسطى - أبناء أصحاب مصانع مخرّمات أو أصحاب بقالة. وكانوا يكنون احترامًا لقلة من أولاد العامة الذين حصلوا على منح دراسية، ويعاملونهم بأسلوب مهذب. ولكن لم تختلط المجموعتان قط. وفى نهاية فصله الدراسى الأول، كان ترتيب لورنس الثانى فى الصف: الأول فى الفرنسية والألمانية والرياضيات، الثانى فى الإنكليزية، الثالث فى الجبر، الرابع فى الكتابة، الحادى عشر فى الكتاب المقدس، الثانى عشر فى الرسم، الرابع والخمسين (من مجموع ثمان وسبعين درجة) فى العلوم، وفى الاجتهاد والتصرف نال درجة "جيد جداً". فى عيد فصح عام ١٩٠٠، كان الأول فى صَفِّه، وفيما بعد فى نهاية العام فاز بجائزة فى الرياضيات. لكن أداءه تراجع، نسبيًا، فى عامه الأخير، بسبب صحته السيئة، وأيضًا بسبب عدم قدرته على التنافس فى تلك المرحلة مع أولاد كان أغلبهم أكبر منه سنًا. ترك لورنس المدرسة فى تموز (يوليو) ١٩٠١.



- وليام إيرنست لورنس ولويزا ليلى ويسترن .



- وليام إيرنست لورنس



وليام إيرنست مع اثنين من أصدقائه فى إستوود، كل ما يفعله الناسُ - الأشياء المهذبة - فعله وليام . كان بوسعه الجرى مثل الريح ... كان يرقص أيضًا - كل ذلك رغما عن أنف أمه - تمتع طوال حياته بكل ما أعطته استوود إياه ، بدءًا من الحجل الذى يكلف ست بنسات على امتداد شارع الكنيسة ، إلى الألعاب الرياضية والبلياردو . (عن رواية أبناء وعشاق)

(٢)

حبيب والدته

كان لبيرت علاقة صداقة حميمة مع شقيقه الأكبر إيرنست، الذى تلقى منه عندما بلغ الثانية عشرة هذه الرسالة.

عزيزى ويليام هوايتيون

"يا أيها الوغد ذو الرأس البيضاء. لو أن شقيقك الأكثر نبالة قد عاش كل هذه الأعوام المتعبة لمجرد أن يسمّى فى النهاية "الرأس الحمراء"، من أجل هذا هل ستكون عقوبتى لك خفيفة وأكيدة؟ ولهذا أنا أعرف بأنى عندما سأصل إلى البيت سأحمل فى حقيبة يدوية تابوتًا جميلاً من خشب الماهوجنى، وسيشارك أهلنا جميعًا فى رحلة مجانية إلى المقبرة. ولكن لى انتقامًا أفضل. عليك أن تعرف أننى عندما أعود إلى بيتى البعيد، وعلى الرغم من أنك ستظل تسألنى وتسألنى، طوال الوقت الذى سأمضيه هناك، فإننى لن أخبرك بشيء عن أى حيوان فى حديقة الحيوانات لا، لم أذهب إليها، ولكنى لو ذهبت مليون مرة، فلن أتحدث بشيء، ستكون زياراتى تلك مثل كتاب مختوم".

كان إيرنست مفخرة لوالدته ومركز سعادتها، محبوبًا، ذكيًا، ذا دعابة، وسيمًا، رياضيًا. وهو لم يتسلق سياجًا أو يفتح بوابة، مادام قادرًا على القفز من فوقها. وقد انتهى مستقبله الواعد فى مكتب لندن للسفن، وهو فى الثالثة والعشرين، عندما قام بزيارة قصيرة خاطفة للبيت؛ لحضور مهرجان الأوز فى الوقت الذى كان يعانى من التهاب جلدى (الحمرة)، كما التقط عدوى ذات الرئة وهو فى طريق عودته إلى لندن، ثم توفى بعد ساعات من وصول والدته إليه. كان قد هزل نتيجة العمل المرهق، وقد يكون هناك عامل آخر وهو ذلك الصدع فى داخله والذى نتج من رفض والدته لخطيبته التى رأتها وبحق، فتاة تافهة تصلح فقط لقضاء وقت طيب معها. كانت والدته قد دفعته نحو ذلك النموذج المستقل المشوش المربك للنجاح الدنيوى القويم، والذى يعبر عن نفسه بعبارات مثل: "الاستفادة القصوى من نفسك"، "أن تترك أثرك فى الحياة". وقد أجهد إيرنست نفسه إلى أبعد مدى. كانت تضحية والدته غير المتعمدة. (وبكلمات راسكين) : "الآلهة العظيمة للنجاح والاعتلاء".

كان لورانس قد ترك المدرسة توًا، وفى زيارته الأخيرة للبيت كتب له إيرنست طلبًا للعمل بدرجة كاتب مبتدئ فى مصنع هايوود للسلع الطبية الجراحية فى نوتنغهام. حصل لورانس على الوظيفة بأجر ١٣ شلنًا فى الأسبوع. وسرعان ما استقر فى عمله ونال رضاء رؤسائه.



(١) مصنع هايوود "كانت البنات شغالات عاديات . لم يحدث أن نفضت أية واحدة منهن (أي شيء من الأوساخ على الصبي . كان بول يحبهن جميعًا حبًا جمًا ، كن جميعا متيمات به . كان من عادته عندما يتلقى الأوامر فى الصباح ، أن يجلس على كرسى دائرى عال ويروح يرغى ويزيد مدة ربع ساعة (بول موريل) .

ولكن هايوود افتقرت لوسيلة تهوية ملائمة، وكان العمل يستغرق اثنتى عشرة ساعة فى أغلب الأيام (ستة أيام أسبوعيًا)، مضافًا إلى ذلك الطريق. بعد ثلاثة أشهر أصيب لورانس بدوره بالتهاب رئوى. وفى خلال رعايتها له فى أزمته الصحية، نقلت إليه والدته، كل ذلك الحب العميق وكل الطموحات التى كانت تمتلكها إزاء إيرنست. وهكذا بدأ العمل فى السادسة عشرة بعد تركه المدرسة، وقابل أولى صديقاته الحقيقيات. ولابد أنه فى تلك المرحلة تلقى الدفعة الأولى من والدته نحو الاستقلال التى شددت قبضتها العاطفية عليه إلى درجة الاختناق. فعليه وحده تقع مسؤولية معيشتها، وسد النقص فى حياتها، بسبب فشل زواجها وبسبب كل معاناتها.

لم يكن بيرت الصغير مشدوداً إلى حبال مريال أمه فحسب، بل كان يرتدى ذلك المريال غالبًا، يعدّ الخبز أو معجنات البطاطس. كان يساعد والدته فى أعمال البيت مثل حك الأرضية أو تنظيف الهباب مبديًا استعداداً مبكراً فى الاستمتاع بتأدية أعمال تعتبر تقليديًا، نسائية. كان يكره الحلاقة؛ لأن ذلك كان يعنى الاعتراف بانتهاء مرحلة الحداثة شاعراً بعدم استعداده لتقبل مسؤولية الرجل الشاب.

* * *

ذهب أبناء لورانس إلى "كونجو" (الكنيسة المستقلة) ثلاث مرات فى أيام الآحاد: طقوس الصباح والمساء ومدرسة الأحد.

فى أصيل يوم أحد من عام ١٨٩٨، استهلت السيدة لورانس صداقة مع السيدة شيمبرز، والتى كان زوجها قد استأجر مؤخرًا مزرعة هاغز الواقعة على مسافة ميلين عن شمالى إستوود؛ وجهت دعوة إلى السيدة لورنس لزيارتها هناك، ولكن يبدو واضحًا أن عامًا أو عامين قد مضيا قبل أن تتحقق الزيارة. كان لورانس آنذاك فى الخامسة عشرة، وقد ارتدى سترة (آيتون) ووضع الياقة الخاصة بطلاب ثانوية نوتنغهام، ورافق والدته إلى هناك، حيث التقى بأبناء شيمبرز. كان آلان فى ذلك الوقت فى

الثامنة عشرة، ومى، فى السابعة عشرة، وجيسى، فى الرابعة عشرة، وهيوبرت فى الثالثة عشرة، وبيرنارد فى الحادية عشرة، ومولى فى السادسة وديفيد فى الثالثة من عمره.

لأعوام ظل لورانس يزور آل هاغز مرة على الأقل فى الأسبوع. كانت العائلة بأكملها تتطلع إلى تلك الزيارات بشوق وترقب. كانوا يعرفون أنه لن تكون هناك أبداً لحظة كئيبة. وعندما استعاد لورانس صحته، بدأ العمل فى حقول القش، طيلة النهار. تقول السيدة شيمبرز: " إن العمل يكون مسلّيًا بوجود بيرت". وتضيف جيسى:

جيسى ٣١ : كان الأمر حقيقة، بدا لورانس فى تلك الأيام فى غاية السعادة، وكان مجرد كونه حيًّا يتجول هنا وهناك مغامرة، وموهبته فى خلق جو من العلاقات الطيبة جعلت العمل متعة. لم يكن فى مقدور أحد منع نفسه من التأثر بحيويته وسحره.

ولاحقًا، سيعلمهم لورانس أجزاء أغنيات من قرار سول فا، بينما يقومون بالحلب. وفى الأمسيات، سينظم، حول موقد قاعة الاستقبال عدداً من القراءات، (مسرحيات بأكملها أحيانًا) ومناقشات حول موباسان، وإبسن، وتولستوى (تألم بعمق مع آنا كارنينا) وداروِن، وشوبنهاور، مع مناقشة جميع القيم الأخلاقية والدينية إلى مدى أبعد مما كان بإمكان السيدة شيمبرز مجاراته، فكانت تنصرف مبكرة بدلاً من أن تتعرض له، وهى تقول: "أحب أن أكون التالية لبيرت فى الجنة".



عائلة شيمبرزفى العام ١٩٠٦ . من اليسار إلى اليمين : ماى ، مولى ، آلان ، جيسى ، ديفيد ، هيوبرت ، سارة آن ، وبرنارد . فى الطاوس الأبيض ، نجد أن آلان هو القدرة التى يحتذيها جورج ، وجسى هى القدوة التى تحتذيها إميلى . وفى رواية أبناء وعشاق نجد أن جسى هى مريام ، وماى هى أجاثا ، وآلان هو إدجار ، وهيوبرت هو موريس .

المكان، فى الدرجة الأولى، هو الذى جعل من لورانس زائراً متواصلاً لآل هاغز، والذى كان جد مختلف عن إستوود القذرة، مع فيض من الحياة البريّة، والكثير من الأعمال التى تحتاج إلى تقديم المساعدة. التى كانت بالنسبة إليه بمنزلة ألعاب. أما السبب الثانى فكان العائلة التى تقبلته بسرور كبير ولم تطلب منه شيئًا، أحباؤه آل الهاغز.

وإن كان لورانس قد ذهب لزيارة شخص معين، فهى بالتأكيد، لم تكن جيسى، التى جعلها حياؤها المحزن تقف فى الخلفية، بل شقيقتها الكبرى، التى كانت تعرفت على بيرت قبل أعوام، عندما كانت تقوم بجلب الحليب يوميًا لآل لورنس. وقد ألحّ لورانس فى مساعدتها بواجباتها اليومية، كى تتاح له الفرصة، فيما بعد، لجرّها لرؤية الأزهار النادرة أو أعشاش الطيور. وبالتأكيد، إن "مى" انجذبت نحو لورنس، وهى على النقيض من جيسى، "جريئة، مرحة، ذات طبيعة جامحة"، كما كان شقيقها ديفيد يدعوها. وفيما بعد، أخذ لورانس يغار من خطيبها "ويل هولبروك" وحطم مرة تمثالين كان ويل، البنّاء، قد صنعهما لمى. وكان على العائلة تجنب استقبال لورانس وويل هولبروك معًا. ولكن مى كانت تكبر لورانس بعامين، ولم تستسلم لسحره قط، كما فعلت جيسى. لقد كان هناك نوع من التنافس بين الشقيقتين من أجل الحصول على اهتمام لورانس وذلك قبل ظهور ويل. أما بالنسبة لبقية أفراد العائلة، فكان الابن الأكبر ألان، هو الذى ارتبط لورانس معه بعلاقة صداقة خاصة، وأمضى معظم أوقاته معه. ولم تفهم جيسى ما الذى يمكن لشقيقها أن يقدمه للورنس مع أنه مع ألان، كان بمقدوره أن يعمل ويتحدث أو يغنى دون ذلك الضغط العاطفى الذى كان يُمارس من قبل جيسى.



مزرعة آل هاغز فى المقدمة ، وبطول حافة الغابة ، كانت هناك مجموعة من البنايات الريفية المنخفضة حمراء اللون . كانت بعض الأبقار تقف فى الظل . كانت المزرعة والبنايات التى تشكل ثلاثة أضلاع من شكل رباعى الزوايا ، تعانق ضوء الشمس فى اتجاه الغابة ، كان الجو هادئًا تمامًا أبناء وعشاق .

تفسير جيسى نفسها فى "مدونة شخصية" لا يمكن الاعتماد عليه كليًا، وذلك بسبب آرائها "الشخصية" المفرطة. فهى لم تقدر على رؤية نفسها منذ البداية إلا فى الوسط، البطلة المخدوعة فى ميلو دراما رومانتيكية شديدة. لقد كانت لهما بلاشك علاقة حميمة متكافئة لمدة قصيرة، على الرغم من بعض مظاهر جيسى التى ضايقت لورنس منذ البداية – عاطفيتها الشديدة وعدم ميلها إلى الدعابة وعدم قدرتها على ترك نفسها على سجيتها. لقد اشتركا فى اكتشاف أشياء كثيرة فى الطبيعة وفى الأدب،

ولكن جيسى كانت المساعدة الشديدة المحبة والخنوع إلى درجة لا تؤهلها أساسًا لتكوين علاقة ناضجة طويلة الأمد. "مدونة شخصية" كتاب له أهمية كبيرة لتسجيله قراءاتهما النهمة فى تلك الأعوام التى كان لها أثر كبير فى تكوينهما، ولهفتهما الشديدة للاقتراب من المعرفة وتقاسمهما الالتباسات والحماس مع أن درجة المشاطرة لم تكن فى الحقيقة بتلك الحصرية التى تتحدث عنها جيسى، بل متسعًا ليشمل العائلة بأكملها والعديد من أصدقاء لورانس الآخرين.

درّس لورنس ما بين الأعوام (١٩٠٢ - ١٩٠٦)، على نظام، الطالب والمدرس فى المدرسة البريطانية المجاورة للكنيسة المستقلة فى شارع ألبرت فى إيستوود، بنصف كرون(*) أسبوعيًا فى السنة الأولى. كان الأمر بمنزلة معركة يومية شاقة لإحلال نوع من النظام بين أولاد عمال المنجم الجامحين. فى عام ١٩٠٣، بدأ أسلوبًا جديدًا فى العمل حيث أمضى نصف أوقاته فى مركز الطالب - المدرس فى إلكيستون. ويبدو واضحًا أن الظروف هناك كانت أفضل قليلاً عنها فى إيستوود. فهو، على الأقل استمتع بالسفر من وإلى إلكستون مع مجموعة مفعمة بالحيوية من الطلاب ـ المدرسين، من إيستوود الذين شكلوا النواة لمجموعة الـ "باغانز"(*). وضمت "الباغانز"، إضافة إلى لورانس وشقيقاته ثلاثة مدرسين من مدرسة شارع ألبرت، ريتشارد بوغمور، كيتى هولورنس (كان والدها مديرًا لتلك المدرسة) وأليس هول (هدّد زوجها لاحقًا برفع دعوى حول اتخاذها نموذجًا لـ أليس غول فى رواية لورانس "الطاووس الأبيض"، وهى أيضًا بياتريس وايلد فى كل من "ليلة جمعة لعامل منجم" و "أبناء وعشاق"). الأعضاء الآخرون فى المجموعة كانوا، جيسى، وألان شيمبرز، وجورج هنرى، و"ديدلير"، وينغل (صديق لورانس الأقرب)، وعدد من جيران عائلة لورنس، بعد انتقالهم إلى رقم ٩٧، لين كروفت، فى أواخر عام ١٩٠٤ أو أوائل عام ١٩٠٥، ومنهم، (فتيات كوبر الخمس، وخاصة جيرترود (غريت) وفرانسيس، "فرانكى"، توفيت أربع منهن فى العشرينيات من أعمارهن بسبب مرض السل، وكان والدهن أصل شخصية آرون سيسون فى رواية "عصا آرون")، بولى غوادارد، أجاثا كيرك (التى درّست مع أدا) وزوجها لاحقًا ستيف بيركمشو وشقيقته بلانش (أجاثا وستيف يظهران كأجاثا شارب وصديقها المقرب فريدى فى عمل لورانس اللاحق، السيد نون)، إيمى ومابل ليمب، ليونارد واتس، فريد ستيفينسون، لوى وإيثيل بوروز. كان هناك باستمرار نوع من المنافسة بين لوى وجيسى حول لورنس، لم تنقطع إلا أواخر عام ١٩١٠، عندما حلت لوى محل جيسى بوصفها خطيبته.

كان المنزل ٩٧ لين كروفت عند استدارة الزاوية تمامًا صعودًا إلى الرابية من شارع ووكر أفضل منزل استقرت فيه عائلة لورنس. كان ذا نوافذ ناتئة فى الواجهة وحديقة كبيرة فى الخلف تطل على الحقول، وكان هناك عليّة تحت سطح الدار مباشرة، حيث تمكن بيرت وأصدقاؤه من إقامة الحفلات: الرقص، والتمثيل والمسرحيات القصيرة. ولكن الفعالية الرئيسية للباغانز، كان المشى إلى أنيسلى، حيث غابات واتنول، أو السير مسافات أكثر طموحًا إلى ماتلوك أو دينك فيلد وكريج، عائدين بواسطة القطار. كانت الفتيات، أجمعهن يشعرن بالأمان مع بيرت بسبب معاملته الأخوية لهن. وكان ذا مقدرة عالية على تحمل المسؤوليات والاستماع إلى معاناتهن، كان شغوفًا جدًا ليس تجاه أهله وأصحابه فحسب، بل إلى حد أنه يصاب بالغثيان كلما اضطر إلى تشريح ضفدعة فى المدرسة.

(*) كرون يساوى خمسة شلنات (المترجمة)

(*) باغان Pagan، الوثنى، الوثنية (المترجمة)

يبدو أن الحياة كانت حافلة جداً بالنسبة للورنس فى هذه المرحلة قبل التحاقه بالكلية عام ١٩٠٦ . كان قد قرأ العديد من أعمال شكسبير ومسرحيات إبسن وعدداً من روايات فيلدينغ، وديكينز، وجورج إليوت، وفينيمور كوبر، وفلوبير، وستيفينسون، ورايدر هاغارد، وج. م. بارى، وكان قد قرأ أيضاً روايات أخرى لريدى، وبلاكمور، أنطونى هوب، هوغو، موباسان، تولستوى، بورو، إميلى برونتى، كارول، دوديه، السيدة غاسكيل، غيسينغ، بيير لوتى، مارك، وترفورد، وايلد وكثيرين آخرين، وقرأ قصائد لـ لونك فيللو، بليك، فيتزجرالد، تينيسون، بيترارك، شيلى، وبالتأكيد كل ما جاء فى كتاب الكنز الذهبى لبالغريف، ومقالات بيكون، إيمرسون، لامب، شوبنهاور وكارليل وكتاب "والدن" لتورو، وكتاب دارون، "رحلة كلب من نوع بيجل"(*).

تذكرت جيسى :

جيسى ص١٠٨-٩ : كنا نذهب إلى المسرح بين الحين والآخر. شاهدت مسرحية هاملت أول مرة بصحبة لورانس وشقيقى. كان لورانس مهتاجا اهتياجا شديدا. تقمص لورانس مناجاة هاملت لنفسه بعد ذلك فى مطبخنا ... وكانت هى المناجاة نفسها التى شاهدناها فى ماكبث – قال وهو يمسك بخنجر خيالى: " أهذا خنجر ذلك الذى أراه أمامى؟ كانت تلك عادة لورانس عندما يخلط الجد بالهزل .... كان الذهاب إلى المسرح عند لورانس مثل القراءة تماما. كان يتوحد مع المسرحية، ويعيش أجواءها.

كان لورانس مولعًا برسم تصاميم للزهور على التذكارات وحاجبات نيران المدافئ، ونسخ الصور عن المجلات. ظل يعمل تلك الرسومات أعوامًا ويقدمها كهدايا لأعياد ميلاد أو مناسبات زفاف. ومحاولته لتعلم العزف على البيانو لم تستمر غير نصف ساعة فقط – فقد أثار "السلم الموسيقى المقرف" غيظه"، ومع ذلك غنى ثنائيات مع أدا، واشترى لها كتب الأغانى والموسيقى لشوبان وجايكوفسكى وبرامز.



الصورة اليمنى تبين أن الطلب كان كبيراً على لورنس لعمل الرسوم الخاصة بالألبومات . وهذه صورة لألبوم يرجع تاريخها إلى اليوم الأول من شهر يوليو من العام ١٩٠٥ .



فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس من العام ١٩٠٥ ، ظهرت صور لورانس لأول مرة فى مجلة The Teacher ومعها إجاباته على استبيان من الاستبيانات .

(*) كلب صيد قصير الأرجل يستخدمه الصيادون الماشون لصيد الأرانب البرية . (المراجع).



جيسى شيمبرز فى العام ١٩٠٦ "كانت بنتا رومانسية الروح . هى نفسها كانت شيئًا شبيهًا بالأميرة التى تحولت فتاة منحطة فيما يتعلق بخيالها . لم تستطع أن تكون أميرة بالثروة أو الجاه . وعليه كانت مجنونة بالتعليم التى كانت تتباهى به - جمالها - جمال ذلك الشىء الخجول المتوحش ، الحساس ارتعاداً - لم يكن يساوى شيئًا عندها، (أبناء وعشاق) .



لورانس ، فى عيد مولده الحادى والعشرين ، المصادف لليوم الحادى عشر من شهر سبتمبر من العام ١٩٠٦ . «واه ، حنانيك ! لن أكون لطيفًا مطلقًا مثلما كنت وأنا فى الحادية والعشرين من عمرى ، هل سيحدث ذلك ؟" أطال النظر إلى صورته الموضوعة على الرف الذى كان على الحائط فوق المدفأة ... والتى أسماها صورة مفكر مزده بنفسه ، لكنها فى واقع الأمر كانت صورة لصبى حساس ، يقظ ، ورائع ؛ (العاشق الحديث) .

فى ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٠٤، تقدم لورانس للامتحان التأهيلى للحصول على منحة الملك "ووضع فى الفرقة الأولى الصف الأول، مع ستة وثلاثين رجلاً وتسع عشرة امرأة. فى حزيران (يونيو) من العام ١٩٠٥، قُبل لورانس، فى كلية مجمع نوتنغهام الجامعية لدراسة فرعين : شهادة لندن الخارجية، أو درجة معلم. ولكن عائلته لم تستطع توفير ٢٠ جنيهًا إسترلينيًا، هى مبلغ الرسوم التى يجب دفعها مقدمًا (المنحة تدفع المتبقى من المبلغ)، ولذا كان على لورانس الاستمرار عامًا آخر فى مدرسة شارع ألبرت من أجل جمع المبلغ المذكور، ثم التحق بالجامعة فى سبتمبر (أيلول) ١٩٠٦، للدراسة للحصول على شهادة فى الفنون .

فى مثل هذا التاريخ تقريبًا، بدأ لورانس الكتابة. أولى القصائد الباقية هى، "المنثور البرى" و "زهور الغويلدر" وكلتاهما عبرت رمزيًا عن "الشباب الظاهر" وبشكل صريح عن معاناة الرغبة المربكة، وزهرة الغويلدر(*)، هى بوضوح جيسى،.

.... طاهرة تماماً ونقية

ستبقى تئن أبداً من نوبات الحب الجامحة.

(أثناء قراءة رواية هيداجا بلر فى مزرعة آل هاغ، لم تجرؤ جيسى على النطق بكلمة الاحتفاظ بالعشيقات)

فى العام ١٩٢٨، كتب لورانس عن هاتين القصيدتين:

أولى القصائد التى كتبتها، إن سمّيت قصائد، كانت عندما كنت فى التاسعة عشرة: مضى اليوم عليها ثلاثة وعشرون عاماً. أتذكر بوضوح، أصيل يوم الأحد الذى كتبت فيه، تلكما القصيدتين الصغيرتين: زهور غويلدر والمنثور البرى. كان ذلك بطبيعة الحال فى فصل الربيع أى عندما كنت فى العشرين من

((*) غويلدر زهرة الأكليل البيضاء الثلجية (المترجمة) .

عمرى. أية شابة كان بمقدورها كتابتهما والإحساس بالسعادة إثر ذلك، مثلما سعدت بهما. ولكننى بعد ذلك عندما أصبحت فى العشرين بدأ ذلك المسّ الحقيقى للروح الحارسة(*)، يستحوذ علىّ بين الحين والآخر، يهزنى ويستخرج منى المزيد من القصائد الحقيقية، جاعلاً إياى فى حالة قلق واضطراب.

ومع ذلك كانت يد العرف الجورجى الثقيلة : تخمد صوت تلك الروح الحارسة، كما أخمدتها والدته، وأخمدتها الكلية التى كان يدرس فيها.

كان لابد من كتابة القصائد هى والقصاصات الأولى من رواية لورانس الأولى، ليتيتيا، (التى أصبحت الطاووس الأبيض فيما بعد) خلسة ، فى دفاتر التمارين، أثناء وجود لورانس فى المنزل، كيما يبدو وكأنه يراجع دروسه .. كان والده يكره الكتب والدراسة، بينما شجعت والدته الدراسة التى كانت جزءًا من مرحلة "التقدم"، ومع ذلك، كانت تعتقد أن الكتابة الخيالية هى مضيعة لوقت ثمين. فقد بذلت تضحيات جسيمة من أجل التحاق لورانس بالكلية والنجاح فى امتحاناتها. ما كتبه آنذاك اطلعت عليه جيسى وحدها، والتى اعتقدت أن كل شيء هو رائع فعلاً. فى البدء، كان لورانس معتمداً كليًا على تشجيعها، ولكنه سرعان ما أدرك أن آراءها ليست ذات قيمة نقدية حقيقية.

وأخيراً، اكتشفت السيدة لورانس ما الذى تتضمنه دفاتر الدراسة. قرأت ذلك المقطع من الرواية: عندما صعدت العروس ممر الكنيسة، وقالت بلهجة ساخرة، "ولكن يا ولدى كيف تعرف أن الأمر كان كذلك؟". كان جرأة منه أن يدعى معرفته بأمور لم يتعلمها فى المدرسة. قالت له بعدئذ، باستياء : "أن أفكر أن ولدى أنا قد كتب مثل هذه القصة".

* * *

نيهلز (٣) ص٥٣٣ : الصراع الذى تطور بين لورانس وجيسى كان فى الظاهر حسيًا. كان الاثنان "عفيفين بشكل تام". جاهد لورانس لسحق تلك المقاومة للحياة والجسد فى كليهما، ولكن جيسى تعاونت بشكل غير مقصود مع جميع عناصر ذلك المكان والزمان كى تجعله يحس بالخجل من رغبته. كان لأم جيسى نصيب فى ذلك التأثير إذ كانت على حد قول ديفيد شيمبرز، قد تشبعت وامتصت بشكل كبير رسالة التوجه البيوريتانى(*) عن عدم الالتزام فى القرن التاسع عشر، وكانت ترتعد كلما ورد موضوع الجنس فى سياق الكلام".

ومع ذلك لا نستطيع أن نعزو مشاكل بيرت لورانس وجيسى شيمبرز للثقافة البيوريتانية وحدها والأمهات البيوريتانيات المتطرفات. فقد اعتُبِرت جيسى غريبة، حتى بين أفراد عائلتها. ونفس الثقافة ونفس الأمهات، لم تمنع أشقاءهن أو شقيقاتهن من المشاركة بتجارب المراهقة، مثل تبادل كلمات الغزل عند أبواب الدكاكين بعد الخروج من الكنيسة – وإيرنست، شقيق لورانس كان معروفًا بذلك. ولم يتوقف الأمر على الغزل. فأعمال لورانس الأولى مليئة بأطفال غير شرعيين، وكان ذلك حقيقة اجتماعية.

(*) الروح الحارسة، demon أو شيطان أو عفريت، نصف إله فى الميثولوجيا اليونانية (المترجمة).

(*) البيوريتانى، جماعة بروتستانية تدعو إلى التمسك الصارم بالأخلاق الفاضلة. (المترجمة).

وصديقه المفضل جورج نيفل، كان أباً لاثنين منهما.

لورنس وجيسى، كانا أكثر رقة فى الإحساس من الآخرين وقد أدى ذلك إلى تعميق الشرخ بينهما، ولكن خجل أو تردد، بيرت يوحيان بشيء أكثر من ذلك:

رسائل (١) ٩٩ : "لقد قَبَّلت عشرات الفتيات على الخد ـ ليس على الشفتين مطلقًا – لم أستطع".

ربما كان لورانس أقل ثقة من بقية أقرانه فى ذلك العمر، مما كان يريده من الفتيات، وما الذى كان يريده من الشبان الآخرين. ففى الطاووس الأبيض يقول كريل (لورنس): إن (صداقته) لجورج ساكستون (آلان شيمبرز)، كان أكثر اكتمالاً من أى عاطفة أحس بها حتى ذلك الوقت، تجاه النساء أو الرجال، وفى الفصل الافتتاحى المرفوض فى رواية،" نساء عاشقات"، نجد ريوبرت. بيركن (لورنس مجازًا)، أكثر وضوحًا :

فونيكس (٢) ص١٠٣-٤ : "أدرك باستمرار، أنه على الرغم من انجذابه نحو النساء، شاعراً بنفسه على سجيتها، معهن بشكل أفضل مما يكون عليه مع الرجال، لكنه مع ذلك لم يحس سوى تجاه الرجل بذلك الانجذاب المتحمس، المتدفق الذى كان من المفروض أن يتوجه للجنس الآخر ، وعلى الرغم من أن معظم تقاطعات مجرى حياته تواصلت مع امرأة أو أخرى، وعلى الرغم من أنه كان دائمًا على علاقة حميمة وشديدة جداً مع امرأة واحدة على الأقل، ولم يكن قط ذا علاقة حميمة مع رجل، فإن بنية الرجل كانت تمثل له سحراً، أما بنية المرأة، فقد أحس تجاهها بالشغف، وبنوع من الحب المقدس، كما بالنسبة إلى شقيقته".

أحس لورانس أن جيسى وليست والدته، هى التى تجعله غير سوىّ. وفى يناير (كانون الثانى) ١٩٠٨، كتب لها:

رسائل (١) : "انتبهى، أنت راهبة، وأنا أعطيك ما سأعطيه لراهبة متدينة. لهذا دعينى أتزوج امرأة بإمكانى تقبيلها واحتضانها لأجعلها أمًا لأبنائى".

كان من الصعب الاعتراف بالهزيمة، ذلك أنهما قد تقاسما الكثير من القيم الحقيقية، ولكن الزواج، إن كان سيتم، فإنه كان يتحول إلى كارثة. بعد مرور أعوام، قال لورنس:

نيهلز (١) ص٧١ : "كانت ستكون خطوة قاتلة. كان سيكون لى حياة سهلة جداً يكون فيها كل شيء حسبما أريد، وكانت موهبتى ستفنى وتتلاشى".

جيسى ص١٨٦ : على الرغم من أن لورانس بدأ يلوم والدته ـ "انتزعونى منك – كان الأمر بمنزلة قتل جنين فى الرحم" ـ وكان حافزها حب التملك المتطرف، فلربما أحست بدورها خطأ استمرار علاقة لورانس وجيسى، وعدم صلاحية كل منهما للآخر. كان فى حاجة إلى امرأة متحررة من ذلك التراث البيوريتانى، وأن تكون قوية بما فيه الكفاية، كى ترجّه وتخلصه من عناده وبيوريتانيته النرجسية.

* * *



و .إى "ويلى" هوبكن . "كان أنيقًا ، مرتفع الجبهة ، وله لحية صغيرة ، اجتماعى ، شىء شبيه بالتمثال النصفى لشكسبير لكل من ينظر إليه ، لكنه أكثر تهذبًا وذوقًا ... كان مثاليا خالصا ، كان شيئًا شبيهًا بالمسيح ، لكن عنده نزعة الفضول إلى التدخل مثل الماعز ... كان جفناه متهدلين ، مثل جفنى العنزة"

(السيد . نون)

من السهل إدانة الكنيسة لتوريطها العديد من الشباب الذين يمثل كل من لورانس وجيسى نماذج لهم. ولكن تأثير الكنيسة لم يكن بأى حال سلبيًا تمامًا. فخلف التعليم الرسمى للورنس، كانت تلك الأعراف القوية للتعليم الذاتى، مناقشات جادة وصريحة مفتوحة، قراءات واسعة (بفضل مكتبة معهد الميكانيكيين)، والتفكير الحر الذى يلازمه وبشكل غريب، التحالف المربك مع كل من كنيسة الموحدين(*)، وعدد كبير من الملحدين الاشتراكيين، الذى كان ويلى هوبكن نموذجهم المحلى الساطع – المستشار والموظف القضائى المضيّف لعدد من شخصيات الجناح اليسارى المعروفة وللاجتماعات الأسبوعية "للتقدميين" فى إيستوود، المبلور للآراء المحلية لعدة أعوام عبر عموده الأسبوعى فى صحيفة، "إيستوود وكيمبيرلى أدفرتايزر"، والمشارك الفعال فى الجمعية الأدبية. وقد صور لورانس هذه الشخصية بصورة محببة فى عملين له، كـ ويلى هوفتون فى، المس واذهب، وكـ لويس غودار فى، السيد نون.

الكنيسة المستقلة لم تقدم العظات المحفزة فقط، ولكنها كانت مكانًا لعقد اللقاءات الاجتماعية وتأسيس الجمعية الأدبية من قبل القس روبرت ريد عام ١٨٩٩، الذى عمل على تقديم محاضرات لشخصيات زائرة ضمن نطاق أدبى واسع تناولت موضوعات فلسفية وعلمية دون التطرق إلى موضوعات لاهوتية. فى بعض الاجتماعات الأولى كان عدد الحضور يزيد عن المائتين، لمحاضرات أو أوراق عمل حول موضوعات مثل، بيرنز، توماس هود، براونينغ، الدراما الإنكليزية المبكرة، تينيسون ولونجفيللو. ونظرًا لندرة الحياة الثقافية فى إيستوود، كانت الكنيسة واحة، وكما عبر عن ذلك لورانس فى روايته الفتاة الضائعة:

زودت الكنيسة المستقلة، الفينا Alvina، بحياة خارجية كاملة ولولاها لكانت مجدبة".

كما أن الخلفية المستقلة، غذّت أعماله بالعديد من السمات والملامح الخاصة – الاستقلال (وتُجارًا أن تكون دنيلاً(**) تجارًا على أن تكون وحيدًا(***)"، الرزانة ، الصدق من القلب، الحماس، الإحساس بالمسئولية عن نفسه وأمام الآخرين، صاحب وعظ نبوئى ، راسخ ، ناهيك عن اعتدادك بأنك أقوم أخلاقا من الآخرين عندما تبحث عن الخصم وترد عليه ردًا سريعا، على الرغم من أن الخصم فى الحياة اللاحقة تعين أن يكون ذلك البيوريتانى (التطهرى) الذى يرى أن الأشياء كلها غير نقية (وذلك نمط غير شائع إلى حد ما فى الغاية الأبرشية/ التوحيدية من الطيف المستقل. وهو بوصفه مراهقًا، كان قد سمع من يهزأ به ويقول: "لقد قدم يهوه الصغير!" على الرغم من تفكيره فى مرحلة من المراحل فى الانضمام إلى خمسة الكهنوت، فإنه سرعان ما توصل إلى رفض المبادئ الأخلاقية السلبية التى كانت والدته نقلتها إليه بصورة غير مباشرة:

(*) الموحدون : حركة مسيحية بروتستانية ترفض التثليث وتقول بالتوحيد. (المترجمة)

(**) أى قاضيا عادلا. (المراجع)

(***) أى مستقلا فى الرأى. (المراجع)

جـــيـــســى "المنهج الأخلاقى للكنيسة مبنى كليًا على "يجب أن لا تفعل". نريد واحداً مبنيًا على "عليك أن تفعل."

ص٨٥-٦ : فى عام ١٩٠٧ مر لورانس بأزمة إيمان وأسرَّ إلى روبرت ريد، أن قراءته لدارون، هيربرت سبينسر، رينان، ج. م. روبرتسون وبلاجفورد فى كتابه، "الكنائس والفكر الحديث"، قد غيرت من معتقداته الدينية. وسأل ريد أن يُعلمه بموقف الكنيسة الحقيقى من أمور مثل التطور والنشوء أصل الخطيئة والجنة والجحيم. وكان قلقًا أيضاً من مشكلة المعاناة وأنه لايمكن أن يؤمن بإله بشرى شخصى وكشف يريد عن إيمانه بأن الرجال يولدون مرتين وأن المرة، الثانية تكون عند دخولهم مرحلة الرجولة.

رســـائـل (١) "ثم يولدون للإنسانية. للإحساس بكل أشكال السخرية وهمهمات الألم والأسى التى لا تتوقف مطلقًا، الذى

ص٤٠ : ينتج من تعدد الأجناس. ويبدو لى أن الإنسان يكوّن معتقده تدريجيًا، ليكن ما يكون. وأى شخص ما، لا دين له إن لم يقم ببطء له ومعاناة بجمع شيء إلى آخر، ثم مضيفًا إليه ومعدّلاً له. ويبدو أن ومعتقد المرء لا يتشكل نهائيًا، بصورة تامة بل يتعين يبقى باستمرار خاضعًا للتعديل. ولهذا السبب، أنا مقتنع أن



الاشتراكية الحقيقية هى دين، وأن السياسية النبيلة دين، وأن أى شيء يبذل الإنسان فيه جهداً بإخلاص، وبعيداً بدرجة ما عن الأنانية، هو دين أيضاً.

وسرعان ما خاب أمل لورانس فى الكلية بأجوائها القمعية.. مدرّسته فى الإنكليزية جعلته يكتب مقالته الأولى ثانية:

جيسى ص٧٩ : أعرف أنها ليست مقالة اعتيادية، أنا لم أقصد أن تكون كذلك، وكنت أعتقد أن المدرّسة ستكون ذكية بما يكفى لتعى الأمر. ولكننى سأعطيها مادة تنفع للصغار، والتى من الواضح أنها تريدها".

جيسى ص٧٦ : الشخص الوحيد من هيئة التدريس الذى نال إعجابه (أنه سيد بحق) كان إيرنست ويكلى، رئيس قسم اللغات الحديثة.

فى نهاية عامه الأول، كان لورانس قد أنهى المسودّة الأولى لروايته ليتيتيا. وفى تلك المرحلة، مكدراً والدته، تحول إلى دار المعلمين الابتدائية التى ستكون أقل متطلبات، كى يكون بإمكانه قراءة الروايات خلال المحاضرات، والعمل على كتابة، ليتيتيا، فى أوقات فراغه. كتب لورانس الرواية عدة مرات، معيداً صياغتها فى كل مرة، مدعياً أنه بذل فيها جهداً يفوق جهد والده فى استخراج الفحم.

١ - العام الذى أمضاه لورنس فى كلية نوتنغهام الجامعية ، الأرجح أن ذلك كان فى العام ١٩٠٧ . لورانس فى الجانب الأيمن من الصورة فى الصف قبل الأخير . وأمامه بثلاثة صفوف ، يوجد إيرنست ويكلى ، مطوى الذراعين . أما لويس باروز ففى آخر قاع الصورة من الناحية اليمنى .





"لم تعطنى الكلية شيئًا ، بل لا شىء حتى أفعله – لقد أمضيت وقتا لعينا فى الكلية ، عضتنى خيبة الأمل عضا أليما الأمر الذى جعلنى أفتقد وأخسر التوقير الصبيانى للرجال أصحاب الجاه والمناصب" .

فى خريف عام ١٩٠٧، أعلنت صحيفة نوتنغهام هامشاير، مسابقة الكريسمس الأدبية، مخصصة لها ثلاث جوائز قيمة كل واحدة منها ٣ جنيهات إسترلينية، عن ثلاثة موضوعات هى: "عيد ميلاد بهيج"، و"عيد ميلاد ممتع" و"مبنى تاريخى". وضع لورانس الفوز نصب عينيه، وقرر أن يخادع عن طريق إقناع كلٍّ من ، جيسى ولوى بوروز (التى كانت آنذاك زميلته فى الكلية)، أن ترويا له الوقائع المتعلقة بحادثة ما، كى يكون بمقدوره الاشتراك فى الموضوعات الثلاثة. كانت الموضوعات التى قدمها: استهلال (جيسى)، والجورب الأبيض (لوى) و أسطورة (لورنس).

الجورب الأبيض تعتبر قصة ممتازة، وأسطورة (نشرت ضمن مجموعة الضابط البروسى بعنوان "شظية من خارج زجاج متسخ"، وهى ممتعة، و"استهلال" مزيج عاطفى كتب للمناسبة، وقد نالت الجائزة وطبعت فى صحيفة الغارديان فى ٧ – كانون الأول/ ديسمبر، باسم جيسى.

نال لورانس شهادة التعليم فى يونيو (حزيران) ١٩٠٨ بامتياز فى الرياضيات، والتاريخ والجغرافية والفرنسية ومادة النبات، وبدأ يبحث عن عمل. لقد رفض التفكير فى أى وظيفة يكون إيرادها أقل من ٩٠ جنيهًا إسترلينيًا فى العام. وفى يأس كتب حتى إلى مصر طالبًا وظيفة ما.

فى أكتوبر/ تشرين أول، حصل على وظيفة فى مدرسة ديفيد سون، كرويدون، بمبلغ ٩٥ جنيها إنجليزيا سنويًا.

كان ذلك الصيف بالنسبة له وداعًا طويلاً للإقليم الذى أحبه كثيرًا، لشاب كُتِب عليه الاغتراب. أمضى معظم الصيف لدى آل هاغز، أو فى الحصاد مع أبناء شيمبرز. فى الحقول الممتدة أسفل كنيسة غريسلى. وقد عرف لورانس أن المرحلة الزمنية تلك، كانت حاسمة بالنسبة إليه:

جيسى : "كان ذلك الوقت عذابًا، الانقطاع بعض الشيء عن والدتى وأنا فى الثانية والعشرين من العمر".

كافح لورانس متأخرًا لدخول مرحلة الرجولة.. أصبح واعيًا، إلى حد كبير لجسده، لم يعد معجبًا بنحافته، وفى محاولة منه لاكتساب مظهر أكثر رجولة، أجهد نفسه فى تمرينات الدمبل فى الأوقات التى لا يكون فيها متعبًا أثر الحصاد، ورسم لنفسه صورة ذهنية لرجل يتصبب عرقًا فى قميص مفتوح، وصوت أجش ويدين خشنتين.

كانت عواطفه فى هذا الوقت لا تزال بكرا، مثل قطعة جافة سريعة الالتهاب. فى ١٥ يونيو/ حزيران، شاهد سارة بيرنارد (كانت آنذاك فى الرابعة والستين) وهى تؤدى دور غادة الكاميليا فى نوتنغهام. أربكه العرض إلى درجة دفعته للضرب بعنف على الأبواب حتى يتمكن من الخروج. حذّر بلانش جينينغز، بعدم الذهاب لرؤية بيرنارد، "ما لم تكن قوية جدًا".

رسائل (١) ص٥٩ : "إنها تمثل العواطف البدائية للمرأة، وهى جذابة إلى درجة غير اعتيادية. بإمكانى أن أحب مثل هذه المرأة، أن أحبها حتى الجنون، كل ذلك من أجل العاطفة النقية والجامحة... عندما أفكر بها الآن، أستطيع أن أحس أن الثقل مازال معلقًا فى صدرى، مثلما حدث لعدة أيام مشاهدتى لها. أساليبها الحلوة، اللعوب، دمدماتها الحزينة القصيرة الكئيبة، صيحاتها الرهيبة المتنمِّرة، ثم الأصوات المرعبة، غير الملفوظة بوضوح، ونشيجها الذى يذوى المرء بلطف، واليأس والموت، إنه شيء كثير بالنسبة لأمسية واحدة".

علم لورانس بعد مغادرته إلى لندن، أنه لا شيء سيكون مطلقًا كما كان من قبل. وبعد وداعه لعائلة شيمبرز، توقف عند البوابة وتطلع إلى الوراء.

جيسى ص١٥٠ : قال، "إنها اللحظة الأخيرة".

انفجرت جيسى بالبكاء، قال: "إنى آسف، ولكن الأمر ليس بمقدورى، ليس بمقدورى".

(٣)

غريب فى أرض غريبة

رسالة لورنس الأولى لجيسى من كرويدون كانت "مثل عصف ريح مرعبة". وإلى بلانش جينينغز كتب:

رســـــائل (١) "فكّرى بكلب صيد يرتعد، وضع ليهتم بقطيع من الخنازير وستريننى واقفًا، أدرّس".

ص٨٥ : بعد شهر يأخذ يجبى الصراع ضريبته بوضوح - كتب إلى لوى:

"إنها أقسى ممارسة وأكثرها مهانة، هذا عن التدريس ومحاولة ترويض حوالى خمسين أو ستين من

رســـــائل (١) : الحيوانات الإنسانية الفتية والخبيثة. فى بعض الأحيان، أقنط من نفسى. العقاب غير مسموح لنا، كما تعرفين، وإن أردنا فعلينا طلب عصا القانون والنظام من مكتب المدير، وتسجيل بيان بتفاصيل العقوبة فى السجل الخاص بذلك. المدير إنسان لطيف، لكنه رخو وضعيف، الصغار وقحون، خشنون كالشيطان. كان علىّ تحمل أى شيء على استمرار هذا الوضع من الكفاح الحقير المذل فى خلال زمن قصير، لن أكون، شخصا، صالحًا إلاّ للأمور التافهة".



بعد مضى أسبوع أكد ثقته التامة بـ"ضربة عصا لاسعة":

"اجعل الأشياء تطن فى هذا الأسبوع: بإمكانك أن تحزرى أى الأشياء".

مع قدوم فبراير/ شباط، كان قد توطد فى المكان وكأنه استقر أبدًا فى كرويدون:

رســـــائل (١) ص١١٧ : "المدرسة مبهجة هنا حقًا. لقد روضت حيواناتى البرية - سيطرت على رعاياى المتمردين، باستطاعتى التدريس بهدوء وطمأنينة. ولكنى مازلت أحن إلى الريف وإلى أهلى وأصحابى".

شهد مدير مدرسته، ب . ف . ت، سمث، شهادته لطريقته فى التدريس ونوعيتها:

"إنه لم يتهرب ألبتة من العمل الشاق والأمور المتعلقة بالتفاصيل التى تعوق روتين حياة المدرسين. (كان مولعًا بالفن. واللغة الإنكليزية وعلم الأحياء. احتفظت لأعوام بدفتر ملاحظاته التى سجلها عن جهد عام فى علوم الأحياء. رسومه المائية وتفاصيل التجارب التى أجراها كتمرينات مدرسية، كانت نماذج للنجاح والوضوح...

كان لورنس يكره أى تدخل فى عمله التدريسى. فى إحدى المناسبات رافقت مفتشًا وزاريًا إلى صفه، هذا التدخل لم يكن متوقعًا، ولذلك أثار استياءه، أصوات شاكية غريبة صدرت من زاوية بعيدة، حجبت بواسطة سبورة كبيرة، وانبعثت من الأعماق أغنية معروفة:

(على عمق خمسة أقدام، يستلقى والدك/ من عظامه يصنع المرجان).

نيــــــلز (١) ص٨٦ : كان الصف يقرأ "العاصفة"(*). وقد عبر العرض عن شمولية نظرة لورنس للتدريب الذى كان قائما به. هذا التدريب ينبغى ألاَّ يقاطع حتى ولو بتعليق رسمى ٥. هرع لورنس بذراعين ممدودتين إلى الزائر المندهش: "هش، هش! ألا تسمع؟ إنهم ينشدون، قرار البحر من "العاصفة").

فى تلك الأيام كان االتجمع والنقاش من الوسائل الثورية. وكان الخبراء فى قسم الفن فى ثانوية كينغستون يثنون كثيرًا على أعمال طلابه. وزاد الحماس على حصة التعبير الأسبوعية ، عندما نُشِرت - وبمساعدة من لورنس - مقالات لعدد من الطلاب فى مجلات صغيرة، وتقاضوا عنها مكافآت مالية. وقدم لورنس جهدًا إضافيًا لمسرحيات المدرسة ومكتبتها - "دعهم يقرؤون أى هراء، ماداموا يقرؤون، إنهم سرعان ما ينبذون الرديء".

كان لورنس طوال الزمن الذى أمضاه فى كريدون، يسكن مع جون جونز الموظف المسؤول عن الحضور فى المدرسة وزوجته فى المنزل رقم ١٢ شارع كُولُورث. كان المنزل رقم ١٢ كولورث رواد كبيرا وشبه منعزل فى قسم واعد من أقسام الطبقة المتوسطة فى كرويدون. منزل كان سيكون جوابًا لأحلام السيدة لورنس. هناك بدأ لورنس فى تشكيل وصقل صورة جديدة وأنيقة لنفسه. الشوارع التى كان عليه قطعها يوميًا، وجدها "قذرة" و "وضيعة". كان جد واعٍ للفروق الطبقية بين طلابه. كان أغلبهم يرتدى "ملابس خشنة".

(*) «العاصفة» مسرحية لشكسبير. (المترجمة)

فـــونيكس (٢) كان يفضل الأولاد القادمين من أسر غنية على أولاد الممثلين، فقد كانوا "بهجة حتى بالنظر إليهم
ص٢٤-٥ : و"مهذبين مطيعين" و"كلهم يتصرفون بوصفهم رجالاً، ذوى سلوك حسن".

تسلّى لورنس بالرسم ولعب الشطرنج مع السيد جونز و"المزاح مع طفلتنا، هيلدا مارى، فى المرحة التى تبلغ ثمانية أشهر من عمرها"، كان يقرأ باهتمام كما فى السابق. ثاكرى، ميريديث، هاردى، جورج مور، ويلز، بينيت، غالزورثى، كونراد، فورستر، ستيندال، بلزاك، زولا، فيرلين، تولستوى، ديستويفسكى، تور غنيف، غوركى، جيكوف، إبسن، نيتشه... وكان أيضًا بطبيعة الحال يكتب قصائد عن لندن، المدرسة، هيلدا مارى و"ذلك العمل الخاص بى" ليتيتيا. فى يناير ١٩٠٩، كتب إلى بلانش جينيغز:

رســـــائل (١) "منذ عودتى قررت الكتابة بجدية وإخلاص - قصائد تارة وليتيتيا تارة أخرى. أندهش لاكتشافى كم
ص١٠٦ : هى جياشة العواطف، أعنى الأخيرة. كنت فى حاجة للانتقال إلى هنا، لأصبح أكثر صلابة. أنا وجدانى مخيف، ضعيف وواهن".

كانت بلانش جينينغز، أكبر من لورنس بأربعة أعوام وتعيش فى ليفربول. كان لورنس قد التقى بها فى منزل أليس داكس، التى تقاسمت معها اهتمامًا بالاشتراكية وحقوق المرأة فى أيستوود. وقد تبناها لورنس، كشقيقة كبرى قد تحررت، وإليها صب أفكاره ومشاعره فى رسائل طويلة فى خلال عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ رسائل مربكة، تشى بقلة الخبرة وبإسراف فى التعبير. وكان فيها يعرض بزهو مداعباته، مدافعًا أو منتقدًا بقسوة، أسلوبه المسرف الفضفاض فى كتابته لـ"ليتيتيا".

* * *

خلال صيف عام ١٩٠٩، كان لورنس ولوى بوروز يعملان سويًا فى كتابة قصص قصيرة، إحداهما "معرض الأوز". وكانا قد بعثا بها إلى دار للنشر ولم يحققا النجاح. وكانت صحيفة الإنكليش ريفيو، قبل عام من ذلك، وتحت إشراف فورد مادوكس هويفر، قد شجعت ما أسماه لورنس "المدرسة الواقعية الشابة". وقد اقترحت جيسى عليه إرسال بعض أعماله إليها، ووافق لورنس فى النهاية على إرسالها بعض قصائده إليها. وفى يونيو ١٩٠٩ بعثت جيسى إلى الصحيفة من قصائده: "نظام" و"أحلام قديمة وليدة" و "حركات طفل" و "أصيل ساكن". جاء الرد من هويفر فى أغسطس:

جيسى ص١٥٨ : "إن طلبت منه المجيء ومقابلتى فى يوم من الأيام عندما يكون فى لندن، لربما يمكننا إنجاز شيء ما".

أخذ لورنس الرسالة وأراها لوالدته، ولم ترها جيسى ثانية. وعندما عاد إلى كرويدون، ذهب لمقابلة هويفر، وكتب لجيسى:

رســـائل (١) ص١٣٨ : "إنه حسن المظهر، سمين، فى حوالى الأربعين، وهو ألطف رجل فى العالم:

رســـائل (١) ص١٤٤ - ٥ : كان هويفر بالتأكيد كريماً مع لورنس. أخذ بيده معرفًا به فى "الإنكليش ريفيو"، كما وجد له ناشراً لـ"الطاووس الأبيض"، وقدمه للمشهد الثقافى الإنكليزى. وسرعان ما التقى لورنس بـ: إيرنست رايز، محرر، "مكتبة الجميع" و هـ . ج. ويلز (إنه رجل مسل، قصير القامة، حديثه عبارة عن انبجاس متواصل لدفقات من حامض غير مركّز - مسلّ ولكنه غير دال على العظمة، لا وهج من حوله)، إزرا باوند (إنه فى الرابعة والعشرين، مثلى - معبوده المال، ومعبودى الحياة. إنه لطيف، مرح، عبقرى لديه نوع من نبـــوغ، ولكن بلا أدنى وعـــى بالذات!)، والتقى أيضًا ب - و . ب . ييتس.



فورد مادوكس هويفر فى العام ١٩٠٩ "هو رجل لطيف بحق ، من منطلق كرمه ، وتفاهمه ، من منطلق انفتاحه الروحى"

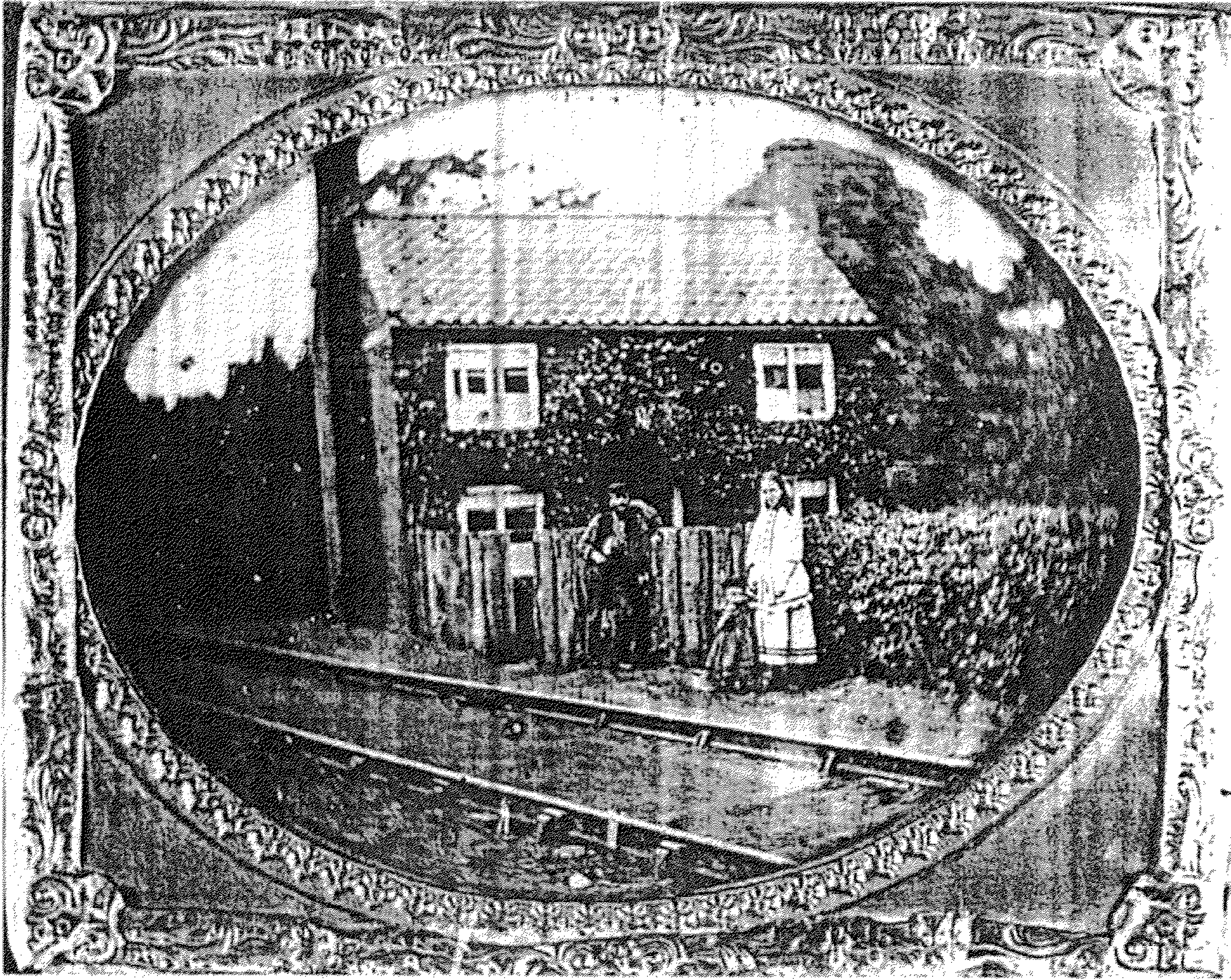
كان نادى الرايمز فى ذروته يعقد اجتماعاته فى جيسشاير جيز، وأخذ بعدئذ ينعقد بشكل غير رسمى فى منزل إيرنست رايز. أخذ هيوفر لورنس معه إلى أحد الاجتماعات، حيث قرأ (بشكل مطوّل) عددًا من قصائده عن الحب وأخرى بلهجة محلية. وكان كل من أزراباوند وبينس من بين الشعراء الآخرين الذين قرأوا فى تلك الأمسية. تأثر باوند بشدة بقصائد لورنس وخاصة المحلية منها، إلى درجة أنه اقترح ترشيحه لجائزة بولينكناك، لقوتها. وفى هذا الاجتماع، استمع لورنس إلى فلورنس فار وهى تتناغم مع ييتس على آلة السنطور الموسيقية. وغدا تقليده لنغماتها الرتيبة فقرة ثابتة مفضلة فى حفلاته حتى نهاية حياته.

أطلع لورنس جيسى أيضا على مسرحيته "ليلة جمعة فى حياه عامل منجم" . (ألمني) جدًا! وأن أرى منزله موضوعا أمامى بهذه العبارات الحية".

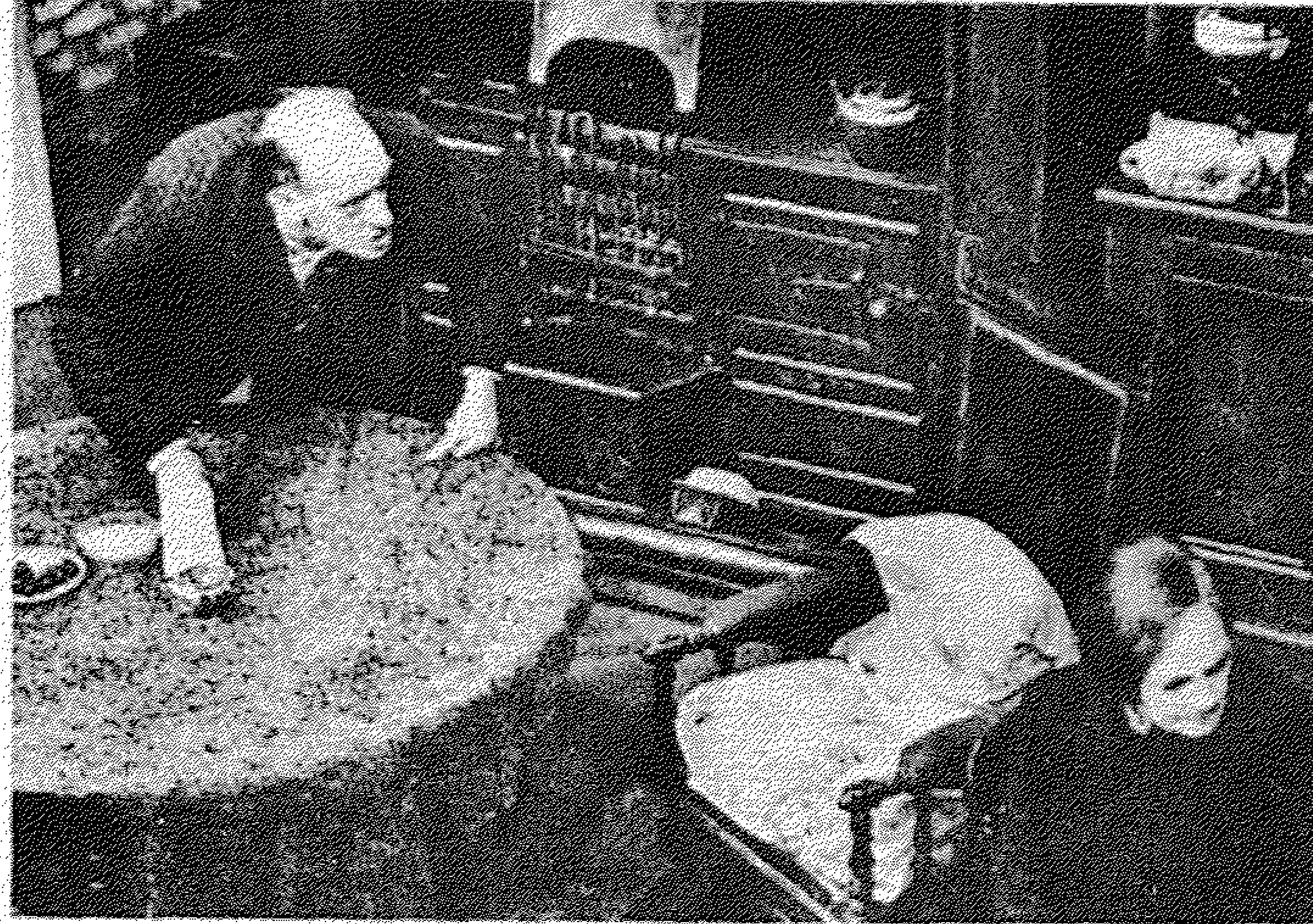
كان هيوفر قد امتدح ونشر قصة لورنس القصيرة المعنونة "رائحة زهرة الأقحوان، التى بناها لورنس على قصة العمة بولى والعم جيسى، اللذين قتلا فى منجم برنسلى. وتأسيسا على قوة هذه القصة القصيرة أوصى هيوفر وزكى لورنس بكتابه "سلسلة روايات عن العمال" . لكن لورنس أحس بالضيق عندما عرف أن الحياة التى صورها فى روايته "ليلة جمعه فى حياه عامل منجم" وفى قصته القصيرة "رائحه زهرة الأقحوان"، ستكون غريبه على رواد المسرح وقراء القصص فى ذلك الوقت، لأنها ستكون

مملة فى أحسن الأحوال وغير مفهومة وهجومية فى أسوأ الأحوال. وجعل من صديقته الجديدة جريس كراوفررد نمطا أصيلا لأولئك الذين اضْطُر للكتابة لهم. وعليه فإن المنزل الذى كان مألوفا لجيسى بطريقه مؤثرة سيكون خارجا تماما عن نطاق تجربة واهتمام جريس كراورفورد:

رســـــائل (١) ص١٧٤ : أنا هنا فى المنزل. وأنت تعرفين أيضا معنى وجودى فى المنزل: حتى وإن كان ذلك لا يسهل. والدى عامل في منجم : المنزل مكون من تسع غرف: وأنا أكتب فى المطبخ، أو فى البهو الأوسط كما تسميه أمى بعباراتها الفخمة – لكنها ليست – وإنما هى إلى حد ما – ساخرة. إنه دافئ ومريح بما فيه الكفاية. هذا موقد نار كبيرة – عمال المناجم يوقدون النار فى غرف معيشة منازلهم ...



كوخ فان ، الكوخ الموجود فى برنسلى بجوار سكة حديد المنجم ، والذى يظهر بشكل واضح فى كل من القصة القصيرة "ورائحة زهرة الأقحوان" ورواية ترمل السيدة هولرويد . الثنائى الموجود فى الصورة يُرجَّح أن يكونا عم لورنس المدعو جيمس هو والعمة بولى . إن صح ذلك ، فهو يعنى أن العم جيمس قُتِل بعد ذلك بعامين ، أى فى العام ١٨٨٠ الميلادى .




١ – الفصل الثالث من مسرحية «ليلة جمعة فى حياة عامل منجم» ، التى عرضت على مسرح رويال كورت فى عام ١٩٦٨
٢ – جريس كراوفورد. «ترتعد فرائصى عندما أفكر فى (رواية ترمل السيدة هولرويد) عندما تقحم نفسها ، كما لو كانت حيوانا أشعث الشعر ، ملطخًا بالوحل ، على «عرينك» ، المقدس عند وعود البخور ، وكل تخيلاتك الأدبية الوهمية المكللة بأكاليل رائعة» .

على الرغم من أن العالم يترنح بعل حرارة الشمس – طاولة كبيرة بيضاوية الشكل من خشب الماهوجنى، وثلاثة أرفف من الكتب، وشنطه كتب عامرة بكتب القراءة، وتسريحة، وكنبة، وأربع كراسى من الخشب – تماما مثلما يحدث فى البيوت الصغيرة الأخرى فى إنجلترا.

لم يكن المسرح التجارى الادواردى(*) قد شاهد أو يرغب حتى فى رؤية أى شىء شبيه بمسرحية ليلة جمعة فى حياة عامل منجم أو ترمُّل السيدة هولرويد، التى كان لورنس على وشك اقتباسها عن قصيدة رائحة زهرة الأقحوان – وهو واحد من كبار ممارسى هذه الدراما، كان يعرب عن مجرد فرضية واحدة من فرضيات هذه الدراما المجتمعية ، عندما صرح أن حياة الطبقه العاملة " لا تهم". لم يكن هناك مجرد اعتقاد بأن شخصيات الطبقه العاملة غير جديرة بالتمثيل الدرامى اللهم باستثناء الأجلاف أو الأوغاد بين الحين والآخر، وإنما كان هناك اعتقاد بأن شخصيات الطبقة المتوسطة ليست مخلوقات بشرية كاملة على الإطلاق. كان هناك استثناء شريف تمثل فى مسرح الرويال كورت الذى كان الدراميون الاجتماعيون من أمثال برناردشو، وجولزورثى؛ وجرابفنيل باركر يتحدون تلك الكذبة الكبيرة. ولكن فى حدود ما كانت عليه حياة الطبقة العاملة، لم يكن لدى هؤلاء الدراميين معلومات بكر عن هذه الحياة، وكان يغلب عليهم النظرة العاطفية إلى هؤلاء العمال أو تقديمهم على شكل أنماط ونماذج. شاهد لورنس هو وجيسى مسرحية.

فـــونيكس (٢) ص٢٩١ : جولز ورزى "النضال" ، التى تتناول مسألة الإضراب. كتب لورانس بعد ذلك: " لقد حصل جولز ورزى على نظرة سريعة مختلسة، ثم غاص نحو الانحطاط من الجزالة إلى الركاكة".

(*) نسبة إلى الملك إدوارد السابع (١٨٤١ – ١٩١٠) ملك بريطانيا وإيرلندا (١٩٠١ – ١٩١٠) : ابن الملكة فيكتوريا وخليفتها . تولى العرش وهو فى الستين من عمره . (المرجع) .

على أى حال لم يكن للورنس الحق فى دخول مسرح رويال كورت – لو كان يسكن بالقرب من مانشستر فلربما أخذته الآنسه هوزنيمان معها، وبخاصة أن هذه السيدة عرضت مسرحية ستانلى هوتون الأولى على مسرح جيتى Gaiety فى العام ١٩٠٨، كما عرضت مسرحية هارولد بريجهوس على المسرح فى العام ١٩٠٩. ثم أسست هذه السيدة بعد ذلك مسرح ذخائر مانشستر، وتركيز هذا المسرح على كل ما هو واقعى، وإقليمى، وكل ما يتعلق بالطبقة العاملة. لكن أصدقاء لورنس الجدد المؤثرين لم يستطيعوا عمل أى شيء له فى لندن. وعلى حد قول : سين أوكاسى : " ولقد جاء إلى المسرح لكن المسرح لم يستقبله ". وبقى الحال على هذا المنوال إلى العام ١٩٦٠، عندما اعتمد مسرح الرويال كورت مسرحيات لورنس الخاصة بعُمّال المناجم والمناجم على أنها جزء من مجموع أدوارنا الدرامية.

* * *

رسائل (١) : نشرت قصائد لورنس فى الصفحات الست الأولى من المجلد الأزرق الذى أصدرته "الإنكليش ريفيو"، لشهر نوفمبر ١٩٠٩. فى نفس الشهر أمضت جيسى عطلة نهاية أحد الأسابيع فى لندن والتقت بكل من هيوفر وفايوليت هانت وباوند.

رسائل (١) ص١٠٢ : فى شهر ديسمبر من العام ١٩٠٨ كتب لورنس إلى بلانش خنجز : " لقد بدأت أكرس نفسى للشعر الحديث والدراما". هيأ له وجوده فى لندن فرصة مشاهدة أوبرات ومسرحيات عدة، بما فى ذلك مسرحية مكارثى الأمير اعتباهى ("لم أر قط فى حياتى مثيلا لمثل هذا العفن")، وشاهدت أيضا

رسائل (١) ص١٣٨، ١٤٣ : مسرحية دون Don التى ألفها رودلف بيزير ("جيدة جداً") ، وشاهد أيضاً مسرحية الفريد سترو صاغه الجنتلمان، وكان قد شاهد هذه المسرحية مع جيسى فى العام ١٩٠٩.

جيسى ١٦٥ – ٦ : أوضح لورنس أن المسرح موجود على سبيل "الموضة" فقط وأن قادة المجتمع لا يذهبون إلى المسرح لمشاهدة المسرحيات (التى كانت مجرد غثاء) وإنما للفرجة على الفساتين الجميلة المتنوعة التى ترتبها السيدات البارزات.

رسائل (١) ص١٤١ : قدم لورنس جيسى عندما كانت تزور لندن إلى عشيقته الجديدة، إغنس هولت، وكان تقريباً وقد قرر الزواج بها (مع أنه كتب عنها لبلانش جينينغز، المؤتمنة على أسراره: "لا أجد مفراً، تبدأ اللعبة، أنا ألعبها، وتلعبها الفتاة"). تفسيره لفشل علاقتهما، قد يكون السبب نفسه أيضاً لعلاقته لاحقاً بفتاتين وهما هيلين كورك ولوى بوروز:

رســـــائل (١) ص١٥٢ : "إنها جاهلة تماماً ومن طراز قديم حقاً. على الرغم من أنها تخرجت في الكلية ودرّست في لندن عدداً من الأعوام – الرجل هو – أوكان – قليلاً أو كثيراً، إنسان مسل، يمكن للمرء أن يتسلى معه ببعض الأحاديث السخيفة الماكرة – لا أكثر – إنه ليس بحيوان – يا إلهي، لا! – لقد نورتها ثقافياً، وهي الآن لا تمتلك الجرأة، إنها لاتزال تقيّم الأمور بمقياس المرحلة الفيكتورية، وتغطي نفسها بزغب ريش الرومانسية التي ستبليها الأيام شحوباً. إنها ترفض أن تفكر أن الرجل هو ذكر، والقبلات هي مجرد استهلال وتوقعات، وأن الحب عموماً، عاطفة جسدية، سرعان ما يتم إشباعها وإتخامها. وهي تعتقد أن الرجال يتولهون حباً بحبيباتهم، إنها زائفة وسطحية في مظهرها الخارجي، وأنا غير قادر على تغييرها. إنها خائفة وأنا الآن ضجرت منها. هي تتظاهر بأنها مولعة بي، ولكنها في حقيقة الأمر، ليست كذلك، حتى وإن كانت، ما الذي يهمني! ولكن إن كانت، فعليها أن لا تكون هذه الجبانة التافهة تصف الأمور بأنها بشعة، وكريهة، ومؤلمة: الحياة لا تستحق أن تعاش، الحياة انحلال وغيرها وغيرها. ستكون مستمتعة بالحياة، ستسقط في حالة عاطفية، عندما تكون المسألة متعلقة بالحياة المجردة".

والكثير من هذه الأمور انطبعت، حتى إلى وقت قريب على جيسي، ولكن الرسالة تتواصل:

"في الكريسمس، توهجت نار قديمة. إنها قادمة قريبًا لتمضية عطلة نهاية الأسبوع، لن نبقى هنا في كرويدون، ولكن في لندن. العالم لنا، ونحن بعضنا لبعضٍ – حتى لو كان ذلك لربيع واحد".

وأخيراً، أعلن لورنس حبه لجيسي وأقنعها أن تمنحه نفسها. في أقصى درجات انفعاله، كان بلا أدنى شك مقتنعًا بما قال. كانت المرأة الوحيدة التي علم أنها مستقبله والتي يأمل الدخول معها في التجربة الشافية والدينية المتوقعة من الجنس. اجتماعهما، مع نقص كبير في العفوية، في ظروف وصفتها جيسي بـ – "كلانا عنيد ومتضايق"، كان مقدراً له الفشل بالتأكيد. كتب لها بعدئذ:

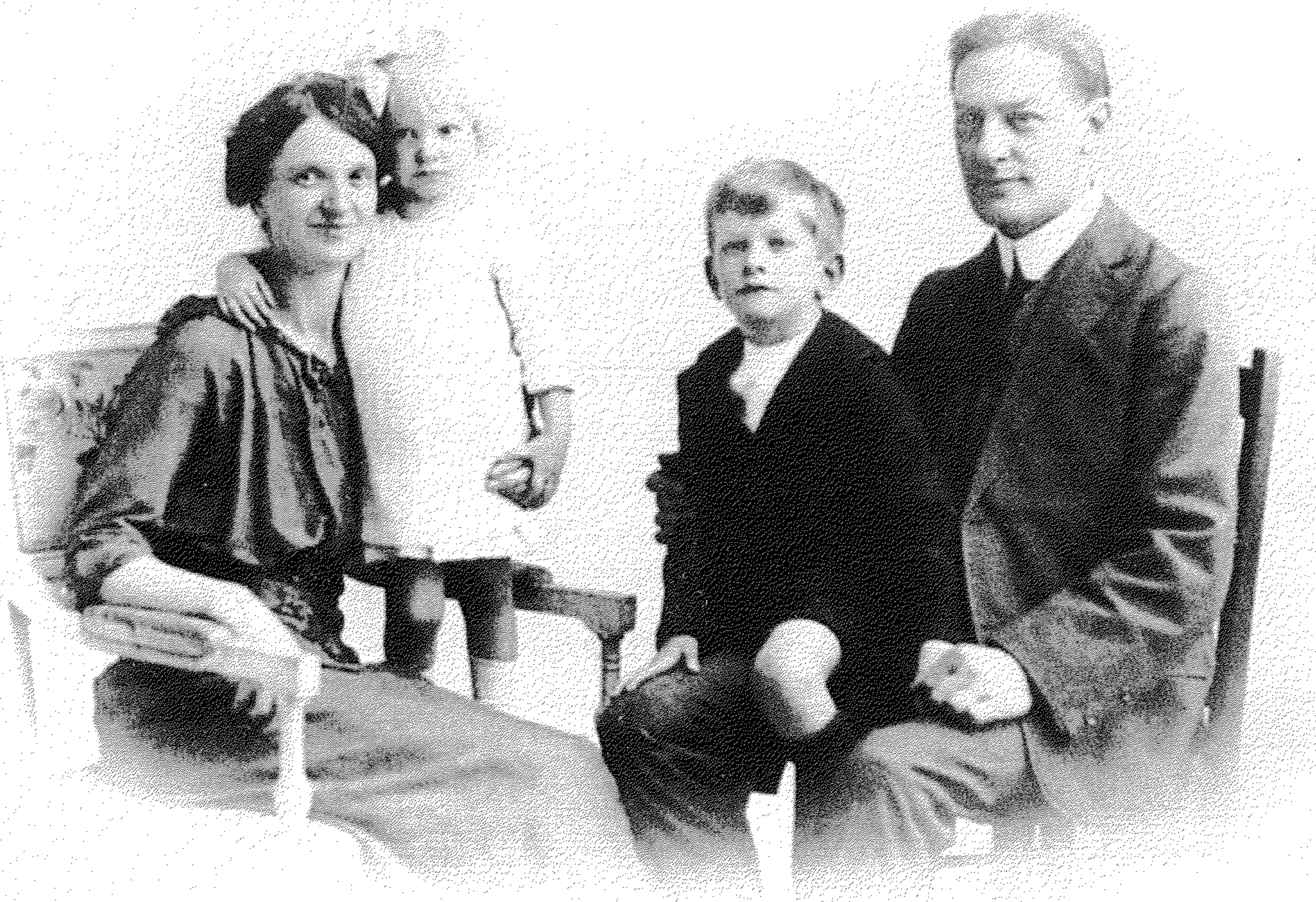
رســـــائل (١) ص١٥٧: "لقد أسديت لي أمراً حسنًا ياعزيزتي. أريد شيئًا واحداً فحسب وهو أن تكوني هنا معي. يبدو الأمر وكأني لا أستطيع الاستقرار دون أن تكوني بجواري. أمر جيد أن تكوني قريبة، أن ألمس وأمسك بك".

كان لورنس يخدع نفسه، كما كان يخدع نفسه عندما كتب: "لو كان بمقدورنا امتلاك منزل صغير... فسيصبح أروع القصور في إسبانيا، حقيقة".

ديلافـيـتي (١) ص٧٠٢ : من المحتمل أنه بعد هذه الرسالة، بدأ علاقته مع أليس داكس، زوجة كيميائي من إيستوود. كانا يعرفان بعضهما بعضًا منذ عدة أعوام، بعد التقائهما المحتمل في منزل ويلي هوبكن. ابنته، إينيد، تذكرت لاحقًا:

نيــــهلز (١) ص١٣٥ : "كانت أليس داكس ووالدتي تسبقان زمانهما بأعوام. كانت أليس، تقريبًا، غير مكبوتة، في عمر يكون فيه المرء كذلك... معًا، هي ووالدتي عملتا من أجل قضية المرأة... تطرفت أليس داكس في آرائها، وأصبحت تدريجيًا اسمًا معروفًا في الإقليم، شخصية يذهب إليها الناس عندما يكونون في أزمة، والتي ابتدأت جميع المشاريع الجيدة في المجتمع، مثل اتحاد التمريض، وهيئات التأمين الصحي وغيرها. وقد عالجت بنجاح نظام المدارس وأنشأت مدارس عصرية جديدة. أليس داكس، واحدة من أنبل الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي، ولكن معظم الرجال من جيلها، كانوا يخشونها".

وأليس التي بسبب سلوك والدها، نشأت تكره الرجال وتزوجت نتيجة الكراهية، وقعت في الحب للمرة الأولى مع لورنس وقدمت نفسها له. أمضيا في ربيع عام ١٩١٠، عطلة نهاية أسبوع معًا في لندن، ولكن لورنس بقي مخلصًا لجيسي، والحادثة التي وصفتها أليس بعدئذ لسالي هوبكن، قد تكون وقعت في عطلات الصيف:



أليس داكس مع زوجها وأطفالها ، في العام ١٩١٥



هيلين كروك ، فى العام ١٩٠٦

بريست ص ١١٢ : "سالى، منحت نفسى لبيرت وكان علىّ ذلك. قدم إلى منزلنا، مجهداً نفسه فى قصيدة لم يستطع إكمالها. وهكذا أخذته إلى الطابق العلوى ومنحته نفسى. عاد إلى الطابق الأول وأكمل القصيدة".

تيدلوك ص ٢٤٥ : لقد تم الأمر ببرود كما توحى هذه الكلمات. فى عام ١٩٣٥، كتبت أليس لفريدا لورنس: "منذ تلك الساعة بدأت أدرك حقيقة الحياة". لم تحاول الإمساك بلورنس، مدركة أنها ليست "الملائمة" له. ولكنها عانت بشدة بعد تخليها عنه.

يبدو أن التعرف على مشاعر لورنس تجاهها، أصعب أمراً. كتب عنها بمحبة (على الرغم من بعض الرهبة منها) لصديقتهما المشتركة، بلانش جينينغز. ولكنه فى ديسمبر عام ١٩١٠، كتب إلى خطيبته، آنذاك، التى اختارها من بين كل النساء اللاتى كان يعرفهن، عن المرأة التى كان قد عرفها:

رسـائل(١) ص ٢٠٨ : "امرأة سيئة تافهة، وأنا أكرهها، وقد سلبتنى مثل زوجة بوتيغار". ومع ذلك، يبدو أن العلاقة مع أليس قد استمرت حتى مارس ١٩١٢، على الأقل، كان لديها أمل أن يكون الطفل الذى حملت به، فى، يناير من لورنس. مع أنها، إبان الحدث كانت متأكدة من عدمه. وعلينا حتى الآن أن نستنتج أن لورنس قد حصل على شيء من الرضا فى علاقته مع أليس كونها ترمز إلى شخصيته كلارا، فى روايته، أبناء وعشاق.

* * *

كان لورنس متوحداً، إلى حد كبير، فى كرويدون. كانت آغنس ماسون، امرأة متقدمة فى السن، تعمل ضمن هيئة التدريس، قد أصبحت صديقة له، وقدمته فى ربيع عام ١٩٠٩ إلى صديقتها الأصغر، هيلين كورك. كان اهتمام هيلين قليلاً بلورنس؛ إذ كانت مشغولة مسبقًا بعلاقتها مع رجل متزوج يكبرها بخمسة عشر عامًا. وفى ذلك الصيف، وبعد أن أمضى ذلك الرجل خمسة أيام برفقة هيلين فى جزيرة وايت، عاد إلى منزله وشنق نفسه. الصدمة تركت هيلين مثل السائرة فى المنام. تدريجيًا، أعادها لورنس إلى الحياة. قرأ معها "نساء طروادة" كى تصنف آلامها ضمن إيقاعات آلام "هيكوبا"، الأكبر وطلب منها المساعدة فى التنقيح النهائى لـ - "التخوم السفلى، العنوان الجديد لروايته".

كانت هيلين قد احتفظت بتسجيل لتجربتها وهو "يوميات مياه عذبة"، طلب لورنس الاطلاع على تلك اليوميات، واقترح بحماسة كبيرة أن تساعده لتحويلها إلى رواية، وبعد موافقة هيلين بثلاثة أسابيع، كانت المسودّة الأولى لـ - "قصة سيغموند". كانت هيلين مندهشة، لأن لورنس لم يكن قد قابل سيغموند أبداً، ولكنه بمساعدة بسيطة منها أعاد تشكيل تلك العلاقة بكل معنى الكلمة. فى الحقيقة كان الأمر بالنسبة للورنس سهلاً، أن يتطابق مع سيغموند، ليس لأنه وقع فى غرام هيلين فحسب، بل أيضًا، لأن الضغط الذى جرف سيغموند إلى الموت، كان نفسه الذى بدأ لورنس يعانى منه، والتى جرفته إلى الكتابة لهيلين (التى كانت لم تزل تعيش فى الماضى، مع أنها قد عادت إلى المياه العذبة):

رســـــائل (١) ص١٧٣ : " – جاءت [جيسى] للقائى يوم أمس. إنها ما تفتأ تقبلنى، الأمر الذى يجعل قلبى كالرماد، ثم تقبلنى أكثر وتحرك فىّ نيران الجنس. إنه أمر شنيع. علىّ أن أخبرها أن علينا الافتراق أخيراً ونهائيًا، ذلك إن امتلكت الشجاعة لإخبارها. أنا تقريبًا، شخص جدير بالازدراء. ولكن هل بمقدورى إيذاؤها بشدة: أتمنى لو أنى لم أعد إلى البيت. أتمنى لو أن القدر ما كان يعذبنى بهذه المواقف المزدوجة، وأنت فى المياه العذبة".


السيدة لورنس فى حديقة لين كروفت ، مع بداية مرضها.

كانت هيلين نموذجًا أكثر تطرفًا من جيسى لـ – "المرأة الحالمة":

كورك ١٦٢ – ٣ : "أولى توجهاتى الدينية شطرتنى روحًا وجسدًا، وقدمت الجسد فى منزلة أدنى، تابعًا تمامًا للروح. وقد غرزت النماذج الأدبية لتلك المرحلة، هذه التوجهات وحاولت عرض الرغبة الجسدية، بوصفها ظاهرة فاضحة، تربط الرجل بالحيوان، ولكنها فى حالة الرجل، يتم السيطرة عليها بالعقل والإرادة. الحب كان إما دينيًا مقدسًا أو إنسانيًا. فالدين لم يفرض أى نوع من المحظورات تجاه الميل الروحى، الذى يتطلب انفصالاً تامًا أساسيًا عن وظائف الجسد. وإصدار الحكم ضمن مبادئى وقواعدى الأخلاقية، قد قضت بإدانة الرغبة الجسدية".

ولهذا السبب، فقد حاولت أن تفرض على حبيبها علاقة روحية نقية، مرغمة إياه على محاربة الحاجات الملحة للطبيعة الانفعالية. لقد جعلته يكره جسده غير القادر على السيطرة عليه، إلى درجة أنه فى "ذروة عذابه الفكرى"، قد دمره.

كان لورنس يضع نفسه مكان سيغموند ليس على الورق فحسب. وهو فى الحياة الحقيقية، قد أدرك أنه "يملأ مكان شبح بالدفء، لا غير"، وأنه فى الوقت نفسه، إن تمكن من جعل هيلين تحس به كرجل حى، فإن التاريخ سيعيد نفسه. أما بالنسبة لهيلين، فقد عرفت أنه فى النهاية سيطلب منها أمرًا مستحيلاً: لكنها أصبحت معتمدة عليه:

كورك ص ١٩١ : "منذ مطلع صيف هذا العام، أخذت أعى بشكل متزايد بالطلب الذى سيطلبه منى ذلك الرجل الغريزى، وهو الرجل المفعم بالأحاسيس. أنا غير قادرة على تجاهله تمامًا، ولكن ليس هناك أى رد فعل لجسدى. رغبتى ليست تجاهه. لا أريد أن أتزوجه وأنجب له أطفالاً، كما لا أريد أن أكون عشيقته".

* * *

فى أغسطس ١٩١٠، تمرضت السيدة لورنس، وسرعان ما أصبح واضحًا أنها فى طريقها إلى الموت بسبب السرطان. كان لورنس يعانى من توتر شديد. كانت مرحلة، بدت فيها جميع علاقاته وقد تعقدت دون وجود بارقة أمل. والآن كانت والدته المركز المستقر لحياته، تنتزع منه. وكان عليه مراقبة موتها بدرجات، فى الثالث من ديسمبر، ذهب بالقطار إلى ليسيستر وقابل لوى بوروز، فى رحلة العودة وتقدم لخطبتها. بعد ثلاثة أيام كتب لها:



لوى بوروز . "هى فتاة عظيمة : طولها مثل طولى ، ممشوقة القوام وقوية قوة العماد الرئيسى (إن صحت هذه الكلمة من حيث الهجاء) – وهى داكنة البشرة ومتوردة مثل الرمان ، وهى مشرقة وكلها حيوية مثل دورق النبيذ ... أما كل ما عدا ذلك فهو لا شىء ، وعليه أنا أستلطف لوى."

رســــائل (١) ص ١٩٥: "إنه الصباح ثانية، وهى لاتزال هنا.. لقد أصيبت بمرض القلاع(*). يقال إنه مرض يصاب به المرء إما فى بداية حياته أو نهايتها. البعض يصاب به فى مرحلة الطفولة، والبعض الآخر قبل الوفاة، ومرضها أفضل تقريبًا، ولكنها تبدو متألمة ومرهقة جدًا منذ الصباح، وفى حالة يرثى لها. إنها هامدة وشاحبة وشبه ميتة، مثل حرف هيروغليفى مبهم للمحنة. على المرء أن لا يكون مفرط العاطفية، وها نحن، أنا وأدا نتقاسم الجلوس عندها، طوال الليل.

أتطلع إلى والدتى وأفكر - يا للسماء، أهذا هو ما تقودنا الحياة إليه. تصورى أن الحياة الزوجية كانت عسيرة، استمرت، تقريبًا، أربعين عامًا - وهذه هى النتيجة - لا راحة. ومهما كتبت، لما كانت النتيجة مروعة، مثل سيرة حياة والدتى، ولكن بعد هذا - والذى فيه الكفاية - سأتوجه لكتابة رواية - عندما أنتهى من كتابة بول موريل، التى تنتمى إلى هذا الصنف.

يفصلنى القلق عنك، يجفل قلبى لصدى خفقات أمى. هناك نقطة واحدة فقط من الحياة، لا تزال لم تعصر منها، وهى معلقة ترتعش، ويتصور المرء أن عليها أن تسقط وينتهى الأمر - ولكنها لن تفعل ذلك أبدًا - إنها ستتبخر على مهل. وبينما تموت هى، لا نقدر نحن، كما يبدو، على الحياة.

ولهذا، إن بدوت غير سعيد بالتفكير بك، فستتفهمين الأمر.. علىّ أن أحس أن يد والدتى تتسلل بعيدًا عن يدى قبل أن أتمكن من تناول يدك.. إنها حبى العظيم الأول. كانت امرأة مدهشة ونادرة - أنت لا تعرفين - قوية وراسخة وسخية ونبيلة كما الشمس. كان بإمكانها أن تكون خفيفة الحركة، مثل سوط أبيض، ورحيمة لطيفة كالمطر الدافئ، وثابتة كالأرض من تحتنا، ويصعب اختراقها:

ولكننى أفكر فيك كثيرًا - بسعادتنا المقبلة. وهذا العبء الثقيل من الأسى، يجعلنى أصمم أن أكون سعيدًا. وكلما فكرت فيك، أحسستُ بالسعادة لأننى عرفت الشىء الصحيح الذى يجب فعله. كنت أعمى وأحمق، ولكن الأسى يفتح عينىّ. التفكير فيك مثل التفكير فى الحياة. ستكونين المرأة التى ستجعل العالم سعيدًا لى. والدتى، أولاً، وبقية الأمور، كانت بوابات لعالم حزين جدًا. ولكنك قوية ومشرقة مثل بوابات عدن، لم نبدأ جميعًا رحلتنا - ربما ليس الكثير منا، من جنة طفولة مشرقة. لقد ولدنا وآباؤنا فى الصحراء. نشعر بالحنين إلى أرض كنعان. أنت مثل تلك الأرض، غنية ومثمرة وسعيدة وأنا أحبك".

لم يقدر لورنس ولا شقيقته على تحمل مراقبة آلام والدتهما التى لا حدود لها، فوضعا مادة مخدرة فى حليبها. بعد ثلاثة أيام ماتت.

نسخة أولى من الطاووس الأبيض، كانت قد أرسلت بسرعة إلى لورنس، فوضعها بين يدى والدته، ولكنها كانت غير قادرة على قراءتها. بعد انتهاء مراسم الجنازة، أجهد والده نفسه بقراءة نصف صفحة منها، وبدت بالنسبة إليه مثل لغة إفريقية غريبة.

(سأل بلهجته المحلية التى تحذف بعض الأحرف:

"ماذا أعطوك لهذا ، يا ولد؟"

"خمسين باوند، أبتى".

"خمسين باوند!"، وكان مصعوقًا، وتطلع إلىّ بعينين ماكرتين، وكأننى كنت مخادعًا، "خمسين باوند! وأنت لم تكدح يومًا فى حياتك").

وفاة والدته لم تخفف من كراهية لورنس تجاه والده. كتب عنه فى الشهر التالى إلى القس روبرت ريد: "إنه مثير للاشمئزاز والسخط، أنانى مثل يرقة. مع ذلك أحس بالأسف نحوه. إنه كبير فى السن، غبى، لا حول له، وغير ذى جدوى".

(*) القلاع، مرض يصيب الفم والحلق. (المترجمة)

(٤)

موت فى حياة

استدار لورنس الآن نحو لوى من أجل حياته، معتقداً أنها قادرة على منحه "حبًا دافئًا، صحيًا، رقيقًا وطبيعيًا". ولكنه كان قد عرف منذ أعوام مدى براعة لوى وتمسكها بالأعراف والتربية الجيدة التى تلقتها. كانت لوى ماكرة ولعوبًا فى آن واحد. كان قد أخبرها، "ستكونين كاهنة جيدة فى معبد باخوس، لولا تربيتك". "كانت مع ذلك، عابدة أخرى للجمال مفضلة إياه على الحقيقة". فى مارس ١٩٠٩، كان قد كتب إليها:

رسائل (١) ص١٢٤ : (لويزا، عزيزتى، متأخرة أنت أكثر من قرن ـ بينما أنا عند قمة الأعوام. وأنت لهذا السبب ساحرة ومرتاحة، وأنا متألم وغير مرتاح).

ومرة أخرى استخف بقوة "الاحتشام طويل الأمد" وسرعان ما توجب عليه أن يكتشف أن لوى لن تكون له سوى:

قصائد ص ١٢٩ : الفتاة الشابة المخطوبة التى تحبنى وتهتم .
جيداً بفضيلتها وبسمعتى الطيبة.

وهكذا بدأ النزاع القديم ثانية، إلا أنه على الرغم من الخطبة، كما يبدو، فقد اتسم برغبة أقل وأمل ضئيل، وحلت فى هذا الوقت، غيرة الأخت وحبها للاستحواذ محل نوازع الأم. فى فبراير ١٩١١، كان لورنس يكتب إلى أدا: (هناك قوة أكبر فى تعلقى بك عنه بالنسبة إلى لوى).

رسائل (١) : يبدو الأمر جليًا أن لورنس سرعان ما اكتشف الخطأ الذى وقع فيه. إلا أنه، لعدم معرفته بكيفية تحرره منها دون أن يؤذى مشاعرها، ترك الأمور تنجرف.

استدار ثانية باتجاه هيلين كورك وتقدم طالبًا الزواج منها، ولكنها كانت أعقل من لوى. لقد تعقدت الأمور، فى هذا الوقت، بسبب تطور علاقتها الحميمة بجيسى. وقد دونت أنها كانت تحب جيسى أكثر من لورنس، وأنها طوال حياتها، لم تولِ الجنس أهمية ما. كان لورنس يتضايق منها أحيانًا إلى درجة أنه كان يتوق إلى خنقها.. فى ١٢ يوليو ١٩١١، كتب إلى هيلين:

رسائل (١) ص٢٨٦ : (فى ليلة الأحد، بعد أن فارقتك، قذفت من فوق جسر سكة حديد سانت جيمس بمقالتين كان قد أعادهما لى جونز، قبل عدة أشهر، وكانتا عن الإغواء.. متْ موتًا واهنًا آخر).

فى نهاية قصة سيجموند، يجمع لورنس بين البطلة هيلينا وسيسيل بيرن "الذى يمثل لورنس". ولكن القصة القصيرة، "مزاج ساحرة"، والتى من المحتمل أن تكون قد كتبت فى صيف ١٩١١، هى فى الواقع تتمة للرواية، وتنتهى بصورة ذهنية للألم المبرح:

"تألم كل جزء من جسده كما يتألم وريد ملتهب من جهد شديد، بينما مات قلبه ببطء، حزناً ويأساً. هذه المرأة منحته الكرب مجتثة إياه فجأة كما الموت. أما بالنسبة إلى المرأة الأخرى فكان مضلّلاً.

في نوبة غضب، يركل مصباحاً زيتياً إلى الأرض، مما يؤدي إلى إشعال النار في فستانها، يطفيء النيران بذراعيه.

في اللحظة التالية يكون قد انطلق، راكضاً عبر الشارع وذراعاه الملتهبتان الحمراوان ممدودتان أماماً على نحو أعمى".

في سبتمبر/ أيلول ١٩١١، بعث لورنس بهذه القصة وأخرى إلى إدوارد غارينت، المشرف على صحيفة، سينجري، وغارنيت الذي قدر له الاضطلاع بدور المعلم الموجّه بعد هيوفر، دعا لورنس متحمساً، كي يسمح له برؤية المزيد من أعماله وزيارته في منزله، في السيرن، في كينت. وهنا سمع لورنس مناقشات حرة وصريحة جداً عن موضوعات تعتبر محرمة مثل الجنس، حتى إنه في أواخر حياته، ادّعى أن بذور روايته، عشيق الليدي تشاترلي، قد بذرت هناك.


إدوارد غارنيت

كانت صحة ومعنويات لورنس متدنية جداً. وبعد زيارة له للسيرن، في نهاية أكتوبر، كان عليه الانتظار طويلاً في المحطة تحت المطر، مما أدى إلى إصابته بذات الرئة. لازمه المرض بشدة أسابيع عدة. وقد أنذره الطبيب أنه لو ذهب إلى المدرسة، فسيكون عرضة للإصابة بالسل. وفي مرحلة الشفاء في بورنماوث، بدأ في يناير إعادة كتابة، قصة سيجموند، مطلقاً على العمل عنوان، الخاطئ، واضعاً الخطط لزيارة خالته حنا كرينكو، في فولدر برويل، في ألمانيا، إبان الربيع. في ٤ فبراير كتب إلى لوي قائلاً: إن الأطباء قد أعلموه بضرورة عدم إقدامه على الزواج.

"مضافاً إلى ذلك، ونظراً لعدم قيامي بالتدريس، فسيكون عليّ شق طريقي بجهد من أجل المعيشة. لن أطيل أمد الخطبة، لهذا أطلب صرف النظر عني، أخشى أن لا نكون ملائمين لبعضنا بعضاً". **رسائل (١) ص ٣٦١ :**

بقيت لوي مخلصة للورنس على الرغم من أنها لم تره مرة أخرى.

وفي الشهر نفسه، استقال لورنس من وظيفته في كرويدون. لم يكن بإمكانه الاستقرار في أي عمل، ولكنه ظل يتجول هنا وهناك في كسل مثل "طائر منزوع الريش". كما أنه دعا هيلين كورك، لتمضية ليلة معه في السيرن، مؤكداً لها أن غارينت كان متحرراً بشكل رائع من تقاليد المجتمع". ولكن الآنسة كورك لم تكن كذلك. عاد ثانية إلى أليس داكس، إلا أنه أحس أنه كمن يدور في قفص سنجاب، وأن حياته قد فقدت جميع اتجاهاتها وأهدافها. متأخراً، استعاد ذلك العام الأخير، كأسوأ ما مرّ عليه في حياته. كان منسياً مهجوراً، وقد رحلت والدته وتحطم منزل العائلة، وعلاقاته مع جيسي وهيلين ولوي، قد تحولت إلى رماد، وساءت صحته، ونجاحه الأول انتهى قبل أن يكتمل، ولم يكن بوسعه رؤية أي طريق يقود إلى الأمام:

فونيكس ص٢٥٣ : "آنذاك، فى ذلك العام، انهار كل شيء بالنسبة لى، ما عدا لغز الموت، وتواصل الموت فى الحياة. كنت فى الخامسة والعشرين، ومنذ موت أمى، بدأ العالم يذوب من حولى. عالم جميل، قزحى اللون، إلا أنه يمر بعيداً، دون وجود مادى له، حتى إنى كنت أوشك على الذوبان والتلاشى، وأنا فى حالة مرض شديد، وذلك لما بلغت السادسة والعشرين. ثم بدأ العالم يعود ببطء، أو أننى شخصياً عدت، ولكن إلى عالم آخر".

* * *

الآن، على الأقل، انطلق لورنس الكاتب. فروايته، "الطاووس الأبيض"، نشرت فى يناير، واستقبلت بشكل طيب عموماً، "الخاطئ" أصبحت جاهزة، وقدمت دارا هاينمان وداكوورث، عرضاً لنشرها، كما أن النسخة المعدلة من بول موريل قد أكملت، وقصائده بدأت تنشر بصورة مستمرة فى، الإنكلش ريڤيو، وكان سيكر قد طلب مجموعة من القصص القصيرة، أما غارنيت فكان فعالاً فيما يخص طبع القصائد والمسرحيات، ولكن لورنس، مع ذلك، لم يحصل إلا على مبلغ قليل من المال، وحتى ذلك الوقت، لم يكن لديه أى تصوّر للتفكير فى إمكانية تدبير معيشته بواسطة الكتابة، ولم تتولد لديه قناعة راسخة من كونه مؤهلاً ليصبح كاتباً مهماً. كل ما كتبه، حتى الآن، كان يفتقر إلى النضج. وهو فى الحقيقة، قد كتب قصتين من أفضل قصصه، "عطر الأقحوان" و"بنات الكاهن"، ولكن طبعة أخرى للمجموعة القصصية تضمنت أيضاً قصة "الضابط البروسى". أما مسرحيته الجيده، "ترمل السيدة هولرويد، التى استندت مثل، عطر الأقحوان، على القصة الحقيقية لعمته بولى وعمه جيمس لورنس، فقد أجريت عليها تعديلات كثيرة فى عام ١٩١٣. قال هيوفر: إن «الطاووس الأبيض» يحمل كل عيوب الرواية الإنكليزية ـ "ولكنك تمتلك النبوغ"، وهو على نحو دقيق، وصف، "الخاطئ"، بقوله: "عمل رديء لعبقرى". والعبقرى لم يكن، فى تلك المرحلة، بيّنا بذاته، ويستحق كل من غارنت وهيوفر، كل التقدير للتعريف به.

رسائل (١) ص١٧٨ : «الطاووس الأبيض» قصة غير متقنة الصنع، تسرد من قبل راوٍ متزمت إلى حد لا يطاق، وهى عن أناس مملين فى بيئة اجتماعية مصطنعة، وقد وصفت بدقة من قبل. لورنس:

رسائل (١) ص٤٤ : "إنها عن الحب – انفعالات عاطفية زاخرة موزعة هنا وهناك ـ وفرة من البطلات – لا حبكة فيها – تسعة أعشارها صفات – إسهاب فى الحديث عن كل ألوان الطيف الشمسى، قصيدة أو قصيدتان، مقاطع لاتينية أو فرنسية – عمل غير متقن عموماً، كثير التوابل، ومجموعة من أشياء مختلطة دون انتظام".

وبالنسبة للنقاد، فإن "الانفعالات العاطفية الزاخرة، قد أصلحت العمل مع أن أحدهم وجد الأسلوب متخماً، و"بليغاً بشكل لا يحتمل". وكان رأى فايولت هنت، أنها صورة واقعية لحياة، "طبقة أدنى". أحد النقاد أضحك لورنس عن سؤاله فيما إذا كان الكاتب امرأة، وفى الحقيقة، إن كانت الرواية اعتبرت صالحة فإن ذلك يعود إلى شخصية أنابيل، التى أضيفت فى مرحلة متأخرة إليها، دون أن تكون لها علاقة بالموضوع، ولكنها تلوح فى الرواية، "مثل روح ماكرة"، قوية الحضور، بحيث إنها تجعل الشخصيات الأخرى تبدو وكأنها أطياف متنقلة. كما أن الفصلين الأخيرين من الرواية، الممتازين، أسهما فى إنجاحها، وهما بعنوان "قصيدة عن الصداقة" و "فلاحون وكادحون". والموضوع الرئيسى

للرواية يدور حول امرأة مثل طاووس أبيض، "كلها كبرياء وغرور، ودنس"، وهى تحط من شأن الرجل والطبيعة بإلحاحها على رفض كل ما لا يمكن تحويله إلى شيء جمالى روحى. وقد منح الموضوع ذلك الفهم الراسخ والتجسيد، الذى نعتبره أمراً مسلَّماً به لدى لورنس الناضج.

أما "الخاطئ"، فهى تعود، بدرجة كبيرة، إلى فكرة المرأة المدمرة:

"هؤلاء النسوة الغامضات الممتعات، لا يردننا، إنهن يردن زهور الروح التى يمكنهن جمعها منّا.. نحن كرجال طبيعيين بدرجة ما، نحط من شأنهن ومن حبهن لنا، ولهذا السبب فإنهن يدمرن الرجل الطبيعى فينا ـ ذلك، نحن جميعًا".

* * *

بدأ لورنس كتابه "بول موريل" ثناءً على والدته. بول هو لورنس بالتأكيد، ولهذا فإن عنوان الرواية يدعونا إلى توقع أن يكون العمل أقرب إلى سيرة ذاتية له. وفى الحقيقة، إنها رواية خيالية إلى حد كبير. جيسى موجودة فيها فى شخصية " ميريام" إلا أنها نقلت إلى عائلة أخرى، وهى الكولن. وهناك مادة كثيرة حول عائلة كولن (أطلق عليهم اسم ستاينيز من منزل بلفاست)، فالآنسة رايت المشرفة على منزل آل كولن، التى أعجب بها لورنس كثيراً، هى شخصية رئيسية، الآنسة "مارى" التى تتزوج لاحقًا "السيد ريفيل" القس غير الكفء فى الكنيسة المستقلة التى كانت السيدة موريل قد سئمت منه. يذهب الاثنان للعيش لدى آل ها غ، آخذين معهما ميريام. وعندما يموت والدها ترث هى بعض المال، وترغب (مثل فلوسى كولن) أن تصبح ممرضة، ولكنها بدلاً عن ذلك تصبح مدرسة موسيقى متنقلة. أما الشخص الذى يذهب إلى مدرسة نوتنغهام الثانوية، وإلى الجامعة فهو آرثر شقيق بول الأصغر، وهو يتشاجر مع والده الذى يقذفه بقطعة فولاذ، مسبباً الموت له. (هذا الحادث وقع لأحد أعمام لورنس). يسجن الوالد ويموت كمداً.

وكل هذه الأحداث المتعلقة بآل كولن اختفت لاحقًا من هذه الرواية، ولكنها عادت إلى الظهور فى عام ١٩١٢، فى عمله الآخر، عصيان الآنسة هوفتون.

ديليفانى(١)٦٧٠ : وقد أطلع لورنس جيسى على ما كتب:

"وفيما بعد، فى أكتوبر (أو ربما كان شهر نوفمبر ١٩١١) بعث لورنس لى فجأة، المخطوطة بأكملها، يسألنى عن رأيى فيها. كان قد كتب ثلثى الرواية وبدا وكأنه وصل إلى نقطة توقف تام. لدى قراءتى المخطوطة أحسست بضيق فى الصدر لشعورى بالتوتر، وكأنه كان قد أرغم نفسه على كتابتها. ولم تكن فيها أى تلقائية أو توهج. كانت قصة والدته، سردت إلى حد ما بأسلوب عاطفى: قس شاب لكنيسة مستقلة، تقوم هى بكتابة موعظاته، كمعادل للزوج القاسى. أما أفراد أسرتنا فى مزرعة ويلى، (أعتقد أنه يسميها كذلك، فأنا أكتب تمامًا من الذاكرة) فلم تكن هناك على الإطلاق، والشخصية التى يدعوها"ميريام" وضعت فى أجواء ضواحى إيستوود. فى جوابى للورنس، اقترحت عليه أن يسرد قصة الحياة الزوجية لوالدته كما حدثت فعلاً، وأن تتضمن قصة شقيقه إيرنست، التى حذفت فى المسودة الأولى. بدا لى أن الحقيقة كانت أشد إثارة للمشاعر وأكثر إمتاعًا من قصته شبه الخيالية. ليس ذلك فحسب، بل إننى أحسست لو أنه سرد فنيًا، وضمن نفسه جميع الأمور المتعلقة بحياة والدته، فإنه لن

يكتب رواية رائعة فقط، بل سيخلص نفسه من هاجس التفكير المتواصل الخاص بها. وسيكون رجلاً حراً معافى. لقد انطلقت نصائحى بصفاء من حدسى. أنا أعرف لورنس ووضعه بشكل جيد جداً، وأحسست أن هذا الأمر كان طريقه للخروج من أزمته. أخذ برأيى وأعاد صياغة الرواية بأكملها، مضيفًا إليها أفراد أسرتنا، وهى فكرة لم أقترحها أنا".

وفى كتابه، دمج لورنس بعض المقاطع التى كتبت من قبل جيسى. ولكن النسخة الجديدة التى أعطاها لورنس لجيسى، دزينة من الأوراق فى كل مرة، فى خلال شهرى فبراير ومارس، عام ١٩١٢، سببت لها ألمًا عميقًا. بدا الأمر بمترلة خيانة لها وللحقيقة، ليبرئ والدته. أرادت جيسى منه أن يكتب سيرة ذاتية كعلاج ذاتى:

"بمقدورى أن أسمع مقدمًا صوت لورنس المحتج: "بالطبع إنها ليست الحقيقة، إنها معدلة عنها" كما يجب أن يكون كل فن. الأمر ليس كما أتصوره عنك، أنت تعرفين، الأمر ليس كذلك". **جيسى ص ٢٠٤ :**

علّق لورنس بين شيئين إلزاميين، الحاجة إلى الابتعاد عن إيذاء جيسى، والحاجة إلى تقديم فن بدلاً من إعادة تقديم الحياة، أن يذهب إلى الأعمق وليس الاقتصار على أمور شخصية. يجب أن لا تكون ميريام صورة لجيسى شيمبرز، بل تجسيداً آخر للمرأة المدمّرة، تأخذ مكانها، ضمن السياق العام - ليثى هيلينا، ميريام، هرميون وأخريات كثيرات. اعتقدت جيسى أن شخصية كلارا كانت "توظيفًا ذكيًا لعناصر من ثلاثة أشخاص، الآنسة بوروز، والآنسة كورك والسيدة داكس".

جيسى ص ٢٠٢ : وفى الحقيقة هناك القليل من لوى فى كلارا والأقل من هيلين. أما الأمر الذى لم تتبينه جيسى (وكان من الصعب توقعه، هو منح ميريام المظهر الخارجى القريب جداً منها شخصياً، والتى أصرت عليه هى) فهو أن ميريام كانت شخصية مركبة من عناصر عدد من نساء حقيقيات من ضمنهن، هيلين ولوى وأغنس هولت. كانت خطة لورنس فى تلك المرحلة، أنه يتوجب على بول المرسوم، حسب قيم تتبناها والدته، أن يكتشف موت الحب الروحى، التام وعدم ملاءمة الحب الجسدى برمته، ولهذا السبب، سيُهجر ويترك وحيداً بعد وفاة والدته، كما كان لورنس وقت كتابتها، ولا شيء أمامه يتشبث به غير إصراره على أن والدته ما كان عليها أن تعانى عبثًا.

تناول لورنس باستمرار مسائل كانت موضع اهتمامه العميق فى المرحلة التى كان يكتب فيها. فى أوائل عام ١٩١٢، كانت جيسى قد أصبحت جزءًا من ماضيه. الأحدث طراوة بالنسبة إليه كانت تلك الآلام الناتجة عن علاقته بهيلين كورك. وكافة مشاعر المرارة تجاهها والتى نتلمسها فى قصص وقصائد عام ١٩١١، توجّب على ميريام تحمّلها فى الرواية. وربما أنه بسبب من ذلك دفعته غريزته الأولى إلى إضفاء مظاهر حياة خارجية على ميريام، تختلف تمامًا عن جيسى. كانت محقة فى تفكيرها من أن لورنس، فى تلك المرحلة من حياته، لم يكن قد أدرك أن والدته كانت المرأة الأشد تدميراً منهن جميعًا (ربما كان قد بحث، دون وعى، عن صديقات كن صورة منها). وعندما توصل إلى ذلك، كان فهمه ممتزجًا بالاستياء تجاه والده وليس تجاه ميريام، التى ستظهر ثانية مكشوفة بقوة أشد، فى شخصية هيرميون فى رواية «نساء عاشقات»

* * *

فى أوائل مارس ١٩١٢، ذهب لورنس لتناول الغداء مع إيرنست ويكلى، أستاذه السابق؛ ليبحث إمكانية الحصول على منصب تدريسى فى ألمانيا، كان لويكلى علاقات كثيرة فى ألمانيا. بالتأكيد كانت له زوجة ألمانية، فريدا، ابنة البارون فريدريك فون ريجتوفن. كانت أصغر من زوجها بخمسة عشر عاماً، وأكبر من لورنس بستة أعوام.



عائلة ويكلى تحضر مناسبة العيد الذهبى لزواج والدى إيرنست ، ٢٣ سبتمبر من العام ١٩١١ . أطفال فريدا الثلاثة موجودون فى المقدمة : مونتى ، باربى وإلسا .



لورنس هو ومارجريت برنتون ، صديقة من بورنموث ، ٢٦ أبريل ١٩١٢ .

كانت فريدا فتاة حلوة مرحة فى السابعة عشرة، عندما التقت إيرنست، الذى كان محاضراً فى جامعة فريبورغ. بعد ثلاثة أعوام، تزوجت فريدا من إيرنست وجاءت معه إلى إنكلترا لتصبح سيدة منزل فى نوتنغهام. كان زواجها خيبة أمل مريرة لها منذ الليلة الأولى. كان إيرنست رجلاً نبيلاً وطيبًا ومتولهًا فى حبها، ولكن اهتماماته كانت تقتصر على الكتب فحسب. أنجبت فريدا له ثلاثة أبناء: مونتى – ١٩٠٠، إليسا – ١٩٠٢، بربارة – ١٩٠٤ نجحت فى تعاملها مع الطبقة المحترمة من الناس فى إنكلترا، وكان لها محبّون فى ألمانيا، ومن بينهم أوتو كروس، من تلاميذ فرويد ومن أنصار الحب الطليق، الذى

لوكاس ص٣٩ : ساعدها أن تدرك أنها كانت "تعيش كالسائر فى نومه، فى حياة ذات أسس تقليدية" وجعلها تقرر أن تكتشف وتدافع عن "حياتها المناسبة".

لقد أدركنا مدى حاجة لورنس فى ذلك الوقت إلى امرأة بمقدورها تحرير رجولته ومواهبه. وكانت فريدا أيضًا قد وصلت نهاية مجال تحمّلها. شعر الاثنان لاحقًا، أن "القدر" قد أعد لقاءهما فى تلك اللحظة:

فريدا ص٢٢ : "رأيته أمامى عندما دخل الدار. شخص طويل نحيف، ساقان مستقيمتان سريعتان، حركات واثقة وخفيفة. بدا فى منتهى البساطة، ومع ذلك، سيطر على اهتمامى. كان هناك شيء أكثر من مجرد التقاء عينين. أى نوع من الطيور هذا؟".

رسائل (١) ٣٧٦: وسرعان ما كتب لها: "أنت المرأة الأروع فى إنكلترا كافة"،

وكتب لغارينت:

رسائل (١) ص٣٧٤ : "إنها رائعة.. إنها أفضل امرأة قابلتها حتى اليوم - إنها مدهشة، إنها حقاً... أوه، ولكنها امرأة للعمر كله".

فى البدء وطّدت فريدا نفسها أن تقيم علاقة قصيرة الأمد معه، ولكن الأمر بالنسبة للورنس كان إما كل شيء أو لا شيء..

فريدا : ألحّ عليها أن تخبر زوجها وترحل معه. وفى خلال رحلة قصيرة إلى ضواحى ديربى شاير راقبت لورنس وهو يلعب مع أولادها، منحنيًا على جدول ماء، من أجل أن يضع زوارق ورقية كان قد عملها، وأحست فجأة أنها تحبه. أمضيا عطلة نهاية الأسبوع الأخير من أبريل معًا فى سيرن. وفى اليوم التالى، أخذت ابنتيها إلى منزل جدهم فى لندن وتركتهما هناك، شاعرة "بفقدان الحس من أى معنى من شدة الألم". فى الثالث من مايو قابلت لورنس فى محطة جارينغ كروس. كان يمتلك أحد عشر باونداً فى جيبه. اجتازا القنال الرمادى وهما جالسان على بعض الحبال، يرقبان إنكلترا وهى تختفى مثل تابوت طويل بلون الرمال. وغرق فى البحر، الماضى والحياة القديمة.

فريدا : "لم يكن هناك غير البحر الرمادى والسماء السوداء واهتزازات "السفينة ونفسينا".

(٥)

أفضل ما عرفت

اجتمعت عائلة فون ريجثوفين بأكملها فى ميتز للاحتفال بالذكرى الخمسين لدخول البارون للجيش. أما لورنس الشخص المهجور فى معطفه المطرى وقبعته الجوخ، فقد مكث فى فندق صغير، بينما كان على فريدا تمضية أغلب أوقاتها مع أفراد عائلتها. قدمته بسرعة إلى شقيقتها:

رسائل (١) ص٣٩٥ : "عليك أن ترى آل ريجثوفين فى الدار – ثلاث شقيقات – الأولى وهى الكبرى، أستاذة جامعة فى علم النفس والاقتصاد – هجرت زوجها وذهبت مع رجلين آخرين (بالتتابع) – لكنها مع ذلك جيدة حقًا – جيدة من ذلك النوع من النساء اللواتى يحترمهن المرء. وتليها فريدا، وتأتى بعد ذلك الأخت الصغرى، إيلز، جميلة جداً، إنها متزوجة من ضابط فى برلين بهيمى مفعم بالنشاط والحيوية – وعلى نطاق واسع، مومس. إلهى، يا لها من عائلة. لم أر شيئًا مثل هذا قط".

فى اليوم الرابع، كان لورنس وفريدا مستلقيين عند حصن قديم مهجور، يتحدثان بالإنكليزية، عندما سمعهما شرطى، وقام باعتقال لورنس بتهمة التجسس، ضابط إنكليزى متنكر! ولم تتمكن فريدا من إطلاق سراحه إلاّ بواسطة نفوذ والدها، وهكذا انفضحت علاقتهما. أرغم لورنس على السفر، ثمانية أميال، إلى ترير ثم إلى والد برويل، ليمكث مع أقاربه هناك، عائلة كرينكو. ومن والدبرويل، كتب لورنس لها عدداً من رسائل الحب الرائعة، على الرغم من اندهاشها الشديد لأن عمق المشاعر فيها لم يحرك مشاعرها. ذهبت إلى أحد عشاقها بل وحتى أخبرت لورنس بالأمر فى محاولة لجعله يشعر بالغيرة، ولكنه رفض أى محاولة تهز قناعته.

رسائل (١) ص٤٠٣ : "ألا تحسين مدى يقين حبى لك وكم هو أكيد زواجنا القادم، دعينا ننتظر بعض الوقت فحسب، أن نصبح أقوياء من جديد.. شخصان مهتزان وبالأحرى مريضان معًا، إنها بداية سيئة – دعينا نأخذ وقفة قصيرة لأننى أحبك. أم هل يا ترى يجعلك الانتظار أسوأ؟ – لا، أبداً، إن كان الأمر مجرد وقت للإعداد والتهيؤ. هل تعلمين، يبدو أنى مثل الفرسان القدامى، أحتاج إلى وقت معين لإعداد نفسى، كنوع من اليقظة والسهر مع نفسى، ذلك أن الزواج منك أمر عظيم بالنسبة لى، فهو ليس اتحاداً نزقًا عاطفيًا سريعًا، أنا أعرف من أعماق قلبى "هذا هو زواجى". الأمر يبدو بالأحرى مروعًا – لأنه مهم فى حياتى – إنها حياتى – أنا مستفز بعض الشيء – أريد أن أعتاد الأمر. فإن اعتقدت أنه خوف أو تردد، فإنك تحكمين على خطأ. إنك أنت المسرعة الحائرة. إنها تلك القوة الحتمية لما هو آت، والتى تجعلنى أنتظر، كى أتهيأ للانسجام معه. إلهى العزيز، أنا سأتزوجك، الآن، ألا تدركين. إنه شيء أكبر مما عرفت حتى الآن...



ألفون رختهوفن رئيسة العائلة ؛ إلس، والبارونة، وفريدا

إنه أمر غريب، أن يحس المرء أن مشاعره ورغباته الحسية – لم تعد، بشكل ما، أمرًا تائهًا وضالاً، بل ثابتًا وهادئًا، أعتقد أن المرء عندما يحب، تصبح رغباته الحسية هادئة، نوع من قوة مستقرة بدلاً من أن تكون عاصفة، تدفع المرء إلى الهياج، وتكون بعيدة جداً عن الحب الحقيقى. إننى أدرك أمورًا ما كنت أعتقد أبداً أنى سأدركها – انظرى إلى تلك القصيدة التى أرسلتها إليك – لن أكتب ذلك لك قط ، سأحبك طوال حياتى. تلك هى أيضاً فكرة جديدة بالنسبة لى. لكننى أومن بها".

وأخيراً، فى ٢٥ مايو، بدأ لورنس مع فريدا، أسبوعًا من شهر عسل حقيقى. فى بيورغ بيرغ فى وادى أسار فى التيرول البافارى. كانت الليلة الأولى فشلاً:

ديوان شعر لورنس ص ٢٠٤ : لم أستطع أن أكون حراً

لم أحرر نفسى من الماضى، من الأخريات.

ولكن ذلك لم يقدر على إفساد سعادتهما. كان الأسبوع بمنزلة قصيدة رومانتيكية توحى بجو من الرضا والطمأنينة.

فريدا ص٥٢ – ٣ : "كان الألب يطوف فوقنا فى أشد زرقة شحوبًا. الأيسار يدفع مياهه الجليدية، مسرّعًا حركة (الأطواف) على طول الوادى فى الأسفل. وتمتد على مسافة ساعات من خلفنا، غابات الزان، فى اتجاه تيغيرنسى.

هنا بدأنا حياتنا معًا، وأى حياة. عشنا على الخبز الأسمر الذى كان يحبه لورنس، بيض طازج و"موجة صغيرة مترقرقة". فيما بعد، عثرنا على الفراولة وتوت الغليق.

كنا قد فقدنا كل إحساس تقليدى بالزمان والمكان. تلك الزهور اليانعة التى منحت للورنس، واليراعات فى الليل، وحشرات سراج الليل المتوهِّجة، وأولى أوراق الزان المنتشرة على الأشجار مثل حجاب رقيق فوق الرؤوس، وأقدامنا تنطمر فى أوراق الزان البنية المتبقية من العام الماضى .. كل هذه الأمور كانت زماننا وحوادثنا.

أتذكر (أن لورنس عندما عثر للمرة الأولى على الجينتين(*)، بدا وكأن لديه صلة غريبة بها، زهرة مفردة واحدة زرقاء، بدت وكأنها وهبت له زرقتها الشديدة وخلاصة جوهرها. كل شيء صادفه كان متّسمًا بحداثة الخلق، قد جاء إلى العالم فى تلك اللحظة بالذات).

وهكذا تقف زهرة الجينتين فى مدخل لورنس إلى الحياة، كما عند خروجه منها، كصورة للكمال والفردية. وبلغتها، كان عليه أن يسأل نفسه والآخرين، فى حياته وفى أعماله:

قصائد ص٦٨٤ : "أوه، ماذا فيك يستجيب لهذه الزرقة؟"

ومن إيكينغ كتب لورنس لسالى هوبكن فى شهر مايو:

رسائل (١) ٤١٤ : "العالم مدهش وجميل وطيب أكثر من أوسع تخيلات المرء. لن يقدر المرء، أبدًا، أبدًا، على تصور معنى الحب مسبقًا، أبدًا.

بإمكانها الحياة أن تكون رائعة – عظيمة مثل الآلهة. بإمكانها أن تكون كذلك. شكرًا لله، فقد أكّدت ذلك".

مع ذلك لم يكن كل شيء على ما يرام. فالماضى كان يشد فريدا بقوة أيضًا، عندما كانت فريدا تستنفذ شوقًا نحو أولادها، وكان لورنس يقسى فؤاده تجاهها لاعنًا، دامجًا إياها فى صورة أمه التى غدت الآن جامدة فى نظره.

هنا فى هذا المكان الصغير المتوحش، أصبحت أنا وفريدا بريين تماما. أنا أكره فكرة إنجلترا، هى وطقسها الذى يبعث على الخمول وأكره حداثتها البائسة الضبابية. أنا لا أود العودة إلى المدينة والحضارة. أريد أن أعيش حياة غير مرفهة وأذوب فيها حرًا حرًا. أنا لا أريد القيود. وأنا أستطيع العيش على القليل. لن أسمح لفريدا بتركى، إذا ما أستطيع ذلك. أحس أنى بصحبة رفيقة وسوف أبذل كل ما فى وسعى للمحافظة عليها. هى تقول: إنى أتحول، لكنى أقول: لا – أنا أعود إلى نفسى.

(*) الجينتين : زهرة من فصيلة الحنطايا، كبيرة زرقاء اللون. (المترجمة)

ومع ذلك لم تكن الأمور على مايرام. كان الماضى يجرف فريدا هى الأخرى. عندما استبد الحنين المجنون بفريدا رغبه فى رؤية أطفالها، كان لورنس يخفف عنها بصهر صورتها مع صورة أمه لاعنا.

قصائد ٢٠٨ : جميع "الأمهات اللواتى يحصن أنفسهن بالأمومة، يدمرن الخيال"

فكرة فقدانها كان عذاباً بالنسبة إليه، تماماً مثل قطع صلته التامة بالكون. أول إشارة له إلى الآلهة السود، كانت من أجل تحفيزهم لمساعدته فى التمسك بها:

قصائد ٢١٣ : "وإن لم أعد أراها ثانية
أظن، لو أخبرونى بذلك
سيكون بإمكانى زلزلة السماوات بفزعى
أظن، سيكون بإمكانى تغيير بنية الأشياء بعذابى
أظن، سيكون بإمكانى شق الكون بقلبى
أظن، فى اضطرابى الشديد، ستتكسر السماوات
إنها تعانى أيضاً
ولكن من يُخضعها، إن اختارتنى مقابلهم جميعاً؟
إنها لم تفضلنى نهائيًا، إنها تعلّق اختيارها
يا شعب الليل، توثا دى دانان، يا آلهة الظلام، احرسوا منامها .
ويا أشباح الظلام الرائعين، احملوا قراراتها فى النوم بعيداً،
لا تتركوا لها خياراً، اجعلوا ارتدادها نحوى، اجعلوا،
أواه، آلهة الظلام المفعمة بالحياة، قوى الليل).

كان هناك أيضًا القلق المتواصل بشأن المال. وبطبيعة الحال الصعوبات المحتمة لترويض شخصين قويين ومختلفين مثلهما. فريدا، فاقدة لحس المسؤولية الأخلاقية، متمردة، مبذرة، غير مفيدة تماماً فى شؤون البيت، مستلقية فى الفراش حتى ساعة متأخرة، المتسكعة هنا وهناك طوال اليوم، وسيكارة تتدلى من فمها متوقعة الخدمة والاحترام من الجميع، كحق تستحقه يعود لأصلها. ولورنس، المتمسك بالأخلاق، حتى فى شهواته الحسية، المرتب، المقتصد، القادر على تأدية كافة الأعمال المنزلية، يمتاز بالنشاط والحيوية، الكادح، المجدّ، الذى يتعامل مع عامة الناس بسهولة ودون تكلف. وإن كان هو يغار من أطفالها وعشاقها، فإنها كانت تغار من عمله، ليس بسبب الوقت والطاقة التى يبذلها فيه مستبعداً إياها فحسب، بل أيضًا تلك الطريقة التى بدا فيها منتزعًا حياة منها، محوّلاً إياها إلى قصص ومسرحيات وقصائد.

كانت فريدا مزيجًا استثنائيًا من الصراحة والإجحاف، من السذاجة والمكر، من الذكاء والغباء (أقنعت الدوس هكسلى أن بوذا كان محقًا فى جعل الغباء أحد الخطايا المميتة). كانت لا تؤمن بالأخلاق، حسيّة كليًا. فى غمرة سعادتهما، أبقت هارولد هوبسون فى البيت، فى حين ذهب لورنس برفقة غارنيت لجمع النبات فى الجبال. وعلاقتها بأنجلو رافاجلى، كانت مكشوفة فى أواخر أعوام لورنس تقريباً.



بطاقة معايدة بريدية أرسلها لورنس فى اليوم التاسع والعشرين من شهر أغسطس ١٩١٢

بعد وفاة لورنس مباشرة، وافق، مورى على العلاقة التى كانت عرضتها عليه قبل سنوات. كانت تحب لورنس وتعتمد عليه كليًا، كما اعتمد هو عليها، والعلاقات العابرة لم تكن تؤثر على علاقتهما. حاول لورنس، منذ البداية، أن يستأسد عليها. ولاحقًا، نالت انتقامها منه بعدة طرق. وإن كان لورنس قوة طاغية لا يمكن مقاومتها، كانت فريدا هدفًا صامدًا (عديمة التأثر عاطفيًا، وذبذبات صراعهما لا تزال تتردد عبر الأعوام).

"انظروا، لقد نجحنا " مدونة شعرية للمراحل الأولى من ذلك الصراع، بمباهجه وشقائه. لقد بدأت فريدا تدرك تدريجيًا عظمة الرجل الذى اختارته. وأما بالنسبة إليه، فلم يكن هناك اختلاف بين الإبداع

قصائد ١٩١ : الذى جمعه هو وفريدا بعلاقة سعيدة، وبين إبداعه الأدبى والفنى. ذلك ليس إنجاز الذات المتعمدة، فالاثنان هما نتاج الريح التى تهب فى نفسه، والتى عليه أن يفتح لها نفسه متناغمًا معها:

قصائد ٢٥٠ : "أوه للروعة المتدفقة إلى روحي
سأكون نبعًا صالحًا، معينًا طيباً
لن ألوث همسةً، لن أتلف تعبيراً".

قصائد ١٨٤ : كانت غريزة حقيقية، تلك التى قادت فريدا، بعد عشرين عامًا، لاختيار عنوان كتابها لهذا الزواج، "لست أنا، إنما الريح". الخطوات الواسعة التى بدأها لورنس فى فنّه، كانت بمنزلة تهشيم لجميع "الأنابيب والقنوات الاصطناعية والتى نحب كثيراً فرض تعبيراتنا من خلالها"، وذلك من أجل السماح لانبثاق أسلوب تلقائى فريد ومناسب. ونجاح زواجه كان أيضًا مسألة اختراق أفكار وأساليب حياة بالية وميتة.



غارجانانو عبارة عن مكان آيل للسقوط يوجد على طول البحيرة . لا يمكن الوصول إليه إلا بالباخرة ، نظراً لوجود جبال صخرية فى الخلف .

رســــائل (١) ص٤٢٤ – ٥ : (فريدا تريد الخروج من أوربا، والذهاب إلى مكان غير متحضر. إنه أمر مثير للدهشة، كم يصبح المرء بدائيًا مع الحب: أن يجد المرء نفسه فى منطقة نائية عن المدن، إنه مكان عجيب. لم أكن أعرف أبدًا أنى هكذا. كم هم الإنكليز مغفلون لعينون، يضعون أسيجة حولهم لإلغاء المدى الواسع الجامح لطبيعتهم".

بعد عشر سنوات حققت فريدا رغبتها. ولكنهما كانا قد امتلكا حريتهما، وأكّدا بالرحيل بعيدًا، فى أغسطس، وحقائب من قماش على ظهريهما، للسير من أسارتال فوق جبال الألب إلى مايرهوفن. وهناك مكثا أسبوعين ثم غادراها إلى ريفا، على بحيرة غاردا، برفقة ديفيد غارنيت وصديقه هارولد هوبسون، حتى إلى مسافة ستيرزنج. المرحلة الأولى من الرحلة استغرقت أسبوعًا، الثانية عشرة أيام. تذكرت فريدا هذه الرحلة باستمرار كأمر من أشد الأمور إشراقًا فى حياتها مع لورنس. لم يعرفا خلالها قط أى ملجأ سيجدان فى الليلة التالية، وكانا يمضيان الليالى فى أكواخ من القش، يشتريان الطعام من قرى يمران بها، يطبخان على موقد كحولى عند جداول الجبال. لقد تعلما العيش فى الحاضر، تاركين حبهما ينقلهما أمامًا إلى مغامرة كل يوم جديد. لقد أحسّا أنهما مثل آدم وحواء ينطلقان لاستعادة الجنة.

رســــائل (١) ص٤٤٠ – ١ : (بالنسبة لنا جاهدنا، فريدا وأنا، عبر أوقات صعبة نحو حميمية مجردة، متوهجة بالدفء تمامًا، وهى كما عرفت أخيرًا: الحب. أعتقد أنه يتحتم على عدم إلقاء اللوم على النساء، كما فعلت، بل أنا الملوم لأننى أعطيت حبى قبل اليوم للمرأة الخطأ، دع كل رجل يكتشف، مستمرًا فى المحاولة، حتى يجد المرأة التى تستحوذ عليه والتى يتمكن حبها من الاستحواذ عليه، وبعدئذ من ذا الذى



فيلا إيجيا فى المنتصف. "فيلا إيجيا توجد على الجانب المقابل من الطريق القادم من البحيرة ، وهى تطل على الماء . هناك فى ضوء الشمس - الجو مشمس دوما هناك - سوف أنهى رواية بول موريل ، وأكتب رواية أخرى - بعون من الله .

سيتذمر من الرجال أو من النساء. ولكن الأمر يجب أن يكون ذا وجهين. وعلى أى حال ومهما يحدث، أنا أحب حقًا، وهناك من يحبنى - لقد أعطيت وقد أخذت - وذلك أبدى. أواه، لو تمكن الناس من الزواج بشكل مناسب، أنا أومن بالزواج).

فى غار غنانو، انغمر لورنس فى إعادة كتابة رواية بول موريل. كانت فريدا، بطبيعة الحال، قد قرأتها، وكانا تعاركا حولها مثل "لهبين".

رســـــائل (١) ص ٤٤٩ : فريدا أخبرت لورنس، أنه "أضاع الغاية الأساسية"، إذ كان بول موريل، حالة كلاسيكية لعقدة أوديب التى تمزقت بها من خلال عشيقها السابق أوتو غروس، الذى كان واحداً من أتباع فرويد. وكتبت مسرحية هزلية قصيرة، أسمتها، بول موريل - أو حبيب أمه، جعلت لورنس ضجراً لكن لورنس الذى ربما لا يكون سمع مطلقا عن فرويد، قد يكون سمع عن أوديب أو هاملت. (لايمكن أن يكون اختياره جرترود اسما للأم من قبيل المصادفة.) يضاف إلى ذلك أن لورنس كتب فى العام ١٩٠٩ فى روايته" ليلة جمعة فى حياة عامل منجم، عن العلاقة (التى كات بين ايرنست لامبرت وبين أمه : "كلامهم ينطوى على رقة خطيرة - هذه قبل سنوات من التقائه فريدا، قد توصل إلى تقييم متغير تغيُّراً كليا عن والدته، وبالتالى وكما هو واضح فى شخصية الفريد ديورانت فى روايه الزواجان ، على سبيل المثال) غير لورنس تقييمه لوالده . يضاف إلى ذلك أن روايته الجديدة "أبناء وعشاق" التى جرى التنويه عنها فى أكتوبر من العام ١٩١٢، له مغزاه وأن معظم الإضافات التى زيدت على شخصية (إيرنست) الأخ الأكبر، حدثت فى ذلك الوقت . إلاّ أنه غيّر آراءه وتقبل وجهة نظر جديدة فيما يخص والدته وبالتالى، بعد عدة أعوام قال لورنس:

كان لورنس قد حاول ادخال بعض التعديلات النقدية فى شخصية الأم ("تدخل اشتياقها العاطفى فى مسألة تسميم أطفالها الصغار، أرواحهم الساذجة الصغيرة") ، لكن عندما أدرك لورنس أن تدلك التعديلات تتعارض مع خط سير الروايه ، قام بحذف ذلك النقد. كان مستحيلا فى هذه المرحلة المتأخرة تغيير مسار روايه بدأت على أنها إشاده بامرأة رائعة ، ليصبح ذلك التقييم على العكس من ذلك تماما.

فريدا ص ٧٤ : (سأكتب الآن "أبناء وعشاق" بشكل مختلف، كانت والدتى على خطأ، وكنت أظن أنها على الصواب تماماً). وثانية:

(كل امرأة تعتقد أنها أقوم أخلاقًا من الآخرين، يجب أن تعتبر شهيدة).

فى الحقيقة، لم تكن والدته بطبيعة الحال، مصيبة أو مخطئة، أو مصيبة ومخطئة فى آن واحد، والرواية، كما نعرفها، لا تصدر مثل هذه الأحكام، وهذا هو الأفضل بالنسبة لغموضها.

كان لورنس قد بدأ يكره بول موريل، وبالتالى ستشهد رواية أبناء وعشاق شخصية مختلفة لبول، الذى كان بامكانه التمرد والهرب. لكن الرواية التى كتبها لورنس فعلا كانت تراجيدية بشكل قاطع، كما أن مأساة بول تتمثل فى أنه ليس لديه تلك الخلطة الفريدة من الشجاعة المتهورة، والحق الذى مكن لورنس نفسه من تجنب المأساة.

لم يكن هناك مكان فى «أبناء وعشاق» لرؤيته الجديدة. كانت وثيقة عن حياته الماضية. وإرسالها إلى الناشر فى ١٥ نوفمبر، كان بمنزلة كتابة "النهاية" لتلك المرحلة من حياته. وعندما تسلَّم لورنس، (توبيخًا) من غارنيت حولها؛ حيث قال: إنها سيرة لا تزال غير محكمة الشد، رخوة إلى درجة كبيرة جداً، وكان ذلك الرأى بمنزلة ضربة قاسية للورنس. طلب لورنس الذى كان يتحرق شوقا لنشر الرواية من غارنيت حذف ما يراه ضرورياً.

وقد أدخل غارنيت تحسينات كثيرة إلى الرواية بحذف ما يقارب عشرها. كان السواد الأعظم مما حذفه غارنيت عن وليام ، الشقيق الأكبر لبول. استخدم لورنس حياة أخيه إيرنست المأساوية ليمثل بها على التفتت فى الروابط الأسرية، والتبذير والمسئولية المتمثلة فى المنزل والأم، والاندفاع المتهور سعيا إلى المتعة والإشباع الجنسى المتمثل فى لندن وخطيبته لويزا ليلى وستر دينس المبذرة المستهترة، التى وصفها بالغجرية. وعلى الرغم من بعض هذه المادة كان متعبا، فإن ضياعه غير طبيعة الرواية وأبعدها عن مغزى عنوانها لتصبح مجرد سرد سيرى ذاتى.

رسائل (١) ص٤٧٦ – ٧ : وعلى الرغم من أن لورنس شكر غارنيت على "تقطيعاته" من الرواية وشكره عليها، فقد أعرب عن مشاعره الحقيقية إزاء هذه الرواية فى رسالته إلى غارنيت فى اليوم التاسع عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩١٢:

أعدت كتابة الرواية مشذبا ومشكلا إياها – أقول لك : قد أصبح لها شكل – شكل بحق: لقد صبرت عليها لكى تكون عرقا ودما. الفكرة التى تقوم عليها الرواية هى : إمرأة راقية ذات شخصية تنخرط فى الطبقة الدنيا، ولم تحصل على الإشباع فى حياتها الخاصة . وهى تتحرق شوقا إلى زوج، وعليه يولد الأطفال وفيهم ذلك الشوق، وبالتالى يكونون مفعمين بالحيوية . لكن عندما يكبر أبناؤها تصطفيهم عُشَّاقا – وتبدأ بكبيرهم ، يليه ثانيهم – هؤلاء الأبناء تحثهم الأم على الدخول فى الحياة عن طريق

تبادل الحب مع أمهم – ويتزايد ذلك الحث أكثر وأكثر – لكن الأبناء عندما يصلون عهد الرجولة – يعجزون عن الحب ، لأن أمهم هى القوة الأكبر فى حيواتهم، وبالتالى تتحكم فيهم ... وعندما يبدأ الشبان الاتصال بالنساء، يقع الانفصام . هذا وليام يعطى جنسه لمستهترة، وهذه أمه تمسك عليه روحه. لكن التفتت يقتله، لأنه لا يعرف أين هو .

يحصل الابن الثانى على امرأة تقاتل من أجل روحه – أى أنها تقاتل أمه .

الابن يحب الأم – كل الأبناء يكرهون الأب ويغارون منه وتستمر المعركة بين الأم والبنت، والابن هو الهدف المبتغى . وتثبت الأم بصورة متدرجة أنها هى الأقوى، والسبب فى ذلك هو رابطه الدم. يقرر الابن ترك روحه بين يدى أمه، ويسعى إلى الوجد والعاطفة شأنه شأن أخيه الأكبر. ويحصل على الوجد – وهنا يبدأ التفتت والانقسام فى الظهور من جديد. لكن ذلك يحدث دون وعى، وتدرك الأم حقيقه الأمر، وتبدأ فى الموت. يتخلى الابن عن عشيقته، ويركز اهتمامه على أمه التى تُحتضر – ويترك الابن فى النهاية مجرداً من كل شيء، فى غمرة الاندفاع نحو الموت. إنها مأساة كبيره، لكنى أقول: لك إنى كتبت كتابا قيما. هى مأساة آلاف الشبان فى إنجلترا... أعتقد أنها كانت أيضا مأساة جون راسكن، وأمثاله من الناس. خبِّرنى إذا كنت لم أنجز تيمتى (موضوعى) مثلما يحدث فى الحياة، لكن الموضوع سيظل موضوعى الخاص دوما.

عندما لم يوافق غارنيت على ما قاله لورنس، لم يستطع الأخير الصمود. ولم يتمكن القراء من الحكم على الرواية إلا بعد أن قامت مطبعة جامعة كمبردج بنشر النص كاملا فى عام١٩٩٢.

* * *

رسائل (١) ص٤٨٧ : من يمن الطالع أن لورنس كان قد فكر فى ذلك الوقت فى رواية جديدة عن "عامة الناس"، وكانت تستحوذ على انتباهه:

(إنها ستكون حياة روبرت بورنز، ولكنى سأجعله يعيش قريباً من المنزل، رجل من ديربى شاير، سأضع الأحداث فى قالب روائى ... أعتقد أنى قادر على أن أكتب مثل سيرة ذاتية له).

مجرد قصاصات من الأصل بقيت، ولكنها كافية للقول بأن هذا البطل، جاك هيزيلداين، كان التخطيط الأول لتوم برانغوين فى رواية قوس القزح، والأول من قائمة طويلة لأبطال لورنس، كانت خواصهم الأساسية، كما أدرك متأخراً، سجايا والده: غريزى، غير مفكر، لا يمتلك دفء السلوك الأخلاقى، عفوى، انفعالى شديد، وهى صفات تعود للطبيعة البشرية، أكثر مما تعود للعقل. الإيطاليون كانوا كذلك: **رسائل (١) ص٤٦٠ :**

(أعتقد أنهم لم يكونوا يمتلكون أفكاراً كثيرة، لكنهم بدَوا بصورة حسنة، وكان مزاجهم حاداً).

وفرار لورنس كان إعلانا للحرب على المجتمع، ومعظم أعماله اللاحقة، كان تبريراً أو إطلاق حكم عام مستمد من ثورته الشخصية ضد ماضيه وما تبقى من ذلك الماضى، ضد والدته وإيستوود وإنكلترا وأخيراً ضد القيم الأساسية للحضارة الغربية، وجميع أعماله هى استعارات لهذه الثورة. وعبر تجربته الجديدة، تدفقت عليه كالطوفان، أفكار جديدة. حاول لورنس التخلى عن كل المعتقدات والسلوك الأخلاقى القديم، إلا أنه مختلف عن فريدا، فلم يكن من طبعه أن يعيش دون نظام غيبى، لهذا حاول أن يصوغ

واحداً جديداً، مستمداً من المادة الخام لتجربته الشخصية، وجزئيًا عبر قلب بسيط للنظام القديم.

محاولاته الأولى لإعلان عقيدته كانت مترابطة عقليًا ولكنها متطرفة. فى ١٧ يناير ١٩١٣، اليوم التالى لمشاهدته الممثل العاطفى إنريكو بيرسيفالى، وضع لورنس نفسه عبر المخاوف والانعطافات غير المتوقعة كافة التى اجتازها هاملت، وكتب إلى إرنست كولنغز :

رسائل (١) ص٥٠٣ – ٤ : (دينى العظيم هو إيمان بالطبيعة البشرية؛ وبالجسد، كونهما أحكم من العقل. قد نفكر بشكل خاطىء بعقولنا، ولكن ما تُحسُّه طبيعتنا البشرية وتؤمن به وتقوله، هو صحيح دائمًا. العقل هو مجرد شكيمة ولجام، ما الذى يهمنى من المعرفة! كل ما أريده هو الاستجابة لطبيعتى مباشرة، دون العبث بتدخل الفكر أو الأخلاق، وهلم جرا.

أعتقد أن جسد الرجل نوع من اللهب، مثل لهب شمعة، عمودى دائمًا ومع ذلك يفيض باستمرار: والعقل هو مجرد الضوء الذى يسيل نحو الأشياء المحيطة بنا... هذا هو سبب حبى للعيش فى إيطاليا. الناس هنا غير واعين. إنهم يحسّون ويريدون فحسب: إنهم لا يعرفون. نحن نعرف الكثير جداً. لا، نحن نعتقد فحسب أننا نعرف كثيراً. اللهب ليس لهبًا؛ لأنه يضيء شيئين أو عشرين شيئًا على مائدة ما. إنه لهب، لأنه هو ذاته. ونحن قد نسينا أنفسنا. نحن هاملت بدون أمير الدانمارك. لا نستطيع أن نكون، نكون أو لا نكون" – إنه السؤال الذى يلازمنا اليوم بالتأكيد. وكل إنكليزى يقول تقريبًا: "لا نكون"، ولهذا فهو ينضم إلى فلسفة الخير والإصلاح أو ما يماثلها من أشكال "لا نكون". الطريق الحقيقى للحياة هو الاستجابة لمتطلبات المرء. أنا "لا أريد أن أنير الكثير من الأشياء بذكائى وقدر استطاعتى"، ولكنى أريد العيش حسب الطاقة الكاملة لشعلتى – أريد تلك الحرية، أريد تلك المرأة، أريد ذلك الرطل من الخوخ، أريد أن أذهب إلى النوم، أريد أن أذهب إلى الحانة وأستمتع بوقت طيب، أريد أن أبدو اليوم فى غاية الأناقة، أريد أن أقبل تلك الفتاة، أريد أن أهين ذلك الرجل".

الأفكار التى شرحها لورنس لكولينغز تبدو مألوفة لنا اليوم، وأخطارها بالنسبة إلى إدراكنا المتأخر، جلية وواضحة، وتلك الأفكار بدت جديدة جداً بالنسبة للورنس الذى كان نيتشه، فحسب، متقدمًا عنه. وأولى الصيغ التى قدمها، هى مزيج من انحياز نحو نيتشه، ومن معكوس النظرية اللاهوتية البروتستانية. بعد ثلاثة أيام، طوّر لورنس هذه الأفكار إلى مدى أبعد، فى مقدمة روايته «أبناء وعشاق» حيث أصبح أكثر تشوشًا وأشد تطرفًا:

"لكن إن كانت رغبتى أن أذبح جارى، فإنها ليست خطيئتى، إنها خطيئته؛ إذ كان عليه ألا يسمح لى بذلك".

والتشوش الذى تواصل عبر البحث الذى كتبه بعنوان "دراسة عن توماس هاردى"، والذى لم يتبدد حتى بحثه المعنون "التاج"، فى ١٩١٥، هو ثمرة لورنس، فى قلقه لعكس القيم التقليدية، متقبلاً أن الثنائية، هى المسؤولة عن التناقضات، وأن فرضيته المنافية للعقل التى ظهرت بعد تمجيده المفاجىء لوالده، كانت بسبب أن الأب هو الجسد، إلاّ أن المرأة، بوصفها أوًا، هى أيضًا جسد، ولهذا فإن الأب هو امرأة، لا عجب أن لورنس أخبر غازيت:

رسائل (١) : "كنت سأموت خجلاً، إن كانت تلك المقدمة طبعت".

(٦)

أرض مجهولة

مع الانتهاء من «أبناء وعشاق» باشر لورنس مرحلة من إبداع لا يصدق، مع المزيد من القصائد لمجموعة النظر، منها مسرحيتان، (النزاع من أجل بارباره وزوجة الابن)، غسق فى إيطاليا، والرواية الناقصة، وإحراق، التى تخلى عنها من أجل "عصيان الآنسة هوتون".

وفى منتصف فبراير كتب لغارنيت:

رسائل (١) ص ٥١٧ : "هذه الرواية الجديدة تمضى بسرعة تماماً، مثيرة، مستفزة لعقلى، وهى ربما صريحة بعض الشىء".

فى منتصف شهر مارس كان قد كتب منها ٢٠٠ صفحة، وهو على الرغم من تواصل شغفه بها فقد قرر

رســـائل (١) ص٥٢٦ : أنها غير مهذبة إلى درجة كبيرة، فوضعها جانبًا ليكتب عملاً معصومًا من الإثم، من أجل النشر وكسب المال.

فى ٤ أكتوبر، كان لورنس قد قرأ، "آنّا المدن الخمس":

رســـائل (١) ص٤٥٩ : "أكره إنكلترا وخيبة الآمال فيها. أكره استقالة بينيث. يجب أن تكون التراجيديا، رفسة كبيرة تماماً نحو الشقاء. لكن «آناّ المدن الخمس» تبدو حالة مقبولة. وهكذا شأن كل الحشو الحديث منذ فلوبير. أنا أكره ذلك. أريد أن أغتسل من إنكلترا ثانية، وبسرعة، إنكلترا الشيخوخة البالية والوضاعة واليأس".

كان قد قرر مأساته برفسة كبيرة نحو الشقاء، وخرج سالمًا، واغتسل من إنكلترا فى شمس البحر الأبيض المتوسط. لقد وجد أملاً وطاقة جديدين فى الصراع الخلاق للزواج. كان يريد أن يكتب ردًا لآنّا، متضمنًا إحساسه بما قد (برهن) عليه. بقيت الفكرة هاجعة ثلاثة أشهر، ثم تذكر "فلوسى كولن" فتاة إيستوود التى قامت بواجب التمريض لوالدته فى مرضها الأخير، والتى كانت تعزف على البيانو فى دار سينما لوالدها، وكان قد بدأ فى وصف عائلتها فى النسخة الأولى من بول موريل، وثانية فى، "أمى التى جعلت من حياتها فشلاً"، مانحاً للعائلة اسم، "كلفرويلز".

لقد تحولت فلوسى كولن إلى الفينا هوتون، وكان تمردها ضد الموت المعيش فى وود هاوس (إيستوود) وإنكلترا.

رســـائل (١) ص٥٤٤ : تهرب ألفينا مع جيكيو، وهو لاعب فى سيرك إيطالى. وممارستهما الحب، أمر ضرورى. ولكن جواب لورنس "للعوز الحقيقى العميق للشعب الإنكليزى"، هو ليس ببساطة من أجل (جعل الجنس أمراً حراً

رســـائل (١) ص٥٢٦ : وصحيًا)، بل عن قناعة دينية من إمكانية ولادة جديدة، هى موجودة أصلاً، فى قلب كل رجل وامرأة. لقد أحسّ أنه قد ذهب حقًا إلى "طبقة أعمق" فى هذه الرواية؛ لأنه خلق وود هاوس، بكل "حقيقيتها" المتشابهة لشخصية بينيت والمجتمع والمال والملابس والآثاث وأمور وضيعة و"مظاهر محلية"، وكل ذلك من أجل فرقة من الممثلين المحتالين من الهنود، جعلها تختفى عند حركة مفاجئة لرأس مزين بالريش.



فلوسي كولن (١٨٧٩ - ١٩٢٤) كبرت وكانت فتاة رشيقة ، متميزة إلى حد ما من حيث المظهر ، ووجه صبوح ، وأنف معقوف بعض الشيء ، وعينان جميلتان رماديتان، من فوقهما حاجبان يوحيان بالتهكم»

رســـائـل (١) ص٥١٩ : وطرح ألفينا جانبًا، كل ما كان يربطها بحقيقة زائفة، كان بالنسبة للورنس نموذجًا لفعالية أية مخيلة خلاقة وأصيلة.

(أليس الأمر صعبًا؟! عمل دؤوب جاد للوصول إلى استحواذ حقيقى لمخيلة المرء - "دع كل الأمور جانباً"، أحس باستمرار كأننى وقفت عارياً كى تتخللنى نار جهنم - وهو بلا ريب، إحساس مرعب، على المرء أن يكون شديد التدنّى، كى يكون فنانًا).

وأحد الأمور التى كان يجب طرحها جانبًا، فكرة الشكل الروائى التى كان يتشبث بها بينيث وغالزوورتى وغارينت وتقريبًا كل شخص آخر فى ذلك الزمن. وحدها فريدا التى كانت تعرف ما الذى يهدف إليه لورنس، وشجعته عليه. وقد كتبت إلى إدوار غارينت:

تـيـدلـوك ص١٨٥ - ٦ : (لقد سمعت الكثير من إيرنست حول "الشكل"، لماذا، أنتم الإنكليز، مهتمون بالأمر كثيرًا؟ إن صيغهم تريد التهشيم فى كل الاتجاهات تقريبًا. ولكنهم لا يستطيعون الخروج من قوقعات حلزوناتهم. إن الأمر أسلم كثيرًا. وذلك ما يجعلنى أحب لورنس؛ لأنه جرىء جداً، مخلص فى عمله، لديه الشجاعة للخروج إلى أرض مكشوفة، وفى الحقيقة، إنه الثورى الوحيد الجدير بالاسم، وما أعرفه هو أن أى شيء جديد يجب أن يكون له شكل جديد، كى يطلق عليه، فيما بعد، "فن"... أنا واثقة من كونه فنانًا حقيقيًا، الطريقة التى تنساب منها الأمور، أنه يبدو، قلمًا، فحسب، أليس ذلك ما يجب أن يكون الأمر عليه؟).

ولكن أى أمل هناك فى قراءة لفن حديث متحدٍ والذى يجعل المؤلف نفسه غير قادر على فهمه؟

رســـائـل (١) ص٥٤ : "إننى أعمل فى رواية لم أستطع إدراكها أبدًا. اللعنة على بؤرتها، ها أنا فى الصفحة ١٤٥، وليست لدى فكرة عن ماذا تدور. أنا أكرهها. و(ف)، تقول : إنها جيدة. ولكنها مثل رواية بلغة أجنبية لا أعرفها جيداً - بمقدورى فقط فهم الأمر الذى تدور حوله".

كانت الرواية الجديدة هى "الشقيقتان"، عمل من أجل كسب المال، "تطورت الآن إلى عمل جيد وشاق"، والتى تطورت إلى نحو أبعد فى الأعوام الأربعة اللاحقة إلى روايتين من أعظم الأعمال الإنكليزية: قوس القزح ونساء عاشقات.

الواضح من الرسالة، أن "الشقيقتان" هى عن الزواج:

رســـائـل (١) ص٥٤٦ : "بإمكانى الكتابة فقط، عن أمور أتحسسها بقوة: وهى فى الحاضر، العلاقة بين الرجل والمرأة، بعد كل شيء، إنها مشكلة اليوم، تأسيس علاقة جديدة، أو إعادة ترتيب العلاقة القديمة، بين الرجل والمرأة".

* * *



أنا متزوج الآن من عام ... وهذه أحسن من عرفت ومن سأعرف منهن

لقد مضى الآن عام على فرار لورنس وفريدا، كانا يعيشان "منذ منتصف إبريل" فى إيرشينهاوزن، فى منزل بهيج خشبى منتصب فى زاوية من غابة الصنوبر، فوق مرج مرتفع مغطى بمختلف أزهار الربيع ومنها زهرة الجينتين، ويطل على جبال الألب الثلجية:

رســـائل (١) ص ٥٤٣: "(ف) وأنا وحدنا تمامًا، المنزل من نوع المنازل الصيفية، إنه صغير، يعود لزوج شقيقتها، أعاره لنا لشهر أو اثنين، إنه فريد، تتناول الغزلان طعامها أحيانًا فى زاوية بين الزهور. ولكنها تركض فى قفزات سريعة، عند خروجى من البيت، وعندما أصفّر للأرنب البرى بين الحشائش، يرقص حول المكان باندهاش".

فى ذلك الوقت، كان لورنس مستفيداً من براعته فى العثور على أماكن جميلة للعيش، لكنهما، فريدا وهو، كانا يحملان سعادتهما معهما.

فى يونيو ١٩١٣، كتب لورنس فى إيرشينهاوزن، اثنتين من أفضل قصصه: "الضابط البروسى" و"شوكة فى الجسد". ولكن شوكة كانت لا تزال فى جسده هو. لم تعد فريدا قادرة على تحمل المزيد من الانتظار لرؤية أبنائها. دب شجار بينهما، كسرت خلاله إناء على رأسه (الأول من كثرة)، وهربت ليومين. بعد ذلك، اتفقا على العودة إلى إنكلترا معًا. وفى حالة عدم حصول لورنس على مبلغ كاف من المال من «أبناء وعشاق» كان عليه العودة إلى التدريس. وصلا سيرن فى ١٩ يونيو، وبعد يومين وصله صك بمبلغ ٥٠ جنيهًا إنكليزيًا من دوكوورث.

* * *



جون ميدلتون مورى وكاثرين مانسفيلد ، فى لندن فى العام ١٩١٣ .

ولدت كاثرين مانسفيلد باسم كاثرين بيوجامب، فى نيوزيلندا عام ١٨٨٨، كان والدها مدير مصرف نيوزيلندا. وقد غادرت إلى إنكلترا وهى فى الخامسة عشرة من أجل إكمال دراستها، وأبدت بسرعة نزعة طبيعية لاستغلال أى شخص مستعد للاستغلال، وكان أول ما قامت به تحويل صديقتها فى الدراسة، "إيدا بيكر"، إلى عبدة مدى الحياة لها. ولاحقًا، كانت مستعدة تمامًا لاستغلال جاذبيتها، كامرأة، لنفس الغرض، كما فعلت مع كل من، س. س، كوتيليا نسكى ومارك جيرتلر. وهى بتجردها من المبادىء الأخلاقية، عجلت من قبولها ككاتبة قصة قصيرة، وبانتحال قصص من تشيكوف. لفت انتباه معظم الناس، كونها انتهازية ومختسلة فى آن واحد، ومع ذلك كان بمقدورها أن تكون ماهرة وجذابة.



صورة للورنس التقطها له و . ج . باركر فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو من العام ١٩١٣ حاجب عريض بارز ، وعينات شديتا الزروقة ، صافيتان وحساستان ، ومتباعدتان كثيراً بعضهما عن بعض – مظهره مظهر غزال صغير ، شبيه بنبى ، وشباب للغاية ، لم يكن بعد قد نمّى اللحية الصفراء المائلة إلى السمرة التى يذكره بها السواد الأعظم من الناس . لم يكن يضع وقته – لم يفعل ذلك قط – فى الكلام الصغير لكنه كان يغوص غوصاً نظيفًا فى موضوع يهمه ، ولم يفشل فى جعل مثل هذا الموضوع مهماً للآخرين ، كانت الكلمات تنساب منه . كان يتحدث بعبارات وامضة ؛ وكان يلجأ إلى العامية أحيانًا ، من باب التحدى ، ولكن عاميته كانت تمتاز بجمال النطق والسياق بشكل مدهش . كان صوته أجشَّ حينا ، ورقيقا حينا آخر . كنت تراه مغّنيًا حينًا ، وفرحًا حينًا آخر ، ومتهكما وساخراً حينا ثالثا. (السيدة سينثيا أسكويث) .

كان جون ميدلتون مورى أحد أفراد الطبقة المتوسطة الدنيا، شاباً مثقفاً من كامبيرويل، يصغر كاثرين بعام واحد. وكان بعد إنهائه الدراسة فى أكسفورد، قد ذهب إلى باريس، لينفّس عن بعض مكبوتاته، ثم عاد إلى أكسفورد ليصدر مجلة، "الريثيم"، التى كان مقرراً لها أن تحمل انطباعة من باريس إلى لندن. قابل مورى كاثرين فى عام ١٩١١، فى الوقت الذى كان لها زوج وعشاق عديدون وحالتان من الإجهاض. وبدعوة منها انتقل مورى ليعيش معها. كان مورى متغطرساً ومتملقاً فى آن واحد، وكان فى جميع الأحوال واعداً لفعل الأمر الخطأ، متعمداً ذلك جزئياً، من أجل أن يمنح نفسه فرصة كبيرة لاستعراض موهبته فى تخريج النفس.

كتبت كاثرين فى يناير ١٩١٣ إلى لورنس تدعوه للمساهمة فى الريثيم. ساهم لورنس بعرض نقدى لـ"الشعر الجورجى – ١٩١١ – ١٩١٢، مقتطفات أدبية"، كان هو ممثلاً فيها بـ (نبات السمكة(*)). نشرت المقالة فى عدد مارس، الذى كان الأخير، ولكن مورى ومانسفيلد، برزا فجأة مع الـ(بلوريفيو). مرة أخرى، ساهم لورنس بمقالة عن توماس مان فى العدد الذى غدا الأخير، (يوليو ١٩١٣). وفى المقالة، ينتهز لورنس الفرصة للدفاع عن منهجه الفنى عن طريق مهاجمة كتّاب من أمثال فلوبير ومان:

فونيكس ص٣١٢ : "الحياة المادية هى فساد غير منظم، والكاتب بإمكانه ذلك بسلاح واحد فقط، وهو إحساسه الفنى المرهف، إحساسه تجاه الجمال، تجاه الكمال، إلى حد يتوافق معه، ويمنحه سعادة داخلية، مهما كانت درجة فساد مادة الحياة.. وهو حتى إن كان يمتلك إيقاعاً فى الأسلوب فإن عمله، على الرغم من ذلك، لن يمتلك أى إيقاع للحياة المفعمة بالحيوية".

فريدا ص٨٥ : (قام لورنس بزيارة الموريّان – مورى وكاثرين – (سأطلق عليهما ذلك، إنهما لن يتمكنا من الزواج حتى عام ١٩١٨)، وسرعان ما أصبح الأربعة أصدقاء. "صداقتهما، كانت الوحيدة التلقائية المبهجة التى كانت لنا". أعجبت بهما فى الحال، عندما لفتا اهتمامها، بينما كان يكشر أحدهما للآخر فى الباص. وقد دعا لورنس وفريدا الاثنان لزيارتهما فى برود ستيرز، حيث أقاما معظم شهر يوليو، وسبح الأربعة عراة.

ضيف آخر زارهم فى برود ستيرز، وهو إداورد مارش، محرر "مقتطفات من الشعر الجورجى".

رسائل (٢) ص٤٨ : "نحن رفيعو المنزلة تماماً. جاءنا إدوارد مارش يوم الأحد، (إنه المسؤول عن الشعر الجورجى والسكرتير فى أدميرالية ونيستون تشرشل)، وقادنا لتناول الشاى مع هيربرت أسكويت – إنسان طيب ومرح – ابن رئيس الوزراء. سأقابل اليوم السير والتر رالى، ومع الأسف إنه ليس صاحب العباءة".

كتب مارش لريوبرت بروك، والذى سيقوم لاحقاً بمهمة تقديمه للورنس، إن اللورنسين (يعنى لورنس وفريدا) قد حققا نجاحاً هائلاً.

نيهلز (١) ص١٩٩ : "إنه يبدو مريضاً بشكل فظيع، وأخشى أن يكون كذلك – زوجته ممتلئة الجسد، موفورة الصحة، ذات سمات تبدو ألمانية، يظهر أنهما سعيدان جداً معاً".

وفيما بعد، اعتذر لورنس لمارش، لتقديمه فريدا على أنها زوجته. وهو لدى دعوته إلى إيستوود، فى أوائل شهر أغسطس، كان عليه الذهاب بمفرده، دون فريدا، لأن أدا (شقيقته) مع علمها بها، فإن جورج

(*) نبات ذو زهر أبيض أو قرمزى أو أصفر (المترجمة)

وإميلى لم يكونا على بيّنة من الأمر.

أما فريدا فلم تتمكن بعد كل شيء من رؤية أولادها. وعندما ذهبت كاثرين للتوسط فى الأمر إلى مدرسة سان بول أرسل ابنها كلمة إليها مع ولد آخر، "إنه لن يتحدث مع أناس يأتون إلى المدرسة لرؤيته".

عادت فريدا إلى إيرشينهاوزن بمفردها، ثم التحق بها لورنس فى ٨ أغسطس.

* * *

كان لورنس قد انهمك فى إنكلترا، وبشكل أساسى بكتابة القصص القصيرة والقصائد. وفى هذا الوقت عاد إلى "الشقيقتان".

النسخة الأولى كانت تسرد بصيغة المتكلم، من قبل البطلة، إيللا تيمبليمان، نموذجًا لكل من لوى وفريدا. وعلم لورنس، قبل أن يخبره غارنيت بذلك، أن هذا الأمر لن يكون مناسباً:

رسائل ص ٥٥٠ : "ولكن الأمر كان مفيداً، للتنظير بآرائى، ولوصف معبود فريدا بكل مجده.. كان ذلك المادة الخام الأولى للكتاب. سأضعها الآن فى قالب فنى".

كانت هناك بدايتان خاطئتان، ولكنه مع الوقت الذى غادرا فيه إلى ألمانيا وسويسرا و"معشوقته" إيطاليا، وذلك فى منتصف سبتمبر، كان قد كتب ١٠٠ صفحة. وفى ليريسى، حيث كان عليهما العيش لثمانية أشهر، استطرد فى الكتابة بشكل سريع: "خريفى المتفجر للعمل".

كان لورنس قد اجتاز منفرداً سويسرا إلى إيطاليا. والفصل الأخير من "غسق فى إيطاليا"، يسجل إحساسه المنبعث لرؤيته جبال الألب بوصفها صورة للموت:

إن المصدر تام النقاوة لطلوع الفجر هو التحلل، وجوهر الموت البارد هو قمة الجبل الثلجية، فوق.. هناك حيث يتواصل تجمع البلورات البيضاء، خارج البرد المميت للسماوات. هذه هى نواة الكون، حيث يلتقى الموت بالحياة فى أوله. ومن ثمّ، من بياضهما، من مزيج النواة المشعة والموت، يسيل الدفق العظيم إلى أسفل نحو حياة ودفء".

مـــــــــود : ويذهب لورنس يرافق "موت الحياة" هذا مع "الآلية الكاملة للحياة البشرية"، فى الصناعة الحديثة، متمثلاً بالتالى نهاية "نساء عاشقات"، حيث جيرالد كريج، الصناعى البارز، يلقى الموت، بفعل برد تام مطلق فى هذه الجبال نفسها. وهذا الأمر لا يثير الدهشة، عندما ندرك أن مادة (الشقيقتان)، كانت أعدت فى هذا الوقت، وهى قصة "فتاتين استثنائيتين"، إيللا (لاحقًا أورسولا) وشقيقتها غودرون (مستقاة من نوش)، وحبيبهما الشخصيين، بيركن (الشخصية مستقاة تمامًا من لورنس نفسه) وجيرالد كريج والذى تاريخ عائلته هو تاريخ آل باربر، مالكى مناجم الفحم فى إيستوود، وبكلمات أخرى مادة مستقاة حصراً من (نساء عاشقات)، التى لم تنته حتى أواخر ١٩١٦، وليست من قوس القزح التى اكتملت فى أوائل ١٩١٥ فى ديسمبر قرر لها عنوانًا جديداً، "خاتم الزواج". والزواج الذى يتحدث عنه هو بالتأكيد ذلك بين بيركن وأورسولا:

رســـــائل (٢) " على أن أجعل إيللا تمتلك بعض التجارب قبل التقائها بالسيد بيركن، كما أنى أحسست أن الشخصية ميالة
١٤٢ : إلى الانشطار نصفين مع التداخل بينهما. وجاء ذلك من محاولة تطعيم شخصية لوى بشخصية فريدا تقريباً ".

كان غارنيت قد عارض "حكاية تيمبيلمان – علاقة مفترضة بين إيللا وابن عمتها، والتي نمت منها حكاية سكر بينسكي في قوس القزح. وعندما يبدأ لورنس للكتابة ثانية في أوائل فبراير، يصف النسخة الجديدة تقريباً وكأنها رواية جديدة بموضوع جديد.

رسائل (٢) : (كان في "الشقيقتان"، بذرة هذه الرواية: نساء يصبحن مستقلات، مسؤولات عن أنفسهن، لهن حق المبادرة).

ص١٦٥ : كل تلك الأمور كان عليها أن تحدث، قبل أن تكون أورسولا مهيئة لمقابلة بيركن.. ويبدو الأمر بهذا الشكل، أن قوس القزح قد نمت من بذرة في خلفية "الشقيقتان"، من الحاجة لإعطاء بطلته، "بعض التجارب في الحب والرجال"، والذي هو من مستلزمات وصف مراهقتها، ولم يكن بالمستطاع تناوله بشكل مناسب من دون طفولتها وعلاقتها بوالديها، والمنطقة التي عاشت فيها، وطبقتها وثقافتها، أدرك لورنس أنه لو ابتدأ بجدَّي أورسولا، الفلاحين الصغيرين اللذين لم تتغير طريقتهما في الحياة منذ أجيال، فسيكون قادراً من خلال الأجيال الثلاثة لعائلة برانغوين على تكثيف التاريخ الاجتماعي للحياة الإنكليزية، من فترة ما قبل الثورة الصناعية إلى الحاضر. النسخة الثانية انتهت في مايو ١٩١٤ وتغير العنوان إلى قوس القزح :

رسائل (٢) : "عنوان أفضل من خاتم الزواج، لكتاب كما هو عليه الآن". العنوان الجديد يمتد ليشمل الأجيال الثلاثة،

ص١٧٤ : مختلفاً بذلك عن العنوان الأول، وعلى الرغم من أن قوس القزح هو رمز أيضاً للزواج، لأي علاقة متوافقة وخلاقة، لأنه يمتلك احتمالات رموز مركبة عديدة، من متواليات هندسية إلى غيبيّة ما ورائية، والتي تمكن لورنس من استغلالها بعض الشيء بشكل مختلف لكل جيل من الأجيال.

التأكيد الجديد على التطور المبكر لأورسولا، أفاد أن لورنس كان في حاجة لانتزاع الشيء الكثير مما تتذكره فريدا من تجارب مراهقتها ومراهقة شقيقتها إيلز، في فبراير كتبت لغارنيت:

رسائل (٢) : "أنا منطلقة لإلقاء نفسي في الرواية، وسترى ما سيكون الأمر".

ص١٥١ : بعد شهرين كتب لورنس إلى موري:

رسائل (٢) : "لقد كتبت ألف صفحة تماماً وسأقوم بحرقها. ولكننا الآن، وشكراً لله، أنا وفريدا معاً والعمل عني

ص١٦١ : وعنها، وهو جميل". وكان على لورنس الاعتماد أكثر وأكثر على فريدا من أجل النقد البناء أيضاً، إذ كان في هذا الوقت يشق طريقه في أرض جديدة، حيث لم يكن غارنيت راغباً أو قادراً على اللحاق به:

رسائل (٢) : "أنت تعلم كم أنا متشوق لسماع ما عليك قوله والأخذ بنصيحتك والعمل بموجبها عند استلامها. ولكن

ص١٦٥ : الأمر لا يعد نافعاً ما لم تتمتع بالصبر وتدرك ماذا تريد أن أفعل. أنا، على أي حال، لم أعد طفلاً يعمل بشكل ضال. هناك في داخلي، طوال الوقت، شيء عميق يطور نفسه مني. الأمر صعب لشرح شيء جديد بإخلاص وستكون مدركاً وتساعدني نحو الشيء الجديد".

أحس لورنس أن عامه الثاني مع فريدا كان كسولاً، ولكنه إضافة إلى الصفحات الألف تلك، كان قد كتب عدة قصص جيدة وعدداً من القصائد لـ"لوك" وأنهي، غسق في إيطاليا. وبالتأكيد فإنهما استغلا تماماً فرصة وجودهما في ليرسي، في السباحة، والرحلات قصيرة، وجمع السمك، وتبادل الزيارات مع أسر إنكليزية أخرى مع كونهما ضيوف شرف في حفلات زفاف الفلاحين وفي احتفالاتهم:

رسائل (٢) : "أوه، المكان جميل جداً هنا، أحس وكأن قلبي يقفز خارجاً من صدري، مثل أرنب وحشي في الليل –

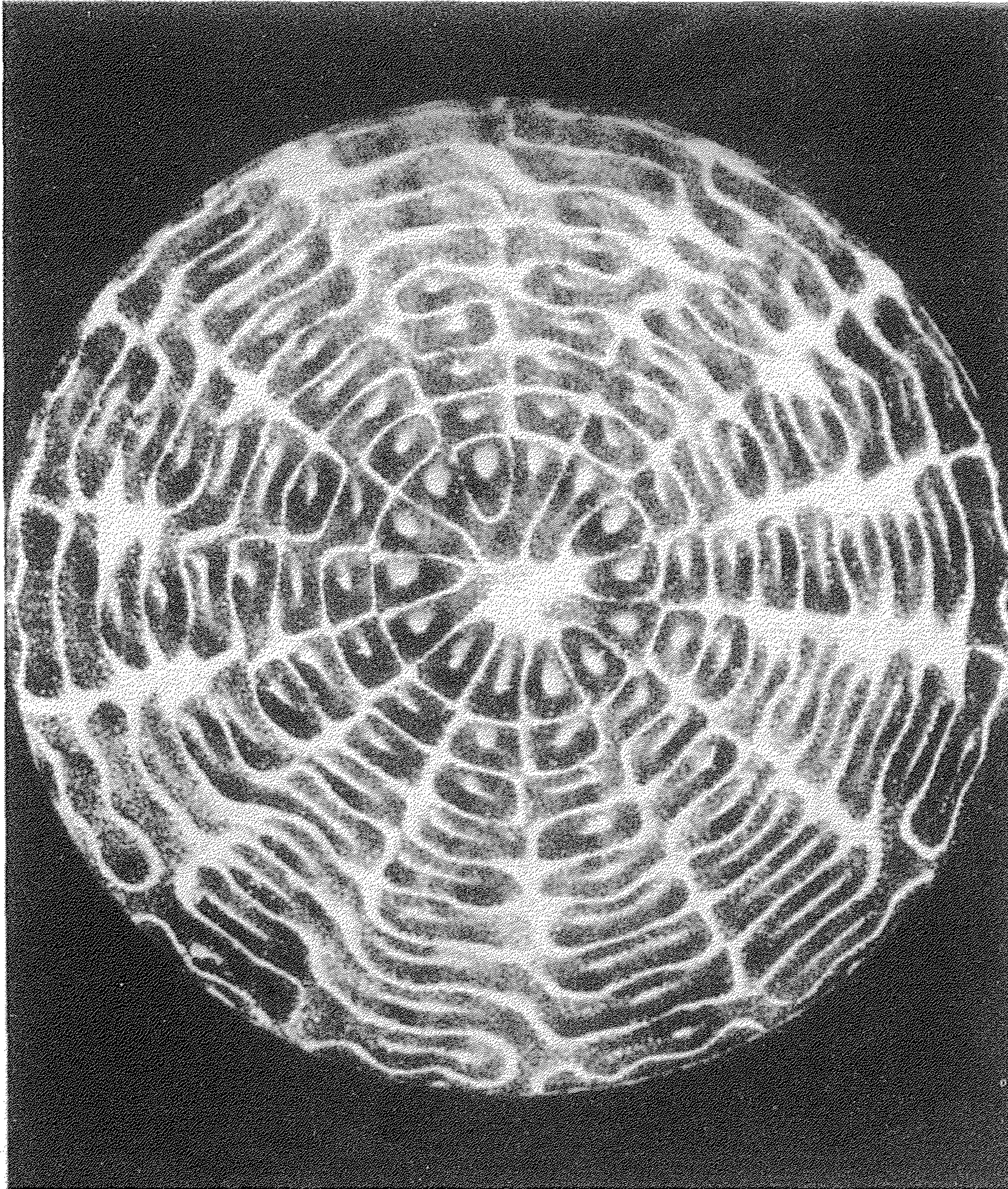
ص١٥٦ : إنه ربيع جميل جداً. البحر أزرق طوال اليوم، وزهرة الربيه بريمروز يصبح لونها مشمشياً في المساء. توجد هنا الزهور بكثرة، وأشجار الخوخ مزهرة، وأشجار اللوز الوردية بين أشجار الزيتون الرمادية – الضبابية".

لم يكن لورنس يمتلك أى رغبة لترك ليرسى، ولكن طلاق فريدا أعلن مطلقًا، فى شهر مايو. وقد تسلَّمت من إيرنست "رسالة سلامة العقل"، وبدأت تتوق ثانية وبشدة لأطفالها. قررا أن يغادرا إلى إنكلترا وعقد الزواج هناك، معتزمين العودة إلى إيطاليا فى أغسطس.

كانت رسالة لورنس الأخيرة من ليرسى محاولة شرح يائسة لغارنيت عما كان يحاول أن يفعله فى قوس القزح. لم يحب غارنيت الرواية، معتقداً بخطأ التركيبة النفسية لها، إلاّ أنه لم تكن هناك لغة مشتركة ممكنة للورنس والتى يصف بها سيكولوجيته الجديدة، وكان عليه اللجوء إلى استعارات غامضة، استمدت معظمها من جعجعة لعلها من المستقبل، أو من تجارب كلانى.

رسائل (٢) ص١٨٤ :

"ثانية أقول : لا تنظر إلى تطور الرواية من أجل تتبع خطوط شخصيات معينة: تسقط الشخصيات فى بعض أشكال التوافق الأخرى، كما يسحب قوس كمان عبر صينية حسنة مغطاة بطبقة رقيقة من الرمل، فيأخذ الرمل خطوطًا غير معروفة".



شكل شالندى : ترتب الاهتزازات المختلفة الرمل فى أشكال مختلفة ، كلها متشابكة ومتوازنة ، وجميلة ، وتشبه تركيب الكائنات الحية إلى حد بعيد .

(٧)

الأزهار

بينما كانت فريدا تزور عائلتها اجتاز لورنس المسافة، سائراً على قدميه، عبر سويسرا، برفقة صديقه وهو مهندس من سبيزيا منضماً إليها فى هيدلبرغ، حيث مكثا مع حبيب إيلز، ماكس ويبر، ومنه سمع لورنس "أحدث الأمور فيما يخص الفلسفة الألمانية والاقتصاد السياسى":

رسائل (٢) ص١٨٦ : "أنا مثل طير قد نبت نصف ريشه، أفتح منقارى باتساع كبير لأزدرد العبارات السمينة".

فى ٢٤ يونيو، كان لورنس فى إنكلترا من جديد، حيث كان من أوليات جدول أعماله الحصول على مبلغ الدفعة الأولى لروايته قوس القزح. كانت المفاوضات تجرى حتى ذلك الوقت مع دوك وورث (الذى كان قد نشر الخاطئ وقصائد حب وأبناء وعشاق) عبر إدوارد غارنيت. ولكن دوك وورث كان قد خسر مبلغاً (ما يقارب الـ ١٥ جنيهاً) فى أبناء وعشاق، ولم يكن هو أو غارنيت يبديان حماساً للرواية الجديدة.. وفى ذلك الحين، قدم ج. ب. بينكر، وكيل أعمال دار ميثيون شيكاً بمبلغ ٣٠٠ جنيه كمقدمة من الدار للورنس. ذهب لورنس لرؤية دوك وورث، الذى رفض تقديم أى عرض له، ولهذا عيّن لورنس " بينكر" وكيلاً عنه، ووقع اتفاقاً مع ميثيون، وفتح له حساباً مصرفياً بواسطة الشيك. كان لورنس فى حاجة إلى المال من أجل زواجه المقبل، وترضية لغارنيت، قدم لورنس لدوك وورث مجموعة من قصص قصيرة والتى أراد أن يطلق عليها اسم، الشوكة فى الجسد، ولكنها نشرت ولاستيائه الشديد، تحت عنوان، الضابط البروسى.

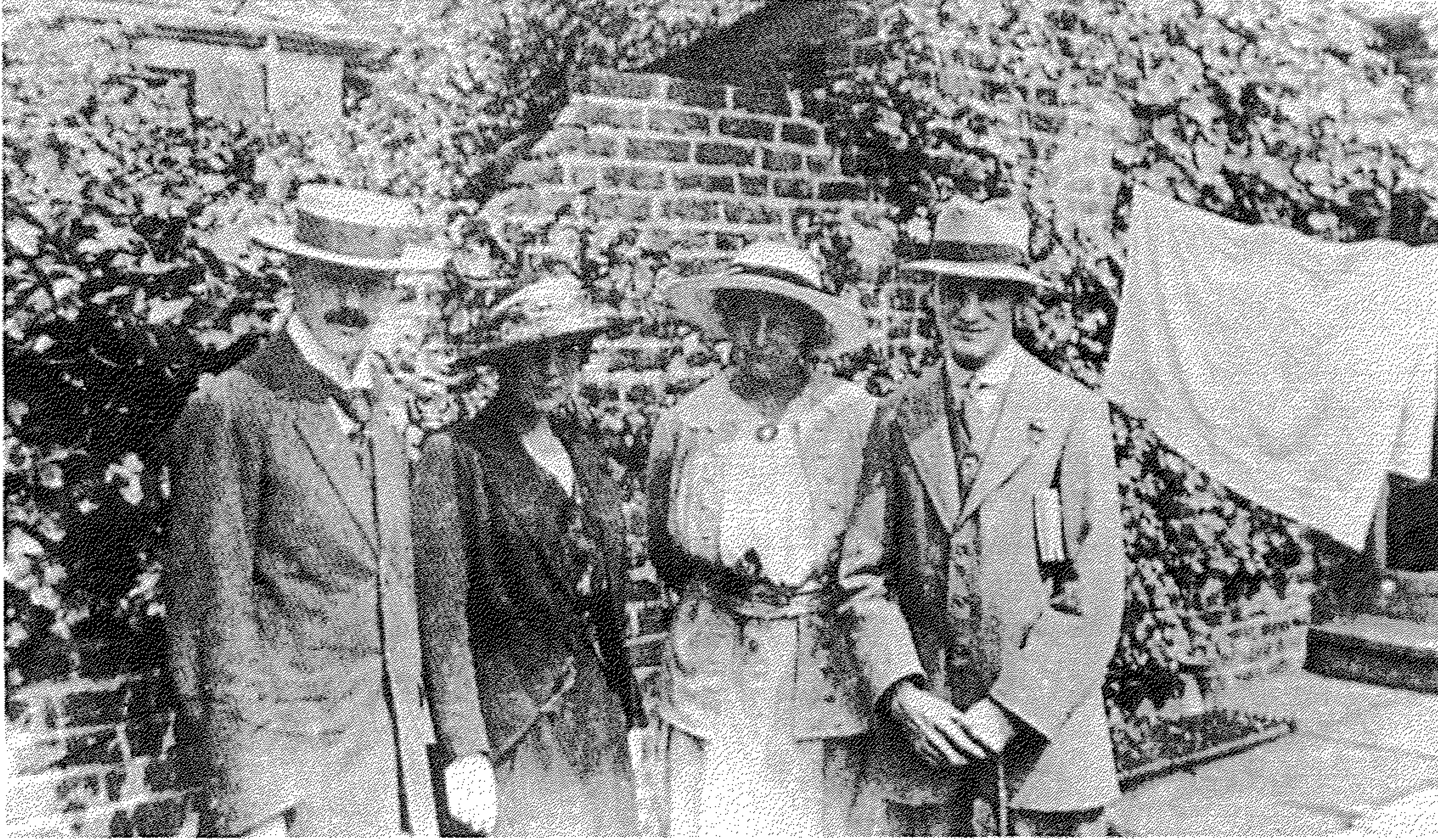
فى هذه المرحلة، مكث لورنس وفريدا فى منزل غوردون كامبل فى ساوث كينغيستون. وهناك أعاد لورنس كتابة العديد من قصصه الأولى، محسنًا إياها. وكان أيضًا منهمكًا فى قراءة أى عمل لتوماس هاردى يقع بين يديه، استعداداً لوضع كتاب صغير عنه، بناء على طلب لـ "نيسبت".

رسائل (٢) ص١٩٦ : فى الساعة العاشرة والنصف من يوم الاثنين ١٣ تموز ١٩١٤، تم زواج لورنس وفريدا، فى مكتب تسجيل كينغيستون، "بإجراء لائق ووقور". كان الشهود كاثرين.. موري.. وغوردون كامبل. لم تهتم فريدا بأمر الزواج، ولكن لورنس كان هو الراغب فى أن تكون علاقتهما "محترمة". إيدى مارش، كريماً كعادته، بعث للورنس، هدية الزواج، وهى الأعمال الكاملة لتوماس هاردى.

رسائل (٢) ص ١٩٩ : "ركضت فى أرجاء الغرفة شبه مصدوع، بين الخجل من جعل الأمر ممكنًا، وبين الفزع لإنفاقك كل هذا المال من أجلى، وأيضًا كان هناك إحساس بالفرح الشديد".

ولم تكن فريدا، حتى هذا الوقت، قد أفلحت فى الاتصال بأولادها. وفى ١٧ يوليو، كتب لورنس إلى إدوارد غارنيت:

رســـــائل (٢) ص١٩٩ : "لقد رأتهم الفتاتان الصغيرتان في أثناء ذهابهما إلى المدرسة برفقة عمة غير متزوجة، سمينة، بيضاء، كريهة، والتي عندما رأت والدتهما صاحت بهما: "اركضوا يا أطفال اركضوا"،



آل لورنس وآل موري فى ٩ سلوود تيراس بمناسبة زفاف لورنس «كان لورنس ممشوق القامة ، وصبيانيّ المظهر ؛ كان يرتدى قبعة كبيرة من القش وكانت تناسبه تمامًا . كانت حرم لورنس تضع قبعة بناما كبيرة على شعرها الأصفر الشاحب ، قبعات من القش ، وضوء الشمس والمرح .... يا الله ، كما كنا سعداء جميعًا ! لقد بدأ زمان فرحنا بعضنا ببعض . كانت فريدا ترتدى دبلة زواج جديدة تماما ، وأعطت دبلتها القديمة إلى كاترين (ج.م. موى) .

وأصاب الفزع الصغيرتين وركضتا. وكانت فريدا كتبت لوالدتها طالبة منها المجيء، على أمل أن تبدى البارونة العجوز استياءها. وسنرى بعدئذ الشرر يطير من حول أسرة ويكلى كثيرة النزوات.

وفى الوقت ذاته، ذهبت فريدا إلى المنزل وتسللت خلسة من الباب الخلفى، وبعد عدة أعوام، استعادت ابنتها برباره الذكرى:

"دَخَلَتْ غرفة الحضانة النهارية وشاهدتنا نتناول العشاء مع الجدة والعمة مول. وضعت قدمها فى الدار فى تلك الأمسية. كان القانون ينفّذ لتقييدها. وبينما وقفت هى فى حرج أمام أقربائنا، حدقنا نحن الصغار فى فزع فى المرأة التى كانت آنذاك قد غدت غريبة. المنظر القديم غير الممتع: أجل، بالتأكيد".

فى العام ١٩٢٥، والذى فيه أصبحت البنتان من الزوار المعتادين لمنزل لورنس، استفاد هو من المعلومات الواسعة التى زودته بها برباره، وجعل من ذلك المنظر القديم غير الممتع موضوعًا لروايته العذراء والغجرى.

* * *

دائرة أصدقاء اللورنسيين كانت تتسع باطراد. ففى صيف ١٩١٤، قابلا وللمرة الأولى كاثرين كارسويل وآمى لويل (التى أعطت لورنس أول آلة طابعة ونشرت اسمه فى أنطولوجيا التصويريين)(*)، وريتشارد الدينغتون وزوجته هيلدا دوليتل، إيفى وبرباره لو وديفيد إيدر وفوليا مينيل. وتحدث العديد من الأصدقاء الجدد عن التأثير القوى السريع الذى تركه لورنس فيهم. وكتبت كاثرين كارسويل:

(*) التصويريون، مذهب حديث يدعو إلى التخلص من الأوزان وإلى التعبير عن الأفكار والانفعالات عن طريق الصور، بعيداً عن الغموض والرمزية. (المترجمة)

رســـــائل (٢) ص٢٢٧ : "كنت مدركة لجمال رفيع نادر فى لورنس، فى عينيه العميقتين مثل جوهرتين ثمينتين، شعر سميك بلون الغبار، الشفة السفلى محددة بوضوح وعلى درجة من الجمال، يدان رقيقتان، حركات سريعة لا تتوقفان أبداً. بدا الأمر مضيعة للوقت فى التحدث عن أى شيء معه باستثناء الاهتمامات الشخصية الحقيقية للمرء".

كانت العينان هما ما تذكر الجميع. واستعاد ريتشارد الدينغتون هذا المشهد الأول للورنس:

رســـــائل (٢) ص٢٣٦ : "شاب نحيف طويل، ذو شعر أحمر لامع وعينين زرقاوين لا مثيل لتألقهما، مع خطوات لدنة سريعة، كقاعدة. أنا لا أتذكر أعين الأشخاص، ولكنى سأظل أتذكر عينى لورنس، كانتا تعكسان روحًا متألقة مثل اللهب لا مثيل لهما".

شخص آخر، كان من أصدقاء لورنس الجدد وهو صاموئيل سلومونوفيج كوتيليانسكى. كان كوت (كما كان معروفًا بالنسبة لأصدقائه) قدم إلى إنكلترا من روسيا فى ١٩١١، وكان يعمل فى مكتب القانون الروسى، أو كان على الأقل يمضى وقته هناك.



كاترين مانسفيلد هى وصاموئيل سلومونوفيج كوتيليانسكى (كوت) .

إذ لم يكن شوهد فى أثناء ممارسته العمل، واعتادت كاثرين أن تتحدث كيف أن كوت نظم ثورة فى كييف ضد الحكم القيصرى، ولكن عندما جاء اليوم الموعود لم يحضر أحد ماعداه، ولهذا بدأ السير دون توقف حتى وصل إلى شارع توتنهام كورت. لم يكن كوت يمتلك مواهب إبداعية ولكنه كان خبيراً فى الأدب الروسى، وكان مؤهلاً للاعتماد عليه تماماً.

فى ليرسى، كان لورنس قد التقى مهندساً من سبيزيا يدعى لويس، رافقه فى مسيرته عبر سويسرا فى يونيو. كان الاثنان قد رتبا رحلة على الأقدام فى منطقة البحيرة: بدأت الرحلة فى ١٣ تموز يوليو، وكان برفقتهما محام يدعى هورن والذى أحضر معه زميلاً له فى مكتب القانون وهو كوت. وصل الثلاثة إلى

بارو – إن – فورنيس، حيث كان يعيش لويس، ليجدوا أن الحرب قد أعلنت. فى يناير ١٩١٥، كتب لورنس:

رســـــائل (٢) ص٢٦٨ : (لقد أنهتنى الحرب، كانت الحربة التى نفذت فى جنب كل آمالى وأحزانى. كنت أسير فى ويستمورلاند سعيداً، وزنابق الماء تزين قبعتى، زنابق كبيرة، ثقيلة بيضاء وذهبية، والتى كنا وجدناها فى بركة على مرتفع، وفتيات كن قدمن فى فورة حماس وصخب واللاتى كن يتناولن الشاى فى الغرفة العليا لفندق صغير ويصحن ضحكاً. وأتذكر أيضاً أننا جثمنا تحت سور متداع فى أرض سبخة وكان المطر يهطل جداول والريح تهب مسرعة عبر شقوق الجدار من خلف رأس كل واحد منا. كنا ننشد الأغانى، وقمت أنا بتقليد فصل قصير من مسرح المنوعات، بينما يتجمع الآخرون ويمزحون تحت المطر على الأرض المعشوشبة بنبات الرّتم. فى حين كان كوت يتأوه على أنغام الموسيقى العبرية ترنيمة بلغته.

بدا الأمر مثل حياة أخرى، كنا سعداء – أربعة رجال – ... ومنذ ذلك الوقت، منذ عودتى، لم تعد الأشياء قائمة بالنسبة لى. لم أتحدث مع أحد، لم ألمس أحداً ولم أر أحداً. أقسم أنى فى كل الأوقات كنت أحس وكأن روحى تهجع فى قبر.. لست ميتا، بل توجد حجارة مسطحة فوقى، جثة، أصبحت جثة مقرورة فاقدة الوعى).

أصبح كوت صديق لورنس المخلص. والأغنية التى سمعها لورنس منه للمرة الأولى فى ذلك اليوم المهلك، منحته، بعد قيامه من القبر، بعد ستة أشهر، اسم (المجموعة) التى عقد عليها كل آماله الهشة: الازدهار. و"الازدهار"، رانانيم، كان من المقرر أن تعنى جماعة مؤلفة من حوالى عشرين شخصاً، تحمل نفس الأفكار، تنعزل عن العالم المريض فى مكان خاص، من أجل تنشئة "البراعم الجديدة للحياة" فيما بينهم، ليزرعوا بعدئذ، خرائب الحضارة الغربية العقيمة.

نيـــــــهلز : بعد العودة إلى لندن، كانت هناك صدمة فى انتظار لورنس. فقد أعادت ميثيوم قوس القزح لعدم صلاحيتها للنشر وهى على ذلك الوضع، ويعتقد أن السبب كان "مقاطع الحب الجريئة"، على الرغم من أن المقاطع التى أثارت النقاد لاحقًا لم تكن فى تلك النسخة. أحس لورنس بخيبة أمل مريرة بحيث إنه لم يتحسس فى نفسه رغبة للعودة إلى الرواية ثانية، ولعدة أشهر. وكانت هناك فى انتظاره أيضاً دعوة لحضور حفل فى منزل أج. جى. ويلز، مع فريدا ومورى وكاثرين. أراد مورى الذهاب مرتدياً ملابس قطنية بسيطة، ولكن لورنس أصر على أهمية ارتداء بدلته الجديدة، أو بكلمات مورى، "الدخول إلى عالم الحفلات كان بالنسبة إليه مسألة جادة لها طقوسها". كان لورنس منقبضاً، وكانت الحفلة مملة. ولاحقًا اشتكى من ويلز، الذى كان فى غاية اللطف معه. كان لويلز الكاتب الذى تحمس له لورنس مبكراً، وخاصة فى "تونو – بانغى"، "كتاب كبير". وفى يناير ١٩١٠ كان قرأ، آن فيرونيكا، وقرر "ليست جيدة جداً"، ولكنه أخذ (وبطبيعة الحال حوّل) جزءًا كبيراً منها لحكاية أورسولا برانغوين. وعلى الرغم من أن لورنس انتهى إلى رأى بصدد ويلز وهو كونه يحمل وجهة نظر سكان الضواحى، فإنه لم يفقد أبداً حماسته لـ"تونو – بانغى" و "مدينة العميان".

* * *

رسـائل (٢) ص٢٠٧ : "لن تتمكن من العودة إلى إيطاليا، والظروف كما هى. علىّ أن أبحث عن مكان للعيش. أعتقد أنى سأحاول العثور على كوخ صغير فى مكان ما، أضع فيه بعض قطع الأثاث وأعيش بأقل كلفة ممكنة".

رسـائل (٢) ص٢١٠ : ومع حلول الأسبوع الأخير من أغسطس، استقر اللورنسان فى تريانجل بيلينجدون لين - جيشام، باكز. "إنه كوخ مبهج، مدفون فى الريف"

رسـائل (٢) ص٢١٩ : ومع ذلك، فقد اعتقد أحد زوارهما الأوائل وهو كومبتون ماكينزى، أنه أبشع كوخ رآه فى حياته، مدفون بين نبات القرّاص، والذى سرعان ما أطلق عليه لورنس "هذه الحفرة التى تخلى عنها الله". وبالتأكيد فإن البرد ورطوبة الشتاء قد أثرتا بشكل سيء على صحة لورنس.

نيـهلز (١) ص٢٤٢ : ماكينزى ("هو كما أعتقد إنسان مرح ونشيط وصديق طيب، ولكن بالنسبة لشخص آخر سواى")، كان قد أُحضر بواسطة آل: كانان، الذين كانوا يسكنون فى الجوار، وتربطهم علاقة صداقة مع آل مورى. وسرعان ما قدم مورى بصحبة كاثرين للعيش على مسافة ثلاثة أميال فقط، كان جيلبرت كانان كثير الإنتاج، روائيًا تقليديًا، قد هرب مع مارى زوجة ج. م. بارى، ثم تزوج منها، فأيّ طريق كان لورنس قد قطع، منذ أن كان يتوق إلى بنات شيمبرز، قبل خمسة أعوام:

نيـهلز (٣) ص٥٨٢ : "زوجة بارى تركته من أجل كاتب، كان هو قد ساعده كثيراً وبشكل متواصل. دعنا لا نقرأ كتاباً من أعماله، بعد اليوم، أن نقسم ألاّ نقرأ كتاباً له، دعنا نتفق على ذلك".

إنه لم يقرأ، فى الحقيقة الكثير من أعمال كانان، ليس إلاّ لكونها تتسم بأسلوب صحفى، مضافًا إلى كونها مملة ومبتذلة.

فى جيشام، بدأ لورنس كتابه عن توماس هاردى:

رسـائل (٢) ص٢١٢ : "أى عالم بائس، أى حماقة بالغة هذه الحرب. منطلقًا من غضبى المطلق، بدأت كتابى عن توماس هاردى".

رسـائل (٢) ص٢٣٥ : وكانت النتيجة أن الكتاب كان "عن كل شيء ماعدا هاردى" - العمل الأول المنطلق من فلسفته تجاه الحياة والفن وأفكاره "الميتافيزيقية" ("نوع من اعترافات صادرة من قلبى"). الغضب بدا واضحًا فى الإيماءات الجامحة فى الكتابة وفى النغمة الحادة وفى الشكل غير المتحكم فيه، والتعميم الواسع والتظاهر بمعرفة غير محدودة. معظم أجزاء الكتاب مملة، طنانة، منتفخة أو مبهمة. وعلى الرغم من ذلك، هناك الكثير مما هو جيد.

فـونيكس : والأمر الذى كان يثير إعجاب لورنس بهاردى، هو المقدرة على رؤية الأشياء وفقًا لعلاقاتها الصحيحة أو أهميتها النسبية، وهو قد وضع شخوصه، ليس ضد "المجتمع" فحسب، ولكن ضد "فعل طبيعة مرعبة لا يمكن سبر غورها". ليس ضد نظام أخلاقى للإنسان، ولكن ضد الأخلاقية غير المفهومة، والمبهمة للطبيعة وللحياة نفسها، متخطيًا الشعور الإنسانى. كانت دراسة لورنس عن هاردى، جزءًا من بحث لرؤيته للحقيقة، كى تحل محل جنون الحرب وحمى الحرب - رؤيا "تتضمن الألم والفزع والخنوع، وليس الكبرياء أو الغرور والإصرار الحسى". لقد شعر أنه كان قد اطلع على مثل هذه الرؤيا فى أعمال منحوتات مصرية وآشورية، لدى زيارته مؤخراً للمتحف البريطانى:



"كنت متوعك الصحة ، وربيت لحية حمراء سوف أتخذ منها غطاء كبيراً من الآن فصاعدا بقدر المستطاع ، كما لو كنت مخلوقًا فى دغل من الأدغال ؛ التقط هذه الصورة باسانو وفندايك .

رســــــائل (٢) ص٢١٨ : "نريد أن نفهم الطبيعة اللاإنسانية الهائلة للحياة – فهى تثير العجب، وليست فى الأهمية بمكان الأحاسيس أو العواطف الشخصية أو علاقات المودة، فجميع هذه الأمور غدت ميكانيكية. قوى هائلة غير معروفة للحياة، تكمن خلف هذه الأمور جميعًا، تنبثق بشكل غير مرئى أو محسوس، مثل تلك التى تخرج من الصحراء باتجاه المصريين، فتجرفنا، ترغمنا، مهلكة إيانا إن لم نخضع لعملية المحو".

مبلغ الـ ٣٠٠ جنيه لم يدم طويلاً، ولم تعد تستطيع فريدا الحصول على المال من ألمانيا. لم يستطع لورنس تدبير المال اللازم لطبع الدراسة. ولكن كوت تطوع للعمل بسبب حبه للورنس. وكان على لورنس أن يبتلع كبرياءه وأن يقبل قروضًا من أصدقاء مثل إيدى مارش ومبلغ (٥٠) جنيهًا من الصندوق الأدبى الملكى:

رســــــائل (٢) ص٢٢٣ : "لا سعادة هناك فى الإحسان الضئيل المذل. كدت لو استطعت أن أقذف المبلغ بطرف إصبعى معيده إلى أنوفهم، المؤلفون الثقلاء المتلئو البطون ولكننى لم أستطع".

رســــــائل (٢) ص٢٣٤ : مع ذلك، كانت هناك سعادة حقيقية، فى هدية آمى لويل، آلة طابعة. "إنها تعمل مثل قدر يبقبق. سعادة مفرطة".

فى نوفمبر، عاود لورنس عمله فى قوس القزح، "مجهدًا نفسه بشكل مخيف". فى ديسمبر، أمضيا بضعة أيام فى الأجزاء الوسطى من إنكلترا. وقامت فريدا بزيارة مفاجئة لإيرنست ويكلى، معرّفة نفسها لصاحبة المبنى باسم السيدة لوسون. قصّ لورنس ما حدث بأكمله لآمى لويل:

رسائل (٢) ٢٤٤ : "أنتِ، قال الزوج السابق، متراجعًا إلى الخلف – "كنت آمل أن لا أراك ثانية".

فريدا: أجل – أعرف

ويكلى: وماذا تفعلين فى هذه المدينة؟

فريدا: جئت لرؤيتك من أجل الأطفال.

ويكلى: ألا تحسين بالعار وأنت تظهرين، حيث أنت معروفة، ليست البغّى العادية أفضل منك؟

فريدا: لا.. لا..

ويكلى: هل تريدين إقصائى عن الدنيا، يا امرأة! ألا يوجد مكان أجد الراحة فيه؟

فريدا: لابد أن تدرك أنى أريد أن أتحدث بشأن الأطفال.

ويكلى: لن تأخذيهم، إنهم لا يريدون رؤيتك.

ثم تطورت المحادثة إلى هجوم عنيف – جزء منه كان:

ويكلى: إن كان لابد من ذهابك، لِمَ لمْ تذهبى مع سيد نبيل؟

فريدا: إنه رجل عظيم.

يتجدد الهجوم.

ويكلى: ألا تعرفين أنك أحقر مخلوقة على الأرض؟

فريدا: أوه.. لا...

ثم المزيد من هذه الجمل، ثم يطرأ تحوّل على فريدا. فهى لا تحاول الإلحاح على رؤية أطفالها.

ويكلى: ألا تعلمين أن هناك تعليمات للمحامين الذين أتعامل معهم بالقبض عليك إن حاولت التدخل مع الأطفال.

فريدا: لا أبالي.

إن لم يكن هذا الأمر مؤلمًا جداً، واستمراره لثلاثة أعوام، كما هو عليه، فإنه سيكون غريبًا. فالزوج السابق بروفسور فى الأدب الفرنسى، معجب كبير بموباسان، قد عاش فى ألمانيا وباريس ويعتقد أنه القمة فى الثقافة العالمية، إلاّ أن فريدا المسكينة لا تستطيع رؤية أطفالها – أنا فى الحقيقة أعطيك المحادثة كما جرت.

بعد عام أو عامين، تم إقناع ويكلى أخيراً بالسماح لأطفاله بزيارة نصف ساعة لوالدتهم، فى مكتب محام. عند مغادرتها لهم، منحت كل واحد منهم عشرة شلنات. أعاد إيرنست لها النقود رسمياً.

* * *

فى ديسمبر، قدّم جيلبرت كانان لورنس إلى الليدى أوتولاين موريل. كانت الليدى أوتولاين تكبر لورنس بـ ١٣ سنة، وهى ابنة آرثر كافينديش بينتينك والليدى بولسوفر، وكان أخوها، غير الشقيق، دوق بورتلاند. كانت أوتولاين قد تربت فى دير ويلبيك فى نوتنغهام شاير، ولهذا كان بإمكانهما تبادل ذكريات الطفولة فى لقائهما الأول. كانت الليدى أوتولاين أكبر سعة من الحياة، غير تقليدية فى المظهر والسلوك. كان شعرها أحمر ووجهها كان يبدو للبعض كالساحرات. أوغسطس جون، الذى كان قد رسمها، والذى كانت قد أحبّته، روّع بـ"فكّها البارز وأنفها البارونى الواضح". ولكنها كانت قادرة على أن تجعل حتى هذه الملامح مهيبة بفضل سماتها. وهى قد ذكّرت لورنس بالملكة إليزابيث. كانت أوتولاين تبرز طولها بقبعات كبيرة وملابس طويلة مشرقة، وكانت أحيانًا ترتدى ملابس كاملة لراعية مع العصا وتتحرك فى دائرة سحرية من الجمال والأفكار الرفيعة، حيث يتجمع حولها العديد من المفكرين والفنانين والكتّاب البارزين فى ذلك الوقت. ومن أولئك على الأخص جماعة بلومزبرى، ليتون ستراجى، دورا كارينغتون، مارك غيرتلر، فيرجينيا وليونارد وولف، فانيسا وكليف بيل، دونكا غرانت، مورغان فورستر، الدوس هكسلى ودوروثى بريث... وفى أكسفورد، كانت التقت بفيليب موريل، عضو مجلس العموم الليبرالى، ومن دعاة السلام. وفى الوقت الذى التقت فيه لورنس، كانت مرتبطة بعلاقة عاصفة مع بيرتراند رسل.

أصبح لورنس زبونًا شبه دائم، طوال عام ١٩١٥، أولاً فى منزل أوتولاين فى لندن فى ساحة بيدفورد، ثم فى قصر مزرعة غارسينغتون فى أوكسفورد شاير. وبواسطتها التقى عدداً كبيراً من الأصدقاء الجدد المهمين (وأعضاء محتملين لجماعة الازدهار). فى غارسينغتون زرع لورنس سياجًا من شجيرات وزهور وأقام تعريشة خشبية للورود، وقد قام بزيارة كليات أكسفورد، "ميتة وعديمة الفائدة"، ولكنه استمتع باستنساخ كتاب القداس المزخرف بالذهب كاملاً.



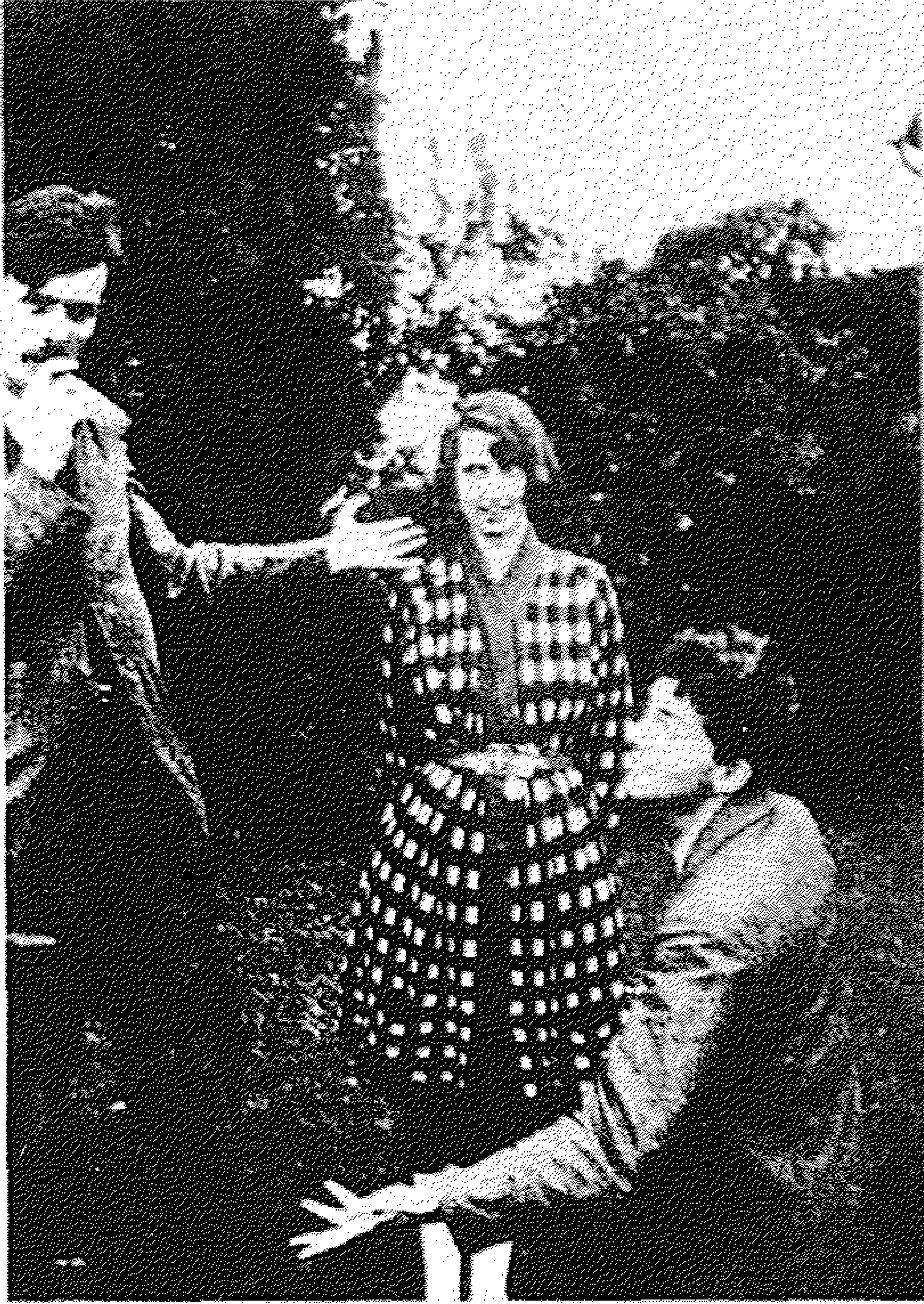
دكران كيويو مدجان (ميخائيل آرلن) . فيليب هيزلتاين (بطرس وارلوك) ومعهما لورنس فى غارينغستون "يبدو هيزلتاين كأنه بلا عمود فقرى ويحتاج إلى شيء من الدعم . لكنى أحبه حبا جما ؛ يبدو كويو مدجان صريحًا وملحاحا إلى حد ما .



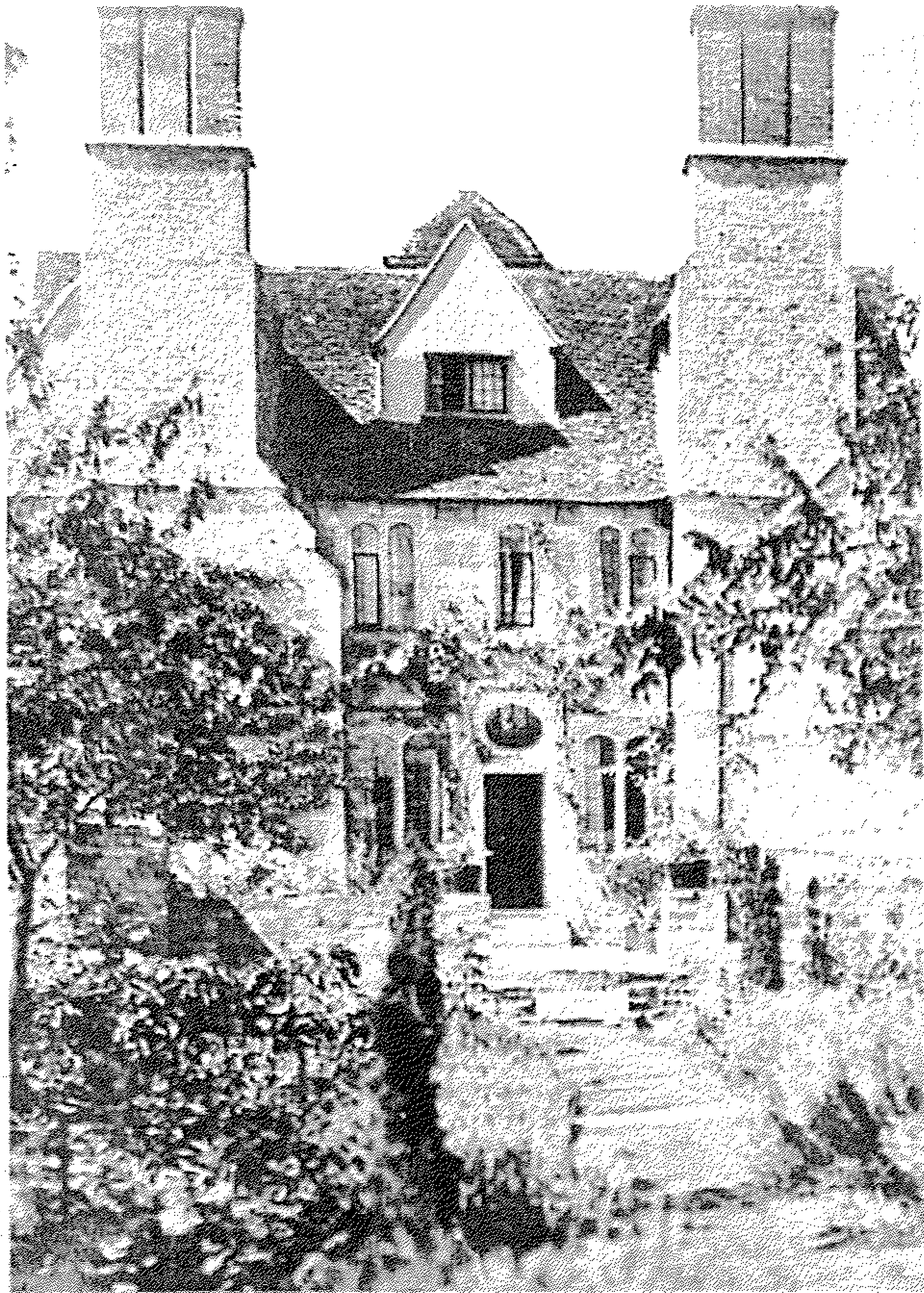
السيدة أوتولاين موريل فى كار سنغتون ، "إذا كنت تعرفها ، اصبر عليها وادخل فى الأشياء الحقيقية ، وليس فى الأشياء غير الحقيقية فيها : الأشياء الحقيقية تشكل حشدًا كبيرًا ، لكنها امرأة كبيرة – شيء شبيه بالملكة اليزابيث فى نهاية المطاف" .



١ – السيدة أوتولاين وبرناردرسل .



٢ – ألدوس هكسلى ودوروثى برت ومارك جبرتلر فى غارسنغتون .



٣ – غارسنغتون مانور ، برردايلى فى رواية نساء عاشقات . كثير من الجمال والعواطف المرتبطة بالأشياء القديمة تأتى إلى منزل أوتولاين هذا – هذه هى إنجلترا – يا ربى إنها تكسر خاطرى – إنجلترا فى زمنهم ، هذه النوافذ المعمَّدة ، أشجار الدردار ، المسافة الزرقاء الماضى ، الماضى العريق ، التداعى ، الانهيار ، ليس تحت وطأة كثير من الطيور الوافدة المجهدة ، وإنما تحت وطأة الكثير من الأوراق الصفراء الحبيبة ، التى تنجرف على الحشيش الأخضر ، وعلى البركة ، مثل الجنود ، لتختص بعد ذلك فى الشتاء وظلام الشتاء – لا ، أنا لا أطيق ذلك !

مع اقتراب أعياد الميلاد (الكريسمس)، ومع التقدم فى قوس القزح، ارتفعت معنويات لورنس، واستعادت فريدا الذكرى:

فـــــريدا ٩٩ : "جاء الكريسمس، زيّنا الكوخ بشكل رائع بنباتات الأيلكس والدبق. طبخنا وفارت القدور. سلقنا اللحم وأعددنا الخبز، وجاءنا كامبل وكوتيليانسكى وموزى وكاثرين وغيرتلر، وآل كانان. تمتعنا بوليمة مرحة".

وبدأت رسائل لورنس تتحدث عن البعث بدلاً من الصلب وعن الازدهار. وتفصيلات مجريات (خطة لورنس أثيرة)، مذكورة فى رسالة إلى ويللى هوبكن بتاريخ ١٨ يناير ١٩١٥:

رســـــائل (٢) ص٢٥٩ : "أريد أن أجمع حوالى عشرين شخصاً وأبحر بعيداً عن عالم الحرب والفساد السياسى هذا، وأن أعثر على مستعمرة صغيرة، حيث لا يكون هناك مال بل نوع من الاشتراكية، تؤمِّن مستلزمات استمرار الحياة، وأيضاً، العيش اللائق".

ولكن "افتراض الطيبة فى الأعضاء". فيما كان مزمعًا تكوينه، أخذت تحيط به الشكوك. وفى حفل لعيد الميلاد، أقل نجاحًا، أبدى كل من كانان وزوجته ملاحظة غاضبة إزاء تصرفات مورى وكاثرين وغيرتلر، الذين أسرفوا فى الشراب، وتصرفوا وكأنهم يؤدون لعبة المشاهد التمثيلية أمام الباقين، ولكنها كانت عن واقع مشاكل علاقاتهم. وقد استند لورنس لاحقًا على هذه الحادثة، فى كتابته عن علاقة الثلاثى جيرالد – غوردون – لويرك، فى روايته، نساء عاشقات. كان غيرتلر، فى الواقع، يحب دورا كارينغتون، التى كانت تحب ليتون ستراجى، الذى كان شاذاً ... فلا عجب أن أكد لورنس لاحقًا أنه سيسمح للمتزوجين فقط بالسفر على ظهر فلكه.

* * *

فى ٢٣ يناير ١٩١٥، سافر اللورنسان بالسيارة عبر الثلوج العميقة، إلى الكوخ الذى كانت فيولا مينيل أعارتهما فى غريثام، بالقرب من بولبورو فى منطقة سوسيكس:

رســـــائل (٢) ص٢٦١ : "الكوخ، إلى حدّ ما رائع – ثمة رهبانية حوله – جدران بيضاء بسيطة، غير مزخرفة، أثاث جميل من خشب السنديان. وهناك أيضاً حمام وكافة المرافق والمكان رائع جداً".

أحس لورنس أن الانتقال قد منحه "ولادة جديدة للحياة"، ومع ذلك كانت ماتزال هناك مشكلة إيجاد شخص لائق للكفاح معه. فى ٢٨ يناير، كتب معترفًا لفورستر:

رســـــائل (٢) ص٢٦٦ : لا أستطيع العثور على أحد. كل رجل منهمك تماماً فيما تتطلبه حياته الشخصية.. إنهم يجعلوننى مجهداً، أصدقائى هؤلاء. إنهم يبدون كالأطفال وجشعين دائماً الرغبة الآنية، دائماً وجهة النظر الخاصة، لا تفهم شاملا للأفق الذى يدور باستمرار".

رسائل (٢)٢٩٣ : لم ينجح فورستر فى الاختبار. بدا للورنس، "خامداً بلا حيوية:

رســـــائل (٢) ص٢٨٠ : "لقد تحدثنا بشكل صارم – عن ثورة – تحدثت أنا على الأقل – إنه قدرى، ليساعدنى الله – تنتابنى الدهشة الآن، هل أن كلماتى قضت كما تتبعثر الحبوب على أرض صلبة، أعتقد بوجود إهمال فقط".

وقد وبخ لورنس فورستر كثيراً لدى زياراته لغريثام، حتى بدأ يتملص:

(أعزائى .. اللورنسيين

ديلانى ص ٥٤ : حتى الوقت الذى تعتقدان فيه أن الأمر يستحق العمل بانعزال، أفضل مخاطبتكما كواحد... بالنسبة للمجىء إلى غريثام مرة أخرى، فأنا أحب السيدة لورنس وأحب لورنس، الذى يتحدث إلى هيلدا ويفهم

الطيور، والمرتاح بدنيًا، والذى كتب الطاووس الأبيض، وهو لا يعرف لماذا، ولكنى لا أحب المتعصب، غير المدرك، الأطرش، الذى دار ضمن نطاقه الجنسى الضيق إلى حد أنه يعتقد أن لا طريق لسواه كى يسلكه. إنه يمتّعنى حينًا ويفزعنى ويغضبنى حينًا آخر. ولكنه فى النهاية، سيضجرنى فحسب، أعرف ذلك. ولهذا لا أستطيع أن أقول إنى قادم).

رســــائل (٢) ص٢٦٦ : كان طريق فورستر، بطبيعة الحال، الشذوذ، وهو لم يذهب مرة أخرى إلى غريتام، معتبرًا لورنس أكثر إثارة للإعجاب عن بعد. (لا أعرف إلى أين عليك الذهاب بعد "نهاية هوارد"). هكذا كان لورنس قد كتب إليه. ولم يكن بمقدور فورستر أن يخبره، أنه قد أنهى مؤخرًا رواية، غير مطبوعة، بعنوان، موريس عن الجنسية المثلية.

عندما قرأ لورنس للمرة الأولى رواية " نهاية هوارد" فى ١٩١١، كانت بالتأكيد تركت لديه انطباعًا عميقًا، ذلك أن صورة قوس القزح لدى فورستر قد أسهمت بشكل واضح فى قوس قزح لورنس:

... "جسر قوس القزح الذى يجب أن يربط الكلام العادى الذى فينا مع العاطفة، وبدون ذلك، نحن شظايا لا معنى لها، نصف رهبان، نصف وحوش، أقواس غير مترابطة والتى لم ترتبط أبدًا كى تصير رجلاً.. سيشيد الجسر ويمتد عبر حياتهم بشكل جميل".

المرشح التالى كان بيرتراند رسل:

رســــائل (٢) ص٢٧٦ – ٧ : "غدًا ستكون الليدى أوتولاين عائدة من جديد، يرافقها بيرتراندرسل – الفيلسوف وعالم الرياضيات – العضو فى إدارة جامعة كمبريدج – الزميل فى الجمعية الملكية – شقيق الإيرل رسل. سنتناقش حول فكرة جزيرتى – الازدهار – ولكنهم يقولون، إن الجزيرة يجب أن تكون إنكلترا، وأن علينا أن نبدأ جماعتنا الجديدة فى غمرة القديمة، كما تسقط الحبة بين جذور والديها. انتظر فحسب وسنزيح الجبال ونجعلها فى وسط البحر".



إى . م . فورستر .

ووجد رسل لورنس لا يقاوم:

رسائل (٢) ص٢٧٦ – ٧ : "إنه يثير العجب، إنه يبصر من خلال وخلال المرء. إنه لا يخطئ. إنه مثل إيزاكيل، أو أحد الأنبياء الآخرين فى العهد القديم، وبالتأكيد أن دماء أجداده المبشرين الواعظين، غير الملتزمين بالأعراف الدينية التقليدية، تجرى قويةً فيه، ولكنه يبصر كل شىء وهو على حق دائماً".

فى ١٢ فبراير، كتب لورنس لرسل:

رسائل (٢) ص ٢٨٢ : "يجب أن تقوم ثورة فى البلاد. وعليها أن تبدأ بتأميم كل الصناعات ووسائل الاتصالات والأرض بضربة ساحقة واحدة. كما أن الأيدى العاملة يجب أن تنال أجورها، سواء أكان الرجل مريضاً أم فى صحة جيدة أو مسّنا، وعليه أن يستلم أجوره، إن كان هناك ما يمنعه عن العمل على حد سواء، كى لا يعيش فى خوف من الفقر المدقع – لا رجل أو امرأة بيننا، سيكون لديه مخاوف من المجاعة – لأن كل الرجال – الذئاب قد ماتوا".

وهذا أمر يحل عملياً كل المشاكل الاقتصادية فى الوقت الراهن.

ولورنس، ببراءته، كان يأمل فى تعزيز قضية الاقتصادى الأكبر الحاضر، جون مينارد كينيز!.

دعا لورنس مورى إلى غريتام الذى كان قد هُجر من قبل كاثرين، التى كانت قد لحقت بحبيبها، فرانسيس كاركو، فى فرنسا، وأيضاً من قبل غيلبرت كانان، الذى كان، بكل بساطة، قد ضجر منه. قطع مورى مسافة أربعة أميال عبر مياه الفيضان، من أجل الوصول إلى كوخ لورنس، وأصيب بالتالى بالإنفلونزا. وكان على لورنس الإشراف على وضعه الصحى، بعد أن أصبح مورى، معتمداً تماماً عليه. وقد أراد لورنس أن يمنح لورى أيضاً ولادة جديدة للحياة، كى يكونا شريكين فى "بعض الأمور الكبيرة التى لها غاية تقية شاملة"، الأمر الذى كان يعنى تفكيك مورى وقهره. إلاّ أن كاثرين عادت بعد أسبوع، وطار مورى عائداً إليها.

رسائل (٢) ص٢٨٤ : توصل لورنس إلى قناعة أن الوضع كان شديد الحرج وأن الفن كان ترفاً. الفنان مكتشف – "شخص مبعث من بين مجموعة كبيرة من الناس ليفتح عوالم جديدة من أجلهم – " ولكن ما فائدة ذلك إن كان الناس مقيدين وغير قادرين على المتابعة والقيد لا يمكن أن ينكسر إلاّ بفعل ثورى مباشر. وستكون مساهمة لورنس، إعطاء محاضرات مشتركة مع رسل، لجذب كيمبردج إلى القضية من خلال علاقات

رسائل (٢) ٣٠٠: رسل بهم، ("أحس أنى ذو شأن كبير، بالذهاب إلى كيمبردج – المناسبة مهمة بالنسبة لى") وأيضاً من

رسائل (٢) ص٢٩٩ : أجل طبع كتاب عن الحياة فى كراريس أسبوعية – "عن طقوسى للثورة الكبيرة والسعيدة". بهذا المزاج المتفائل البهيج، أنهى لورنس رواية «قوس القزح»



أرسل لورنس هذا الرسم إلى فيولا مينل فى اليوم الثانى من شهر مارس من العام ١٩١٥ . "لقد أنهيت رواية قوس قزح ، طويتها وقمت بضبطها . وقد رحلت وابتعدت لتجد الأوانى الذهبية عند قدميها ؛

(٨)

إنكلترا ، إنكلترا خاصتهم

رسـائل (٢) ص٣١٩ : ولم تحدث أية "ثورة كبيرة وسعيدة".. لا أوانى ذهبية عند أطراف قوس القزح (كما رسم غلاف الرواية). بعد خمسة أيام من الانتهاء منها، ذهب لورنس إلى كيمبردج وتفجر الوهم. كان يكره كمبردج كراهيه شديدة. الشيء الذى أثار لورنس خاصة، كان الحديث الساحر، المعقد، الذكى، السريع الانفعال، ولكن الضحل جوهرياً واللامسؤول "لم يقل أى شيء جيد أو حقيقى"، الذى يمكن أن يدل على الذكاء أو الحضارة، فى تلك الغرف عالية المقام فى كيمبردج أو على مروج غارسينغتون. أدرك لورنس أن أولئك الأشخاص، "انتهوا إلى الأبد"، سلم كينيز لاحقًا، أن هذا الحكم لم يكن بلا أساس، بل إن رسل بدوره أيضًا اعتقد، لبعض الوقت، أن لورنس قد يكون مصيبًا، والأمر الذى أثار اشمئزاز لورنس بشكل خاص، هو تفشّى الشذوذ فى جماعة بلومزبرى وفى مجموعة كيمبردج:

رسـائل (٢) ص٣٢١ – ٣٢٣ : واقع الأمر أنى لم أعرف أن ذلك كان خطأ، إلا بعد أن التقيت كينز فى ذلك الصباح فى كمبردج. كان ذلك اللقاء أزمة من أزمات حياتى. فقد أصبت بالغضب والبؤس والعداء والاستعار.

كان لورنس قد فزع طوال حياته، من الشذوذ الجنسى، كرد فعل لميل تجاهه فى داخله، إلاّ أنه كان يؤمن حقًا بروابط صداقة حميمة بين الرجال، لا تتوطد بفكرة الاتصال الجسدى (مع أنه كان يؤمن أن تجنب مثل ذلك الاتصال فى مجتمعنا هو نشاط أعرج).

إلا أنه يمكن تفعيله بتعهد موضوعى لقضية عامة، وبواسطة وعى أخلاقى متكاتف، يعمل فيه الجميع نحو هدف خلاق. قرر مورى ورسل الوقوف إلى جانبه. وكان مورى متوافقًا مع فكرة الازدهار، مع أنه لم يكن مؤمنًا بها حقًا:

نيهلز (١) ٢٧٧: "لقد بلورت تخيلاتى حولها بنفس درجة الحرية التى فعلها هو".

ولكن عندما بحث عنه لورنس لإدراجه تحت راية الثورة، كان غير قادر على فهم أى شيء. ومورى، دون أن يفهم، على الأقل ما هو مطلوب منه، قرر أن يكون ما رغب فيه لورنس.. كان قد أشبع غروره أن لورنس سيعتمد عليه، ولكنه فى ذات الوقت، علم أنه فى موضع زائف، وأن لورنس سيتخلى عنه عاجلاً أو آجلاً.

وحتى بعد الإخفاق التام فى كيمبردج، حاول لورنس التمسك برسل:

رسـائل (٢) ص٣٠٧ : "ولكنى أردت الكتابة لأطلب منك برجاء، أن تكون معى – فى العالم التحتى – أو على أية حال، أن تكون فى انتظارى. لا تصرف النظر عنى، هذا هو كل ما فى الأمر... آمل، أرغب فى أن تتعهد بنوع من التحالف معى".

رسـائل (٢) ٢١٥: لورنس، كان فى ذلك الوقت، أوائل فبراير، بالتأكيد على حافة الجنون :
"أنا أعانى بشدة من قوى الظلام مؤخراً. أعتقد أنى انتصرت عليهم ثانية. لا تقل ! إنه ليس هناك شيطان، هناك أمير الظلام. أرغب أحياناً أن أدعه حراً، وأن أكون فظيعاً حقاً - أقتل وأذبح، ولكن القتل بصورة رئيسية، أريد حقاً أن أقتل. ولكنى أريد اختيار من سأقتل، ثم سأستمتع بالأمر".
كان لورنس قد وصل إلى إحساس أن إنكلترا كانت عليلة، وفى أمسّ الحاجة إلى عملية قاسية:

رسـائل (٢) ص٣٢٤ : فى أبريل، عاد لورنس مجدداً إلى الازدهار، كان فيليب موريل قد عرض استعداده لتهيئة "مبنى رهبانى" قديم، من أجل الغرض، فى كارسينغتون. مرة أخرى ارتفعت آمال لورنس لمجرد أن تحبط: فالتقييم من المقاولين كان "غير ممكن وأبعد من كافة التوقعات". وكان لابد من التخلى عن الفكرة.
فى ٣٠ إبريل نيسان ١٩١٥، كتب لورنس إلى الليدى أوتولاين، واحدة من أجمل رسائله:

رسـائل (٢) ص٣٣٠ - ١ : "أتمنى لو كنت قادراً على الذهاب إلى التبت - أو كامشاتكا - أو تاهينى - إلى أقصى، أقصى، أقصى الشمال. أحس أحياناً أنى سأصاب بالجنون، إذ لا يوجد مكان أذهب اليه، لا "عالم جديد"، وأنا إن لم أراقب نفسى، فإنى فى أحد هذه الأيام، سأغادر وبأسلوب سريع إلى مكان سخيف...
أرغب تقريبًا، أن أكون قادراً على الذهاب إلى الحرب - ليس من أجل إطلاق النار: لقد أقسمت قسماً أبديًا، على ألا أطلق ناراً فى هذه الحرب، حتى وإن أُطلقت النار علىّ. سأكون راغبًا أن أكون قاطع تذاكر فى الجبهة - أى شيء للهرب من هذا الوضع، ذلك هو الأمر.
موت ريوبرت بروك يملؤنى بالمزيد والمزيد من الإحساس بحماقة كل هذا الأمر. لقد ذبح برمح فويبس(*) اللامع - كان ذلك متوافقًا مع إشراقته العامة - كان الأمر القمة الحقيقية لوضعه. سمعت عنه للمرة الأولى كإله إغريقى تحت مظلة يابانية، يقرأ الشعر مرتديًا منامته(**)، فى غرانتجيستر، فى غرانتجيستر فوق المروج، حيث تجرى الأنهار. رمح فويبس اللامع قد أسقطه أرضًا، الأمر كله فى الحكاية البطولية.
يا إلهى، يا إلهى، إنه لأمر كثير جداً، إنه مثل الجنون. يوم أمس، فى وورتينك، كان الكثير من الجنود. هل باستطاعتى أن أروى لك كم كانوا قبيحين. "للحشرات - رغبة حسية"، أنا أحب الرغبة الحسية - ولكن على طريقة الحشرات، لا - إنها فاحشة.
أحب أن يكون الرجال وحوشًا - ولكن حشرات - حشرة تعلو حشرة - أوه يا إلهى! إن الجنود فى وورتينك مثل ذلك - لقد ذكرونى بالقمل أو البق: "للحشرات، رغبة حسية"، إنهم سيقتلون رؤساءهم فى يوم من الأيام. انهم يروضون حشرات. أى حجم كبير زاحف من جهنم أطلق سراحه فى هذه الأيام.
الأمر ليس اضطرابًا فى مخيلتى. هناك طائر الذُعرة جالس على عمود السياج، أرى كم هو جميل وسريع الحركة. إلاّ أن الجحيم بطيء وشرير زاحف ويعج بالحشرات: هكذا هى أوربا الآن، إنكلترا هذه".
الأمر ليس بالتأكيد مخيلته المضطربة المضمونة السلامة لا بالذعرة فقط بل أيضًا بأسلوبه الممتاز الحيوى التعبير. كتابة العديد من مثل هذه الرسائل، كانت الطريقة لتأكيد إمكانية محنة العقل فى عالم مجنون.

(*) Phoebus: أبولو، وهو إله الشعر والموسيقى والجمال الرجولى عند الإغريق (المترجمة)
(**) المنامة : البيجامة (المراجع).

موقف لورنس تجاه الحرب فى هذه المرحلة كان متناقصًا بشدة. فإن كان "عالم الرجال" قد ذهب بعيداً جداً بحيث إن نهاية ذلك العالم فحسب، قادرة على خلق الظروف لبداية جديدة، إذن ، وجب الترحيب برؤيا نبوية، وربما أن الحرب كانت رؤيا نبوية. ولكن من أجل بداية جديدة، كان لابد من وجود بعض الأحياء الباقين:

رسائل (٢) ص٣٥٢ : "موت، ودائمًا مزيداً من الموت، حتى تقضى النار على نفسها، ليكن الأمر كذلك - أنا على استعداد. ولكنى لن أموت. لنبق ونحصل على بداية جديدة، عندما يكون بمقدورنا إلقاء نظرة عليها".

ولكن لورنس لم يصر دائمًا على أن يكون نوحًا لما جاءه الفيضان. فهناك لحظات يبدو إذعانه فى حينها مشتملاً على إمكانية فنائه الشخصى.

كان فى برايتون، يحرص بشدة على السير بعيداً عن المرتفعات، ويأسه كان قد ازداد، بلا شك، بسبب شجاره المتواصل مع فريدا، وقد بدا الأمر لفترة قصيرة أنه لابد من العيش مفترقين. وفى الثانى من

رسائل (٢) ص٣٥١ : يونيو، أخبر لورنس فورستر، أن فريدا كانت تبحث عن شقة فى لندن، "ما لم تسقط عليها قنبلة - أن تقتل بواسطة أبناء بلدها - إنه القدر الذى يناسبها".

أول عمل روائى للورنس بعد قوس القزح، والأول الذى كتب فيه عن الحرب، كان "إنكلترا، إنكلترا خاصتى"، كتبت فى أوائل يونيو ١٩١٥:

إنها حكاية تعوزها الحرارة، خالية من الروح، ولكنها لا تعد غير ملائمة تمامًا، مادامت تصف منزلاً حزينًا يعيش فيه البطل إدجار، "مثل راهب أبيقورى(*)، يحاول التأثير بالفنون، لم يقترف أمرًا، كان لورنس قد رأى وعاش بين عدد كبير من أمثال هذه الأسر فى الأشهر الأخيرة. لقد بدوا بالنسبة إليه إنكليزًا فى الجوهر بلطفهم وعدم فاعليتهم.

أسلوب الرواية فى البداية تهكمى واضح، ولكن السخرية تختفى فى الصفحات القليلة الأخيرة، بعد اندلاع الحرب، بينما يربط لورنس نفسه أكثر وأكثر بإدجار. آخر أفكار إدجار، وهو يستلقى محتضراً فى أرض لا أحد، هى صدى العديد من رسائل لورنس فى عام ١٩١٥:

"من الأفضل أن يواصل العمل الرهيب التقدم أمامًا، الذوبان فى البحر الأسود للموت، فى غمرة الألم العظيم للفناء، بدلاً من أن يكون هناك أى احتمال عودة نحو الحياة".

* * *

فى يوليو أرسل رسل إلى لورنس دفتر ملاحظات محاضراته تحت عنوان "فلسفة إعادة بناء المجتمع"، أعادها لورنس، مشوهة بعدد كبير من اللاءات:

رسائل (٢)٣٦٥: "يجب أن تستنبط حالة جديدة، وليس الاستمرار فى نقد القديمة منها".

ووضع خمسة عشر خطًا تحت كلمة "يجب". وقد أعطى لورنس فكرته للحالة الجديدة. العدو الأكبر كان الديمقراطية: "حرية، مساواة، إخاء، هى الأنياب الثلاثة للأفعى". اقترح لورنس بنية من ثلاثة صفوف: "العمال" لانتخاب الإدارة والحكومة المحلية، ثم "هيئة مختارة من النبلاء"، وأخيرًا، "ديكتاتوراً مطلقًا

(*) أبيقور : فيلسوف إغريقى، ومذهبه يقول: إن المتعة هى الخير الأسمى والفضيلة" (المترجمة)

وديكتاتورة مرادفة" (لأن النساء سيحكمن بشكل متكافىء مع الرجال فى كل مرحلة، لكونهن مسؤولات عن "أمور تخص الحياة الخاصة"!).

رســـــائل (٢) ص٣٦٦ : وجّه رسل إلى لورنس تهمة توقه إلى الطغاة. نفى لورنس التهمة مدعيًا أن ما أراده هو "ملك منتخب، مثل يوليوس قيصر". والذى أزعجَ رسلْ هو ما قاله لورنس لليدى أوتولاين: "إنها تجربة الشباب". كان رسل آنذاك فى الثالثة والأربعين وكان لورنس فى التاسعة والعشرين.

كان رسل مثل عدد كبير من الآخرين قد جرفوا بعيداً بفعل حماسة لورنس المثالية. وبكلمات رسل، "كل شيء كان يجرى ببهجة مثل أجراس الزفاف":

نيــــــهلز (١) ص٢٨٢ : "اعتقدت لبعض الوقت أنه ربما كان مصيبًا. أحببت حماسة لورنس، أحببت توقد وحيوية مشاعره. أحببت إيمانه بأنه لابد من حدوث شيء أساسى من أجل إصلاح العالم. اتفقت معه فى التفكير أن السياسة لا يمكنها الانفصال عن سايكولوجية الفرد. شعرت أنه شخص يمتلك عبقرية واسعة الخيال. وفى البداية، عندما أحسست بالميل لمخالفته، ظننت أن نفاذ بصيرته تجاه الطبيعة الانسانية كانت لربما أفضل منى. ولم أصل إلاّ تدريجيًا إلى الأحساس بأنه قوة تامة للشر وأنه قد وصل إلى نفس الإحساس تجاهى".

رسائل رسل إلى الليدى أتولاين موريل فى الأشهر الأولى من عام ١٩١٥، تكشف تقلب مشاعره:

أوتـــــولايـــــن ص٥٦ – ٥٩ : "نفاذ بصيرته البديهية رائعة – إنها تجعلنى ألهث إعجابًا ... أحبه أكثر وأكثر. لا أستطيع التفكير فى عدم تشجيع ثورته الاجتماعية. إنه يمتلك إيمانًا حقيقيًا بها، وهى تمتص حيويته – عليه أن يتواصل معها، وهو يتحدث بشكل جيد جداً عنها، إلى درجة أنه يجعلنى أومن بها...

إن موقفه جنونى بعض الشيء إلا أنه ليس أمينًا تمامًا، وعلى الأقل مشوشًا، إنه لم يعتبر من درس العجز الفردى، ويعتبر كافة محاولاتى لجعله يدرك الحقائق مجرد تخاذل، ونقص فى شجاعة التفكير بجرأة، وانغمار ذاتى فى التفاؤل. وعندما يُدخِل شخص ما بصيصاً من الحقائق إلى عقله، كما فعلت أخيراً، يبدو مثبط الهمّة، ويقول : إنه سيذهب إلى جزر بحر الجنوب وينعم بالشمس مع ست زوجات هناك. إنه مُجدٌ فى العمل. مشكلته هى الميل إلى المبالغة المجنونة...

لا أعرف إن كنت قادراً على الإحساس بصدق أفكارى الشخصية بعد المناقشة معه، على الرغم من أن عقلى بأكمله يقف ضده. إننى كئيب، جزئيًا بسبب نقد لورنس. أحس أننى دودة، مخلوق غير ذى فائدة، وأحيانًا أعدد قابلياتى وأتعجب لماذا لا أكون أكثر فائدة فى العالم".

رسالة لورنس بتاريخ ١٤ سبتمبر، كانت لها تأثير مدمّر:

نيــــــهلز (١) ٢٨٤ – ٥ : (لمدة عشرين ساعة، اعتقدت أنى لا أستحق الحياة وفكرت فى الانتحار. بعد انقضاء تلك المدة سَرت فىّ ردّة فعل أقوى، وقررت التخلى عن تلك الأمور المروعة. عندما قال: إن علىَّ أن أبشر بتعاليمه وليست تعاليمى، تمردت، وأخبرته أن يتذكر أنه لم يعد مدرسًا لى، وأننى لست تلميذه. وكان قد كتب:

"كنت عدو الإنسانية أجمع، أنت مملوء شهوة للعداء. إنها ليست كراهية الزيف التى تثيرنى، بل كراهية أناس من لحم ودم، شهوة الدم لعقل منحرف، لماذا لا تريد الأمر؟ دعنا نصبح غرباء ثانية. أعتقد أنه أفضل".

لقد فكرت هكذا أيضًا. ولكنه وجد سعادة فى اتهامى، واستمر أشهراً فى كتابة رسائل تتضمن مودة كافية لاستمرار وتواصل المراسلة. وفى النهاية انزوت دون نهاية درامية).

أُهملت المحاضرات المشتركة، وأُهملت، وقتيًا، الازدهار:

(لقد رجوت وحاولت أن أكسب نواة صغيرة من أناس يعيشون معًا، ولكننى أعتقد أن الأمر لم يعد نافعًا. على المرء أن يبدأ مباشرة مع عامة الناس، دون وسطاء، ولكن كيف أبدأ؟ ومتى؟ لا أعرف حتى الآن).

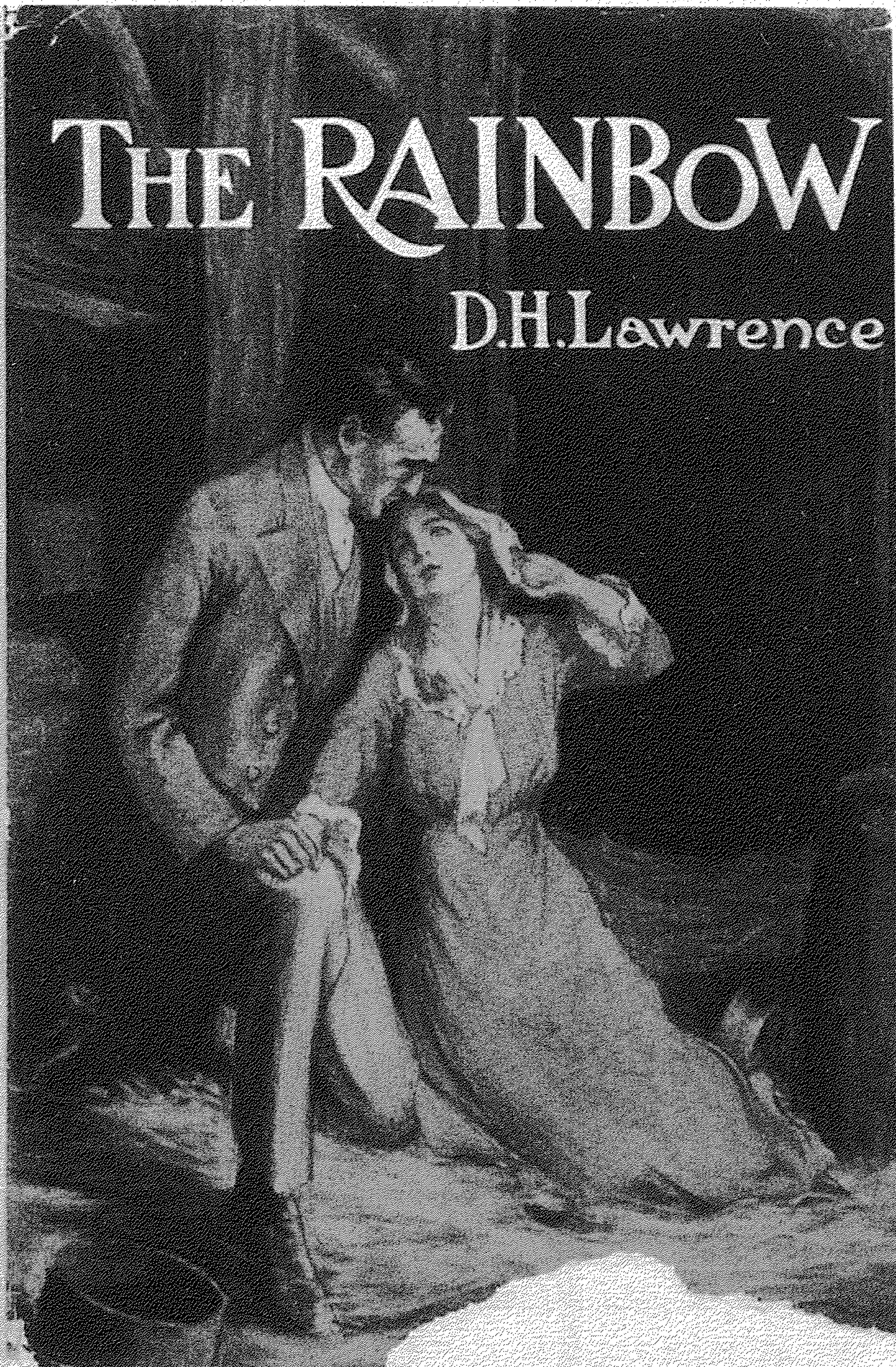
* * *

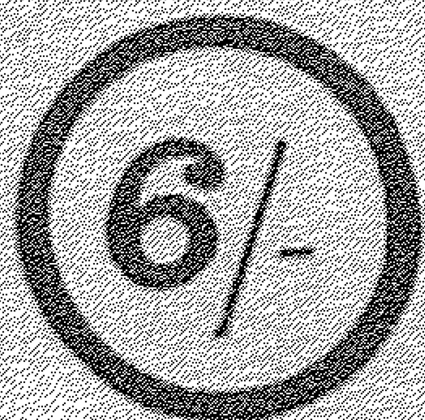
فى بداية أغسطس، انتقل اللورنسان إلى فيل أوف هيلث، هامبستيد، وبدآ يلتقيان الآن، كثيراً بكاثرين وموري. وفى سبتمبر قرروا طبع دورية باسم "سيجنيتشر" Signature.

مـــــــور : كانت مساهمة لورنس فيها "أولى محاولاته للاقتراب مباشرة من الجمهور"، مقدراً أن تكون فانتازيته الغيبية الغامضة "التاج". الاشتراكات فى المجلة كانت تسرى على ستة أشهر، وأصبح عددها حوالى خمسين. بعد ثلاثة أعداد توفيت "المجلة العاجزة الصغيرة السمراء". وبعد عشرة أعوام وجه لورنس لوماً لموري بسبب الإخفاق التام:

فـــــونيكس ص٢٣٦٤ : "قال لى جون ميدليتون موري: "دعنا نفعل شيئاً". كان هو العمل إصدار مطبوعة شهرية صغيرة أطلق عليها موري اسم "سيجنيتشر Signature"، وعقد اجتماعات أسبوعية فى مكان ما فى لندن – "ليست لدى الآن أى فكرة عنه – سلم ضيق يؤدى إلى غرفة، فوق دكان بائع خضراوات أو دكان إسكافى. الشىء الوحيد الذى ترك انطباعًا لدىّ كان موقع الغرفة، فى ناحية من نواحى لندن الديكينزية والرجل الجالس فى الطابق الأرضى. قمنا بمسح أرضية الغرفة والجدران وحصلنا على مائدة طويلة وعدد من الكراسى، من طراز وندسور من سوق كاليدونيان. واعتدنا أن نضرم ناراً دافئة جيدة: كان الموسم خريفًا مكفهراً فى منطقة غير معروفة من لندن، وفى ليالى الخميس، كنا نعقد اجتماعًا يضم حوالى اثنى عشر شخصاً. لقد تحدثنا ولكن دون أن يحتوى كلامنا على شىء. ولم تدم الاجتماعات سوى شهرين".

* * *





«الكلام الفاضح فى أولى طبعات قوس القزح ، ميثيون فى العام ١٩١٥ ، المرجح أن لورنس هو الذى كتب هذا الكلام الموجز .

دارير ص٩١-٧ : فى ٣٠ سبتمبر أيلول، صدرت رواية قوس القزح وهى دون شك أفضل رواية فى عصرها، وصفها روبرت ليند بـ "إرباك ممل من الجنس" ونصح قراءه بعدم قراءتها. فى ٢٢ أكتوبر ظهرت مقالة جيمس دوغلاس النقدية فى صحيفة "ستار"، وقال فيها: "لا حق لقوس القزح فى البقاء": "لماذا نفتح كافة الأبواب التى أوصدتها حكمة الإنسان وأغلقتها ووضعت عليها قفلاً مزدوجًا؟".

فى اليوم التالى ظهر نقد مماثل فى، سيفير، بقلم كليمنت شورتر:

"ليس هناك شكل للفساد الأخلاقى والإثارة، غير موجود فى هذه الصفحات".

وقد رفعت ضد "ميثيون" دعوى قضائية من قبل جارلس ماثيوز، مدير الادعاء العام، باسم مفوض الشرطة. وكان المحامى عن جهة الادعاء العام هيربرت ماسكيت. أما القاضى السير جون ديكنسون فكان واقعًا بوضوح تحت سيطرة دوغلاس وشورتر، حيث ترددت مقاطع مقالتيهما فى المحكمة. لقد وصف القاضى الرواية بكونها "قذارة تامة". وكانت مقالة دوكلاس تتضمن:

(الرجال اليافعون الذين يموتون من أجل الحرية، هم كائنات ذات خلق وقيم إنهم الأحياء الرافضون لمثل هذا النكران العاق للحياة كما قوس القزح. والحياة التى يؤكدونها هى عديمة القيمة، وهى ليست التى تدب وتزحف فى هذه الرواية).

لابد أن ما ذكر قد أثر بقوة فى السير جون ديكنسون: إذ كان ابنه قد قتل فى الجبهة قبل ستة أسابيع. وكان لورنس معروفًا بموقفه ضد الحرب، وأن له زوجة ألمانية. ولم يساعده فى الأمر إهداؤه الكتاب إلى إيلز. فى ١٥ نوفمبر، كتبت التايمز:

"فى محكمة الشرطة فى شارع بو، تم فى يوم السبت استدعاء السادة الناشرين، ميثيوم وشركائه، (المتحدة)، شارع إيسيكس، ستراند، أمام السير دون ديكنسون لتوضيح سبب وجوب عدم إتلاف ١٠١١ نسخة من رواية قوس القزح للسيد د. هـ . لورنس. عبَّر المدعى عليهم عن أسفهم من طبع الكتاب، وأمر القاضى بإتلاف النسخ وأن على المدعى عليهم دفع مبلغ قدره (١٠ جنيهًات و ١٥ بنسًا) نظير الأتعاب".

أما التفسير الملحق بالخبر فكان أن النسخ المصادرة قد تم حرقها من قبل الجلاّد العام الذى يتولى عمليات الإعدام خارج البورصة الملكية. لم يعرف لورنس بالأمر، إذ لم يكن قد بلّغ بذلك من قبل المدعى عليهم، الذين لم يقدموا دفاعًا واتفقوا مع وصف الادعاء العام للرواية. وقد ادّعوا أنهم قد رفضوا النشر ما لم تدخل على الكتاب بعض التعديلات المعينة، وأن وكيل لورنس أعلمهم أن تلك التعديلات قد أجريت وأنهم لم يكتشفوا حقيقة الأمر إلاّ حين الوصول إلى مرحلة التجربة الطباعية، وأن لورنس أجرى عندئذ بعض التغييرات ورفض إجراء الباقى. كل ذلك كان حقيقة أساسية. فقبل ثلاثة أيام من النشر، كان ميثيون قد كتب لبينكر:

"أنا خائف، من المحتمل أن نقع فى مشكلة بسبب رواية د. هـ . لورنس الجديدة، ونأمل أن يحاول مستقبلاً تغيير صراحته فى الرواية القادمة".

نجح ميثيون بواسطة مناورته من تحويل الخزى إلى المؤلف الغائب، ومتجنبًا الغرامة. ونجحت الشركة فى ثنى كل من كليف بيل وبينكر عن محاولة نقض القرار، بل إنهما طلبا من لورنس إعادة مبلغ الـ ٣٠٠ جنيه.

ديلافينى : وقد وجه فيليب موريل مرتين أسئلة عن القضية فى مجلس العموم، وأجاب السير جون سيمون، سكرتير المجلس، أن القانون قد اتخذ مجراه المناسب، ولكن الملاحظة الغامضة بالحبر الأحمر على مذكرته:

"بالنسبة للسيدة ويكلى التى تعيش فى عنوان لورنس، انظر ٣٥٢٨٥٧" توضح تحريضًا سياسيًا وتدخلاً مهمًا من قبل وزارة الداخلية فى القضية.

فى اليوم الذى سبق نقد دوغلاس، كان لورنس قد كتب إلى الليدى سينثيا آسكويث معربًا عن أسفه لوفاة شقيقها:

رسائل (٢) ص٤١٤ : (فى هذه الحرب، أنا لا أومن بالمعنويات التى نحافظ عليها الآن. أومن أنه خطأ، خطأ فظيع جدًا، إنها مثل نار كبيرة ملتهبة والتى ستسحب إليها أرواحنا كافة. ولهذا السبب سأرحل بسرعة، إن سمحوا، إلى أميركا. ربما ستقولين: إن الأمر جبن منى، ولكن كيف يمكن للمرء الخضوع لمثل خطأ جوهرى كهذا الذى ترتكبه الآن، إنكلترا – وشعوب أخرى إن آلمتك عينك، اخلعها. وأنا انكليزى، وإنكليزيتى هى تصورى الخاص. وعلىَّ أن أرحل الآن، إن تكن روحى عمياء إلى الأبد، دعها تكن عمياء، بدلاً من ارتكاب فعل إذعان لهذا الشر الكبير).

كان لورنس تقريبًا، الكاتب الإنكليزى الوحيد فى عصره (شو كان أيرلنديًا) الذى لم يتوصل إلى تفاهم مع حملة الصحف الشعبية للدعاية الموجهة من قبل الحكومة. علم أن الروحية التى شنت بها الحرب، ستقرر الروحية التى تسود السلام ونوعية الحياة فى إنكلترا لأجيال قادمة. علم أن الأصول التى تمثلها أسكويث كانت قد تجذرت فى أنه لا شىء أكثر حيوية من الامتياز الطبقى والنزعة العاطفية والتوق إلى الماضى والتحسن الواهن للتعليم الكلاسيكى. علم أن المستقبل كان فى يد البذيء لويد جورج ورفاقه من بارونات الصحافة، الذين يتلاعبون بأساليب غير قويمة ويتاجرون بأحط غرائز الجماهير:

رسائل (٢) ص٣٩٤ : "وأنا أحس فحسب، أنه حتى إن كنا مسرعين نحو الانقراض فإن على الواحد دعم الآخر، الحقيقة الفعالة، فيما يتعلق بالحق والواقع النقى، واقع الروح الأبدية النيّرة. على المرء أن يشهد للحياة والنمو، وسط كل هذا الدمار الشامل والتفسخ العام".

فى ٣٠ أكتوبر، بعث لورنس إلى الليدى سينثيا، قصته عن الحرب، "الكشتبان"، مع رسالة مشبوبة العاطفة:

رسائل (٢) ص٤٢٠ : "لو كان بالمقدور، فحسب، إنهاء الحرب هذا الربيع، قد يكون بإمكاننا النهوض ثانية إلى الحياة، هنا فى عالمنا هذا. وإن استمرت عامًا آخر. فسيكون كل شىء مفقودًا. على المرء أن يمنح كل شىء الآن. أن يمنح ألمانيا، وإنكلترا والإمبراطورية بأكملها، إن أرادوها، كى يكون بالإمكان إنقاذ أمل الانبعاث من الموت، موتنا نحن الإنكليز وأوربا بأجمعها.

ماذا تعنى الإمبراطورية بأكملها والملكة، باستثناء، الكشتبان، فى قصتى؟ إن تمكنا من إحضار أرواحنا عبره إلى الحياة".



السيدة / سينثيا أسكويث

فى اليوم التالى، سجلت الليدى سينثيا، رد فعلها تجاه القصة فى مفكرتها اليومية:

اسكويث : "أعتقد أنها مكتوبة بشكل جيد جداً، على الرغم من غرابة رمز، "الكشتبان"، بعض الشيء. لقد استمتعت بإدراك "الصورة اللفظية" المرسومة لى. لقد صاغها على نطاق واسع من دون مبرر. أعتقد أن تلميحات بعض شخصياته جيدة إلى حد كبير. لقد بقى قريباً، إلى درجة مناسبة، من النموذج المثالى فى هذه الظروف".

ولورنس لم يرسل إليها القصة من أجل الاستمتاع. كل إشاراتها إلى "لورنس المسكين" فى يومياتها، رديئة وضحلة، توحى برعايتها له. وكل ما أدركته من نقده اللاذع للحرب كان تصوره عن وجوب تمكنها من إنهائها بمفردها.

ربما أن لورنس كان يشعر ببعض الحب تجاه الليدى سينثيا ولعدم رغبته فى الاعتراف لنفسه بإمكانية أن ينجذب نحو مجرد سحر وجمال أرستقراطيين، حاول أن يقنع نفسه والليدى سينثيا، من أنها تمتلك إمكانيات أعمق. وهى مع الأسف لم تكن تمتلك. أحس لورنس بقوة الحاجة إلى الارستقراطية، ولكن عليهم فحسب، إثبات أهليتهم، وذلك بالوقوف فوق ما هو موضعى وزائل. ولاحقاً، كتب لورنس إلى الليدى سينثيا:

رسائل (٣) ص١١٨ : أحس بالغضب تجاهك، الطريقة التى ضللت بها كل ما هو حقيقى، بالاعتراف بتفوق ما هو مجرد وزائل وأحمق وخارجى علينا. إن خان الارستقراطيون جميع، قيم ومبادىء الحياة، من أجل أمور عفنة، شائعة فحسب، فأى قيمة للارستقراطية؟

* * *

إن مقاومة مورى لأفكار لورنس السياسية والطوبائية قابلة للفهم، ولكن رد الفعل هذا تجاه، قوس القزح، وهو الشخص المتوجه ليصبح ناقداً أدبياً محترفاً، لا يجوز العفو عنه:

مورى (٢) ص٣٥١ : "لم أستطع فهمها بتاتاً، وأنا بالغريزة لا أشعر بالميل إليها. كان هناك اتصال جسدى مختلط، شهوانى، شديد وثقيل الوطأة، والذى نفرنى، كما أنى لم أستطع فهم تلك القوة التى لا تقاوم والتى دفعت لورنس إلى الكتابة بذلك الأسلوب وفى تلك الموضوعات، كذلك لم أفهم دهشته وفزعه من كون النقاد يطالبون بدمه. بالنسبة لمجرد الإحساس، فقد شعرت أنى كنت معهم. حدث أن كنت صديقاً للورنس، ولم يكن روبرت ليند كذلك. ذلك هو الاختلاف الوحيد".

ومع ذلك، كان مايزال متواصلاً مع ميوله؛ كونه نائباً للورنس، وأيضاً مع استعداداته لبدء حياة جديدة معه فى العالم الجديد. وفى نهاية أكتوبر، جلس لورنس مع مورى لعدة ساعات وحدهما فى وزارة الخارجية محاولين الحصول على جوازَى سفر جديدين. كان لديهما عرض لكوخ فى فورت مايرز فى فلوريدا. وفى النهاية وببعض المساعدة من إسكويت، حصل لورنس على جوازه. وكان آنذاك لا يملك النقود، فأرسلت إليه الليدى أوتولاين ١٥ جنيهاً، وبعث إيدى مارش ٢٠ جنيهاً، وبيرناردشو ٥ جنيهات، من أجل بطاقة للإبحار إلى نيويورك، فى ٢٤ نوفمبر. إلاّ أن لورنس أجّل رحلته فى انتظار أمل عقيم لإجراء يقوم به اتحاد المؤلفين الذى كان قد انضم إليه بعد صدور قرار بشأن قوس القزح. كما أنه أراد الإبحار مباشرة إلى فلوريدا دون المرور بنيويورك. مضافاً إلى ذلك، أن المؤلف الموسيقى فيليب ("بيتر وورلوك")، كان يفاوض فردريك ديليوز حول عمله، "الأرض المهجورة". أجاب ديليوز:

نيهلز (١) ص٣٣٠ : (كنت أحب أن أكون ذا فائدة للورنس الذى أعجب بأعماله، ولكن أن أسمح له بالذهاب إلى فلوريدا، سيكون مثل إرساله لى كارثة).

فى ٢٥ نوفمبر، كتب لورنس إلى مورى:

رسائل (٢) ص٤٥٢ : "لو أن الأمر انتهى فحسب بسعادة مثل أغنية أو قصيدة، ونعيش مبتهجين جوار نهر كبير، حيث هناك الأسماك، وفى الغابة من خلفنا ديكة رومية برية وطيور السمان، هناك سنكتب أغنيات وقصائد وقصصاً ومسرحيات فى وادى أفالون، فى الهيسبيريديس، بين العشاق".

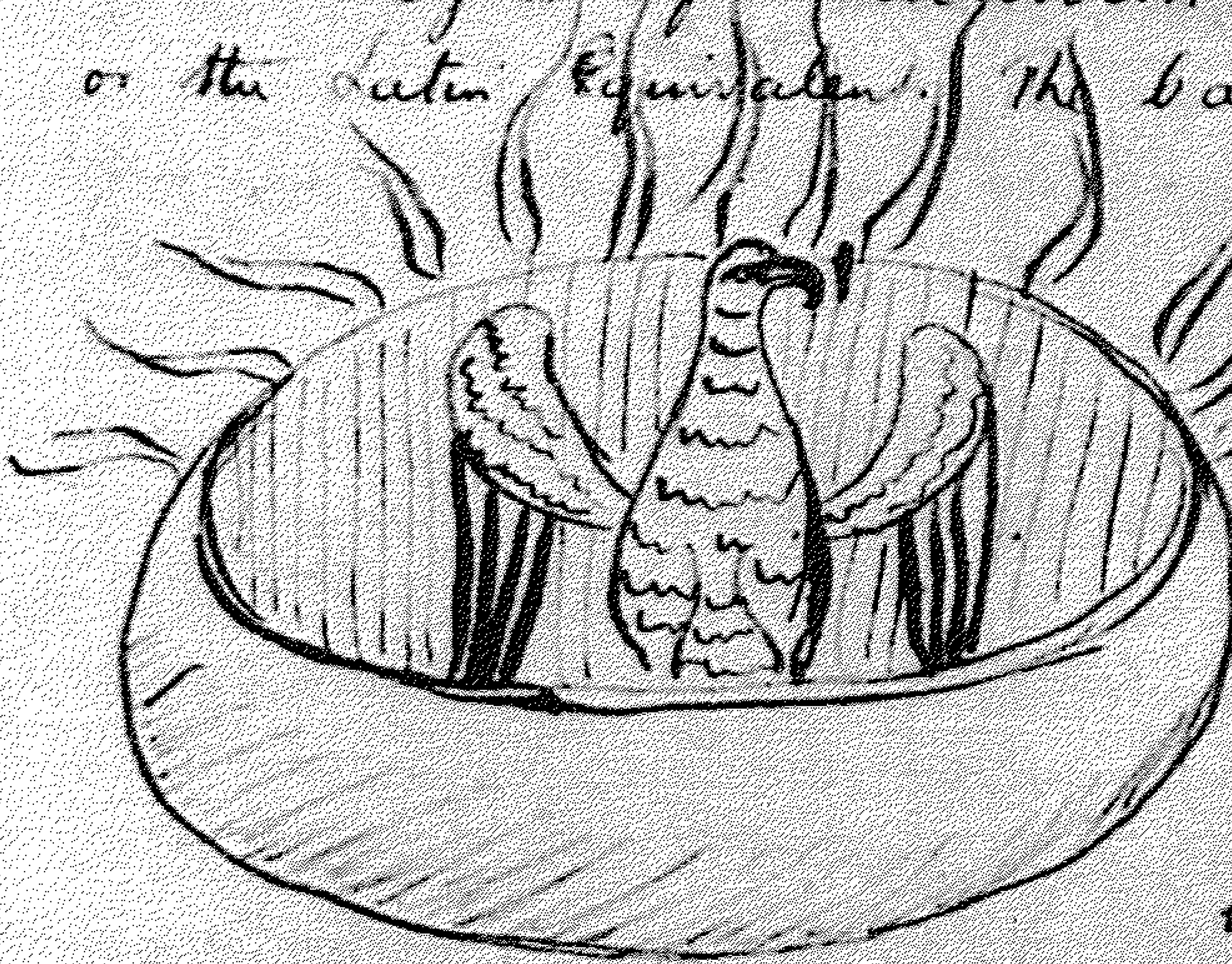
كان الدوس هكسلى، فى هذا الوقت، عضواً محتملاً. وباقتراح من الليدى أوتولاين، دعاه لورنس إلى شاى:
هكسلى ٢٩ : "وقبل أن ينتهى الشاى، سألنى إن كنت سأنضم إلى مجموعته، وعلى الرغم من كونى شاباً حذراً فى تفكيرى، غير ميال للحماسة، وعلى الرغم من أن لورنس كان قد أدهشنى وأثارنى بصدق وبدرجة لم تعوّدنى عليها نشأتى فقد أجبته بنعم".

Bellingdon – Chesham – Bucks
3 Dec 1915.

Dear Kot,

[I] was sorry you did not sleep, when you got back to the Bureau. But we laughed at you in your letter nevertheless.

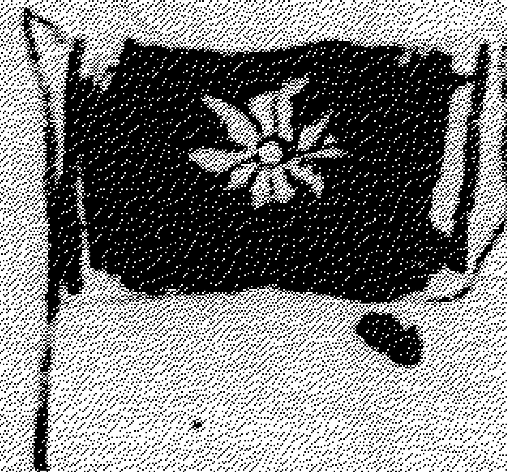
What about Rananim? Oh, but we are going. We are going to found an Order of the Knights of Rananim. The motto is "Fier" or the Latin Equivalent. The badge is so:



an eagle, or phoenix argent, rising from a flaming nest of scarlet, on a black background.

and our flag, the blazing, ten-pointed star, scarlet on a black background

Fier



نسخ لورنس مثله الأعلى على كتاب السيدة هنرى جينر المعنون "الرمزية المسيحية".

ولكن هكسلي قد ارتاح عندما فشل المشروع فيما بعد:

هكسلي : "كان الأمر أفضل من وجوب استمراره، مثلما سيبقى دائمًا مشروعًا وأملاً".

مشروع لورنس التالى، كان الإبحار على متن سفينة بخارية، يوم ٢٠ ديسمبر، برفقة هيستلاين وسهروردى، "المنحدر مباشرة من سلالة الرسول"، وكان لورنس قد التقى به فى غار سينغتون. وفى ذلك التاريخ، انتقل عقد إيجار منزل الهامبستيد إلى شخص آخر، وبيعت قطع الأثاث. ثم جاءت الأنباء بأنه لن يُسمح للورنس بمغادرة البلاد، دون إعفاء من الخدمة العسكرية، فراجع مركزًا للتجنيد فى بلدية باتيرسى، انتظر ساعتين، ثم انصرف عائداً. الإحساس بالاشمئزاز من تلك الحالة المهينة كان أقوى من قوة الجذب نحو أميركا. ولهذا السبب، فإنه سيتوجه لاحقًا إلى كور نوول، حيث منزل أعاره إياه، ج . ل . بيريستفور، فى بورتكوثان بالقرب من بادستو:

رسائل (٢) ٤٨٧ : (بعض أعضاء جماعة بعثة فلوريدا قادمون أيضًا. سنبدأ الحياة الجديدة فى كورنوول. إنها حقيقة).

رسائل (٢) ص٤٩٠ : (ولكن لبضعة أسابيع أو أشهر فحسب. فإنهم سيكونون بالتأكيد فى فلوريدا قبل نهاية الصيف. هناك عدد من الشباب، "راغبون بالمجيء". وقد دعى رسل "للمجيء وترأسنا").

رسائل (٢) ص٤٩١ : (وصلنا إلى هنا فى الليل - منزل جيد ذو غرف واسعة مشرقة، أى صمت رائع، ورياح خفيفة وصوت خافت للبحر. أى طمأنينة، إنها ستدفعنى إلى الصراخ. لا يريد المرء غير أن يترك ويبدأ فى الحب ثانية - ليس مع كل ذلك الخلاف والفراق - دعونا نبدأ مرة أخرى فى الحب فحسب - أحس وكأننى أناشد الريح والمياه، ولكن المرء لا يجرؤ على مخاطبة الناس).

وكان الناس قد اختاروا، هوراشيوبوتوملى، كمتحدث باسمهم، يعظ حقداً شوفينياً ووطنية متطرفة وذلك فى صحيفته الأسبوعية، جون بول.

كانغارو : (كان ذلك فى عام ١٩١٥، عندما انتهى العالم. فى شتاء ١٩١٥ - ١٩١٦، انهارت روح لندن القديمة، والمدينة، بطريقة ما، فُنيت، فنيت من أن تكون قلب العالم، وغدت دوامة لانفعالات مهشمة، رغبات، وآمال، ومخاوف، وأشياء مرعبة. تهاوت وحدة لندن وبدأ الانحطاط الحقيقى، الزيف الذى لا يمكن وصفه للصحافة والرأى العام، وسلطة ذلك الغرور المخزى، كان ممثلاً فى جون بول).

ومع نهاية العام، أخذ لورنس فى رعاية آماله الهشة:

رسائل (٢) ص٤٩٢ : (ستكون هناك فلوريدا، أو أى مكان آخر - لابد أن تكون. وعلينا جميعًا مغادرة تلك الحياة المعقدة المتفسخة - لندن، إنكلترا. هنا يقف المرء على أطراف أصابع قدميه مستعداً للقفز بعيداً).

(٩)

الكابوس

لم يذهب لورنس إلى فلوريدا فى عام ١٩١٦، ولا إلى أى مكان آخر. لم يضع قدمًا خارج كورنوول. فى غضون أسبوع قرر التخلى عن فلوريدا، التخلى عن الناس تمامًا، لو كان باستطاعته فقط، أن يُترك وحيدًا للتواصل مع "فنّه الشخصى جدًا". لقد أحس أنه مثل ثعلب وقع فى المصيدة:

رسائل (٢) ص٥٠٠ : ليس هناك أى فلوريدا، هناك هذه فقط، إنكلترا هذه التى تسبب لروحى الغثيان، تقزز روحى وجسدى، إنكلترا هذه. من الأفضل أن يقذف المرء نفسه من فوق المنحدرات الصخرية، نحو البحر الهائج الأبيض، بفعل ريح قوية، على أن يجلس على مأدبة القىء هذه، هذه الحياة، إنكلترا هذه، أوربا هذه .

رسائل (٢) ص٤٩٩ : معترفًا أنه قد هزم، وأنه لن يكافح أو يقاوم مطلقًا، وسيندفع، على غير هدى، مثل زغب نبتة شائكة، دون أن تكون له صلة ما بالعالم، عالم غير حقيقى مثل "أضواء ليلة أخيرة لمقهى الرويال". كان عام ١٩١٦، هو الذى أطلق عليه لورنس (العام رقم ١ للعالم الجديد)، عالم (لا ناس فيه غير أناس حديثى الولادة: أنا بالذات وفريدا). كان فى ضيافة لورنس هيسيلتاين وكويومدجيان، وهو الروائى المعروف، "مايكل أرلن"، ولكن لورنس وجدهما اليوم "مثيرين للاشمئزاز. كان مايزال يميل إلى هيسيلتاين ولكن كويومدجيان، كان ميالاً بشدة لتأكيد ذاتيته، وصرفه لورنس.

رسائل (٢) ص٤٩٨ : كان لورنس مريضًا فى الفراش معظم الوقت، وقام بفحصه ميتلاند رادفورد وأخبره بعدم وجود أى خلل عضوى وأن أعصابه كانت أصل المشكلة، أنه على الأقل وجد كورنوول أكثر ملاءمة لطبيعته ومزاجه من أى مكان عاش فيه فى إنكلترا.

أحب أن أكون هنا، أحب البحار الهائجة، إنها أرض جرداء، أرض الملك آرثر، خفقة من عهد الحضارة السيليتكية، ما قبل المسيح. أنا أحب المكان كثيرًا جدًا.

رسائل (٢) ٥٠٤ : بدأ لورنس "فلسفته" من جديد، وكان واثقًا من أنه قد "تُوصل إليها":

"لقد بلغت أخيرًا، إنى راضٍ وواثق مثل قبّرة فى السماء".

لقد كرس نفسه لمهمة توقع فى النفس روعًا، الدفاع عن "العالم الجديد"، إذ لم يعد هناك أى أمل للعالم القديم غير الانزلاق "برعب نحو الأسفل فى الحفرة التى لا قرار لها".

رسائل (٢) ص٥٣٠ : سنبقى فى كورنوول حتى نفاد نقودنا - والذى سيستغرق ثلاثة أو أربعة أشهر - وأعتقد أننا بعد ذلك كما سنفعل جميعًا، سنغرق أنفسنا. لأننى لا أرى أى رجاء لانتهاء الحرب، ولا شبح أمل فىٍ أن يطلب الناس عملاً مخلصًا من مبدع. إنها حياة ملعونة.

مع ذلك أحس لورنس أن الفكرة الأفضل كانت العثور على شركة نشر "تطبع من أجل الحقيقة". "الكتاب شىء مقدس، ويجب أن يصير كذلك ثانية".

وقد كتب هيسيلتاين ووزع التوقعات التالية:

كتب قوس القزح والموسيقى

نيـــهلز (١) ص٣٤٨ - ٩ : إما أن يخرج عدد كاف من الأشخاص لشراء كتب من أجل تبجيلها للحقيقة وإما أن تنقرض الكتب. فى هذه الكتب تكمن رؤيا شعب: وعندما لا توجد أى رؤيا يهلك الناس.

يعتمد النظام الحالى للإنتاج، يعتمد كليًا على التقدير العام: وهذا يعنى الانحطاط الفكرى التدريجى حتمًا. والكتب المطبوعة تنحدر أكثر وأكثر نحو المستوى المتدنى للقارىء الأدنى.

إنه لأمر بشع رهيب، أن يكون القطيع سيد الكلمة الملفوظة. على الخنزير أن ينخر استنكارًا، وسيكون على ملائكة السماء الحقيقيين التزام الصمت.

إنه الزمن المناسب كى ينهض فيه أناس يمتلكون الجرأة وتتسم أرواحهم بالأحاسيس، كى يشكلوا نواة حقيقية حية، مادام لابد من وجود أولئك بيننا، الذين يهتمون بالحقيقة أكثر من اهتمامهم بالفائدة.

ومن أجل هذه الغاية كان فى النيّة محاولة طبع مثل هذه الكتب والأعمال الموسيقية كما هى، حية وصادقة، فإن مثل تلك الكتب سيكون مصيرها إما الرفض من الناشر، أو تجاهلها عندما يزج بها فى المعلف أمام العامة، بشكل عام.

طريقة الطبع والتوزيع الشخصى ستُميط اللثام عن مصادر الصدق والجمال تلك والتى هى اليوم مجدبة فى النفوس. وستقدم الأعمال الحقيقية مجردة.

من المقترح البدء بطبع قوس القزح أولاً، رواية د. هـ. لورنس، التى طمست ظلمًا. لدينا مال كاف. سيكون الكتاب التالى إما عملاً فلسفيًا للورنس، "خليعون وثقوب الإبر"(*)، أو كتاب جديد لكاتب آخر).

كتب هيسيلتاين إلى ديليوس: إن "المشروع كان يائسـاً" وكان هناك فى الواقع، ٣٠ استجابة من مجموع ٦٠٠ وزعت عليهم نسخ من الإعلان.

نيـــهلز (١) ص٣٥١ : عندما انتقل لورنس إلى زينور فى شهر مارس، كان يأمل أن ينضم إليه هيسيلتاين مع مورى وكاثرين هناك. ولكن هيسيلتاين كان فى هذه الفترة "قد كشفه" وقرر رفض أى محاولة لعلاقة شخصية معه. إنه

نيـــهلز (١) ص٥٨٢ : على الأرجح قد اكتشف أن لورنس كان يناقش حياته الشخصية وعشيقاته مع الليدى أتولاين موريل. وهكذا انهار مشروع كتب قوس القزح والموسيقى. إلاّ أن لورنس أنهى فعلاً كتابه "خليعون وثقوب الابر". وقد قرأته سيسيل غراى مطبوعًا على الآلة فى ١٩١٦، ووجدت "أنه بحث فلسفى - نفسى يتناول الشذوذ بشكل موسع". من النسختين المتوفرتين أحرق لورنس واحدة واستعمل هيسيلتاين الأخرى كورق تواليت. من المحتمل، على أى حال، أن عددًا كبيرًا من (الخليعين وثقوب الإبر)، قد دخل فى محاولة لورنس الفلسفية التالية - "حقيقة السلام.

رســـائل (٢) ص٥٦٤ : فى زينور شعر لورنس أنه وجد "أفضل مكان للعيش يمكن العثور عليه فى إنكلترا". بعث إلى مورى وكاثرين، صور البيوت الريفية الثلاث فى هاير تريغرثن، "مثل دير صغير... ازدهارنا":

"ليكن الأمر متفقًا عليه إلى الأبد.. أن تستمر صلتنا أبدًا"

رســـائل (٢) ص ٥٧٠ : فى بداية أبريل وصل الموريّان، وعمل الجميع بحماس من أجل تهيئة منزلهم الريفى.

(*) عنوان الكتاب بالإنكليزية هو goats and compasses . وكلمة goat تعنى الماعز وتعنى الخليع . وكلمة compass تعنى البوصلة وثقب الإبرة. (المترجمة)

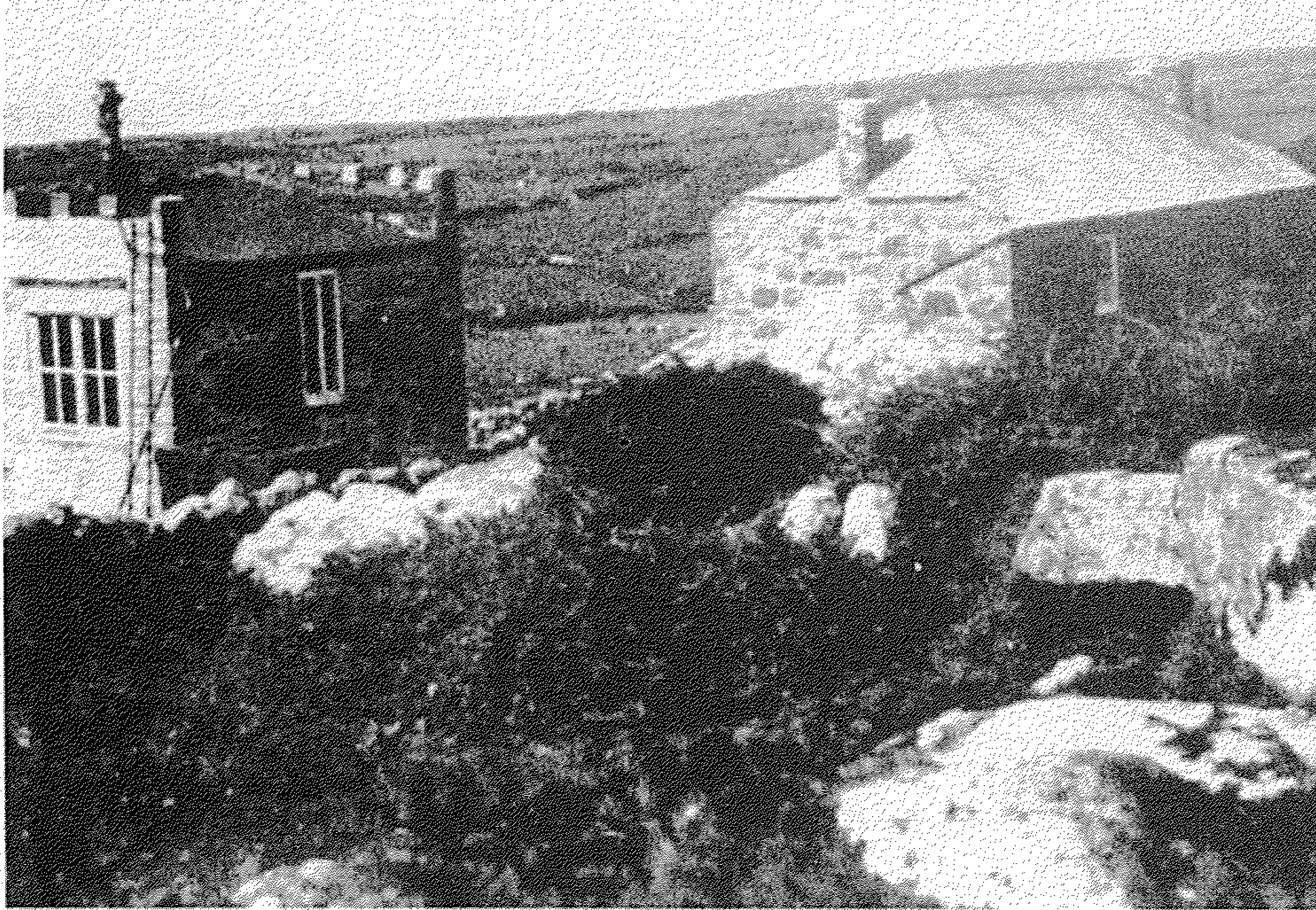
رســـــائل (٢) ص٦٠٢ : تحسنت صحة لورنس مع قدوم الربيع. وفى إبريل نيسان بدأ كتابة روايته، "نساء عاشقات" فى بداية شهر مايو، توصل إلى إحساس من أن الرواية الجديدة "تتجاوز نطاق أى أمل لطبعها مطلقاً"، أو حتى تقديمها "لأناس عفنين من أمثالنا".

"ولكن العمل الفنى هو فعل صدق، كما يقول مايكل أنجلو، والكاتب يستمر فى الكتابة، لشهود غير مرئيين".

وعلى الرغم من ذلك استمر العمل فى التواصل، وفى نهاية الشهر كتب:

رسائل (٢)٦١٤ : "انتهى ثلثا الرواية. إنها تتواصل بسرعة شديدة. لم أتعذب بسببها. إنه كتاب روحى الحرة".

رســـــائل (٢) ص٦٢٧ : مع نهاية يونيو، كانت الرواية انتهت، باستثناء الفصل الأخير، الذى تركه لوقت يكون فيه قلبه "أقل انقباضًا".



ثريغرثن العليا فى رينور . "حكيت لكم كل شىء عن المنزل : الكتل الجرانيتية الضخمة رمادية اللون ، ستحبونها ، التل البدائى الموجود خلفنا ، البحر الموجود خلف الحقول القليلة ، والذى فيه جلاميد كبيرة شبه غارقة فى الحشائش ، والجدران الحجرية رمادية اللون ... وغرفة برجكم ، كلها من الخشب ، ولها نوافذ ، وتحيط بها ثلاثة نوافذ كبيرة ، وهى دافئة قدر المستطاع ؛

وقد حدثت أمور عديدة لاستنزاف ثقة لورنس التامة، والتى كان فى حاجة إليها من أجل إتمام الرواية.

كان هناك الطحن الموهن للفقر:

فى نهاية إبريل كان لديه، ١٥ جنيهاً؛ بينه وبين المجاعة التامة، وكانت هناك المشاجرات العنيفة مع فريدا، وقد وصفت كاثرين واحدة منها كتابة لكوت:

قالت فريدا : إن "قصيدة غنائية لقبّرة" لشيلى كانت مزيفة. قال لها لورنس:

مانسفيلد ٧٨-٩: "إنك تستعرضين متباهية، أنت لا تعرفين شيئًا عنها". وبعدها بدأت تقول له: "لقد اكتفيت الآن بما حصل، اخرج من منزلى، أنت الإله الصغير ذو السلطة غير المحدودة. لقد نلتُ كفايتى منك. هل ستحتفظ بفمك مغلقًا أو لا؟". أجابها لورنس: "سأضربك ضربة خفيفة على الخد من أجل إسكاتك، أنت أيتها الوقحة القذرة" وإلى آخره. ولهذا قمت أنا بمغادرة البيت. وفى ساعة الغداء، ظهرت فريدا، "لقد

انتهيت منه. انتهى كل شيء وإلى الأبد"، ثم خرجت من المطبخ وبدأت تمشى حول البيت عدة مرات فى الظلام. وفجأة ظهر لورنس وقام بهجمة مفزعة نحوها. أخذا يصرخان ويتشاجران. ضربها – ضربها بقسوة، صدرها، وجهها، قلبها، وبدأ يجر شعرها. وكانت فريدا، طوال الوقت، تصرخ وتنادى على مورى أن يساعدها، وأخيراً، اندفعا إلى المطبخ، ودارا حول المائدة عدة مرات. لن أستطيع مطلقًا أن أنسى منظره، كان شاحبًا جداً – أخضر تقريبًا، وقد قام بالضرب توًا، وهزم المرأة القوية الشديدة المنتفخة، ثم تداعى على كرسى وهى على آخر. لم يقل أحدهما كلمة. ساد الصمت ماعدا نشيج فريدا وأنفاسها. أحسست بسعادة كبيرة لأن التوتر بينهما انقضى إلى الأبد، وأنهما قد توصلا إلى نهاية "علاقتهما الحميمة"، جلس (ل) محدقًا فى الأرض يعض على أنامله. بكت فريدا، تبكى وتتنهد. فجأة وبعد مضى وقت طويل – حوالى ربع ساعة – رفع (ل) رأسه وسأل مورى سؤالاً عن الأدب الفرنسى، أجابه مورى ... وشيئًا فشيئًا، اقترب الثلاثة من المائدة.. ثم صبت فريدا لنفسها بعض القهوة، ثم بدأ الاثنان، هى و(ل) بالتحدث، وأخذا يتجادلان حول نوع "من الجبنة الدسمة، ولكنها جيدة". وفى اليوم التالى وبخ نفسه بعنف، أكثر مما فعل بفريدا، كان يركض هنا وهناك، حاملاً لها الإفطار إلى الفراش، ومشذبًا قبعة لها".

رسائل (٢)٦١٠ : غادر الموريان فى منتصف يونيو، إلى أجواء أكثر هدوءًا، وقال لورنس:

"عليهما الذهاب إلى واد مريح للنظر، مشجر، يكثر فيه سجع الحمام المطوّق".

وكتبت كاثرين:

مانسفيلد ٧٦ : "إنه يهتاج ببساطة صاخبًا، يضرب بشدة على الموائد،، يسيء إلى الجميع. ولكن ذلك ليس بالأمر الكبير. ما يجعل تلك الحالات لا تطاق، هو الإحساس، الذى يحسه المرء فى مؤخرة عقله من أنه قد أصبح خارج نطاق السيطرة، مستوعبًا تمامًا بفعل التهيج. بعد انقضاء نوبة الغضب، يسقط طريح الفراش، محمومًا، منسحقًا، منهك القوى ... إنهما خشنان جداً بالنسبة لى للتلاعب معهما باستمتاع. فأنا أكره الألعاب التى يفقد فيها الناس السيطرة على أعصابهم بهذه الطريقة – والأمر حماقة كبيرة. إنهما فى الحقيقة ليسا على شاكلتى على الإطلاق. أنا لا أستطيع مناقشة صلة القرابة مع الوحوش مثلاً، إن كان علىّ المراوغة من أجل تجنب الاحتكاك بالمكواة أو المقلاة.

وأنا لن أرى فى الأشجار جنسًا، أو فى الجداول المنحدرة، وفى الأحجار وفى كل شيء".

(وتراجع مورى عن وعده له، الذى تخيله مثل سحر أسود فوق المستنقعات.

وفى هذا الوقت، حان موعد الفحص الطبى الثانى للورنس، فى بودمن بتاريخ ٢٨ يونيو، حيث اقتيد كمجرم عبر الشارع، إلى الثكنات، ليمضى الليل بطوله، وفى اليوم التالى منح استثناء إعفاء تام:

رسائل (٢) ٦١٩ : "إن لم أكن قد هربت، لكنت ميتًا".

ومرض لورنس انتقل إلى روايته. ولكن الرواية لا تتناول أبعاد ذلك المرض، إنها تشيّيء المرض من أجل تشخيصه. فعالم الرواية أوسع من العالم الحقيقى، لأنه يحوى تلك الحقائق التى فقد العالم الحقيقى التماس معها فى موتها المفعم بالحياة:

رسائل (٢) ص٦٥٩ : "أعرف أنه حقيقة الكتاب. وهو عالم آخر، أستطيع العيش فيه منفصلاً عن هذا العالم الاحمق الذى لا أتقبله أو أعترف به أو حتى أدخله. عالم روايتى كبير وخالٍ من المخاوف – أجل، أنا أحبه، أحبه بشدة).

فى رواية " نساء عاشقات"، نرى بيركن "البطل" يعيد تمثيل ماضى لورنس عند وصوله إلى الحافة التامة

لعدة أخطاء شبه جسيمة. إنه ينتقل من "موت إلى موت"، من جحيم إلى آخر، متأثراً من كل حالة، لأنها وكما تبدو، كل ما تقدمه له الحياة، وأيضًا بسبب من عدم تمكنه الإحاطة بوعى كامل، أو لعدم تبينه للأحاسيس الغامضة تجاه الحياة، ومدى حماقة كل حالة منها. وفى الرواية، جحيم بيلدوفر، حيث يُدفع الرجال لشق طريقهم بصعوبة إلى أعماق الأرض، ليكدحوا بشكل آلى، فى الظلام. وهناك أيضًا جحيم شوزتلاندز، حيث يعيش، رئيس العمل، الشيطان جيرالد، محافظًا على "المظاهر الأخلاقية للعملية الإنتاجية"، وجحيم بريدالبى، حيث الكلام (أغلبه يعود لبيركن)، "يستمر مثل قعقعة صغيرة"، وجحيم بوهيميا سوهو، سدوم العصرية و"فيه حشد من نفوس متحررة غير ملتزمة"، عمال، رؤساء عمل أرستقراطيين مثقفين، فنانين.. والكل يعيش حياة محكومة بالهلاك. الفساد هناك متفشٍّ إلى درجة أن، " بيركن" يبدأ فى الإحساس بأنه يعيش بلا شك الأيام الأخيرة للعالم، أو على الأقل للإنسانية، وأن العالم الآخر سيكون أكثر فظاعة وأن الأمر سيكون مشرفًا أكثر فى التواصل مع المسيرة المدمّرة، من أجل إيجاد طريق لمرحلة جديدة من الخلق، بدلاً من الكفاح ضده. لقد نُجىّ بيركن، من كل تلك الميتات، من قبل أورسولا، جزئيًا، وأيضًا بفضل التزامه المتقد لـ "مسعاه السابق نحو الحياة النقية الجادة".

مـــــــور : ولورنس وضع لنفسه مهمة صعبة شبه مستحيلة، عندما عكف على تحويل المادة المتبقية من عام ١٩١٣، من "الشقيقات الأصيلات" إلى "نساء عاشقات". فالرواية التى عزم على كتابتها عام ١٩١٣، كانت أغنية زفاف، أما الرواية التى أحس بحاجة إلى كتابتها عام ١٩١٦، فهى للتعبير عن "نتائج الحرب على نفسية

رســــائل (٣) ص١٤٣ : المرء"، وستكون نذيرة ورؤيا. والإحساس المهيمن عليه بالنهاية الموشكة للعالم، يفسر بدائل العناوين التى فكر فيها لورنس: سفينة نوح، يوم الغضب(*)، يوم العقاب الإلهى والأيام الأخيرة، ومجموعة المبادىء المستخدمة، المختلفة تمامًا إلى حد التناقض أحيانًا، ليست المشكلة الوحيدة، فالشخوص الرئيسية فى الرواية، تم خلقهم، استنادًا إلى نماذج من حياة لورنس، قبل تجربة ١٩١٣؛ جيرالد على شاكلة الميجور توماس فيليب باربر، غوردون، نموذج لإيثيلريدا بورون، وهيرميون النموذج لجيسى شيمبرز. وكان على هذه الشخوص أن تتداخل مع سمات من مورى وكاثرين مانسفيلد والليدى أوتولاين موريل، على التعاقب. لم يكن لمورى إلاّ القليل من الصفات المشتركة مع الميجور توماس فيليب باربر. ومن المثير للإعجاب أن خطوط التداخل لا تبدى سوى القليل من ذلك.

واجه لورنس قراءه بالكثير من الصعوبات والتعقيدات فى هذه الرواية، إلى درجة أنهم كانوا غير قادرين على فهمها (والنقاد اليوم منقسمون بشدة حولها).

ومن مورى كان متوقعًا أكثر من وجوب اكتشافه من أن الشخوص، "باهتة من المتعذر تمييزها، مثل إخطبوط فى حوض ماء".

درابـــــــر ص ١٦٨ – ٧٢ : "يعتقد مبدعهم أن بإمكانه تمييز خطوط الواحد منهم عن الآخر، وهو يبذل صفحات تلو صفحات فى وصف التوءات الأول والثانى والثالث والرابع.

إنهم بالنسبة إليه مختلفون تمامًا بالنسبة لنا، يبدون سواء".

أنهى مورى نقده بالقول إن الرواية "غير صالحة للإنسان وبهيمية، شىء كان أجدادنا قد رفضوه عندما بدأوا النهوض من الطين الدبق".

* * *

(*) يوم الغضب Dies Irae، يوم الغضب، ترنيمة لاتينية تصور يوم الحساب وتنشد فى القداس المقام على روح الميت. (المترجمة)

وعندما كان لا يعمل فى أمور مستحيلة، كان لورنس منحة ممتازة للصداقة. وكما يعبر مورى عن ذلك:

نيـــــهلز (١) ص٣٧٣ : "لم يكن الأمر متعلقًا بما قاله الرجل، مثل شدة الدفء والحميمية التى لا تقاوم، تلك التى يحيط بها الآخرون، فينشأ جو كأنه مقام من قبل جنائنى عطوف، والذى كان قد قرر بدقة تامة أنه يتوجب عليك النمو، والذى بفعل ذلك، أيقظ فيك الإحساس من أن شيئًا ما فى داخلك بإمكانه النمو".

ربما كانت صداقاته قد نضجت بصورة أسرع من المتوقع. وعندما وجد أصدقاؤه أنه من المتوقع منهم أن يكونوا مساعدين له تخلوا عنه. وفى عام ١٩١٦، داخل لورنس إحساس من أنه المسيح مع الاثنى عشر حواريًا. لقد حذرته كاثرين كارزويل من أن الأصدقاء الذين منحهم ثقته التامة يفتقدون الخواص الأساسية للمريدين: إنهم لا يؤمنون به جوهريًا، وهذا أمر لا يثير الدهشة مادام أنه فى هذه اللحظة لا يقدر على أن يؤازر إيمانه الشخصى بأى نوع من الإبداع الإنسانى مستقبلاً.

كان مطلب لورنس أن على أصدقائه جميعًا الانغمار فى القضية العامة. إلاّ أنه وبسبب كونه المفسر لتلك القضية، ولأن هذا التفسير كان معرضًا للتغيير من يوم إلى آخر، لذلك بدا الأمر بالنسبة إليهم، أنه كان مطلوبًا منهم طمس شخصياتهم فى شخصيته. كانوا جميعًا رجالاً أقل شأنًا. تعوزهم رؤيته وجديته وشجاعته. كان رسل يفتقد إلى الإحساس، ومورى وهيسيلتاين تعوزهما القوة والحيوية. كانوا، بلا أدنى شك لا يستحقونه، وهو، من جهة أخرى، كانت له مطالبه، وكانت بالتأكيد ثقيلة الوطأة على أفضل الرجال.

فى نوفمبر كتب لورنس إلى فورستر:

رســـــائل (٣) ص٢١ - ٢ : ليس لى أى صديق فى العالم، ولا أحد من المعارف، يشرفنى قول هذا كما أنى لا أمتلك أى مال على الإطلاق، ولا يشرفنى هذا القول، كما أنى لا أمتلك الكثير فى مجال الصحة: يبدو أنى أمضيت وقتًا طويلاً فى الفراش فى الأيام الأخيرة. فى الحقيقة، يتطلع المرء عبر النافذة إلى أرض الموت، وهى تبدو، فعلاً، نظيفة، حسنة، مجهولة، هذا كل ما يتبقى للمرء.

فى اليوم التالى، كتب لكوت:

رســـــائل (٣) ص٢٣ : أحكى لك عن ازدهارى، كانت فكرتى عن فلوريدا هى الأصدق. كان الأشخاص فحسب على خطأ. ولكن الذهاب إلى الازدهار من غير الناس هو أمر صحيح.

مستعمرة بلا ناس. نتيجة محزنة.

رســـــائل (٣) ص٣٥ : فى ٢٠ نوفمبر، أرسل أخيرًا «مخطوطة، "نساء عاشقات" إلى بينكر بمعنويات مختلفة جدًا، عن تلك التى استهل بها "قوس القزح" قبل ثمانية عشر شهرًا فقط:

"هل أستطيع أن أعبر لك عن مدى شكرى لأن العمل قد تم، وقد أصبح خارج البيت".

كان يخامره أمل ضئيل من إمكانية طبع الرواية يومًا. ولم يكن يمتلك لا الدافع ولا الثقة ليبدأ أى عمل آخر:

رســـــائل (٣) ص٤٠ : أنا الآن لا أقوم بأى عمل، نحن فى حاجة إلى كتب لقراءتها ... هذا نوع من فاصلة فى حياتى، مثل النوم. لا يستطيع الواحد منا غير التجول خلال الأيام المعتمة القصيرة ويقرأ ويطبخ ويتطلع نحو البحر. أحس وكأننى أيضًا أمرّ فى سبات شتوى مثل الثعابين وبعض القوارض.

فى ديسمبر ١٩١٦، تطلع إلى الأيام التى مضت متأملاً العام الذى كان قد أصبح، العام الأول للعالم الجديد:

رســـــائل (٣) مضى على وجودى فى كورنوول، حتى الآن اثنا عشر شهراً، لم أغادرها طوالها على الإطلاق، لهذا
ص٤٨ : السبب أحس أنى غريب عن العالم، أجد نفسى وقد جُردت من أصدقائى كافة، وأحس أنى أكثر ثقة
رســـــائل (٢) : وحرية، لا توجد لدى أى علاقة فى أى مكان. لماذا يتحتم على المرء البحث عن العلاقات الحميمة، إنها مجرد شباك حول المرء. من واجب المرء أن يقف متفرداً، متوحداً تماماً مع ذاته.

وكان سباته الشتوى معرضاً للقطع قريباً، فى غضون ثلاثة أسابيع، كان قد أوقعه فى شباك من نوع آخر، أوقعه فى الشرك.

* * *

فى أسبوعه الأول فى زينور، كان لورنس قد كتب:

رســـــائل (٢) "بإمكاننا أن نكون سعداء للغاية، فى البيت الريفى فى تريغرتن، إن كف العالم عن التطلع إلينا من خلال
ص٥٦٦ : النوافذ، بأوجه شريرة".

كانت الكلمات تنبؤاً حرفياً أكثر مما كان يتصور. العلامة الأولى وقعت فى صبيحة يوم (عيد الميلاد)، ١٩١٦، إذ زار لورنس صحفياً أمريكياً، روبرت ماونتسير، مع إستر أندروز، وجاء رقيب شرطة من سانت إيفز، طالباً معرفة كل شىء عنهما. لم يسفر هذا السؤال عن أى نتائج سريعة، غير كون اللورنسين خاضعين للرقابة.

رســـــائل (٣) بدا أنه لا فائدة من البقاء فى إنكلترا، فآخر كتبه لا يمكن طبعها، وليست هناك مبيعات لتلك التى طبعت.
ص٦٧ : "أعرف أنه لا فائدة من الكتابة لإنكلترا بعد اليوم. إنكلترا تريد مهدئات تافهة، ولا شىء آخر بالنسبة لآثارها الأدبية".

مـــــــارش : بدا الأمر بالنسبة إليه أن هناك شيئاً ما حتى فى الهواء الذى كان يتنفسه فى إنكلترا، والذى دمّر روحه. الأمل الوحيد كما بدا له، أميركا، جماعة، الازدهار، فى أقصى الغرب – ربما أبعد غرباً فى جزر ماركويساس – وظهرها نحو الجنس البشرى:

رســـــائل (٣) السبيل الوحيد هو السبيل نحو مكانى البرّى البعيد جداً، والذى سيصبح مدرسة وديراً وجنة عدن
ص٧١ – ٢: وهيسبيريدز(*) – بذرة سماء جديدة وأرضاً جديدة.

اهتمام لورنس المفاجئ بجزر المحيط الهادئ جاءت نتيجة تأثره وانفعاله لدى قراءته لميلفيل.

فى ١٢ فبراير، علم لورنس أنهم قد رفضوا المصادقة على جوازه. أخبر غيرتلر أنه سيتخلى عن الكتابة ويصبح مزارعاً.

* * *

أمضى لورنس فى منتصف إبريل أسبوعا مع عائلته فى توتنغهام شارير، وأسبوعا أمضاه مقيما مع كوت فى لندن . ثم عاد لورنس إلى كورنوول ليجد ايثر أندروز بعد انفصالها عن مونتساير قد هربت إلى الكوخ، حيث كانت تحاول القيام على رعاية فريدا التى كانت طريحة فراش المرض بسبب التهاب

(*) هيسبيريدز، حديقة التفاح الذهبى، ميثولوجية إغريقية، حديقة أسطورية تنتج تفاحاً ذهبياً، تحرسها حوريات بمعاونة تنين. (المترجمة)

القولون. لم تكن فريدا المريضة المثالية مطلقا، ولم يتحسن طبعها عندما بدأت تشله فى مجيء إيثر إلى كورنوول، وأنها جاءت خصيصا لإقامة علاقه غرامية مع لورنس. وقد سمحت لها معاييرها المزدوجة متابعة أمورها العارضة بصورة شبه علنية، فى الوقت الذى راحت تحذر لورنس فيه من أى درجة من درجات الخيانة صغرت أو كبرت. كان ذلك تصرفا حكيما، نظرا لأن لورنس كان أقل منها قدرة على الدخول فى العلاقات الجنسية. صحيح أن إيثر كانت تعبد لورنس الذى كان هو الآخر يرى أنها جذابة جدا. أما مسألة الخيانة التى ارتكبها لورنس عندما كانت فريدا فى فراش مرضها فلن نسمع عنها – شيئا مطلقا.

لم يتوقف لورنس بطبيعة الحال عن الكتابة. بعد انتهائه من الكتابة قال : انظر! لقد نجحنا!

"نوع من خلاصة نهائية للحياة القديمة فى داخلى"، وكتب سلسلة من سبع مقالات قصيرة دعاها "حقيقة السلام":



إيثر آندروز

الفلسفة تثير اهتمامى الآن فى هذه المرحلة أكثر من الفن. لقد تعبت من العواطف والمضايقات الشديدة والإثارة. ونحن لا يمكن أن يكون لدينا قص بلا بشر. وعليه فإن القص عند قاعة، لا يعنينى – لقد تعبت من الإنسانية والأشياء الإنسانية. المرء يسعد بحق بالأفكار التى تسمو بالإنسانية.

هكسلى : أربع من هذه المقالات ظهرت فى الإنكليش ريفيو فى ذلك الصيف، الخامسة فى "صفير الطيور"، طبعت من قبل مورى فى "الإثينيوم" عام ١٩١٩، وفُقدت البقية، كما هو الحال مع الكتاب الصغير حوالى ١٤٠

رسائل (٣) ص١٥٥ : صفحة الذى طوّره لورنس عن هذه المقالات خلال الصيف، بعنوان "عند الأسوار". لقد وصفه لبينكر بـ "ميتافيزيقية قويمة بشكل تام، والتى ستتحمل هجمات الفلاسفة التقنيين". ولكوت: "إنه الشكل النهائى" وقد أعاد كتابته أربع مرات، عن النص الذى طبعه له كوت عام ١٩١٤، وعندما قرأها هيسلتاين

نيهلز (١) ص٤٥٠ : قال : أعتقد أن الكتاب هو "الأسمى تعبيراً من الفلسفة الحديثة كافة"، وحاول، دون أن ينجح طبعه من قبل، دار مونسل فى دبلن، والتى قدم لورنس نفسه لها، دون أن يحقق نجاحًا، "نساء عاشقات".

مشروع لورنس التالى كان مجموعة أخرى من المقالات، وفى هذه المرة، العمل النقدى الذى طال التخطيط له العنصر المبهم فى الأدب (الكلاسيكى) الأمريكى:

رسائل (٣) ص١٥٦ : إنه يبدو جيداً ومتوسعًا، بينما هو فى الواقع مثير جداً، من نوع نقودك أو حياتك، أو ارفع يديك، أميركا! – لا، إنها مقالات عنيفة وقوية فى النقد. اقطع أصابعك إن لم تعاملها باهتمام.

بدأ مع كريفكور. ثم أتبع ذلك بمقالات عن فرانكلين، فينيمور، كوبر، بو، هوتورن، دانا وميلفيل. أنهى المجموعة فى عامى ١٩١٩ و ١٩٢٠، وأعاد كتابتها عام ١٩٢٢، قبل طبعها تحت عنوان دراسات فى الأدب الأمريكى الكلاسيكى. لورنس فى كتابه هذا الحيوى، الذكى الهجومى المستنفر، قال للأمريكيين : إن لهم أدبًا كلاسيكيًا.

الكتاب أصيل ويقول للأمريكيين ما لا يرضون عنه – هذا يعنى أن الكتاب مغرض ومتحيز، ويمارس لورنس فيه مرارا تلك اللعبة التى يربكها الصغار وتتكون من عصا بطرفها رأس حصان. يمتاز النقد الوارد فى هذا الكتاب بالذكاء فى معظم الأحيان ، وبروكرستيزى(*). لورنس فى هذا الكتاب يسيىء تفسير الكثير من النصوص وبخاصة رواية "الرسالة القرمزية" و"موبى ديك" (الحوت الأبعض) ، بغية جعل هذه النصوص تناسب نظرياته العامة الكاسحة . وهذا الذى يعد نقدا حساسا فى المقالات الخاصة بكل من كريلفكور وكوبر يتحول إلى تركيبة أو صيغة مُشوّهة، أو أساطير إغريقية منحرفة عند تطبيقه على كل من هوثورن، ميلفل، وويتمان – ولورنس عندما يدعى اكتشافه مفتاحا جديدا فى الأدب الأمريكى، للكارثة النفسية – الروحية التى يعانى منها الإنسان الغربى الحديث، يبدو كأنه يتعامى عن الاعتراف بأن هؤلاء الكتاب كانوا قد اكتشفوا المفتاح نفسه قبله بزمن طويل. يصبر لورنس على أن تبصرات هؤلاء الكتاب كلها خالية من الوعى، وأنها على العكس من البنية المقصودة للقيم الزائفة: " إيلاء الولاء الفرضى لأخلاقية لا تقرها الذات العاطفية ؛ كان لابد من تسويد كل الكتاب الذين تناولهم ، بفرشاه واحدة – فقد قدمهم جميعا على أنهم يحاولون الكتابة، وأنهم يظنون أنهم يكتبون ، بطريقة التحلل المتسامى الأوروبى مجهول الاسم، فى ظل روح ورؤية أمريكية تنبثق فى كتاباتهم بين الحين والآخر لكنهم لا يدركونها – والدراسة المنصفة توضح أن ويتمان ، وهوثورن كانوا يعرفون ما يصنعون .

* * *

(*) نسبة إلى بروكرسيتزا أو فراشه (بروكرسيتز هذا كان لصا إغريقيًا خرافيًا يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها لكى يجعل طولهم منسجما مع فراشه، والمقصود هنا أن النقد الذى ساقه لورنس كان ميالا إلى إحداث التناسِ أو التجانس بوسائل عنيفة . (المراجع).

كان اللورنسان أسعد حالاً فى الصيف الساخن لعام ١٩١٧. وقد كرس، فى واقع الأمر المزيد من وقته لبستانه؛ فاستثمر ما قيمته ست بنسات فى زراعة الخضراوات المربحة فى الحدائق الصغيرة، وجاءت هذه البنسات بمحصول طيب من الجزر، والبقدونس، والبازلاء، والفول، والكوسة، والبنجر، والجزر الأبيض، والخس، والكرنب غليظ الساق والفاصوليا الحمراء، والسبانخ، والهندباء – وبكميات أكثر مما يأكله اللورنسان:

رسـائل (٣) ص١٢٥ : بساتينى جميلة، أزرع فيها كل شىء على شكل خطوط وبسـرعة جداً – خطوط خضـراء جميلة فيها كل أنوا ع النباتات الصغيرة. تبدو لى وكأنها انتصار للحياة نفسها.

كانت علاقة صداقة قد نشأت بين لورنس وعائلة هوكينك، المزارعين فى الجوار، وغالبًا ما ساعدهم فى أعمال الحصاد وتهيئة التبن. وأمضى لورنس أمسيات كثيرة فى مزرعتهم.



وليام هنرى هوكينك

حيث كان له مقعده الخاص حول الموقد، متحدثًا مع كل فرد منهم وبالأخص ويليام هنرى، ومدرسًا لصغيرة، ستانلى، اللغة الفرنسية والشطرنج والبريدج، إلى أن يحس أن مكوثه معهم قد طال، ويخزه ضميره؛ لأنه ترك فريدا بمفردها: ولابد أن تلك المسيرة القصيرة عبر الحقل بدت مثل مسيرة نحو الماضى، فيحيا من جديد أسعد أيامه فى مزرعة هاغز، ومع هنرى ويليام، الآن شيمبرز آخر تقريبًا.

كان يسير أحيانًا خمسة أميال، إلى سانت إيفز. وفى الأيام الأشد حرارة، كان مع فريدا يسبحان فى بركة ويكا. إلاّ أنهما كانا ضمن نطاق الشك والشبهات. لم يكن بوسعهما تعليق منشفة ما من دون مراقبة. وفى يوم من الأيام وهما فى طريق عودتهما من التسوق من زينور، تعرضا لهجمة من حراس السواحل، الذين وجهوا إليهما تهمة إخفاء آلة تصوير فى حقيبتى القماش اللتين كانا يحملانها على ظهريهما. فتحت فريدا حقيبتها، ولم يكن فيها ما يثير الاتهام، غير قطعة من الخبز. مع العلم، أنه كان هناك باستمرار، رجال يراقبون خلف الجدران والصخور فى النهار، ويُصغون السمع خلف النوافذ فى الليل.

كان الاثنان من الزوار المعتادين لسيسل غراى، الساكن فى قصر بوسيغران القريب. كان غراى موسيقيًا، وصديقًا لهيسيلتاين، وثريًا مقلداً لمن هم أرقى منه، وقد جاء إلى بوسيغران ينشد عزلة رومانسية، فى إحدى الليالى، كانوا معًا ينشدون أغانى شعبية ألمانية عندما اقتحم نصف درزينة من الجنود المكان، موجهين إليهم تهمة إرسال إشارات ضوئية من مصباح تجاه البحر. ولم يكن سبب التهمة غير أن دبوسًا لشبك الستارة كان قد انحلّ بفعل العاصفة، جاعلاً إياها تتدلى. وقد غُرّم غراى مبلغًا كبيرًا لمخالفته تعليمات التعتيم.

نيـــــهلز (١) ص٤٢٥ : وقد عزا غرام ذلك إلى "خصائص الروحية الأيرلندية الحاقدة اللامبالية". فى حين كان لورنس أكثر ذماً. إلا أن الأمر لم يكن لامبالاة. فقد شوهدت فى تلك الليلة غواصة على مسافة من الساحل. فى الحقيقة، كان هناك زيادة مفاجئة فى نشاط الغواصات مع قدوم لورنس وفريدا. وكانت سفن قد أغرقت على مرمى النظر من هاير تريغيرتن. كان لورنس معروفًا بالنسبة للسلطات، مهدّمًا وكاتبًا مناوئًا للحرب. وهو قد استقبل فى منزله عدداً من الزوار الأجانب، وكان متزوجًا من امرأة ألمانية، كان ابن عمها البارون الشهير طيارًا من الدرجة الأولى(*)، وكانت هى على اتصال دائم مع أقاربها عبر المراسلة، عن طريق سويسرا. اعتقدت السلطات أن بعض الكهوف والمخابئ التى استعملت سابقًا مأوى للمهربين غدت تستخدم لتهريب الإرشادات إلى الغواصات، التى أخذت تستقبل إشارات عن تحركات السفن البريطانية التجارية.

بعد أيام قلائل فى ١١ أكتوبر عاد لورنس برفقة فريدا إلى البيت، ليكتشفا أن الكوخ قد فتش، وأن بعض الأوراق اختفت. فى اليوم التالى جاءهما ضابط برتبة نقيب مع تحريّات وشرطى وأمر يتضمن وجوب مغادرة لورنس وفريدا، كورنوول، فى خلال ثلاثة أيام:

رســـــائل (٣) ص١٦٨ : لم أستطع أن أتصور كيف جلبت الشك لنفسى – لا أمتلك أى فكرة ولو ضئيلة. إننا بريئان من أنشطة مناوئة للحرب مع ؟ ناهيك عن، فعل التجسس بأى شكل من الأشكال، مثل الأرانب فى الحقول خارجًا.

(*) طيار بدرجة ace – الطيار الذى يسقط خمس طائرات للأعداء على الأقل (المترجمة)

وعلينا أيضًا إثبات وجودنا للشرطة. إنه أمر وضيع. نحن لا نمتلك فى الواقع أى مبلغ من المال – لا أعلم ماذا سنفعل مستقبلاً.

كان الأمر بداية مرحلة طويلة، حيث كان عليهما الاعتماد على مساعدة الأصدقاء من أجل سقف فوق رأسيهما.

(١٠)

أطفال فى الغابة

أعطى اللورنسان مهلة ثلاثة أيام لمغادرة كورنوول "كانا على حافة الفقر". أعطتهما هيلدا آرلنجتون غرفة في شقتها فى ٤٤ ميكلنبرغ سكوير ، فى لندن، وقبلا هذه الغرفة ممتنين لصاحبتها؛ لأنهما لم يكن أمامهما خيار آخر - لكن لندن لم تكن مكانا جيدا بعد انعزالهما عن كورنوول :

رسائل (٣) ص١٣٠ : لكن أوه، من هذا المرض الذى فى بطنى - لندن شديدة السوء فى واقع الأمر : لقد أصابها الجنون بحق. فهى تفكر وتتنفس وتعيش غارات جوية ولاشىء غير ذلك - الناس فيها لم يعودوا بشرا بعد : هم في واقع الأمر مجرد عوامل، شبيهة بحيوانات الليمبور، الأرواح الشريرة للموتى - ماذا سنفعل ؟ كيف لنا بالخروج من هذا المكان الجهنمى ؟

فى يأسه، عاد لورنس إلى فكرة، الازدهار، ثانية، فهى كانت، دائمًا، ملاذه الأخير، واضعًا كافة أفكاره الأخرى حول العلاقات الإنسانية تحت التجربة، إن لم تكن فى الحقيقة، ففى الخيال إذن. ولكنه لم يستطع مطلقًا التواصل مع هذه الفكرة خياليًا. كانت جد أثيرة للمخاطرة بها. وهو عندما يكتب عنها فى رسائله، تزلّ لغته نحو لهجات من لغات قديمة مثل الأركادية(*) واللابية(**) . فى ٢٧ أكتوبر كتب لورنس إلى كاثرين كارسويل، الحامل آنذاك، داعيًا إياها وزوجها، " للإبحار إلى جزيرتنا - حاليًا فى الإنديز":

رسائل (٣) ص١٧٣ : لدينا خطة مؤكدة أكثر للرحيل. سيكون هناك بالإضافة إلى نفسى، فريدا والسيد والسيدة أيدر وويليام هنرى وغراى، ومن المحتمل، هيلدا الدينغتون، وربما كوت ودوروثى يورك. سنذهب إلى المنحدر الشرقى للإنديز، إلى الخلف من باراغوى أو كولومبيا. إيدر يعرف البلاد جيداً. بإمكان غراى إيجاد ١٠٠٠ جنيه. ستنتهى الحرب فى الشتاء. وفى تلك الحالة، سنبدأ الرحلة فى الربيع".

كان ديفيد إيدر محللاً نفسانياً فرويدياً، وعم إيفى لو. كان لورنس قد التقى به شتاء عام ١٩١٤ أما دوروثى يورك فكانت أمريكية أخاذة لافتة للنظر فى الخامسة والعشرين من عمرها. كانت تسكن فى نفس المنزل "ساحة ميكلينبورغ" الذى تسكنه عائلة الدينغتون، والذى كان لورنس يقيم فيه أثناء غيابهما. والسيدة الدينغتون، كانت هى الشاعرة هيلدا دوليتل (هـ . د). ورغبة منها فى الابتعاد عن علاقة حسية مع زوجها، بعد تعرضها لحالة إسقاط شجعته على اتخاذ دوروثى يورك عشيقة له، متوقعة أن تكون علاقتها مع زوجها أفضل ضمن النطاق الروحى. ولكن الدينغتون وقع فى غرام دوروثى ("أرابيلا")، ثم تزوجها لاحقًا.

(*) الأركادية: لهجة من لهجات اللغة اليونانية القديمة. استخدمت فى منطقة جبلية من اليونان كانت موئل الرعاة البسطاء القانعين (المترجمة)

(**) اللابية: لغة قديمة كانت تستخدم فى شمالى إسكندنافية وفنلندا (المترجمة)



هيلدا آلدنجتون



الصورة التى رسمها لورنس لدوروثى يورك

التفتت (هـ . د) نحو لورنس من أجل تسامى اتحادها الروحى. وقد منحها لورنس شيئًا من التشجيع، انتقامًا من فريدا جزئيًا، التى كانت لها علاقة مع سيسيل غراى، وأيضًا انسجامًا مع روحية (زواج) اورفيوس فى العالم التحتى. علاقة سينقلها بعد عدة أشهر إلى واحدة من أسوأ قصصه، "الليدى بيرد"(*) (حيث إنه من الواضح أن مساعدة الكاهن التى كان يرغبها بشدة كانت الليدى سينثيا اسكويت). ولحسن الحظ أن غرائزه الأعقل جعلته يرفض تقدم العلاقة، كما أنه تشاجر مع غراى وهرب هو مع (هـ . د). وعنوان السيرة الذاتية لغراى، "الكراسى الموسيقية" يبدو مناسبًا، بشكل خاص، لمجريات الأحداث فى البيت رقم ٤٤ ساحة ميكلينورغ فى هذا الوقت. وليس من الصعب إدراك السبب الذى جعل من احتمال انضمام غراى إلى مستعمرة لورنس أمرًا غير مناسب:

جراى ص ١٣٣ : فكرة تمضية بقية عمرى فى الإنديز برفقة لورنس وفريدا ملأتنى رعبًا – امتزاج المرتفعات الجبلية مع الأعماق السايكولوجية، كان أكثر مما أنا قادر على التفكير فيه. بغض النظر عن أى شىء آخر، أنا متعب، الآن، ونزّاع إلى الشك، ضجر وبرم، من آلهته الأشرار وعوالمه الخفية الحسية، وكل بقية "ممتلكاته" الأدبية. لقد اتهمته بالسماح لنفسه أن يصبح هدفًا لنوع من المتأليه النسائى الشديد، كأدونيس، ومذهب ديونيسوس الذى كان هو فيها محوراً، يسوع المسيح بالنسبة لفوج مارى ماجدالينا.

مع قدوم فبراير تغير موقع وأشخاص الازدهار، تقرر الآن أن تكون فى أبروزى، مع كوت، غيرتلر

(*) الليدى بيرد – الدعسوقة (المترجمة)

رســــــائل (٣) ص٢١٤ : ("انقطع عن فرشاة ألوان")، شيرمان، كامبل، "وأى شخص آخر يبدو لطيفًا بشكل خاص": "سنطبخ لأنفسنا، ونجذف فى قارب، ونقوم برحلات قصيرة، ونثرثر، ونكون سعداء تماماً لمدة من الزمن".

فى ديسمبر ١٩١٧، انتقل اللورنسان إلى البيت الريفى لمزرعة جابيل، هيرميتاج، بالقرب من نيوبورى، بيركشاير. كان المكان بارداً وغير مريح. وفى فبراير أرادت دوللى رادفورد بيتها الريفى - "ولهذا أعتقد أننا سننصب خيمة فى الخارج مثل أطفال فى الغابة، ونسأل طيور أبى الحناء أن تغطينا بأوراق الشجر الدافئة". لم يصل الأمر إلى ذلك الحد أبداً. إلا أن وضع لورنس المالى كان سيئًا إلى درجة اضطر فيها إلى بيع حقوق طبع مجموعة قصائده القادمة، إكليل غار، بمبلغ ١٠ جنيهات. كتب إلى غيرتلر: رســــــائل (٣) ص٢٠٩ :

رســــــائل (٣) ص٢٠٩ : إنى فى نهاية طريق مسدود لنقودى، وليس بمقدورى تحريك الريح فى أى اتجاه. هل تعتقد أن بإمكانك معرفة أحد ما يستطيع أن يعطينا ما نحتاجه لبعض الوقت، الأمر يدفعنى إلى شتم مثل هذا العالم الحقير، الجبان، الذى يستحق الرثاء، المتخدر، الهجين. هذا العالم لا يجرؤ على قبول عمل رجل ما ولا يسمح له بالعيش .

وطلب من بينكر أن يطلب من أرنولد بينيت بالنيابة عنه تقديم المساعدة، كان بينيت، فى ذلك الوقت، يكن تقديراً عاليًا للورنس أكبر من تقديره لأى كاتب راسخ (مع أن جورج مور بعد قراءته مخطوطة «نساء عاشقات» قال: إنها رواية كبيرة، وأن لورنس كان كاتبًا أفضل منه شخصيًا).

وقد وصف غالزوورثى لورنس بالعبقرى، ولكنه أرفق ذلك بـ "المحلى" التفكير، (كأنها ترضية له لعدم حصوله على المزايا التى لا تضاهى التى حصلوا عليها). ورواية قوس القزح، لم تعجب غالزوورثى:

أعتقد أنها مقيتة جماليًا. أسلوبها المستقبلى المتقد حماسًا يقززنى ... أنا أفضل كتابًا صريحًا عن الجنس على آخر مثل هذا... أسف كبير - طاقة كبيرة بهذا المستوى، وبصيرة (عالية إلى المستوى) تبلى بهذه السرعة.

رســــــائل (٣) ص٢٦٣ : عندما تناول لورنس الغداء مع غالزوورثى فى نوفمبر، وجده "مصدر إزعاج". عرض بينيت استعداده لدفع ٣ جنيهات للورنس، إن فعل كل من ويلز وغالزوورثى نفس الشىء. رفض لورنس العرض، معتبراً إياه إهانة له. إلا أن بينيت أقرضه سراً، عبر بينكر مبلغ ٢٥ جنيهًا، ودفع شو ٤٠ جنيهًا، ولكن لورنس كان ناقمًا من أن مليونيراً يدفع مثل هذا المبلغ الضئيل. كما أنه طلب منحة أخرى من "ذلك الصندوق الملكى الأدبى القذر"، وفى تموز حصل على ٥٠ جنيهًا بائسة. افتقار لورنس إلى الاعتراف بالفضل أو عرفان الجميل فى تسلُّمه مساعدات كان هو قد طلبها، هو مقياس شعوره بالذل.

كان لورنس يعمل بدأب فى مقالاته الأمريكية، وفى نهاية فبراير، بدأ عملاً جاداً حول "مسودة رواية أخرى"، وهى عصا آرون.



آرنولدبنيت



جون غالزورثى

رسائل (٣) ٢١٦ : إنها تتقدم ببطء – ببطء شديد وتتقطع. ولكنى لا أبالى.

وتواصلت الرواية ببطء وبشكل متقطع حتى مايو ١٩٢١ – ويعود سبب ذلك جزئيًا إلى حاجته لمنح اهتمامه لأعمال ستعطه مردودات سريعة، أما السبب الأساسى فهو أن روايات لورنس كافة – حتى هذا الوقت – كانت ترتكز أساسًا على إيمان عميق بالعلاقات الإنسانية والإمكانات أو الاحتمالات التى هو غير قادر على تحمّلها.

كان السواد الأعظم من الروايات يدور عن شخصيات تتجمع وتأتلف وتنشئ علاقات . بنية رواية عصا آرون، بنية مركزية طاردة – العلاقات تتفكك؛ البنى الإجتماعية تتفكك. من هنا تصبح رواية عصا آرون، رواية أكثر حداثة من رواية نساء عاشقات، وبذلك تكون ناقلة من خلال المصطلحات الروائية رؤية الشاعر ييتس **Yeats** للانهيار الذى حدث بعد الحرب. الأشياء تتداعى؛ المركز لا يقوى على التماسك . الفوضى وحدها منسابة على العالم، المد المخضب لونه بالدم منساب، أو فى كل مكان احتفال البراءة يجرى إغراقه. "المجيء الثانى؛

تبدأ الرواية باحتفال البراءة الذى يتمثل فى تزيين شجرة عيد الميلاد الذى يتبدد بفصل انطلاق صوت شخشيخة موروثة وينتهى بانفجار قنبلة فوضوية فى مطعم إيطاليا مخلفًا وراءه دماء على الأرض، "دوامة الانجراف المخيف فى الحياة الاجتماعية؛ وتحطم ناى آرون وعلاقته بالإنسانية المبدعة المتحضرة.

* * *

الحياة فى مزرعة جابل، تحسنت مع حلول الربيع. تذكرتها فريدا كزمن سعيد:

تيدلوك ص١٤٢ : سيكتب لورنس فى الصباح، بينما أكون أنا مهتمة بالتفاصيل الصغيرة فى البيت الريفى. سنقوم، بعد الغداء، بالسير طويلاً فى الحقول، ونحصل على الفطر إن وجدنا منه شيئًا، وفى الربيع نجد فى الحقول أراضىٍ غير مزروعة بالشجر، حيث تنمو أزهار الربيع الكبيرة وأحواض من زهور الحربس. وفى الربيع

نحصل أيضًا على سلال مملوءة بالهندياء البرية ونصنع خمرًا منها... وبعد استكشافات ما بعد الظهيرة، نعود إلى المنزل بغنيمتنا، جوعى، بأحذية موحلة، نستبدلها عادة بالخف، ونضع الغلاّية على النار ونتناول الشاى.

رســـــائل (٣) ص٢٤٢ :

احتفظ لورنس بعلاقة قوية مع شقيقته أدا، التى كانت قد تزوجت وتعيش فى ريبلى. ولم تكن أدا تعانى حالة من عوز مالى، وعرضت دفع إيجار المنزل، إن جاء لورنس وسكن بالقرب منها. عثرت على بيت ريفى وهو (ماونتن)، فى ميدلتون – باى – ويركزوورث. وهكذا، عاد لورنس، مع بداية مايو ١٩١٨، ليعيش فى ميدلتون على مسافة حوالى عشرين ميلاً عن إيستوود، للمرة الأولى منذ فراره بقصد الزواج عام ١٩١٢ فى البدء، بعد المشاهد الطبيعية الأقل إثارة لمشاعره فى بيركشاير، مع "وجود الأشجار المهدئة"، بدأ يحس "بالغربة والضياع وبكونه منفيًا... مثل أوفيدوس فى ثريس"، ولكن كان هناك زوار مستديمون لماونتن، فى ذلك الصيف من أجل إحاطته بالسرور، وعلى الأخص شقيقاته وأطفالهم، وصديقه القديم فى إيستوود، ويليام هوبكن وزوجته سالى وابنتهما إينيد، وأصدقاء آخرين من إيستوود ولندن.

كان الملاذ الروحى للورنس فى هذه المرحلة، جيبون، وقد قرأ، تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية، كاملاً، فيما بين أبريل ويوليو، ,١٩١٨ وحصيلة لذلك، كان متمكنًا من التأثير على فيركولينز إلى درجة كبيرة، لمعرفته بالتاريخ، إلى حد أن كولينز الذى كان يعمل فى المؤسسة الطباعية لجامعة أكسفورد، حصل له على عرض:



كوخ الجبل "أظن أنه سيكون لطيفا – هو فى الأراضى الوسيطة التى يسود الاسوداد جوها ، على حافة منحدر الوادى ، مطلا على التلال ذوات الثنيات داكنة الألوان – كوخ الجبل هو سُرّة إنجلترا ، ويحس بذلك الإحساس .

نيـــــهلز (١) ص٤٧١ : اقترحت عليه التفكير فى فكرة كتابة نص مدرسى، للصفوف الأولية أو الصفوف الأعلى فى المدارس الابتدائية، عن التاريخ الأوربى .. اقترحت ألا يحاول كتابة نص منهجى مترابط، بل سلسلة من صور وصفية أدبية تتسم بالحيوية. واقترح لورنس، "حركات فى التاريخ الأوربى"، عنوانًا له.

أجهد لورنس نفسه ستة أشهر فى ذلك "العمل المضنى" ، ولكن النتيجة نالت استحسان، س. ر. ل. فليتشر، أستاذ التاريخ المبرز فى أوكسفورد، وقد طبع فى حينه، على الرغم من أنه لم يحمل اسم مؤلف، قوس القزح، إذ كان على الطلاب (الأبرياء) التعرف فحسب على الجانب غير المؤذى تحت اسم لورنس. هـ. ديفيسون. يبدو الأمر صعبًا اليوم، مع الإدراك المتأخر، الشعور بأن الكتاب كان غير ضار تمامًا. فقد أخبر لورنس، سيسيل غراى، فى البدء عما سيصبح عليه موضوعه الموجّه:

رســـــائل (٣) ص٢٦٢ : "أحس بمزاج تاريخى، لكونى قريبًا جداً من هدف جيبون.. الإحساس الرئيسى، هو أن الرجال كانوا دائمًا متشابهين، وسيكونون كذلك أبداً، على المرء رؤية الأجناس البشرية باحتقار... ويجد قلة من الأفراد... ليحكموا الأجناس"

وهو يفسر التاريخ بوصفه روحًا للمكان والأعراق يجيش فى حركة ارتباط عبر قادة منفردين، الذين هم جميعًا أبطال ودمى فى وقت واحد. هذا الجيشان غير قابل للتنبؤ به، وغير تابع لقوانين السبب والنتيجة.





لورنس وفريدا ومعهما ويلى وسالى هوبكن (فى الوسط) وكيتى أوكلوك (على اليمين) . الثنائى الآخر لم يمكن التعرف عليها . كنا نقضى وقتًا جميلاً فى نهاية الأسبوع هل تمتع به ناسك مثلما تمتعنا نحن ؟ كان الوقت جميلا ونحن بعضنا مع بعض . والعلاقة الإنسانية هى التى تعنى الكثير عندى بحق . هل تعرف أنى عانيت الكثير عندما فارقونى يوم الاثنين – وقد جرت العادة أن أكون سعيداً عندما أكون وحيداً" .



كيتى أولكوك ، دوروقى (آرابيلا) يورك ، لورنس ثم ويلى هوبكن

Mountain Cottage



لورنس مع ابن اخيه جاك كلارك ولد شديد الحسن بحق



أداكلارك ، ويلى هوبكن ، و- اى - كلارك ، فريدا ، سالى هوبكن ، جرتاى كوبر ، والدكتور فيروز .

إن لهم أصولاً غير معروفة فى الإبداع. وإن وقف المرء بعيداً على مسافة كافية من التاريخ، لربما يبدو ممكنًا للرؤية، مثال معين - الأفول التدريجي للعسكرية والصراع السياسى القوى، وحلول عصر التجارة، بدلاً عنه. إن اعتقاد لورنس (مستمد من جواكيم أوف فلورا) من أن هذا العصر سيستبدل فى آخر الأمر بعصر الحكمة، عندما يكون الإنسان قد حلّ ازدواجية الصراع بين نفسه وتعلم أن يعيش فى بداهة التفكير مع بقية الخلق. إلا أن العصر الذهبى سيكون معتمداً أيضاً، من أجل تدشينه على رجال عظام، وهم أول من سيجسد الحكمة الجديدة.

والكتاب ملىء بعبادة الأبطال، من أيتلا إلى بسمارك وينتهى:

"يجب أن تتركز إرادة الناس فى شخص واحد، الذى هو أسمى من إرادة الناس. يجب أن يتم اختياره، ولكنه فى الوقت نفسه مسؤول أمام الله فقط، هذه هى مشكلة المستقبل العاصف والذى عليه أن يستنبط الحل لها".

ولم يعش لورنس ليبصر كم هو عاصف.

* * *

فى عيد ميلاده الثالث والثلاثين، ١١ أيلول ١٩١٨، كان لورنس فى حالة من الانحطاط النفسى، كتب إلى آمى لويل:

رسائل (٣) ص٢٨٠ : نحاول، فريدا وأنا، أن نكون صبورين. إنى أعمل ببطء فى رواية أخرى: مع أننى أعتبر الأمر بلا فائدة. لا ناشر سيجرؤ على نشر الأخيرة، ولن يجرؤ على هذه، كما أتوقع. لا أستطيع اليوم أن أفعل أى شىء فى العالم - أنا مكبوت فحسب - ولا أعرف كيف سنبقى أحياء عبر شتاء آخر - كيف بإمكاننا أن نجد مستقبلاً. الإنسانية بموقفها، وأنا بموقفى، نبدو غير متوافقين معاً. الأرض تتضاءل تحت قدم الواحد منّا، ماذا سيحدث لاحقًا ؟ الله يعلم.

والذى حدث فى الواقع، أن جاءه استدعاء، فى ساعة متأخرة من نفس اليوم، يطلب منه الحضور إلى ديربى لفحص طبى آخر. وفى هذه المرّة أدرج ضمن فئة سى ٣ والتى تعنى أن بالإمكان استدعاءه لتأدية الواجبات الخفيفة. ولورنس، يشعر أنه بالإمكان تجنب هذا الامر، إن كان لديه عمل منتظم، فقد حصل على تقديم من دونالد كارسويل إلى ج . س . فريمان، المحرر المسؤول عن ملحق التايمز التعليمى. فى ديسمبر أرسل لورنس أربع مقالات من ذلك النوع، إلا أنها رُفضت لكونها أكثر صلاحية لكتاب. فى عام ١٩٢٠ أضاف إليها لورنس المزيد، جامعاً إياها فى كتيب، "تعليم الناس"، ولكنه لم يطبع فى حياته.

رفض المقالات ليست بمفاجأة، فـ"تعليم الناس"، واحد من أسوأ أعمال لورنس، على الرغم من بعض المقاطع الرائعة. فتأكيده على التعليم من أجل الحياة والفردية، بدلاً من أجل العمل وحاجات المجتمع، أمر يستحق الثناء، ولكنه يفقد أهميته بسبب اقتراحه نظاماً منغلقًا على نفسه، مستنداً على فرضية تقول" "إن عدد غير المتعلمين يفوق المتعلمين بأغلبية كبيرة". كان التحدى بالنسبة للورنس هو تخيل أشكال جديدة "للتدريس"، تتلاءم مع أصحاب الإمكانات البسيطة، وبدلاً فهو يقدم لنا:

إلغاء كل ما يعوزه الصدق والهراء الذى يكتب من أجل انتزاع التصفيق، العودة إلى الراءات الثلاثة، لا تشجع، لا ترعى أى خيال لدى الأطفال، فذلك يعنى انتزاع الوعى الذاتى منهم وكل ذلك التدفق الهائل، وكبح شخصياتهم النامية وقمعها وهى فى مرحلة التبرعم.

ونجد العديد من هذه الأمور فى أعمال أخرى لهذه الأعوام المُبغضة للبشر. فى أكتوبر، نفخ لورنس على جمرة أمله فى العالم من أجل مسرحيته، المس واذهب، حيث شخوص عديدة من نساء عاشقات، تظهر مجدداً، ضمن سياق نزاع صناعى. فى المسرحية مجابهة بين جيرالد بارلو، صاحب المنجم وعماله المضربين. كل جانب منهما يعتقد أن تنمّره على الآخر، بشكل أو بآخر، هو السبيل للحصول على ما يريد.. وهناك مأزق وتهديد بعنف جدّى. الغرض من المسرحية فى النهاية، هو تقديم أوليفر تورتون، رمز لورنس/ بيركن، كى يبشر بحلّه البسيط:

بعد كل شىء، نحن جميعًا مخلوقات بشرية، فلماذا لا نحاول ترك كافة النزاعات بيننا ونطرح حالة جديدة للأمور، ما يهم هو الحياة والعيش، وليس ببساطة، امتلاك النقود... إن أردت ما هو طبيعى وجيد، فأنا واثق من أن المالكين سيوافقون سريعًا على ذلك.

ولكن أوليفر أظهر أنه غير مجد. والهجوم على جيرالد، تم تجنبه بصرخة يائسة من قبل البطلة أنابيل – "إنه رجل مثلك"، المسرحية لا تمتلك أصالة مسرحية طبيعية، ولا تمتلك أيضًا بنية متماسكة محكمة لمسرحية فكرية.

لقد رغب لورنس بشدة أن تمثل المسرحية. وفى عام ١٩١٩، عرض دوغلاس غولد رينغ أن تكون، إما المس واذهب، المسرحية الأولى التى ستمثل من قبل جمعيته، جمعية مسرح الشعب العائدة له، والأولى التى ستطبع فى سلسلته مسرحيات لمسرح الشعب. وعلى هذا الأساس، سمح له لورنس بأخذ المسرحية والمقدمة التى فيها، مجانًا. وحدث أن خُذل غولدرينغ من قبل الأغلبية الرجعية فى لجنة المسرح. ولم تقدم المسرحية. أما أولى المسرحيات التى طبعت فى السلسلة فكانت مسرحية غولدرينغ نفسه، "التحليق نحو الحرية" التى ازدراها لورنس: أما؛ المس واذهب، فكانت المسرحية الثانية، وظهرت عام ١٩٢٠.

* * *

فى ١١ نوفمبر، جاءت الهدنة. كان لورنس وفريدا، آنذاك، فى البيت الريفى جابل. وأقيمت حفلة مرتجلة فى شقة مونتاغو شيرمان فى لندن. حضرها معظم أفراد جماعة بلومزبرى. من بينهم ديفيد غارنيت، الذى لم يكن رأى لورنس منذ ثلاثة أعوام، فدنا منه مسرفًا فى التعبير عن عواطفه. ولكن لورنس كان الرجل الوحيد فى الغرفة الذى لم يكن مستمتعًا. وكما تذكر غارنيت أن لورنس قال له:

نيهلز (١) ص٤٧٩ : أعتقد أنك تظن أن الحرب انتهت وأننا سنعود إلى نفس العالم الذى كنت تعيش فيه سابقًا. إلا أن الحرب لم تنته. الكراهية والشر اليوم أكثر مما هو فى السابق. سرعان ما ستنشب الحرب ثانية وتفاجئك. أصاب بالغثيان وأنا أراك مبتهجًا مثل فراشة تحلق فى آخر شعاع للشمس قبل حلول الشتاء. يظن الحشد فى الخارج أن ألمانيا سُحقت إلى الأبد. ولكن الألمان سرعان ما يعاودون النهوض مرة أخرى. لقد حكم على أوربا بالهلاك، وإنكلترا أكثر من سائر الدول الأخرى. هذه الحرب لم تنته. والقتال حتى إن تحتم عليه التوقف، فإن الشر سيكون أسوأ؛ لأن الكراهية ستزداد فى قلوب الرجال وتبدى نفسها عبر كل الأساليب التى ستكون أسوأ من الحرب. مهما يحصل فلا سلام ممكن على الأرض.

ولكن مزاج لورنس يمكن أن يتقلب بسرعة، وعلى نحو جامح. فهو لم يكن على الدوام سوداويًا. وفى خلال وجوده فى لندن، قام لورنس بزيارة كاثرين مانسفيلد، التى كانت مريضة:

نيــــــهلز (١) ص٤٧٧ : كان كعادته مشرقًا، قويًا، واثقًا من نفسه، ضاحكًا، يصف الأشياء ويعطيك تصورًا مليئًا بالحماس والفرح، لمستقبل سنكون فيه جميعًا "متشردين" - نحن لم نتحدث ببساطة عن الناس. بقينا نتكلم فى أمور مثل الجوز والبندق وزهور العطر الربيعية والنيران فى الغابات، ولم يكن آنذاك سوداوى المزاج. أوه، هناك شىء محبّب فيه، وهو ما يتعلق بتوقه الشديد، توقه المشبوب بالحياة من أجل ذلك يحبه المرء كثيرًا).

خلال الأشهر الثلاثة التالية، كتب لورنس لكاثلين سلسلة من الرسائل المبهجة للنفس، بقصد إدخال المتعة والسرور إلى حياتها خلال مرضها. فى إحدى تلك الرسائل، اعترف أن الأمور بينه وبين فريدا ليست كما ينبغى أن تكون، والأمر لم يعد مسألة مشاجرات معزولة:

رســـــائل (٣) ص٣٠٢ : بشكل ما، فإن فريدا هى الأم المستبدة، الأمر صعب كثيرًا، ولا يمكن تعديله، إن سارت العلاقة الزوجية فى هذا الاتجاه. ولكن فريدا تقول : إننى شخص متمسك بالتقاليد القديمة فى موقفى الإيجابى بخصوص هذه العلاقة. وأنا أعتقد أن على المرأة، بشكل ما، أن ترضخ لأسبقية رغبة الرجل، وعليه أن يستبقها زمنيًا. أنا لا أرى أن يتقدم الرجال زوجاتهم، عند احتياجهم جسديًا إليهن، دون الالتفات إلى مدى موافقة زوجاتهم للأمر، وتفهم احتياجاتهن الجسدية. وبناء على ذلك، على المرأة اللحاق بالرجل إن لم يكن لديها أى اعتراض. لا أستطيع أن أحول دون ذلك، فأنا أومن به. فريدا على خلاف معى فى هذه المسألة. ومن هنا تبدأ معاركنا.

مع اقتراب عيد الميلاد (الكريسماس)، كان لورنس مكتئبًا مرة أخرى:

رســـــائل (٣) ص٣١١ : نحن ذاهبان إلى الجانب الآخر، لزيارة شقيقتى فى يوم «الكريسماس»، إن استطعت قطع تلك المسافة - ذلك أننى مصاب بإنفلونزا حادّة، أعانى بشدة من وطأتها فى هذا الوقت. الجو مكفهر جدًا ومقرف، والاحتفال بهذا العيد يجب أن يلغى بالتأكيد. أنا لا أريد أن أسمع عنه شيئًا، إنه يتعبنى.

ونجح فى الوصول إلى ريبلى واستمتع هناك بكل معنى الكلمة:

رســـــائل (٣) ص٣١٢ : يا إلهى! ما أكثر كميات الطعام هنا، ديك رومى، كميات من ألسنة البقر، صفوف طويلة من لحم الخنزير المشوى، فطائر محشوة بلحم الخنزير، مقانق، فطائر محشوة بلحم مفروم، أعداد من قوالب الكيك البنى المغطى باللوز، معجنات محشوة بالجبن، أنوا ع من الكعك المحشوة بالجيلى، كميات من الفطائر، وكميات لا تعد ولا تحصى من أنواع الطعام، مع ويسكى وجن وخمور برتغالية وبورغندية وتوسكانية. الأمر يبدو شيئًا لا يصدق. مارسنا لعبة الشاراد(*) - يلعب المسنون بمشقة أكبر من الشباب - وقمنا بإنارة شجرة عيد الميلاد وتبادلنا الأنخاب وغنينا وهدرت أصواتنا - للرب فى العلا.

ولكن الرسالة نفسها تنتهى:

"فى هذه الليلة، سنغادر إلى ميدلتون - أحس بالغيظ وأنا أفكر فى الأشهر القادمة، عندما ينتظر المرء مشلولاً معطلاً فى نوع من التحرر".

* * *

وكان لورنس لايزال يتوق إلى جبال الأنديز - وكان آنذاك محمّلاً أيضًا (باهتمام وتوق إلى فلسطين)، ورجا ديفيد إيدر أن يأخذه إلى هناك. فى ٢ يناير عام ١٩١٨، كتب إلى إيدر:

(*) الشاراد، لعبة قوامها مشهد تمثيلى يصور مقاطع كلمة معينة يطلب من المشترك فى اللعبة أن يحزرها . (المترجمة)

ربما يكون لورنس قد اكتشف فى شهر نوفمبر أنه لا يستطيع المضى قدما فى مسألة التاريخ هذه والذى يؤكد ذلك هو عودته إلى القصص القصيرة من جديد؛ إذ كتب : "الأعمى" ، و"الثعلب" وربما أيضا "تذاكر من فضلك؛ . كتب لورنس أيضا فى ذلك الشتاء قصة " فانى وآنى" و" الطاووس الشتوى" . ومع بداية شهر فبراير أنهى لورنس قصته القصيرة "تحركات" ، لكنه فى منتصف شهر فبراير سقط ضحيه لوباء الأنفلونزا. وقد استبد به المرض مما حتم نقله إلى منزل شقيقته ريبلى حيث المزيد من الدفء

رسائل (٣) ص٣٥٥ : والراحة. والتمريض الجيد، وذلك على العكس مما كان ينتظره من فريدا. بقى الطبيب فيروز بضعة أيام قلقا على حياة لورنس – وظل لورنس مريضا طوال أسبوعين لم يقو خلالهما على عمل أى شىء :

أنا شىء تعيس، مثل شبح غارق يزحف نازلا سلما وقاصداً البحر؛

جاء مرضه بمنزلة كارثة نزلت بعلاقته بفريدا. وعندما تعافى وأصبح قادرا على العودة إلى ميدلتون اصطحب معه شقيقته :

لن أُترك لأكون تحت رحمة فريدا، إلى أن أتحسن من جديد – هى شيطانة فى واقع الأمر – وأنا أحس أنى سأفترق عنها إلى الأبد – ولعلها تذهب وحدها إلى ألمانيا، وسوف أسلك طريقا آخرا، وصحيح أنها ابتزتنى بما فيه الكفاية . وأنا بحق أستطيع الانفصال عنها الآن بلا ألم .

تلقى لورنس أثناء تماثله للشفاء دعوة للمشاركه فى إحياء مجلة أثينايوم والتى عين مورى محررا لها .

رسائل (٣) ص٣٣٥ : انشرح صدرى لورنس، لكنه " كان يتشكك فى مورى ولا يثق به – تأكد أننا سَيُغدَر بنا" وراح يمشى حَذِرا : "لكن يتعين عليك أن تقولى لى بالضبط ذلك الذى قود منى القيام به، وسوف أحاول أن أكون مبهجا ومن الطراز القديم إلى حد ما. أنا لا أشغل نفسى كثيرا بكونى غير مشهور – أو صاحب قلم؛

رسائل (٣) ص٣٣٢ : وقدم لورنس للندوة، متطوعات عديدة، لا يمكن تعرف سوى اثنتين منها – قدم لورنس "صفير الطيور" وهى عبارة عن مقطوعة جميلة عامرة بالأمل الهش، وقدم أيضا "أرولف". نشر مورى "صفير الطيور" (تحت اسم مستعار هو جراثورثو) فى الطبعه الثانية ، لكنه بقية الأشياء الأخرى:

مورى (١) ص١٤٩ : لم يكن قادرا على كتابة مقالات منتظمة لأية مجلة من المجلات صاحبة الجماهير. والذى لا شك فيه، أنه كان يحاول عمل كل ما فى وسعه ، وحاول بالفعل بذل قصارى جهده؛ لكن" القتل المكظوم، سوف ينكشف – لقد بدأ يكن الضغينة والكراهية لانجلترا... وأنا بكل تأكيد، لم أكن أنتوى المخاطرة بالقراء أو أصحاب المجلة، عن طريق نشر أقول لورنس عن عقيدة يمكن أن تكون هجومية، والتى أعارضها أنا من حيث المبدأ.

يبدو هذا الكلام مقنعا إلى أن يلقى المرء نظرة على "أرولف" البرىء ، تلك القصة الجميلة التى تدور عن أرنب كان لورنس يحتفظ به كما لو كان طفلا، هذه القصة مبهجة ، وقديمة الطراز مثل كل ما كتبه لورنس.

وعلى الرغم من كل هذ الرفض، اضطر الرجل إلى إرسال المزيد من المقالات إلى مورى بعد ذلك بأشهر قلائل. وأعاد مورى هذه المقالات مع ملاحظة مفادها أنه لم تعجبه تلك المقالات. وردا على ذلك، وصف لورنس مورى بأنه دودة حقيرة صغيرة، وفى المقابل وعد مورى بضرب لورنس على وجهه ، إذا ما التقيا بعد ذلك. وبذلك يجىء هذا الموقف إنهاءً لتحالف لورنس ومورى.

لم يكتب لورنس فى ربيع وصيف العام ١٩١٩ سوى القليل جداً :

أحس بأنى أود الكتابة – وأنا لازلت غير راغب بعض الشيء ، فى نشر أى شيء . الأمر شبيه بإلقاء الإنسان لكنوزه فى الوحل.

رســـــائل (٣) : "دعنى آت وأستطلع الأرض معك – الأمر سيبهجنى كثيراً. وسأكتب لك كتيباً جميلاً جداً. (دخول الأرض المباركة – فى فلسطين".

ثم فجأة، وفى نفس الرسالة، استهل دستوراً لجماعة الازدهار، تذكر المرء بجمهورية جماعة، غونزالو، فى مسرحية العاصفة:

القانون الأول: لن تكون هناك قوانين، على كل رجل أن يشغل يده علامة على كونه مسؤولاً عن نفسه، مسؤولاً أمام نفسه. القانون الثانى: كل شخص سيحصل على الطعام والملجأ، والمعرفة وحرية اختيار الزوج. يمتلك كل رجل وامرأة هذا الحق، بصرف النظر عن أى ادعاء، غير ضروريات الحياة. وعلى كل رجل وكل امرأة أن يدعموا هذا الأمر للتأكيد على التوحد إزاء هذين المبدأين. ويمكننا آنذاك عمل أى شيء آخر بالتنظيم وليس بقانون. هناك الكثير من الأمور الحلوة والمرّة التى يجب معرفتها وتعلمها فيما بعد. ولكننا بقبول هذين المبدأين الأوليين، نضع أنفسنا مثل المبتدئين، فى حالة انتباه نقية، كما يفعل خدام كنيسة ما، وهكذا تبدأ دولتنا.

وما يثير الدهشة الكبيرة أن إيدر سافر من دونه.

* * *

فى مايو، عاد اللورنسان إلى كوخ مزرعة شابل:

مــــــــور : "الجو دافئ الآن، إنى سعيد تماماً، مناسب للأعمال الثقيلة" كان لورنس أحياناً يسير مسافة خمسة أميال لزيارة فارجيونز.

كتب "فانى وآنى" و"هراء قرد" و"لقد لمستنى" وربما أشغل نفسه بـ "عصا آرون"، إلاّ أن ذهنه كان مشغولاً بفلسطين ونيويورك أو أى مكان فى العالم الفسيح خارج إنكلترا. فى أغسطس حثّ نفسه لمساعدة كوت فى ترجمته كتاب "كل الأشياء ممكنة" لشيستوف، ثم فى البحث عن ناشر لها، ليجدا بعد كل ذلك الجهد، أنه وكوت قد حصلا على مبلغ ٢٠ جنيهاً، مناصفة بينهما، ثمرة لأتعابهما.

وبعد أن أمضى اللورنسان القسم الأكبر من شهر أغسطس فى كوخ روز الند باينز فى بانغبورن انتقلا مع بدايه شهر سبتمبر إلى مزرعة جرمسبيرى ، بالقرب من نيوبرى التى دُعيا إليها بواسطة اثنين من معارف المصادفة هما : سيسلى لامبرت وفايولت مونك. قام لورنس فى هذه المزرعة بمزيد من المراجعة للمقالات الأمريكية. وكتب إلى ناشر أمريكى مهتم بها، وهو هيوبش، قائلاً : إنها تتضمن طريقة جديدة للتحليل النفسى، يحاول عدد من المحللين النفسيين المحترفين، (يعدد أسماء إيرنست جونز وإيدر) اختلاسها منه:



رحلة خلوية إلى بيركشاير مع هربوت وإلنيور فارجيون وروزالند بويهام فى صيف العام ١٩١٩



صورة جواز السفر أكتوبر ١٩١٩



لورانس وفريدا فى مزرعة جرمسبيرى ، بالقرب من نيوبرى ، سبتمبر ١٩١٩ «أبلغتنى أن ذلك أصبح الآن بنطاله الخاص والوحيد – وأنه كان يتعين عليه غسل البنطال بنفسه أثناء الليل بعد أن يخلعه حتى يمكن أن يكون جاهزا للاستعمال فى الصباح ؛ كاثرين كارسويل

رســــائل (٣) ص٤٠٩ : أنا أعرف المحللين النفسيين الموجودين هنا فحسب – أحدهم – قد ذهب إلى فيينا لرغبته، جزئيًا، تطعيم فرويد والنظرية الفرويدية ببعض الأفكار، حول اللاوعى – وهو حاليًا مشغول بهذا العمل. أنا أعرف أنهم يحاولون الحصول على نظرية اللاوعى الأساسى من هذه المقالات، من أجل ترسيخ نظريتهم الطنانة حول اللاوعى.

كان لورنس قد أنهى المراجعة الثانية لمقاله عن وتيمان Whitman – كان يعلم أن هذا المقال غير مقبول النشر؛ لأن لورنس يمتدح وتيمان على مسمع من الجميع على أنه المحتفى الشاعرى بالحب البرجولى. وبغض النظر عن كون ذلك "علما جديدا"، فإن أفكار لورنس عن الأساس البدنى لعلم النفس تبدو وكأنها مستمدة إلى حد كبير من قراءته كتاب "كشف سفر الرؤيا" الذى ألفه جى. م – بريس Pryse، والذى يناقش فيه الطاقة البدنية التى يمكن استطلاقها من ضفائر الأوعية الدموية فى الجسم، أو المراكز العصبية الموجودة على طول العمود الفقرى. مقال ويتمان عامر بالهراء عن كتل الأنسجة العصبية العجزية والمحتوية على الخلايا العصبية، وكتل الأنسجة العصبية القطنية، وكذلك كتل الخلايا العصبية فى القفص الصدرى؛ والمقال عامر أيضا بالهراء عن الأنسجة العصبية المعوية وأشياء أخرى كثيرة. أوصل تفسير لورنس لذلك كله، ولأول مرة، إلى حد الدفاع عن اللواطة. ويبدو أن ذلك الدفاع كان دفاعا نظريا خالصا، وأنه يمثل مرحلة يائسة إلى حد ما من فكر هذا الرجل، والتى سرعان ما خلص نفسه منها بعد ذلك .

حاول هيوبش تثنية لورنس عن السفر إلى أميركا (حيث كان يأمل أن يحاضر). وكذلك فعلت آمى لويل. فقد خشى الاثنان أن يقوموا هناك باحتوائه.

غادرت فريدا إلى ألمانيا بمفردها فى ١٥ أكتوبر. عزم لورنس السفر إلى إيطاليا، على أن تلحق به فى فلورنسا. لقد وجد لورنس أخيراً ناشراً موثوقًا به فى إنكلترا – مارتن سيكر هناك روائيان آخران، كانت شركة سيكر نشرت لهما، الأول هو كومبتن ماكنزى (الذى كان يمتلك ثلث أسهم شركة مارتن سيكر المتحدة وكان قد أقنع سيكر بالاتفاق مع لورنس) وفرانسيس بريت يونغ. وكان الاثنان يعيشان فى كابرى. فكرة مستعمرة صغيرة لروائيى سيكر راقت للورنس. كان ماكنزى أقل تفاؤلاً، وكتب إلى سيكر:

بعد استلامى ملاحظتك حول روائى بارد [بريت يونغ] تسلّمت الليلة بطاقة بريد حول روائى بارد آخر – وهو د . هـ . لورنس. لست متأكداً تمامًا من أن صنف الطعام الذى يشتمل على "جليد"، لن يكون أفضل بالنسبة إليه، هو وزوجته قادمان إلى هنا للإقامة طويلاً.. علمت أن ذلك أمر محتمل الحصول.

فى ١٤ نوفمبر، غادر لورنس مفرق جارينغ، حيث كان فى وداعه كل من كوت وكارزويل. أصبح خارج القفص أخيراً.

(١١)

رحّالة

رســـــائل (٣) ص٤١٧ : وصل لورنس إيطاليا وفى جيبه ٩ جنيهات واتجه جنوبًا نحو فلورنسا، مكتشفًا مدى التغير الكبير الذى طرأ على إيطاليا بفعل الحرب. أمضى يومين فى ضيافة ممتازة فى فيلاّ السير والتر بيكر بالقرب من تورين. تجادل مع مالك السفن الثرى، "هو من أجل الأمن والتوازن النقدى والقوة وأنا من أجل الحرية المجردة"، واتخذ منه نموذجًا لشخصية السير ويليام فرانكس فى روايته، عصا آرون.

كان نـورمان دوغـلاس، بمنزلة المضـيف للورنـس فى فلورنســا، وزوده بمــادة إضــافية تفيد، عصا آرون، حيـث يظـهر فـى العمل، فى شـخصـية آرجيل. شَـغَل لورنــس نفسه، وهــو فى انتظـار قـدوم فـريـدا، بمراقـبة دوغـلاس (مذهبـه غير المصـقول "الهيدونيزم"(*) ونزواته الكثيرة المزعجة، راقت حتى للورنس) وأصدقائه، وخاصة ذلك المتطفل شديد الحساسية، موريس ماغنوس، الذى كان مدير أعمال إيزادورا دنكان، ومحرراً وصحفيًا قبل الحرب – وهو اليوم مواطن عالمى، قليل الأهمية، ماكر، بلا موارد مالية، يحاول الاحتفاظ بـالمظاهر على حساب الغير.



موريس مـاجنوس "مـهندم وشـبابى فى مشـيته ، وجهه شديد التورد ، شديد النظافة ، شديد الحذر واليقظة ، كما لو كان عصفوراً مرسوماً ليشبه العصفور الذكر الصغير."

(*) الهيدونيزم، مذهب المتعة، يقول بأن المتعة أو اللذة أو السعادة هى الخير الأوحد الرئيسى فى الحياة (المترجمة)

وصلت فريدا أخيراً فى الساعات الأولى من صباح ٣ ديسمبر. استقبلها لورنس فى المحطة وأصر على أخذها فى عربة مفتوحة تحت ضوء القمر. وسُحرت فريدا:

انــــظـــر ص١٣ – ١٤ : توجهنا نحو دومو، كتلة ظلام كثيفة منخفضة، ولكن على مقربة منه، ارتفع برج جيوتو، برشاقته الجميلة. اختفت القمة فى نوع من ضباب قمرى. ثم اتجهنا نحو لونغارنو وبعدها إلى بونتى فيجيو، أواه، منذ تلك النزهة، أحببت فلورنسا أكثر من أية مدينة أخرى أعرفها.

كانت روزاليند باينز، صديقة من بانغبون، تخطط لأخذ أولادها إلى بيسينيسكو، قرية بعيدة منعزلة فى أبروزى. وكان لورنس قد صنع معطفين من جلود الغنم لابنتيها الصغيرتين وتطوع للذهاب إلى هناك قبلها من أجل تفقد الخدمات المفروض إتمامها. فوجدها "بدائية إلى حد الانذهال":

رســــائل (٣) ص٤٣١ – ٢ : فى بيسينيسكو، ذهبنا مباشرة إلى البرية، حيث يعيش الحمار أمام عتبة الدار ويتجول فى الصالة أو يأتى الديك ليصيح فوق مغسلة الحديد الملتوية: منزل كبير حقًا وذو منظر جميل، لكن انظر وشاهد! غرفة كبيرة كانت معصرة للخمر، وغرفة للحبوب والزيت، وعندما تصعد إلى فوق، فنصف الطابق الثانى كان مفتوحاً، مخزن مملوء بالأجزاء شبه الخشبية من كيزان الذرة، الطرية جداً والموحية بالدفء. المطبخ كهف تحت الأرض، لم ينظف مطلقًا منذ بناء الدار. الواحد يأكل وجباته على مقعد خشبى أمام المدخنة الكبيرة، حيث القدور معلقة على كلاّبات، والخشب الأخضر يبقبق. لم يحلم أحد بمائدة ناهيك عن غطائها. الواحد منا كان ينفخ النار بأنبوب معدنى طويل قديم جداً ذى مسندين جانبيين كقاعدة للاستناد على الرماد، وكان هذا الأنبوب ينتقل من واحد إلى آخر للتناوب فى النفخ من أجل الحصول على اللهب. علم الصحة لم يكن بعد فى الخيال، أضف إلى ذلك أن كل ما يحيط بنا هو دائرة من أشد قمم الجبال ثلجًا، تبرق مثل جهنم، وكان الهواء يحمل نكهة الجليد، فى الوادى، أسفل منا، حيث التلال المكسوة بأشجار البلوط. فى حين كان النهر الجامح وقاعه الواسع الأبيض المكسوّ بأحجار الجلمود، يجرى شاحبًا، يئز بسبب الجليد، ولم يكن هناك طريق إلى المنزل، وكان علينا أن نكوّم كل شىء فوق الحمار ونخوض فى النهر، وكان أقرب دكان إلينا يبعد مسافة ساعة ونصف، وأقرب سكة حديد تبعد مسافة ١٥ ميلاً عن الطريق الجبلى المخيف، وأنه فى يوم السبت الذى سبق عيد الميلاد، سقطت الثلوج طوال النهار: وعليك أن تعانى.

تحمل لورنس وفريدا ذلك الوضع أسبوعًا ثم هربا إلى كابرى.

وقد زودته هذه الخبرة بنهاية لروايته"البنت الضائعة"؛ أدركت روزالند أن من المستحيل اصطحاب أطفالها إلى هذا المكان، وراحت تبحث عن مكان أكثر إراحة فى الجنوب. وعلى الرغم من أن لورنس وجدها جميلة إلى حد فائق، ودودة فى البداية، فإنه لم يفكر فى كابرى مطلقًا، غير كونها مرحلة مؤقتة.

فى ١٦ يناير، كتب إلى مارتن سيكر:

رســــائل (٣) ص٤٥٨ : انسجمنا، أنا وماكنزى بعضنا مع بعض: وكذلك بريت يونغ. أحب أن أكون معك، لأنك تهتم حقًا بالكتب. تسعدنى فكرة كوننا جميعًا شركاء فى سيكر المتحدة، مادامت المودة بيننا ومادمنا أصدقاء.

رســــائل (٣) ص٤٦١ : ولكن كابرى كانت صغيرة جداً بالنسبة لثلاثة روائيين (وزوجاتهم). ولورنس فى انتظار وصول كتابه: عصيان الآنسة هوتون، من ألمانيا (حيث كانت تقبع قبل اندلاع الحرب وتعذر الحصول عليها)، لم (يفعل شيئًا، لم يحقق عملاً، غير الذهاب إلى الغداء أو السير من طرف الجزيرة إلى الطرف الآخر، متأكداً من عدم قيام الآخرين بالعمل أيضًا. لاحظ بريت يونك أن لورنس وماكنزى كانا يؤثران بعضهما فى بعض،

"بوصفه نوعًا من المنبهات المهيجة"، وتنبأ، وكان محقًا، أن لورنس، المجهد بعد نيرفانا(*) أرضية، لن يمكث أكثر من شهر أو شهرين فى كابرى.

فى ٢٥ يناير، كتب لورنس إلى سينثيا إسكويت عن عزمه على الذهاب إلى البر الرئيسى للبحث عن منزل:

رسـائل (٣) ص٤٦٢ : من أجل إلقاء نظرة على خليج ساليرى، فى الجنوب الشرقى، فى نهار كئيب حزين، رؤية الساحل الحجرى المعتم، شديد الانحدار والجبال الصخرية المشرقة، أمر جميل جدًا، مثل يوليسيس تمامًا، حيث يطرح المرء أفكاره ويستعيد نفسه الضائعة، والبحر الأبيض المتوسط أمامنا. ولكن كابرى نفسها منهمكة فى القيل والقال، مبتلاة بالمنازل، قطعتان محدبتان من حجر كلسى، عالم صغير حباه الله بالكثير، لكن الإنسان لم يفعل شيئًا له. إنها بالنسبة لى مكان يصعب البقاء فيه فترة طويلة).

رحلة بحث دامت ثلاثة أيام فشلت فى الحصول على منزل. فى ٥ فبراير، ازدادت حالة كابرى سوءًا.

رسـائل (٣) ص٤٦٩ : لقد سئمت كابرى تمامًا: إنها قدر للغلى البطيء لأشخاص لهم علاقة بالأدب - أنا أحب كومبتن ماكنزى بوصفه رجلاً - ولكن ليس بوصفه عاملاً مؤثرًا - لا أستطيع أن أتحمل جزيرته. سأحاول أن أجازف فى النفقات وفى كل شيء والابتعاد: إلى صقلية كما أظن.

فى نهاية ذلك الشهر، هرب لورنس فى رحلة أخرى استغرقت ثلاثة أيام، فى هذه المرة إلى دير مونت كاسينو:

كان دوغلاس قد جعل ماغنوس يعتقد أن لورنس يمتلك مالاً وفيرًا، فى حين أنه لا يمتلك شيئًا. كتب ماغنوس إلى لورنس طالبًا بشكل غير واضح المساعدة. كان لورنس قد تسلم حوالة بريدية بمبلغ كبير من آمى لويل، فأعطى، دون تفكير، مبلغ خمسة جنيهات منها لماغنوس، الذى ادعى، أن تلك النقود قد أنقذت حياته. وكافأ لورنس على ذلك بتسميته الملاك الحارس له، لما تبقى من حياته، وبدعوته إلى مونت كاسينو، حيث كان مختفيًا عن القانون.

فـوينكس (٢) ص ٣٢٥ : كان لورنس منذ زمن مأخوذًا بحياة الرهبنة. وهو على الرغم من انحيازه للجسد، عاش حياة بسيطة جدًا، أشبه بحياة ناسك تقريبًا، وقد دفعه كرهه لعالم الإنسان، إلى اكتشاف وسائل جديدة من أجل الانسحاب منها. وهو غالبًا ما تحدث عن، "الازدهار" بوصفه مجتمعًا "رهبانيا". وقد تأثر بشدة بدير مونت كاسينو:

"لابد أن قمة الجبل تلك، هى واحدة من أشد الأماكن قداسة للإنسان منذ ثلاثة آلاف سنة". لقد تحدث مطولاً مع أحد الرهبان الذى فارقه "بأسى حقيقى"، كارهًا الحياة الفارغة للعالم تحت شعارات "الديمقراطية والرأسمالية والاشتراكية، العلم الأحمر للشيوعيين، والأحمر والأبيض والأخضر للفاشيين" شاعرًا مع ذلك، أنه مرغم على مواصلة الكفاح هناك. ربما أن لورنس كان فى حاجة للسفر إلى ما وراء أوربا. ولكنه فى الوقت الراهن كان مكتفيًا بصقلية، طرف إصبع قدم لأوروبا ونقطة جيدة لبداية أخرى. صقلية كانت فى انتظار لورنس منذ قرون، هذا ما ذكره ماغنوس.

فى ٢٦ فبراير ١٩٢٠، بدأ رحلته للبحث عن منزل فى صقلية، برفقة برنت يونغ وزوجته. وكان قد وعد فريدا أنه سيعثر على منزل حتى الخميس القادم، وأعطى انطباعًا بأنه قد رهن روحه بذلك التعهد. ومن

(*) نيرفانا : سعادة مطلقة تتولد من قمع الشهوات والاندماج بالذات الإلهية (البوذية). (المراجع).

أجل تحقيقه، بدأ البحث باهتياج فى صقلية، مصراً على مغادرة أغريجينتوم فى الساعة الرابعة صباحاً. ولم يستطع برنت أو زوجته التواصل معه، ولحقا به فى الوقت المحدد فى تورمينا. وكان لورنس آنذاك قد عثر على ينبوع – فونتانا فيشيا – الرائع.

أحب لورنس "العالم الصباحى" لصقلية. كتب فى ٣١ مارس، رسالة، إلى الينغهام بروكسى:

رسائل (٣) ص٤٩٨ : منظر الفجر رائع جداً من هذا المنزل. أفتح عينىّ فى الخامسة وأقول: قادم. فى الخامسة والنصف وأقول: أصفر، فى السادسة أقول: وردى – قرمزى وأزرق مدخن، فى السادسة والربع أرى سطوعًا برتقاليًا جميلاً، ثم ينفذ ضوء الشمس السائل فى عينىّ مباشرة. ثم أعلم أنه قد حان وقت نهوضى.



"لنا فيلا شديدة الجمال على المنحدر الأخضر ، فوق مستوى سطح البحر ، تطل من الجهة الشرقية على الزرقة ، ومعها قمة كلابديا الثلجية الضحلة بتلالها فى الجانب الأيسر فى مواجهة البحر حيث تطبق عليها المستقيمات – لا تزال النافورة القديمة تعمل ، داخل مكان فى أسفل الحديقة على شكل كهف صغير – النافورة فيكيا ".

هكذا أتفادى ضوء الشمس بطرف البطانية، وأفكر فى مسألة الكون: هذا ما أعتبره أفضل النعم التى أتمتع بها، تأمل مسألة الكون بينما أتفادى أنا الشمس الطالعة من وراء زاوية الملاءة: المكان دافئ جداً، مثل دفء القبلة الأولى.

رسائل (٣) ص٥١٦ : ولكنه مع اقتراب الربيع أصبح يتوق إلى زيارة أماكن أبعد. "أنا أخطط للذهاب فى الربيع القادم إلى نهايات العالم، صقلية ليست بعيدة بما فيه الكفاية".

مخطوطة: "عصيان الآنسة هوتون"، وصلت أخيراً إلى لورنس وهو فى كابرى، وبدأ فى العمل عليها فى الحال. وفى تورمينا، قرر إعادة كتابتها، تحت عنوان "زواج مختلط"، وفى الوقت الذى أنهى فيه الرواية،

رسائل (٣) ص ٥١٧ : كانت قد أصبحت "الفتاة الضائعة". أكد لورنس لليدى سينثيا إسكويت، أن الفتاة الضائعة، "لم تضع أخلاقيًا"، أما بالنسبة لماكنزى، فقد بدا أقل وثوقًا من مضامينها الأخلاقية وكتب إليه :

رســــائل (٣) ص٥٢١ : أنا خائف من ألفينيا، بطلتى، التى ستتزوج من جيكيو. أعتقد أن كلينا لم يجد طريقًا للخروج من المتاهة. كيف نتعلق بمفتاح الزواج! أشك فى كونه مفتاحًا للخروج من الأزمة. ولكن ألفينتى، التى تستقر فيها الروح المتسائلة، تتحرك نحو إعادة الاتحاد مع النصف المظلم للإنسانية".

رســــائل (٣) ص٥٦٧ : وما إن انتهى لورنس من «فتاة ضائعة» حتى بدأ كتابة «السيد نون» رواية انهمك فى كتابتها تسعة أشهر، أنهى منها ٤٥٠ صفحة، قبل أن يتخلى عنها، دون أن يُلقى عليها نظرة أخرى، تزامن ذلك الأمر مع "التناقص الدائم لنوبات التشنج". عاد إلى عصا آرون، دون أن يبدو أنه قد اقترب من نهايتها بعد أن عمل عليها سنتين ونصف. "على أن أؤجج ذاتى كى أكون مهتمًا بالروايات"، هذا ما كتبه لماكنزى. كانت روحه فى هذه الفترة مثل حشرة خامدة فى الطور الذى يعقب اليرقان، تتلوى ألمًا فى غلافها الكأسى، غير قادرة على تكملة أدوار الاستحالة:

رسائل (٣) ص ٥٢٢ : بدا وكأنه يطلب من كتبه وجوب أن تكون فى مقدمة حياته:

مــــاكــــينزى : أحس وكأنى كنت أزوّد سفينتى بهذه الكتب الملعونة. ولكنها أيضًا، فى مكان ما، تشكل الأجنحة المتغضنة لروحى، إنها تجعلنى حرًا قبل أن أحرر نفسى، أعنى بذلك، أننى فى روايتى أحصل على نوع من أجنحة طليقة، قبل أن أخرج قدمىّ من أوربيا.

رســــائل (٣) ص٥٣١ : لم يبق ماغنوس طويلاً فى مونت كاسينو، فما أن حاصرته الشرطة من أجل القبض عليه بسبب قائمة فندق غير مسدّدة، حتى تسلل بعيداً إلى صقلية، مفترضًا أن لورنس سيتقبل المسئولية المادية عنه. ومن نقود استدانها من لورنس، أقام فى أكثر فنادق تورمينا فخامة، فى حين أن لورنس وفريدا لم يتمكنا من الإقامة فيه، وهما خلال رحلتهما إلى مالطا أصيبا بدهشة بالغة، لرؤيتهما ماغنوس يتسيّد فى الدرجة الأولى فى حين أنهما فى الدرجة الثانية. وكان الاثنان ينويان البقاء فى مالطا يومين فقط، ولكنهما مكثا فى وضع يائس عشرة أيام بسبب إضراب حصل فى البواخر. قال لورنس عنها: "جزيرة مخيفة — حجر وتراب الآجر".

عندما قرر ماغنوس البقاء فى مالطا، ظن الزوجان أنهما لن يسمعا عنه شيئًا بعد ذلك، لكنه كتب يقول: إن الحياة كانت رائعة إلى حد كبير هناك وأنه بدأ يتعلم المالطية والكتابة فى الصحف، وسأل إن كان فى إمكان لورنس المجيء إليه والبقاء شهراً.. لم يجبه لورنس، ثم، فى نوفمبر، سمع من راهب مونت كاسينو، أن ماغنوس فى محاولة للتهرب من الاعتقال بسبب تهمة الاحتيال، لجأ إلى الانتحار بواسطة تناول حامض البروسيك. وقد صودرت كافة آثاره ماعدا بضع مخطوطات، لا قيمة لها، تركت فى أيدى شخصين مالطيين كان مدينًا لهما بمبالغ طائلة، قابل الاثنان لورنس لإطلاعه على الأمر والاحتكام إليه، رافضين تسليم المخطوطات لنورمان دوغلاس، الوصى الأدبى عليه، عرض لورنس نشر مخطوطة ماغنوس، (ذكريات الفيلق الأجنبى) مع كتابة مقدمة مطولة لها. كما أنه قام بتصفية ما يتعلق بالمخطوطة مع دوغلاس، الذى أجاب على نحو مميز:

من يريدها عليه أن يعالج الموضوع بشكل كامل.. بكل الوسائل، افعل ما يحلو لك مع المخطوطة، وضع فى جيبك كل النقود.

وكان على لورنس أن ينادى على الكتاب بين الناشرين. عرض الجميع أخذ المقدمة من دون الذكريات. وأخيراً طبع سيكر الذكريات، وسلم لورنس نصف ثمنها للمالطيين، وكان كافيًا لتسديد مبلغ الدين.

رسائل (٣) ص٥٤٩ : كان لورنس قد عزم السفر إلى البحار الجنوبية برفقة ماكينزى، وكتب لماكينزى فى حزيران! "مستعد أن أتخلى عن أصابعى لمجرد السفر". وكان ماكينزى يحاول أن يجمع مبلغ ٧,٥٠٠ جنيه من أجل شراء سفينة شراعية ذات صاريتين طولها ٨٤ قدمًا تدعى: لافينغرو، والتى بواسطتها يكون بمقدوره التعرف على جزر كيرماديك فى حوض فيجى، على أن يكون برفقته لورنس وعدد من الأشخاص. تدفق لورنس بحماسة صبيانية:

رسائل (٣) ص٥٦١ : اللافينغرو تثيرنى حتى العظم، أجل سأبحر بها نحو البرّ الأسبانى. كم كان حجم سفينة دريك؟ هل هى بخارية وشراعية فى آن واحد؟ كم من الرجال ستحتاجهم فى تصورك من أجل تشغيلها؟ لقد قست طولها بقدمى على السطيحة تحت.

ولكن سيكر الذى كان مناوئًا لخطة البحار الجنوبية، أقنع ماكينزى بدلاً عن لافينغرو، باستئجار سفينتين (هيرم وجيتو) لمدة ستين عامًا فى جزر القنال. لم يستطع لورنس إخفاء خيبة أمله:

"ما هذا الذى أسمعه عن جزر القنال؟ بحق الرب، سأكتب قصة أهجوك فيها فى يوم من الأيام".

كان ذلك قبل ستة أعوام من كتابة لورنس "الرجل الذى أحب الجزر".

* * *

استغل لورنس مغادرته لإنكلترا عذرًا للافتراق عن بينكر، تمامًا فى الوقت الذى بدأ فيه الناشرون، التنافس من أجل الحصول على رواياته. أصبح مونتسير وكيل أعماله فى أميركا. وكان هيوبش متحفظًا، قد أصدر الطبعة الأمريكية لقوس القزح، وأراد بالمشاركة مع سيلتزر طبع نساء عاشقات. وقد حصل عليها أخيرًا سيلتزر بعد سوء تفاهم بين لورنس وهيوبش (بسبب بينكر).



كومبتون ماكينزى

طبع سيلترز طبعة أنيقة من نساء عاشقات فى نوفمبر ١٩٢٠، وأصبح الناشر الأمريكى المختص بأعماله حتى انهياره عام ١٩٢٥.

وفى الوقت ذاته، كان سيكر وداكووزت يتنافسان من أجل حقوق طبع الروايتين فى إنكلترا. وعندما طلب داكووزت اختصارهما، تعامل لورنس مع سيكر وبقى معه حتى نهاية حياته. «طبع سيكر الفتاة الضائعة» فى نوفمبر ١٩٢٠، و «ونساء عاشقات» فى ١٩٢١، ولكنه لم يطبع «قوس القزح» ثانية حتى عام ١٩٢٦، ومنذ ذلك الوقت أصبح للورنس دخل كافٍ لاحتياجاته المتواضعة، ولم يعد عليه التذلل من أجل الإحسان، أو تبديد نصف طاقته لإبعاد المجاعة عن بابه.

وقد نال لورنس جائزته الأدبية الأولى عن، "فتاة ضائعة"، وهى ١٠٠ جنيه – وهى جائزة تيت بلاك، منحت من قبل لراشيل أناند تيلر (مع بعض الهواجس)، أما أرنولد بينيت الذى كانت «روايته أنا المدن الخمس» قد حرضت على كتابة «الفتاة الضائعة» فكتب إلى سليتزر فى يونيو (حزيران) ١٩٢١:

أنا سعيد لانتهاز هذه الفرصة للتعبير عن وجهة نظرى والقول أن السيد لورنس هو فى مقدمة الكتاب البريطانيين وهو بدون شك عبقرى وأنا أكن إعجابا شديدا لأعماله، وأشيد بقوة بـ «الفتاة الضائعة»، التى هى فى رأيى رواية متميزة فيها الكثير من القوة والجمال.

لكن بعض القراء، كانوا أقل إعجابا بالرواية، إذ كتبت كاثرين مانسفيلد إلى مورى:

مانسفيلد ٢٠٨ : لورنس ينفى إنسانيته، إنه يرفض قوى الخيال. إنه يرفض الحياة – أعنى الحياة الإنسانية. بطله وبطلته غير إنسانيين. إنهما حيوانان فى طواف بحثا عن فريسة. إنهما لا يحسان: يتحدثان نادرا، ليست هناك كلمة يمكن تذكرها. إنهما يستسلمان لاستجابات الجسد ويتوجهان بشكل أعمى نحو بقية الأمور، بلا مظهر خارجي وبلا عقل هذا هو مبدأ اللاعقل.

وتمضى الرسالة لتصبح هيستيرية تقريباً، وتحكى لنا المزيد عن المشاكل الجنسية لكاثرين مانسفيلد بدلا من الحديث عن الفتاة الضائعة. مع ذلك، إنه لأمر حقيقى من أن تصور لورنس للعلاقات الإنسانية قد أصبح فظًا وقاسيًا بعد "نساء عاشقات"، ويمكننا أن نبرهن على أن أفضل عمل له خلال هذه الأعوام التى طاف فيها مترحلا من مكان إلى آخر، هى قصائده التى سجلت استكشافاته فى عالم الطيور والوحوش والزهور، العالم الوحيد الذى كان ما يزال فى مقدوره النظر إليه بعين وضاءة، غير عدائية.

* * *

فى الفترة ما بين ربيع العام ١٩١٨ وربيع العام ١٩٢٠، لم يكن لورنس قد كتب مجرد قصيدة واحدة، وإنما شهدت هذه الفترة اشتباكه مع وتيمان Whitman وأفضل ما كتبه ثناء وتمجيدا للشعر الحر. كانت القصائد الأولى التى جاءت بعد الصمت وهى : "ليلة الجنوب"، "السلام" ثم " المدار" والتى تعد مقدمة أو افتتاحية لقصائد "الطيور" ، و"الحيوانات" و"الزهور". جاء صيف العام ١٩٢٠ حارا جداً، حتى فى ضوء المعايير الصقلية ، أحس لورنس بتحوله بفعل الحرارة:

انظر ! هذا شعرى يلتوى متجها إلى الخلف .
انظر ! عيناى مصفرتان ومشوبتان باللون البنى .
زنجيتان ؛
ناظر حليب زبد الشمال
يثخن ويسود فى عروقى . ("المدار") .

وإذا ما أردنا الوقوف على أسباب وفرة وغزارة القصائد الكبيرة التى كتبها لورنس فى صقلية فى العام ١٩٢٠، تعين علينا أن ننسب فضل ذلك إلى صقلية نفسها، وإلى التأثير الناجم عن التعرض لذلك المناخ هى وروح المكان ذاته، كما يرجع بعض أسباب ذلك إلى استطلاق بعض الطاقات المحبوسة فى أواخر أيام الحرب وإلى الهروب من إنجلترا، وإلى الاضطهاد والفقر أيضا. لكن يتعين علينا فى ذات الوقت نسبة فضل ذلك إلى وتيمان أيضًا– من هنا أصبحت قصائد لورنس، مثارا للاهتمام ، مثل قصائد وتيمان. فى هذه المرحلة مكنه ويتمان من تحرير شعره الحر من هذه القيود.

كان شعر وتيمان من حيث إيقاعاته النغمية، يفى باحتياجات لورنس كلها على وجه التصريف : كان شعراً مساويا للريح والنافورة اللتين توخاهما وصلّى من أجلهما فى قصيدته "أغنية الإنسان الذى استطاع المرور"، شعر تغيير و"علاقه سائله"، لا مع الناس فحسب، ولكن مع " تعبه الأشياء" :

ديوان لورنس ص١٨٣ :

يكتسح الماضى إلى الأبد، مثل ريح لا تنقطع إلى الأبد ، لا يقبل التسلسل – صحيح أن ويتمان كان ينظر إلى ما قبل وما بعد. لكنه لم يُقَس على ما هو ليس موجوداً – يكمن مفتاح أشعاره فى التقييم الدقيق للخطة الحاضرة، اندفاع الحياة محوله نفسها إلى سياق (قصيدة) عند منبعها.

لما كان الشعر الحر لا يقبل الوصف أو التشخيص (لأن الوصف أو التشخيص يجعله غير حر)، فقد رأى لورنس أن من الأسهل وصف الشعر الحر بما لا يفعله، أى بما يستغنى عنه. هذا يعنى أنه لابد ألا لاتكون هناك غاية، أى لا لا تكون هناك محاولة لاكمال.

ديوان لورنس ص١٨٤ :

لا فائدة من محاولة خلق قوانين لخيال الشعر الحر، لا فائدة من محاولة استخدام خط لحنى يحتم على الأقدام كلها الالتزام به. الشعر الحر ليس له خط لحنى، الأمر لا يحتاج إلى مدرب. لقد استبعد ويتمان Whitman كل التعبيرات المبتذلة – وربما كان ذلك منصبا على العبارات والإيقاعات المبتذلة. وهذا عن كل ما يمكن عمله عن عمد، مع الشعر الحر بوسعنا التخلص من الحركات النمطية والارتباطات البالية التى بين الصوت أو المعنى. بوسعنا أيضا تقطيع تلك القنوات والموصلات الاصطناعية التى نحب أن نفرض من خلالها سياقنا (قصائدنا).

* * *

فى بداية أغسطس، سافرت فريدا إلى ألمانيا، تاركة لورنس يرحل على قدميه حول بحيرة، كومو، برفقة ويتلى وزوجته، وبعد ذلك يُمضى أسبوعا فى البندقية، قبل أن يستقر طوال شهر سبتمبر بمفرده فى (فيلاً) قديمة، قد دمرت إثر انفجار فى سان جيرفاسيو، فلورنسا، هناك كتب العديد من قصائد الطيور والوحوش والزهور، كانت تلك الڤيلا قد قدمت للورنس من قبل روزالند باينز التى كانت انتقلت إلى فايسول عندما اندمرت (الفيلا وتلفت بفعل انفجار وقع بالقرب منها. كانت زوزالند فى ذلك الوقت فى التاسعة والعشرين من عمرها ومطلقة حديثا، كما أنها ابنة المثّال السير هامو ثورنكرفت. كان لورنس معجبا بجمالها وروحها المستقلة فى بنغبورن، وكان يتمنى لقاءها مرة ثانية فى إيطاليا . كان لورنس هو الآخر قد أسر روزالند حبا. وراحا بعد ذلك يقضيان معًا المزيد من الأوقات السعيدة.

نيهلز (٢) ص٤٩ – ٥٠ :

كان لورنس يأتى فى بعض الأحيان إلى فايسول حيث أقيم، متسلقا بذلك مدقا منحدرا بين أشجار الزيتون وعلى امتداد أطلال جدران إتروسكان فى فايسول، ليصل إلينا متبخترا إلى حد ما، وجد أصلا معه شيئا عجيبا ومضحكا – مثل السمندل أو صوصة أنثى من البط على سبيل الحيوان الأليف الذى يربى فى المنزل . أو كان يأتى إلينا ليطبخ لنا عشاء الأحد من لحم البقر المشوى مع البورنج. كانت

هناك أيضا حفلات شاى مع أصدقاء كانوا يأتون لنا من فلورنسا، وكانت هناك أيضا أمسيات كنا نجلس خلالها فى الشرفة التى تعلو أضواء المدينة، وتروح تتناول عشاءنا المكون من لحم الخنزير.

ونقلا عن مذكرات لاحقة، فإن أمسية من تلك الأمسيات لم تنته فى ذلك المكان – فقد قاما بنزهه بعد العشاء– وبعد أن عادا من هذه النزهة قال لورنس :

باينز ص ٧٩ : "كم أن الحال جميل هناك. إنه شىء جميل وخاص جداً، الوقت جميل، المكان جميل، وكذلك الحبيبة جميلة". قلبى يقفز فرحا. جلسنا هناك إلى أن أظلم الجو تماما، وأيدينا متشابكة وذهبنا إلى الفراش وأيدينا متشابكة.

هذا التبختر واللعب فى تلك الأيام الخوالى، هو والإشباع الجنسى، يتضح فى النغمة الجديدة التى تحملها القصائد التى كتبها لورنس فى سان غرفاسيو. قصائد الثمار وقصائد السلحفاة بصفة خاصة يشع منها نوع جديد من عدم الانتباه، اختلط ممتزجا تماما مع روح ويتمان لينتجا ، إضافة إلى موضوع الجنسية الصريح هو والانسياب الطبيعى للأبيات ، نغمة من التحرش الكوميدى ، هو الذى قدم لورنس طوال بقية حياته، ليكون بديلا عن الوعظ المر والجدب الذى ساد قصائد الفترة فيما بين ١٩١٤ و ١٩١٨– هذه الاستراتيجية التى تقوم على الإثارة شبيهة باستراتيجية وليام بليك فى قصيدته "زواج السماء وجهنم"، كما أن هناك تشابها أيضا فى الهدفين النهائيين. هذا هو المنكت(*) يطلق العنان لخيال الجمهور. ونجد المنكت خلق من يتيه بنفسه عجبا وخلق الصَّخَّاب أيضا؛ لكن الشافى والعراف يقفان خلف المنكِّت. كتب كارل فان دورن يقول :

نيشين ١٩٢١ : تبدو السلاحف بالنسبة لى قصيدة قوية، حيث لم يكتب من قبل عن الحيوانات وهى تقريبا بقوة قصائد كتبت عن الحب حتى الآن.

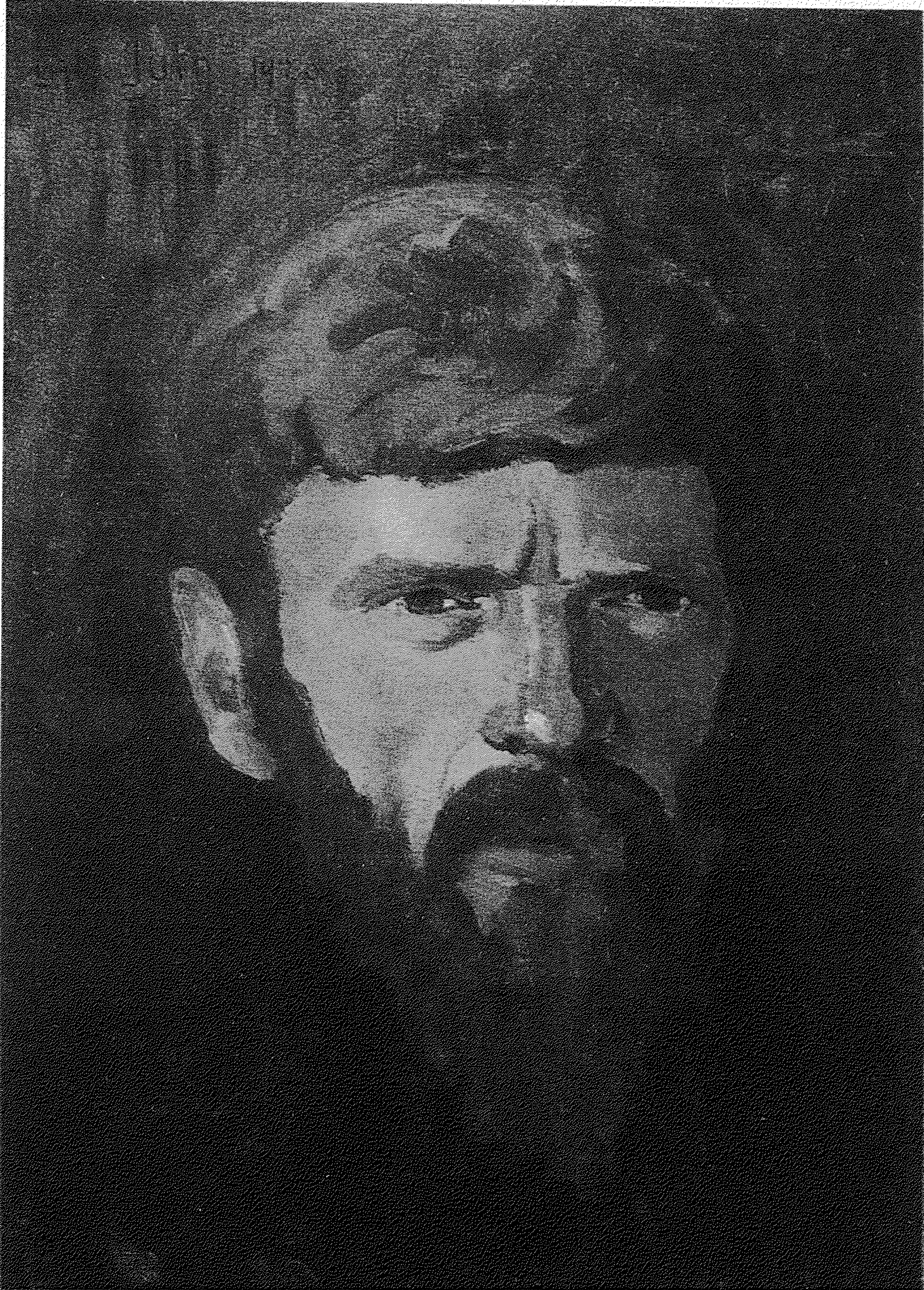
وهناك عملان آخران كتبا فى ذلك الشهر فى فيلاّ كانوفايا، وهما، "ديك رومى" و"أميركا.. أصغ إلى نفسك"، ملتفتا بلهفة نحو أميركا وتراثها الذى سبق كولومبس:

فونيكس ص٩٠–٩١ : على الأمريكيين تبنى الحياة التى تركها الهنود الحمر، الازتيك، المايا والانكاس. عليهم التقاط خيط الحياة من حيث تركه الجنس الأحمر الغامض يسقط. عليهم أن يتشبثوا بنبض الحياة التى اغتالها كورتيز وكولومبس. هناك تكمن الاستمرارية الحقيقية.. شكل رائع وكبير للحياة، لم يكتمل، سقط مع مونتيزوما. ومسئولية تواصل وتكامل هذا النمط من الحياة تنحدر إلى الأمريكيين الجدد.. وهذا يعنى الافتراق عن المبادئ الأخلاقية الأوربية القديمة، علم الأخلاق.. وتعنى أيضا الافتراق عن المدى القديم للعواطف والأحاسيس والإدراك..



روزلند بايتر

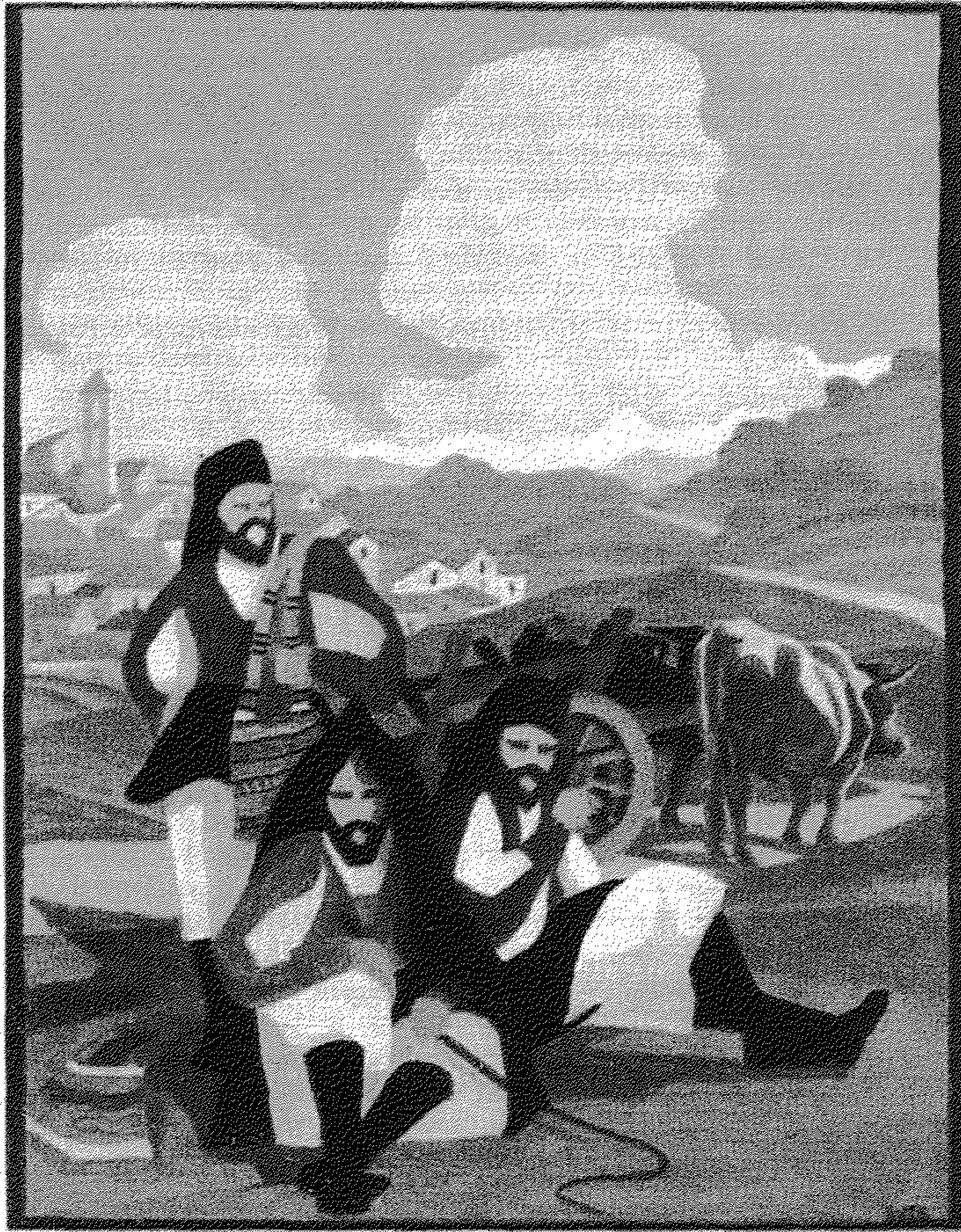
(*) من يلقى النكت ويقولها . (المراجع) .



الصورة التى رسمها جان جوتا للورنس فى العام ١٩٢٠ وهو ينظر "نظرة متأملة إلى المستقبل المضطرب" وصف لورنس هذه الصورة بأنها «رجل يورنيو البرى ؛

كان للمونتيزوما مشاعر أخرى، وعواطف لم نعرفها ولم نعترف بها، علينا أن نبدأ من مونتزوما وليس من سان فرانسيس أو سان برنارد.

رحلة اللورنسيين التالية كانت الانتقال من تورمينا فى أوائل يناير ١٩٢١ إلى ساردينيا، رحلة قصيرة استمرت خمسة أيام. دون ترك أية ملاحظة. لكن لورنس جمع انطباعات عن تجربته، كافية لكتاب من ٢٠٠ صفحة. وهو لم يكن رأى من قبل شيئا مثل الأزياء السردينية أو سوق الخضروات فى كاجلياري. كان لورنس فى سردينيا، الإنكليزى الواعى لنفسه تماما: المنكمش من قذارة القرون الوسطى فى سورغونو ووساخة القرويين البدائيين، الذين فشلوا فى العيش بمستوى المنظر الرائع الذى تبدو فيه قريتهم من بعيد ولكن وبعد ساعة متدفئا وهادئا فى الفندق الصغير، راقب رجلا عجوزا يشوى معزاة صغيرة على شمعة، "وبدا الأمر كأن زمنًا ممعنا فى القدم يشوى نفسه وجبة أخرى".



صورة رسمها جان جوتا لرواية "البحر وسردينيا". ذلك المكان الحبيب الذى لا يمكن الوصول إليه ، والذى لا يعرف الخضوع ، والوميض المكون من السواد والبياض ، والمشى البطىء لأصحاب السروايل البيضاء ، والطزالق السوداء ، والدرع الأسود ، المرافق للحن رقصة البوليرو ، ثم الأكمام البيضاء الكبيرة ، ثم الصدر الكبير من جديد ، ثم غطاء الرأس الأسود من جديد – ياله من تجميع عجب للمتناقضات ، والعجائب ، والفائق ، كما لو كان ذلك كله على ريش عقعق – يا لجمال الذكورة ، عندما تعثر على التعبير الصحيح عنها !

كان اللورنسان قد ذهبا إلى سردينيا لمعرفة إن كان سيعجبهما العيش فيها، ولكنهما قررا الاحتفاظ بفيلاّ فونتانا فيشيا عاما آخر. وبعد عودتهما إلى صقلية بوقت قصير، جاءهما عرض لمزرعة مهجورة بالقرب من بوسطن، من السيدة تراشر، التى كان لورنس قد التقى بها فى فلورنسا، كتب إلى مارى كانان، "أريد أن أذهب إلى أميركا"، وأيضا:

رسائل (٣)٦٦٤ : "خطتى هى الذهاب إلى مزرعة تراشر والكتابة بعدئذ عن أمريكا".

ومن أجل تحقيق ذلك، عين ماونتسير وكيلا عنه لمتابعة الموضوع، والذى أبرق إليه بالإيجاب، وفى الوقت نفسه وصلت برقية أخرى من ايلز، تطلب حضور فريدا من أجل العناية بوالدتها المريضة، وغادرت فريدا على إثرها.

وبعد شهر من العناء، وفى جو ممطر، وبعد إنهائه كتاب (بحر وساردينيا) غادر لورنس، متمهلا، إلى الشمال للحاق بفريدا . كانت كايرى هى محطته الأولى حيث قابل أيرل وأكسا بريوستر، وهما أميركيان نباتيان "وبوذيان فى مرحلة التبرعم"، كما وصفهما الدينغتون، وعندما أعلمهما لورنس بقدومه من تورمينا، قال الزوجان إنهما قد أمضيا شهر العسل فى – فيلاّ رائعة هناك تدعى فونتانا فيشيا – وتلك المصادفة كانت بشيرا للصداقة التى استمرت حتى نهاية حياة لورنس.

كتبت أكسا بريوستر أولى انطباعاتها عنه:

بريوستر ص٢٤١ : لم يبدُ تلك النفس القلقة المعذبة فوق طاقة التحمل – كما وُصف لنا عندما جاء فجأة، وهو يتحرك بنشاط فوق السطيحة العليا لكواترو فينتى، عبر أزهار الخشخاش التى كانت مزدهرة تحت أشجار الزيتون، كانت الشمس تسطع فوق شعره البنى الموحى بالدفء، وتجعل لحيته تومض ببريق أحمر على ذقنه الطويلة. كانت عيناه زرقاوين، كى تتلاءم مع الفجر والسماء، واسعتين، متباعدتين إحداهما عن الأخرى تحت مرتفع جبينه.. الأنف غير حاد، ومن زوايا معينة، بدت هذه الملامح مماثلة لملامح سقراط، كان فمه غير واضح الخطوط بشكل لافت للنظر، مثل تلك النماذج التى وصفت لبان(*) وساتيرس(**)، ومن صفاته الأخرى عادة خفض رأسه مستغرقا فى التفكير، أسلوبه الدمث الوديع فى التعبير، نبل وسمو وقفته، والطريقة التى جعل بها لحيته تنمو من خديه الرقيقين البارزى العظم، وطريقة تدلى شعره على جبينه، كل تلك الأشياء جعلته يبدو مثل صورة المسيح التى تظهر منحوتة على الكثير من الصلبان. ومن ناحية أخرى، بدا مثل لوحة ويسلر لكارليل. كنت فى صالون باريس قد رأيت رأسا خشبية منحوتة ملونة، بعينين زرقاوين ولحية حمراء، دعيت بـ(البلشفى)، تلك المنحوتة ربما صنعت من أجل لورنس. بالنسبة إلىّ تندمج هذه الصور وتتحرك، ولكن يبقى هناك أبدًا البريق المتوهج من لحيته وعينيه الزرقاوين، بريق كنوع من النار يتوهج فى داخله، كان صوته خافتًا متميزا، منخفضا ذا جرس ضعيف، مرن وقابل للتكيف، مليء بالألحان المتكررة، كانت له ضحكة قصيرة عندها يفتح فمه قليلا ثم يكبتها، متراجعا عنها. وأيضا كان يطلق صوتا كالشخير للتعبير عن سخطه، ولكن فى الغالب، ضحكة خفيفة تثير المرح. حسن: كان واقفا هناك، الضحكة وكل ما فيه، مبتهجا، مرحا، بين زهور الخشخاش وتحت أشجار الزيتون بدا الربيع أكثر ربيعا لأنه كان هنالك.

(*) بان: إله المراعى والغابات لدى الإغريق (المترجمة)

(**) ساتيرس: إله من آلهه الغابات لدى الإغريق، كان متميزا بولعه للقصف المعرب. (المترجمة)

عندما غادر كابرى بعد عدة أيام، تعهد لورنس برؤية برويستر وزوجته ثانية، قبل مغادرتهما فى رحلة إلى سيلان.

* * *

لورنس المسافر من أجل السفر، ذهب إلى روما ثم إلى فلورنسا، فى نهاية أبريل كان فى بادن ، مع فريدا من جديد. هناك فى الغابات وفى نوبة عمل، أنهى، "عصا أرون"، فى شهر مايو، وكتب المسودة الأولى "لفانتازيا، اللاوعى، فى شهر حزيران"

"عصا أرون" رواية من نوع الـ(بيكاريسك)(*) عن مغامـرات أرون سيسون، مراقب الأوزان فى المحطة فى نوتنغهام الذى يهمل عمله ويهجر زوجته وأولاده للتجـوال فى أوروبـا بحـثا عن ذاته. عصاه مزماره، وهى ترمز إلى مقدرته على النمو والازدهار. مدخل الرواية قريب من مدخل " جـولة رحالة" عندما يهرب الرحالة من مدينة الدمار، وتبكى خلفه زوجته وأولاده مطالبين بعودته:

ولكن الرجل يضع أصابعه فى أذنيه ويستمر فى الهرب صارخا، الحياة، الحياة، الحياة الأبدية، وبهذا لم يلتفت وراءه ولكنه هرب نحو منتصف السهل.

يعتبر لورنس الخط المباشر للبيوريتانية الإنكليزية، متميزا بما سماه بيركن "الجهد القديم للعيش الجاد" بالاقتناع أن المسئولية الأولى للإنسان فى الحياة هى إنقاذ نفسه أو جعلها قادرة على الإبداع؛ لأنه بدون ذلك لن يكون مفيدا لذاته، لزوجته، لبلده، وجنسه، وبالنسبة إلى لورنس، فإن السعادة "الحياة الأبدية" هى التى يمكن الحصول عليها عبر تحقيق المتطلبات الدنيوية وليس بفرض الحياة بشكل من الأشكال، وبمعنى آخر، بالتعلق بالقيم الروحية.

ولكن أرون يكتشف أنه ينتمى إلى الطبقة الواسعة من الرجال غير القادرين على إيجاد طريق للإبداع دون مساعدة من أحد ما فإن كانت حياته ستصبح فى أى وقت أكثر من تجربة وخطأ، باتباع حاسته، فعليه أن يمنح خضوعه الحر لـ "النفس البطولية لرجل أعظم". الرجل الأعظم فى الرواية هو لورنس، ممثلا فى شخص رودون ليللى. مبدأ القيادة هذا واضح تماما فى الفانتازيا:

"عندما تسلم القادة المسئولية، حرّروا الأتباع وإلى الأبد من ثقل مهمة العثور على الطريق، بعد التحرر من كابوس المسئولية الكريه تجاه الأمور العامة. بإمكان الجماهير أن تصبح ثانية حرة وسعيدة وتلقائية، وتترك القضايا لمن هم أفضل منهم. لا صحف – فعامة الشعب لن تتعلم القراءة. أبداً. تطوير آخر حركات الحياة الطبيعية.

نحن لا نقدر على التواصل كما نحن عليه، مخلوقات فقيرة بأعصاب مرهقة، نبدّد حياتنا ونكره أن نموت، لأننا لم نعش قط. ما هو مخفى هو أن نضع المسئولية فى أيدى قلة من المكرسين، والتى هى تقبع الآن مثل عذاب فوق كاهل العامة. دعوا القلة، القادة، تكون مسئولة وعلى مدى يتسع، عن كل شىء، ودعوا الجماهير حرة، ما عدا مهمة اختيار القادة.

أيها القادة هذا ما يتوق إليه الإنسان.

ولكن على الناس أن يعدوا أنفسهم للطاعة، جسدا وروحا، ماداموا قد اختاروا القائد. ودعوهم يختارون القائد من أجل الحياة فحسب.

(*) بيكاريسك، ذو علاقة بنوع من القصة أسبانية الأصل، لها صلة بالمتشردين. (المترجمة)

لقد اضطر لورنس إلى هذا التطرف بفعل قلقه وحذره بحثًا عن الطريق الأسهل للخروج من مدينة الدمار، التى كانت الحضارة الغربية.

"دعنا نذهب من سادوم الملائكة مثل لوط وإبراهيم قبل أن تتساقط النيران".

وكان عليه أن يكون طبيعيا، ومبشرًا:

علينا أن نمزق الحجاب القديم، لرؤية الجانب الآخر، ونجد ما يؤمن به القلب حقا، بعد كل شيء: والذى يريده القلب للمستقبل القريب. وعلينا إدراج ذلك بشكل يكون فيه متوافقا مع الإيمان والمعرفة، ثم نتقدم نحو الأمام ثانية، من أجل تحقيق إنجازات فى الحياة وفى الفن.

ولاحظ لورنس أن أغلب "المعرفة" المعاصرة كان مغلوطا تماما، لأنها تأسست على آلية عقلانية عقيمة وليست على الإيمان والرؤية، وقد أحس أن المفتاح لذلك كان اللاوعى:

"علينا أن نكتشف، إن استطعنا اللاوعى الحقيقى، حيث تتدفق الحياة فى دواخلنا، متقدمة على أى عقل. أول دفعة حياة تكون بريئة من أى تبادل عقلى، وهذا هو اللاوعى. إنه أصيل يحتفظ بنقائه الأصلى، وهو لا يكون بأى شكل من الأشكال مثاليا.

إنه الأصل التلقائى الطبيعى الذى منه يتوجب علينا أن نعيش.

ولغة اللاوعى هى الرمزية والخيال التى تنطق عبر الزمان والمكان والأجزاء المصطنعة فى تفكيرنا كافة، لأجل الإنسان السليم الحى. وبتوافق مع هذا، حاول لورنس استنباط علم جديد سيجمع بين علم النفس والدين معًا. وقد علم أن قراءه سيجدون ذلك "هراء وكلامًا غير مفهوم"، وبعضه كذلك، وبعضه هو

مور (١) ص٢٤١ : أيضا وكما قال مورى: "إنه يستبق بمسافة بعيدة كل الأمور التى قد توصل إليها المحللون النفسانيون المحترفون".

* * *

مضى معظم شهر يونيو ١٩٢١، ولورنس فى إيبرشتاينبرك، ومن هناك، سار لورنس فى تموز عبر

رسائل (٤) ص٦٧ : الغابة السوداء إلى كونستانس وزيل – إم – سى، ولكنه وجد العمل مستحيلا فى النمسا "لم تبق عقول هناك، انحل كل شيء وتبعثر" وكان سعيدا لدى عودته إلى إيطاليا فى أغسطس. حيث بدأ فى فلورنسا،

رسائل (٤) ص٩٣ : فى كتابة رواية جديدة، "رواية قصيرة مناسبة، فى القوارب الفينيسية". وعلى الرغم من أنه أمضى معظم شهر سبتمبر فى العمل بها" فلم يبق الآن أى أثر منها.

لدى عودته إلى تورمينا، جمع لورنس بريده الذى تضمن هجوم صحيفة جون بول، على روايته نساء عاشقات "دراسة مقززة عن الفساد الأخلاقى – تقود الشباب إلى كارثة لا يمكن التحدث بها" وتسلم أيضا تهديد هيسيلتاين حول إجراء قضائى ضد سيكر بسبب الصورة التشهيرية التى وضعها عنه لورنس فى الرواية فى شخصية هاليداى.

صب لورنس غضبه فى رسائله إلى بريويستر:

رسائل (٤) ص١٠٨ – ٩ : "إنه عالم الغوغاء تمامًا، الرعاع والأشخاص المتعفنين، أف، تبًا، تعسًا! إنهم نتنون. هذا ما أحسه وأنا فى تورمينا، دع البحر الأيونى يواصل دوراته من الزرقة إن أراد وتبرق كالابريا مثل سبع قطع من المجوهرات وتعطر شجرة زهرة البوق ستة سماوات عذوبة، هذا ما أحس به. اللعنة والسواد والجدرى على هذا النوع من الإنسان، المتسلق، المحتقر، الجبان. ولكن كيف هى الحياة فى السيلان؟ أفضل أنا الذهاب إلى المريخ أو القمر إلا السيلان، إن كان هناك مكان أفضل.. إن لم أكن أمتلك قصصى لأسلى

نفسي بها، لمتّ من الكآبة والكدر، في الدرجة الأولى".

القصص التي كان يعمل عليها مثل خزّاف في قطعة فخار، في أواخر عام ١٩٢١، كانت "ألعوبة الكابتن" و"الثعلب"، التي كتب لها نهاية جديدة تماما (الشخوص التي لم تعجبه في القصتين قتلت قدريا – بشكل مرتجل – في عدد من (الحوادث)، كما قام بمراجعة عدد من قصصه ومنها، "الليدي بيرد" و"إنكلترا، إنكلترا خاصتي".

تفوق "ألعوبة الكابتن" على "الثعلب والليدي بيرد" يعود للمدى الواسع الذي منح للبطلة هانيل وحياتها الخاصة بها والعلاقة الحقيقية المتوازنة القوية التي ربطتها بهيبورن، فهي تصل إلى احترام رجولته، دون أن يعني ذلك مطلقا الخضوع لها وكما يتحرك لورنس نحو تحقيق مبتغاه بوصفه رجلاً مسيطراً كما وهن فنه.



صورة جواز السفر ، بتاريخ ١٩ سبتمبر من العام ١٩٢١

(١٢)

دروس فى خيبة الأمل

فى ٨ أكتوبر، كتب لورنس إلى سيلتزر:

رســـــائل (٤) ص٩٣ : أود لو وجـدت سـفـينة تأخـذنى حـول العـالم وترسـو بى فى مكان مـا فى الغرب - نيـو مكسـيكو أو كاليفورنيا - وأن يكون لدىَّ منزل صغير ومعزيان، فى مكان بعيد، متوحدا بذاتى بعيدا فى جبال روكى.

لابد أن قوة حقيقية كانت تكمن فى تلك الرغبة. إذ استلم لرونس فى ٥ نوفمبر، وعلى نحو غير متوقع طردا سـميكًا. وتضـمن الطرد رسـالة طولهـا عـدة أقدام، مطوية على هيـئـة ورق البردى، مع عـدد من التعـاويذ وبضـع أوراق من نبتـة ديسـاكى التى يقـول الهنود : إن عطرهـا يريح القلب، مع قليل من جذر أوشا، الذى يُعَدُّ دواء قويا، وأيضـا قلادة فيها سـحر هندى، وكل تلك الأشياء جاءته من ساحرة بيضاء تدعى ميبل دودج ستيرن، صممت من أجل جذب لورنس إلى تاوس فى نيو مكسيكو.

كان أزواج ميبل الثلاثة، كارل إيفانز، شخص معروف فى مجال تربية الجاموس، وإدوين دودج، مهندس معمارى من بوسطن، وموريس ستيرن (الذى كان لورنس قد التقاه أخيرا فى أنتيكولى). وهى مضافا إلى ذلك، جمعت حولها الفنانين والكتاب، لتلعب دور الراعية لهم فى البيت الكبير فى تاوس، وهى فى ذلك الوقت، كانت تعيش مع تومى لوهان، وهو هندى من تاوس، والذى تزوجته لاحقا. كانت ميبل قد قرأت الفصول الأولى من "بحر وساردينيا" المنشورة فى (الدايل) وشعرت بأن لورنس هو الكاتب الوحيد القادر على رؤية تاوس والهنود، بشكل حقيقى، ووضعهم أحياء بين صفحات كتاب.

كتبت ميبل فى رسالتها عن كل الأمور:

لــوهـــان (٤) : أخبرته بكل ما فى وسعى عن تاوس والهنود وعن تونى وعنى. أعلمته برغبتى الشديدة فى مجيئه من أجل التعرف على المدينة قبل أن تستغل وتفسد، وقبل أن تشق فيها الطرق الجيدة وتجلب إليها الحشود. حاولت أن أخبره عن كل صغيرة يمكن أن تخطر ببالى والتى اعتقدت أنها ستجذبه - أمور بسيطة وأيضـا، أمور غريبة. أتذكر أنى وصفت له المدينة منعزلة، أرض رعوية بعيدة عن طريق السكة الحديد، عـامرة بالوقت الفـائض والراحـة، حيث الهواء بالغ النقاوة يبدو وكأنه ممتلئ بموسيقى تكاد تكون مسموعة، وليست مسموعة تماما وحيث تتخذ أبسط المهمات شكلا جميلا ومهمّا، لا يوجد له مثيل فى الأماكن الأخرى.

شم لورنس الرائحة وقضم قطعة صغيرة جدا من الدواء، وكتب فى اليوم نفسه مبديا رغبته للسفر وكتب إلى أيرل بريويستر:

رســـــائل (٤) ص١٢٥ : الهنود، الأزتيك، مكسيك القديمة، كلها تسحرنى وهى قد سحرتنى منذ أعوام، هناك سحر وفتنة بالنسبة لى. ليس بوذا – فقد وصل بوذا نهاية الكمال وأُنجز وليس هناك أى احتمال لأشياء جديدة . أقصد بالنسبة لى. الفتنة بالنسبة لى تكمن فى الغرب وليس فى الشرق المنجز. يبدو أنه قدرى.

ولكنه عندما وصل إلى مرحلة تدوين الجواز، تردد. تمسك لورنس بعناد بفكرة تجنب نيويورك، مهما كلف الأمر والوصول إلى العالم الجديد من جهة الغرب، عبر المحيط الهادى. وهو بالإضافة، خاف من قوة كثافة آماله الشخصية تجاه أميركا، بدا الأمر وكأنه يريد أن يخدع أميركا ويخدع نفسه، من أنه ذاهب إلى مكان آخر تماما، ومن ثم يقوم بالزحف نحوها من الخلف، وهكذا أصبحت الخطوة الأولى باتجاه السيلان وعلى الرغم من عدم وجود أى أمل لديه فى العالم القديم، فقد رغب فى رؤيته والتحدث معه، وربما أن انسحابه من العالم نحو "الحقائق الروحية التى هى حقيقية" ستحصنه عند عودته فيما بعد إلى العالم الخام الذى تمثله أميركا:

"سأذهب شرقا، وفى نيتى أساسا الذهاب إلى الغرب؟".

* * *

منتظرا انتقاله من حالة إلى أخرى كان لورنس على الشوك. ملأ وقته بترجمة السيد جيزوالدو لجيوفانى فيرغا، كاتب صقلى كان قد توفى قبل شهر، أنهى العمل وهو على ظهر السفينة وعندما أبحرت، أو ستيرلى جنوبا، ظل، أثينا(*)، محوما خلفه فى الجو ساعات، مناديا بعودته، ولكنه قسا فؤاده وتجاهله.

وصل اللورنسان إلى كاندى فى ١٣ مارس ١٩٩٢ كان أيرل بريويستر يدرس البالية(**). والبوذية فى معبد توت "ربما سأدرس أيضا فى نفس المعبد"، هكذا كتب لليدى سينثيا أسكويث. وأصبح للورنس كوخ كبير متداع:

"إنه على مسافة ميل أو ميل ونصف من كاندى، يطل على البحيرة، وهو جميل جدا، مشيد على تل وسط أرض شبه برية، غير مأهولة – أشجار جوز الهند والكاكاو وأشجار الغابات – إنه أشبه بغابة. نجلس فى الشرفات ونرقب أعدادا من السنجاب والحرباء والسحالى وطيور استوائية بين الأشجار وأغصان نبات الخيزران – هناك فسحة خالية، حوالى ثلاث ياردات حول الكوخ".

وتعطى أكسا بريوستر وصفًا رائعًا للعمل هناك:

جلس لورنس حول نفسه، وفى يده دفتر مدرسى، يكتب من دون انقطاع. كان يترجم قصصًا قصيرة لجيوفانى فيرغا، من صقلية، كانت يده تتحرك بإيقاع منتظم، من دون تردد، تاركة أثرًا من كلمات دقيقة، صغيرة، واضحة، أشبه بالمطبوعة، لا لطخة، ولا شخبطات تنتقص من جمالها. هذه الأمور استمرت ضمن المحيط العائلى. فقد تأتى فريدا للتشاور، لتسأل إن كانت أقدام الأرنب تطرز باللون الأبيض أم الأصفر، وعند ذاك، يرفع القلم لحظة، ثم يواصل الحركة فوق الورقة. كان لورنس أحيانًا، يتوقف ليسألنا عن معنى كلمة ما، مفكرًا بجدية فى كل شىء يقال، كان يصغى بجدية واهتمام إلى كل واحد.

(*) أثينا – البركان الأوربى الوحيد الفعال يقع على الساحل الشرقى .(المترجمة)

(**) البالية – لغة الأسفار البوذية المقدسة. (المترجمة)

الحادث الأكثر أهمية عند إقامة لورنس فى السيلان، كان بلاشك، البيراهيرا فى ٢٣ مارس:

رسائل (٤) ص٢١٨ : ذهبنا إلى البيراهيرا من أجل أمير ويلز، كان شيئًا رائعًا، هائلاً، وغير متمدنٍ بكل تلك الفيلة ومشاعل اللهب والرقصات الوحشية فى الليل. والمرء يدرك مدى بدائية الأساس للبوذية. أشك، وبمكر، أن السمعة الرنانة للبوذية قائمة معظمها على الورق، وذلك الإنكار للروح يجعلها دائمًا، منعزلة بشكل من الأشكال، غير مثمرة، حتى إن كانت فلسفتها، الخ...، أكثر كمالاً. وباختصار أنا وبعد اتصال سطحى، انسحبت ولم أعد أعجب بها.

كانت درجة حرارة الجو المرتفعة سيئة التأثير على لورنس (كانت درجة الحرارة استثناء حتى بالنسبة للسيلان. كان مريضًا طوال الوقت، وبطبيعة الحال وضع اللوم على سيلان المقزّز، "الناس السود الساذجون وبوذا بمعابده، مثل زرائب خنازير مزخرفة". وكرد فعل لذلك، عادت أفكاره إلى إنكلترا، التى بدت فضائلها أكثر إشراقًا نسبة إلى بعده عنها:

رسائل (٤) ص٢١٩ : أنا أفكر فعلاً، وبشكل أكثر الآن، وأنا بعيد هنا، إننا نرتكب خطأ فى هجر إنكلترا، ونخرج منها إلى محيط العالم. وبعد كل شىء، فإن تورمينا، السيلان، أفريقيا، أميركا – وإلى أى مدى نبتعد إليه هى مجرد النقيض لما نمثله نحن وما نحن عليه: ونحن فى الأصح مثل يونس، نهرب من المكان الذى ننتمى إليه. لهذا فأنا أفكر فى اتخاذ قرار بالعودة إلى إنكلترا خلال موسم الصيف. أعتقد أن مفتاح الحياة هو فينا، نحن الإنكليز فى إنكلترا، والخطأ الكبير الذى نمارسه هو عدم اتحادنا سويًا من أجل قوة هذا المفتاح – الدينى حسب التقدير الأساسى – الاتحاد فى إنكلترا، وبذلك نواصل حمل الشرارة أبدًا، لأنه وعلى قدر ما يخصنا فإن الشرارة معرضة للانطفاء. أعرف الآن أن النظر إلى بوذا أو إلى الهنود أو إلى عمالنا نحن، هو تهرب من القضية، ومن حافز المضى إلى أمام. الأمر يكمن فى دواخلنا أو فى اللامكان... فالمسئولية تجاه إنكلترا، إنكلترا الحية، تقع على رجال مثلك (روبرت برات بارلو) وعلىّ، وعلى كونارد – وربما حتى على أمير ويلز – وإن تركنا الأمور لمن لا أساس له، فتلك هى الخطيئة الأسوأ من أية خطيئة مرتكبة.

كان لورنس قد قرر البقاء فى السيلان شهرين أو ثلاثة، ولكنه فى نهاية مارس، اكتفى منها:

رسائل (٤) ص٢٢٥ : أبدًا، الشرق لا يناسبنى على الإطلاق، الرقة الناعمة، الإحساس الخانق للغابات الاستوائية والإحساس الفيزياوى للنخيل ولأصوات الطيور المزعجة والمخلوقات التى تدقّ وتتطلع وتقعقع بجلبة ، تسفه النهار بطوله، وتدير آلات صغيرة طوال الليل، وهذه الروائح، تجعلنى أصاب بالغثيان... مذاق العرق والعصارة النباتية المقرفة فى الفواكه الاستوائية، الوجوه متسخة والأرواب الصفراء للرهبان البوذيين، الحجرات الصغيرة القذرة، السوقية فى المعابد، كل هذه الأشياء تكوّن سيلان بأجمعها بالنسبة لى، وأنا لا أتحمل كل هذه الأشياء.

سأغادر بعيداً، وننتقل إلى مكان آخر.

أولى رسائل لورنس من أستراليا إلى أيرل بروستر، كانت عن مغادرته لها، وعن محطته التالية للتوقف، كان قد توصل إلى فلسفة جديدة للسفر، وهى – التحرر من الوهم:

رسائل (٤) ص٢٣٩ : أنا عازم على تجربة جزر بحر الجنوب. لا تتوقع منى البقاء هناك أيضًا. لكنى أحب تجربة الأمور واكتشاف كيف أكرهها. كم كرهت الكثير من الأوقات التى أمضيتها فى السيلان: لم أحس بدرجة

القرف تلك فى حياتى من قبل. ومع ذلك فإنها الآن ذكرى أثيرة لا تثمن. ولا تستطيع الخيول الوحشية سحلى إلى الوراء. ولكن لا الزمن ولا الأبدية قادرتان على أخذ ما امتلكه منها: السيلان والشرق.

* * *

كان الكثير من ركاب أوستيرلى "أستراليون بسطاء"، وقد تركوا انطباعًا جيداً لدى لورنس:
"أعتقد أن أستراليا بلد طيب، زاخر بالحياة والحيوية".
كانت السيدة جينكينز، إحدى الراكبات وقد تركت لديه انطباعًا أحسن من سائر مواطنيها، لوجود نسخة من "أبناء وعشاق"، معها. التقت السيدة جينكينز بـ"أورسوفا"، فى فريمانتل، ووضعت ترتيبات إقامة لورنس وفريدا فى ليثديل، منزل للضيافة فى دارلينغتون، يعود لمرضتين ينتميان إلى الكويكز(*)، وهما نيللى بيكبين وموللى سكينر. أُجلس اللورنسان على نفس المائدة التى كان عليها ضيوف آخرون وهما أيوستاس ومودى كوهين. مودى التى كانت قرأت "الطاووس الأبيض" أخبرت لورنس بلباقة أسترالية معهودة، إنها لا تتذكر الكثير من الرواية، وهى ستعيره كتابًا بنفس الجودة لموللى سكينر. أُعجب لورنس بـ (رسائل ف . أ . د)، وخرج باحثًا عن موللى، فوجدها فى منزل الغسيل، وتحدثا طويلاً عن الفصول والحياة البرية فى الأدغال، وطلب منها التخلى عن كتابة، (الإوّزات السود)، وتأليف كتاب عن المستوطنين الأوائل، وأن يكون شقيقها نموذجًا لبطلها:

سكنر ١١٣: يصل المستوطنون، نساء ورجالاً مع أطفالهم إلى هنا، متساقطين على الرمال والأمواج المتكسرة من خلفهم، عدد قليل من التجار، عدد قليل من الجنود، عدد قليل من صناديق الأمتعة، التى ترص لتشكل حاجزًا لهم. وهم وبعد استخراج آلات البيانو التى جلبت وجرى وضعها جانبًا، يبدءون فى تأسيس أفران للمخيمات، فيحرقون أيديهم ويبحثون عن ماء نقى، يشتاقون إلى مآثرهم، جوعى للأرض، تجوع مواشيهم، تتذمر نساؤهم، يحنون إلى الوطن ولكنهم ممتلئون شجاعة، شجاعة تدفعهم أمامًا، ما الذى أبقاهم؟.



موللى سكنر العام ١٩٢٢ تقريبًا .

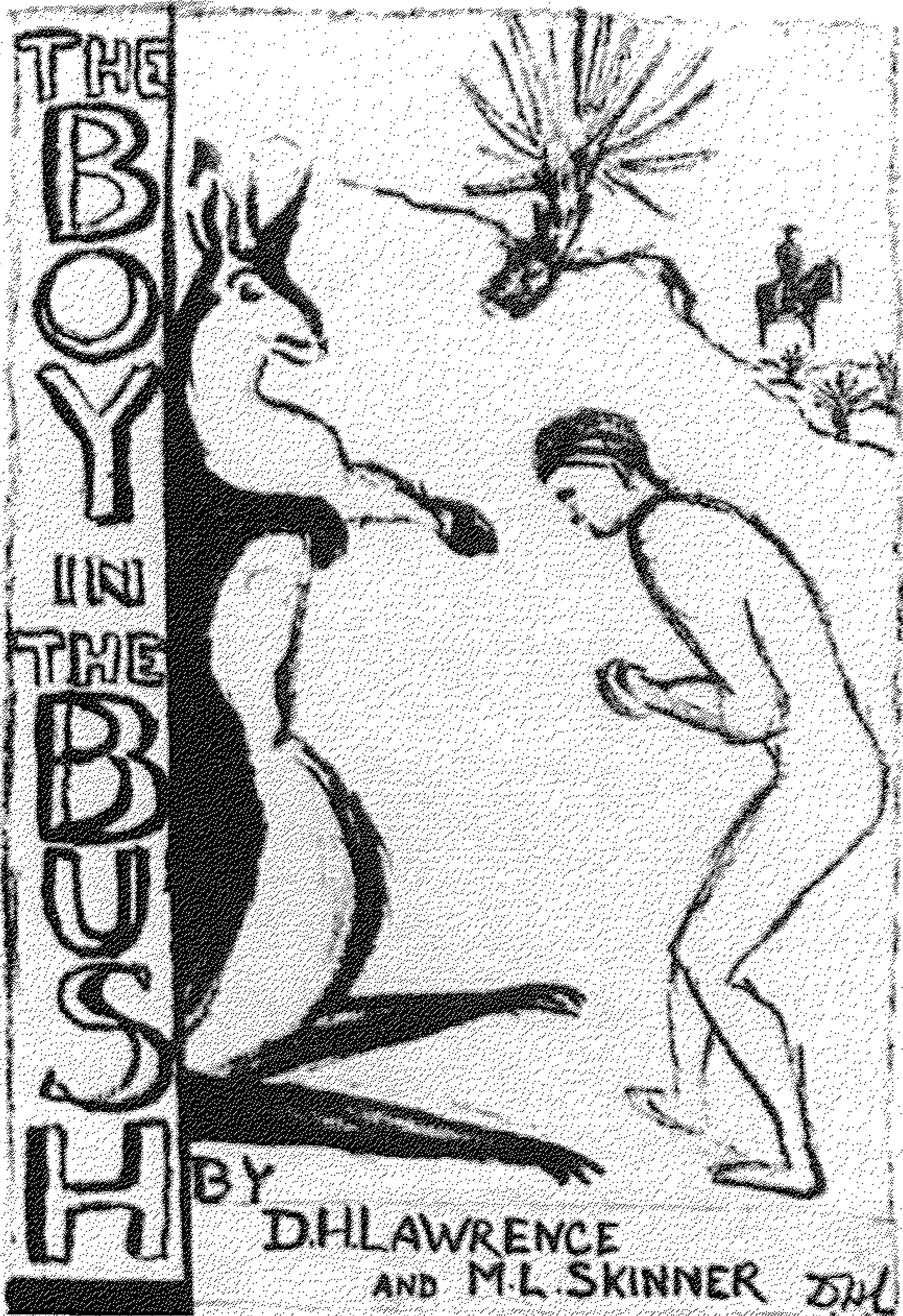
(*) الكويكز: جماعة ضد الحروب (المترجمة)

وسألته موللى سكينر عن الجهة التى ستطبع الكتاب، قال لها لورنس "أرسليه إلىّ وأنا سأتولى ذلك الأمر". خلال العام التالى، كتبت موللى سكينر، رواية "منزل إيليز"، وبعثتها إلى لورنس. أعاد لورنس كتابتها كاملة مع موافقتها على مضض (بكت للنهاية الجديدة) وطبعت تحت عنوان "الولد فى الدغل". وربما أن كتاب، الولد فى الدغل، يعطينا رد فعل لورنس تجاه أستراليا. بشكل أكثر صفاء من روايته الأسترالية، "قنغر":

(قال لنفسه "ماذا سيعنى والدى، هنا فى الخارج؟" وبدا الأمر وكأن والده وعالم والده وآلهة والده قد ذوت وصارت ترابًا، لفكرة هذا الدغل. وعندما شاهد رجلاً على حصان أسمر – محمر، يقفز كالشبح بعيداً عبر الأشجار الساكنة، الجرداء، الداكنة السيقان، يتبعه رجل آخر على حصان أسود، وعندما سمع صراخهما يهدر من بعيد البعيد، كو – يى! وصوت طلقة يطلقانها على دينغو(*) أو على قنغر، أحس وكأن العالم القديم قد تخلى عنه منذ زمن الرحم، ووضعه فى جثة جديدة، سحرية، رمادية – زرقاء، حيث على الإنسان أن يبدأ كل شيء من جديد.

أمضى اللورنسان أسبوعين فى دار لينغتون، ثم أبحرا إلى سيدنى، من أجل التجوال لا غير. وقد استقلا قطارًا يقطع الساحل بأكمله، متطلعين من خلال النافذة إلى الخارج، بحثًا عن مكان جميل. فى الساعة الرابعة، هبطا من القطار فى ثيرول، وبعد ساعتين استقرا فى بيت ريفى (بنكالو)، يطل على المحيط الهادى يسمى، (وايبورك). كان المكان عبارة عن فوضى قذرة، لهذا بدأ فى التنظيف والجلى والتلميع. إلا أنه كان لهما عالم كامل لنفسيهما وجدا فيه متعة بالغة. كانا يسيران على طول الشاطىء، يجمعان القواقع، أو يذهبان فى عربة يجرها حمار إلى الدغل، بغاباته الذهبية لأشجار الميموزا(**). لم يريا أحداً غير بعض التجار والفلاحين وزوجان إنكليزيان، كانا قد تلاقيا على القارب الذى جاء بهما لتمضية عطلة نهاية الأسبوع.

أحب لورنس الدغل العدائى – الحلم المحتفظ بنقائه الأصلى، ولكنه لم يتحمل الناس (يبدو أن لورنس لم ير قط أو أظهر أى اهتمام بسكان البلاد القدماء الأصليين):



تصميم غلاف فى رواية لورانس "الولد فى الدغل" صممته ، وأظن أنه غلاف لطيف". لم يستخدم هذا الغلاف .

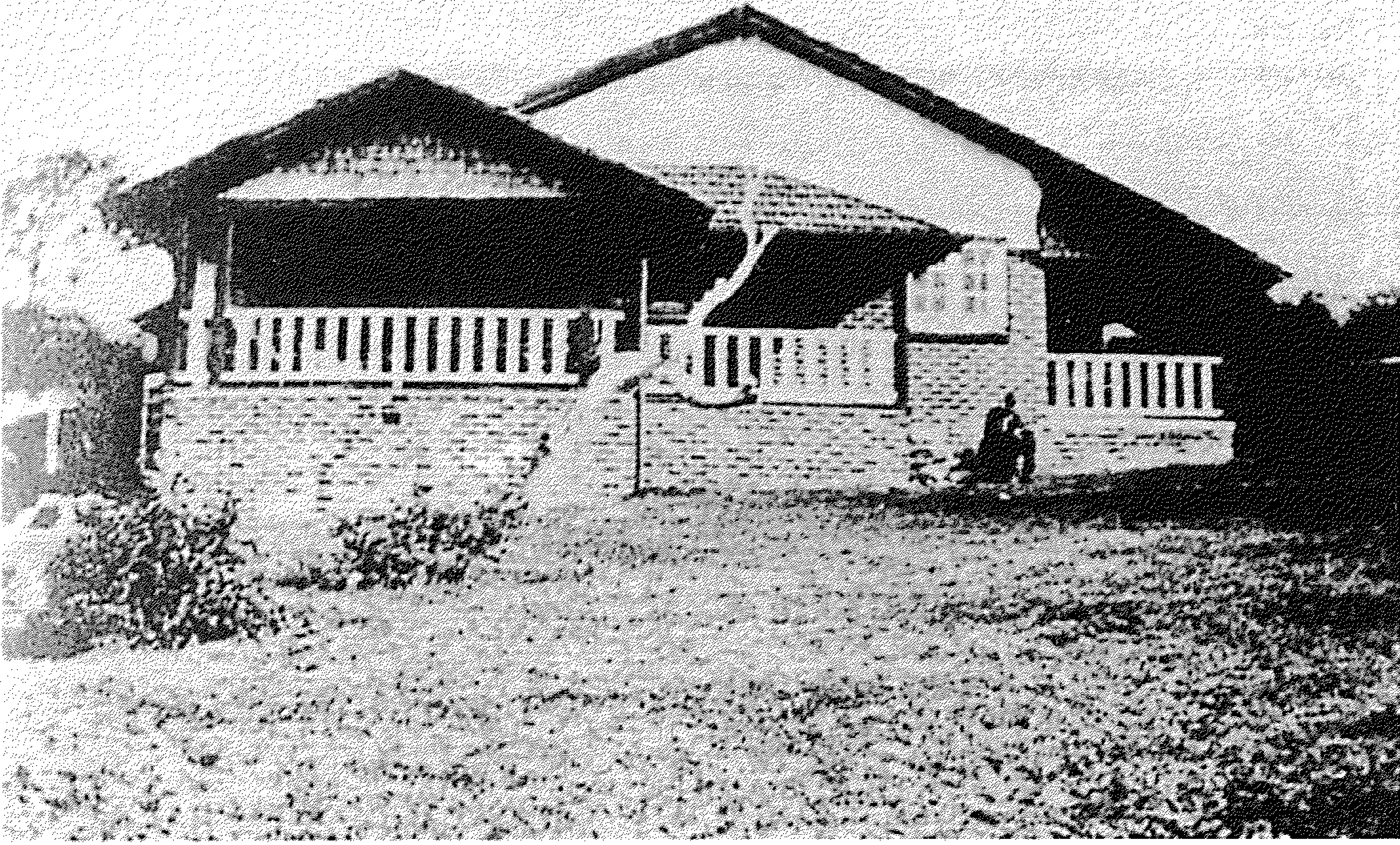
(*) دينغو ، كلب استرالى ضار (المترجمة)
(**) الميموزا: أشجار السنط. (المترجمة)

رســـــائل (٤) ص٢٦٣ : هذه أكثر الأماكن ديمقراطية التى سكنت فيها حتى الآن. وكلما رأيت المزيد من الديمقراطية، كلما كرهتها أكثر. إنها تُسقط كافة الأمور إلى مجرد درجة شائعة: الأجور والأسعار، التيار الكهربائى، دورات المياه، ولا شىء آخر، لا يعرف المرء شيئًا بمثل هذا اللا شىء، العدم، اللا شىء إطلاقًا، الذى تتسم بها الحياة هنا. لديهم أجور جيدة، يرتدون أحذية جيدة، ولدى كافة الفتيات جواريب حريرية. إنهم يتجولون هنا وهناك على ظهور الحمير أو بواسطة عربة البوجى .. أو السيارات، إنهم وباستمرار، وبشكل غير واضح، خال من أى معنى، ناشطون من غير كلل. وكل شىء يبدو فارغًا تمامًا، إنه اللا شىء فعلاً. هذا الأمر يجعلك قرفًا، إنهم أصحاء، وفى اعتقادى، بلهاء تقريبًا. هذا ما تفعله الحياة فى بلد جديد بالنسبة لك: إنها تجعلك دنيويًا، شكلاً أو مظهرًا خارجيًا، وإن حياتك الداخلية تموت وكذلك روحك، وأنت تلغو فى محيطك مثل الكثير من الحيوانات الآلية... أحس أنى لو عشت فى أستراليا إلى الأبد، فإنى لن أفتح فمى مرة أبدًا لأقول كلمة تعنى أى شىء ... ومع ذلك فإن البلاد ساحرة، مدهشة، وهى لم تستيقظ بعد. وإن كان ربما للمرء دزينة من الأشخاص وقطعة أرض كبيرة خاصة به – ولكن المرء لن يقدر هناك...

ربما تكشف هذه الرسالة، بشكل غير مقصود، عن العلاقة العميقة بين حلم لورنس غير القابل للتلاشى، الازدهار، وبين هذا الكلام الملزم. وهو عندما يحاول أن يتخيل كيف سيكون الأمر عند موت حياته الداخلية، فإنه يفكر فى فقدان القدرة على قول أشياء ذات معنى. لقد أكد لورنس أن الحياة الداخلية لا تغذى نفسها إلاّ من خلال العلاقات، وأكد الأولوية الحسية ضمن العلاقات الإنسانية. والأمر الذى لا يلح عليه لورنس اعتياديًا، مع التأكيد عليه فى فنه وحياته، هو أهمية المحادثة، بوصفها علاقة إنسانية أساسية. والأهمية التى يعلقها على المحادثة، بالنسبة إليه، مقنعة لحقيقة كونه يكره المحادثات التافهة، المحادثات التى تدور فى حفلات الكوكتيل، أو تلك المهذبة المصقولة التى تدور بين أناس يحتسون الخمر فى غرف الناس الأعلى مقامًا، يكرهها أكثر من البكم التام.. ولكن الأمر يبدو بالنسبة إليه طبيعيًا بل حتى ضروريًا، ذلك إن كانت لديك حياة داخلية فعالة فإنها يجب أن تعبر عن نفسها كلامًا عبر تبادل الأفكار والاهتمامات، الكره والحماسة، الآمال والمخاوف، مع أولئك الذين يحيطون بك. ولذلك السبب فإن الأمر كان راحة لورنس وعذابًا أيضًا، أن ينجر إلى عزلة زوجية أراحته، للتحرر من صحبة أولئك الذين ليس بمقدورهم تفهمه أو أن يكونوا متعاطفين بصدق. وكان الأمر عذابًا أيضًا، بسبب عدم وجود من يتحدث إليه غير فريدا، وهو حمل لا يُحتمل بالنسبة لفريدا. ولهذا، انساب جدول من الرسائل من قلم لورنس – محاولاً تواصل المحادثة على مدى واسع. ولهذا السبب، نجد النغمة الوعظية التى تسقط فيها رواياته التى كتبها فى المنفى:

"لقد وعظ، وما دوّن، نقله إلى الحاكى، الرواية"

* * *



لورنس فى ويورك "كانت تقبع هنا بنوافذها الطويلة وشرفاتها الواسعة ومنحدراتها المتباينة من الأسقف المنخفضة الحمراء ، واجهة صغيرة كلها من العشب الأخضر ، وشجيرات صغيرة على الجانبين – والبحر المحيط الهادى العظيم موجود هناك يتدحرج على شكل تموجات رعدية بيضاء لا تبعد عن المكان أكثر من أربعين ياردة (عن القنغر) .



اللورنسان مع السيد والسيدة آرثر دينيس فوريستر والسيد وليام وحرمه فى مؤخرة الصورة . "أخذنا د . ه إلى هناك فى نزهة بالسيارة في يوم الأحد ، ويبدو أنه انشرح قلبه لأنه أرانا جمال المناظر الطبيعية الاسترالية في تلك الأجزاء من البلاد تناولنا غداءنا بجوار بعض الشلالات، أظن أنها شلالات فتزورى .

(آرثر دينس فورستر)

فى الصفحات الأولى من رواية «قنغر» يصف لورنس نفسه، شديد التوق إلى إنكلترا وحتى إلى لندن:
كان يتوق إلى أوربا توق جائع: فلورنسا، وبرجها الشاحب جيوتو، أو بينجيو فى روما: أو الغابات فى بيركشاير - ياالسماوات، الربيع الإنكليزى بزهوره، وشجيرات البندق العارية، والأكواخ المسقّفة بالقش بين أشجار الخوخ المزهرة. أحس أنه كان بمقدوره أن يبذل أى شىء ليكون فى إنكلترا، كان الوقت مايو - نهاية مايو - وقت زهرة البلوبيل الزرقاء، والأوراق الخضراء، تتسلق الأسيجة، أو السيقان الطويلة للذرة تحت أشجار الزيتون فى صقلية، أو جسر لندن، وكافة تفاصيل حركة المرور فى النهر، أو بافاريا وزهور الكلوب الصفراء الكروية، وجبال الألب الجليدية. أواه يا إلهى، أن يكون المرء فى أوربا، لهو أمر جميل. أوربا الجميلة، الجميلة، التى قد كرهها بشدة، وأساء إليها بقوة قائلاً إنها تحتضر، وواهنة ومنتهية. كان هو المغفل المخدوع. كان قد فقد أعصابه، ولهذا سمى أوربا، المحتضرة، معتقداً أنه شخصيًا غير محتضر، بل مفعم بالنشاط والبهجة والحيوية، كما سيقول الأمريكيون عن أوربا. حسن، إنه أراد المرء أن يجعل من نفسه مغفلاً، فمن الأفضل تركه.

ولكن قبل العودة إلى أوربا، كانت هناك أمريكا لمجابهتها، وقبلها كانت هذه الرواية الأسترالية التى عليه كتابتها. انكب لورنس على كتابة " قنغر" متفرغًا لها تمامًا، وكان يأمل الانتهاء منها فى غضون ثلاثة أشهر، وانتهى منها فى شهرين.

رسائل (٤) ص٣٢٠ : وكما علم لورنس تماماً، أن الرواية ليست أساساً عن أستراليا على الإطلاق. ففيها "يتصارع لورنس مع مشكلته الذاتية ويطلق عليها "أستراليا" - وعين الشىء يمكن أن يقال عن أى مكان يكتب عنه. مع ذلك فإن الفكرة الأساسية فى الرواية، هى الوصف السطحى للنشاط السياسى فى سيدنى عام ١٩٢٢، الذى هو استثنائى بشكل غامض. إذ لم يتسع وقت لورنس لعمل أى بحث أبعد من قراءة "مجلة سيدنى" وصحيفة قديمة وجدها ملقاة فى بيت وايبورك. وعلى الرغم من ذلك، كان يمتلك معلومات مفصلة عن الجيش السرى للجناح اليمينى، الذى كان ظهر توًا فى سيدنى، متكونًا بأكمله من عسكريين سابقين، وقد كُرّس من أجل مقاومة انتشار الشيوعية. هذه المعلومة لم تكن معروفة حتى بالنسبة إلى الأستراليين أنفسهم، حتى بعد مضى عدة أعوام. ربما أن أحداً ما، ربما ضابطًا فى الجيش، كان قد التقاه على ظهر السفينة، قد أسرّ إليه بالموضوع، وربما قد حاول الحصول على تأييده. ونحن نعرف أن لورنس لم يخترع مطلقًا أموراً يكون بمقدوره الحصول عليها من الواقع. ذلك أن لورنس كان يمتلك فى تفكيره موقفًا سياسيًا حقيقيًا، وليس خياليًا، وهو أمر واضح يتبين من سؤاله لسيلتزر لدى مراجعته الرواية فى نيومكسيكو، فى أكتوبر:

"هل تعتقد أن الحكومة الأسترالية أو الجنود الأستراليين، سيستاءون من شىء ما؟".

ولو كان لورنس قد طبع "قنغر" قبل مغادرته أستراليا - لكان حقًا حقًا فى خطر.

مع قدوم يوليو، كانت أستراليا، بدأت تحكم قبضتها عليه بشكل متنامٍ، الأمر الذى دفعه، بحكم نشأته البيوريتانية، إلى الخوف، وكأنه يعيش فى أرض لوتس(*).

(*) أرض لوتس - أرض ورد ذكرها فى أوديسة هوميروس، يقتات أهلها على نبات اللوتس ويحيون حياة كسل وتراخٍ بفعلها وتأثيرها(المترجمة)

رســـــائل (٤) ص٢٧٥ : "لو بقيت هنا ستة أشهر، فيتعين علىَّ البقاء إلى الأبد – يوجد هنا شىء منعزل، بعيدٌ جداً، مختلف تماماً عن عالمنا الأوربى – وذلك فى مجرد الهواء بالذات. علىّ أن أسافر إلى سيدنى لبعض الوقت، أن أذهب إلى الأدغال ... ولكن إحساسى يقول! إن الوقت لم يحن بعد".

كان بمقدور لورنس أن يسوّغ لنفسه حالة خصوصية من السعادة والتعويض بواسطة الطبيعة والأشياء المتوله بها، تمهيداً لمسعى آخر فى عالم الرجال وليس حالة دائمة. وهناك كانت أيضًا ميبل لوهان، الراغبة فى حضور لورنس إلى تاوس، التى تطالبه كل ليلة بكامل حضورها، وبمساعدة التأثير القوى لتونى.

صعد لورنس وفريدا ظهر السفينة تاهيتى فى ١٠ أغسطس ١٩٢٢ ووصلا رارا تونغا بعد عشرة أيام. أمضيا يومًا هناك ويومين فى جزيرة تاهيتى، وكان ذلك كافيًا للورنس. وجد أن جزر الجنوب جميلة "للنظر إليها"، ولكن:

رســـــائل (٤) ص٢٨٦ : هناك نوع من السقم حول المكان، رائحة زيت جوز الهند، ونوع من أشجار النخيل، غثيان زاحف... من المفروض أنها جنات أرضية: جزر البحر الجنوبى هذه. بإمكانك امتلاكها... يبدو السفر بالنسبة لى درسًا رائعًا فى خيبة الأمل – هذا بالدرجة الأولى... أتساءل : كم سنبقى فى أميركا ؟

(١٣)

العالم الجديد

استغرق الأمر من ميبل وتونى نهارًا كاملاً لقطع تسعين ميلاً بالسيارة فى طريق موحل من أجل الوصول إلى لامى جانكشن والالتقاء بقطار بعد الظهيرة. وبالطبع، كانت ميبل قد قررت مسبقًا ألا تحب فريدا:

لوهان ٣٦ : لورنس وفريدا، جاءا راكضين على طول رصيف المحطة، هى طويلة وممتلئة فى بدلة من الحرير الشاحب، وعلى وجهها تعبير يدل على اللهفة، عينان خضراوان لا تتطلعان بتركيز، فمها نصف مفتوح، وفكها الأسفل مسحوب جانبًا. كان لفريدا، على الدوام، فم رجل مسلّح. ركض لورنس بخطوات قصيرة سريعة إلى جانبها... الانطباع الأول الذى تركه لدىّ، كان مدى رقته ونحوله إلى جانب متانة فريدا، لحية حمراء كانت أكبر من سنه، وعصبية عاجزة. كان مثارًا مهتاجًا، مهتمًا أكثر مما ينبغى بالتفاصيل، ذاهلاً، شديد الاضطراب، يقهقه بتكشيرة عصبية - أحسسنا، أنا وتونى، بشىء من التبلد الحسّى الغريب، الخالى من التعبير فى مواجهتهما.

تناول الأربعة وجبة فى المحطة، توصلت ميبل بينها وبين نفسها إلى قناعة من أن لورنس كان مستعدًا للانفصال عن فريدا، وأنها هى نفسها، كانت المرأة التى هو فى حاجة إليها الآن:

"الأنثى فى داخلى، استثيرت لتصل وتأخذه" فى الطريق إلى سانتافى، تعطلت السيارة، وكان تفسير تونى أنه لابد من وجود ثعبان فى الجوار. عندما وصلوا فى النهاية إلى سانتافى، كان الوقت متأخرًا جدًا لإيصال لورنس وفريدا إلى مكان خاص للنزول فيه. لكن أصدقاء ميبل، ويتر باينر، الشاعر، وسكرتيره ويلارد جونسون، كانا ما يزالان مستيقظين، وسعيدين لتهيئة غرفة للزوجين. جلس الجميع لتبادل الأحاديث حتى ساعة متأخرة، وحكم باينر أن فريدا هى المرأة المناسبة جدًا للورنس:

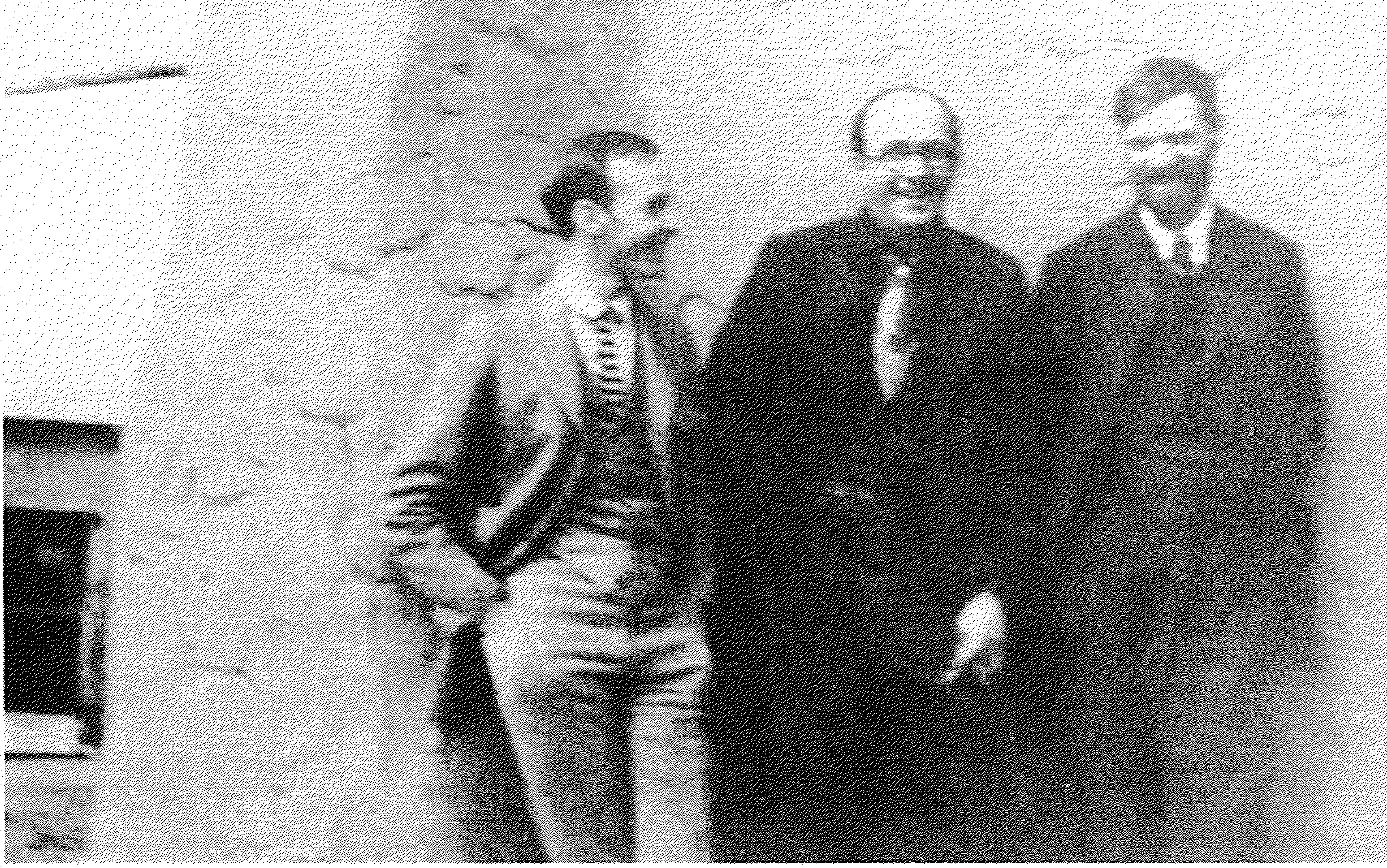
باينر ٦ - ٧ : مقابل كل حنقه عليها، بسبب أمور تافهة عادة، علم أنها رفيقته المناسبة، امرأة أخرى تطارد الأسود، عصابية، حاولت أن تنتقص من قدر فريدا وجذبه إليها، باستبدال غرامها بطموحاتهما وخيلائهما، فريدا امرأة مسلّية، متفهمة، ذات صبر خلاق، وجدت الآن، أن أسدًا حقيقيًا كان سيغدو ألين ترويضًا فى غرفة المعيشة أو فى مخدعها الخاص، من هذه السنور الغريبة، التى كان اهتمامها بهما، فى آخر المطاف، فضولاً محيرًا ممكنًا تحمله.

"الفضول الممكن تحمله"، يصف موقف فريدا أيضًا لتدبير باينر - جونسون شئون المنزل. قالت لميبل، "الشاب النحيل يبدو لطيفًا". ولورنس أيضًا أعجب بجونسون، وسرعان ما بدأ يسميه سبودل. وكل من عرفه أخذ يسميه سبود أيضًا طيلة حياته.



"سألتى عن مابل دودج : هى أمريكية ، من مدينة بفلو على بحيرة إيرى ، عمرها اثنان وأربعون عاما ، تزوجت ثلاث مرات - أحدهم يدعى إيفانز (متوفى) ، والآخر دودج (مُطَلَّق) ، والثالث موريس ستيرن (يهودى ، روسى ، دهَّان ، شاب ، مطلَّق هو الآخر) . هى متزوجة حاليا من هندى ، يدعى تونى ، وهو صبى متين البنية - عاشت فترة طويلة فى أوربا - باريس ، نيس ، فلورنسا - شهيرة إلى حد ما فى نيويورك ومحبوبة إلى حد ما أيضًا ، وهى شديدة الذكاء كإمرأة ، حاملة لثقافة أخرى ، تحب أن تلعب دور الراعية الأدبية، تكره العالم الأبيض ، وتحب الهندى من باب هذه الكراهية ، وهى كريمة جدا ، تود أن تكون طيبة وهى شريرة وصاحبة إرادة مسيطرة ، كما تعرفين - هى تود أن تكون امرأة فاتنة وإن تكون فى ذات الوقت مثل مريم البيثانية عند قدمى يسوع - خنزيرة ، غراب أبيض، غراب ناعق ينذر بالفأل السيئ ، جاموسة صغيرة" .

كان سبود، محررًا مساعداً فى مجلة صغيرة تدعى، (الحصان الضاحك)، اطلع لورنس على نسخة منها، على أمل أن يشارك فيها، كما فعل مرات عديدة فى الأعوام اللاحقة.
استيقظ باينر مبكرًا فى اليوم التالى، ليجد أن لورنس قد أنهى غسل أوانى العشاء كافة، وأعد إفطارًا وافرًا.



ولفريد جونسون ، ويتربانير ولورنس ، في منزل بايند فى سانتافى – المرجح أن فريدا هى التى التقطت هذه الصورة .

سرعان ما وصلت ميبل مع تونى، وفى الشمس المشرقة للصباح، اتجهوا إلى الجانب الآخر من الصحراء، عبر جدول ريوغراند، نحو السهل الواسع المرتفع لتاوس، عند سفح التلال الواقعة أسفل جبال روكى. بعد أعوام، استعاد لورنس ذلك اليوم:

فونيكس ١١٤٢ : فى اللحظة التى رأيت الصباح النيّر المزهو يشرق عاليًا فوق صحارى سانتافى، توقف شىء ما فى روحى، وبدأت أعمل. كان هناك جمال مهيب فى النهار المبهج النبيل، شىء ما مثل سمو نسر بلا ريب، مختلف تمامًا عن الصباح الأسترالى الجميل، الذى له أيضًا هذه الدرجة من النقاوة والصفاء، إنه صباح ناعم جداً ونقى جداً فى نعومته، يفشى سره عدد من الببغاوات الخضراء المحلقة. إلا أنه فى الصباح الجميل لأستراليا، يستغرق المرء فى الحلم. وفى الصباح الجميل القوى فى نيومكسيكو، يثب مستيقظًا فجأة ويتلاشى العالم القديم فى آخر جديد.
كان ذلك اليوم الذكرى السابعة والثلاثين لمولد لورنس.

* * *





أخذت ميبل اللورنسين إلى المنزل الكبير فى ميبل تاون، كما أسماه لورنس، الذى يبعد مسافة ميل خارج تاوس، على حافة الصحراء، فى اتجاه بيوبلو. وكان تونى قد شيد لهما منزلاً جميلاً صغيراً من اللبن على مقربة من المكان، خاص بهما. فى اليوم التالى، استقر الاثنان بسعادة فيه.

بعد يوم أو يومين، كان تونى مغادراً بالسيارة فى رحلة إلى مكان يبعد ١٢٠ ميلاً، لحضور احتفال الأباشى فى محجر جيكا ريللا، وكان لورنس برفقته، كما اقترحت ميبل. بعد عودته، كتب لورنس فى الحال انطباعاته. "الهنود ورجل إنكليزى". وجد نفسه مذهولاً، وكأنما أسقط فوق القمر. بدا له كل شىء، شبيهًا بأوبرا كوميدية، من النوع الذى كان رآه وهو فتى وقام بتمثيلها أعضاء سيرك جوّال. لم يستطع أن يجد أى "هدف مشترك" أو "تعاطف وجدانى مشترك" مع الهنود، فى رقصاتهم أو أغانيهم التى بدت بالنسبة إليه استنكاراً للفردية:

فـوينكس ٩٥ : "وأنا أستمع، انتابنى حزن مبرح وحنين إلى شىء ما، وتوق مبرح لم تقدر نفسى على تحمله. الكركرة والحركات والأصوات الغريبة المنطلقة عاليًا، أدهشتنى وباغتت كل كيانى. بعد حين، بدأت أعتاد الأمر، وأتمكن من خلاله أن أستمع إلى الإنسانية والهزل، ثم إلى أبعد من ذلك، الحيلة، والسخرية، وبعدئذ، الوحشية، تجاه الإنسان، هزل أشجار الصنوبر فى قطع رقاب داكنة، وجعل الدم يتدفق بلا حدود منها.

عندما اعتقد لورنس أنه رأى ما كان قد نادى عليه عن بعد مؤكداً، رُوِّع، وارتدَّ هنا.

فـوينكس ٩٩ : الصوت المنطلق من زمن جد بعيد لم يكن من أجل أذنىّ. فلغته كانت مجهولة بالنسبة لى. لم أرغب أن أعرف.. تتلوى أعماقنا المظلمة من هذه التجربة القبائلية القديمة، دماؤنا الأكثر دفئًا، تنطلق من النار القبائلية – وهى ماتزال تتردد فى الجواب.. دماؤنا وكياننا. ولكن أنا، أنا الواعى، قد سرت طريقًا طويلاً منذ ذلك الحين. وعندما أتطلع وراءً، مثل ذكرى مريعة كسفك الدماء، الوجوه المعتمة حول النار فى الليل، ودم واحد ينبض فى داخلى ودواخلهم. إلاّ أنى لا أريد أن أعود خلفًا إليهم، أوه، مطلقًا. أنا لا أريد أبدًا إنكارهم أو التخاصم معهم. ولكن لا توجد هناك أية عودة إلى الوراء. إلى الأمام، باستمرار، وإلى مسافات أبعد. الجدول الكبير المراوغ المندفع أمامًا للدم الإنسانى الواعى. منهم إلىّ. ومنى ويتواصل.. طريقى خاص بى، أيها الأب الأحمر، أنا لا أستطيع التحلق حول الطبل مرة أخرى.

فى ٢٠ سبتمبر، كتب لورنس إلى فورستر عن الهنود:

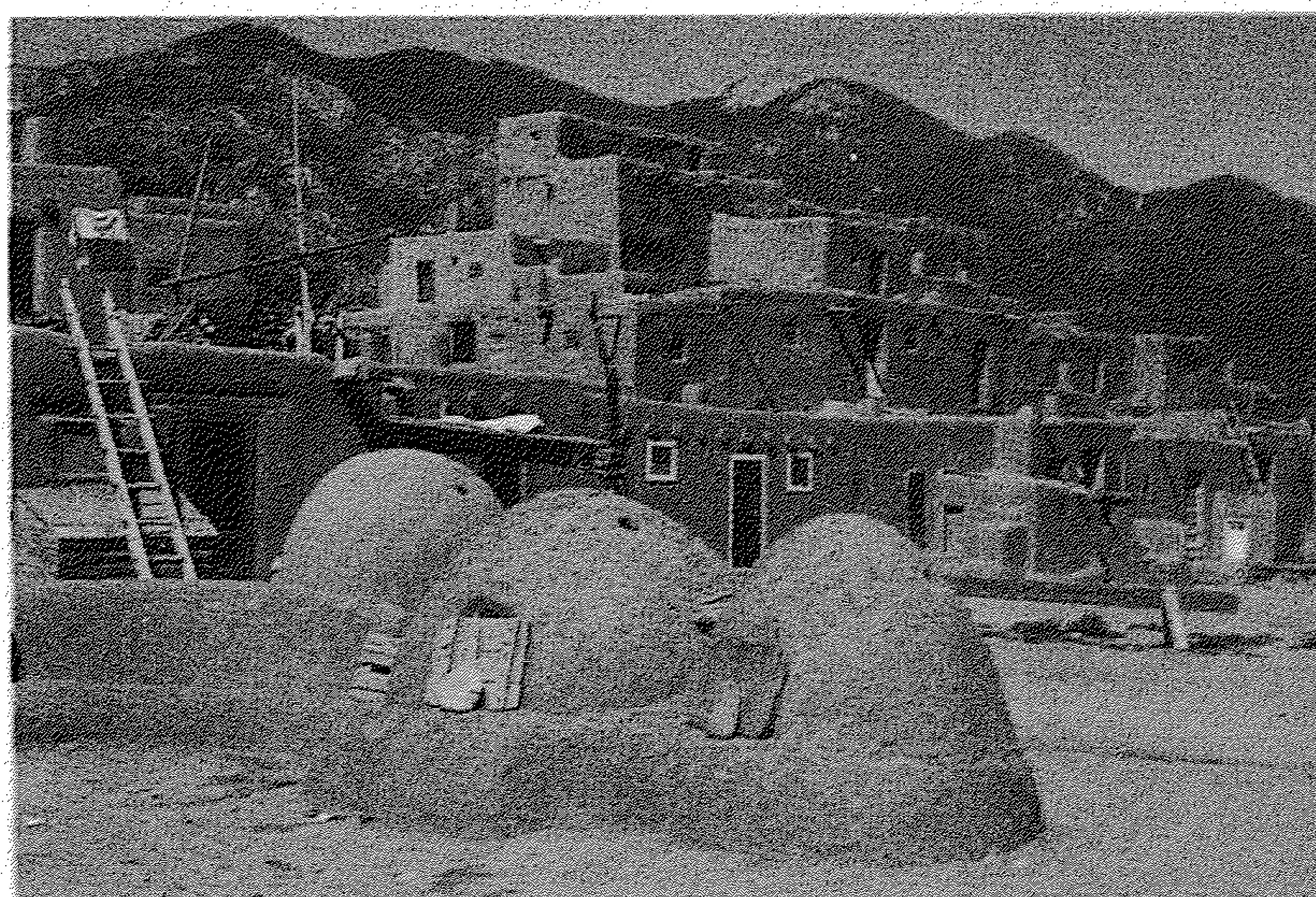
رسـائل (٤) ص٣٠١ : "لم أشهد حتى الآن عملية شنق أحدهم"، وبالتأكيد كانت مقالته الثانية عنهم، (تاوس)، عن حادثة امرأة بيضاء تحاول دخول كنيسة هندية، مقالة تعوزها مع الأسف، الإدراك بالمقارنة مع الفصل الافتتاحى لرواية، «ممر إلى الهند» التى كان فورستر يكتبها آنذاك.



قرية تاوس نوع من البلازات المكسيكية ، فيها أشجار ودكاكين وخيول مربوطة



منزل مابل فى تاوس



تاسو بويبلو

أولى ردود أفعال لورنس تجاه الهنود كان فضح زيفهم، ربما فعل ذلك، جزئيًا، ردّ فعل تجاه ادعاءات ميبل المتوقعة الزائدة. كانت حتى قد أعدت فى منزلها الكبير رقصات هندية واقترحت على ضيوفها، ومن بينهم لورنس، القيام بمحاولة سخيفة لتقليد الخطوات الحاذقة المستحيلة. وكان الحديث فى دارها، يدور بأكمله عن إعلان بورسوم، الذى جدّت الحكومة بواسطته فى طلب القوة والسيطرة، من أجل وضع حد للأراضى المخصصة للهنود والسماح باستثمارها تجاريًا:

رســـــائل (٤) ص٣٣١ – ٢ : "كان الحديث ينصب على إعلان بورسوم، حتى سئمنا منه".

ومع ذلك فإن الظلم السافر المحض الذى يتضمنه قد وخز لورنس لكتابة مقالته "بعض الأمريكيين ورجل هندى"، التى طبعت فى صحيفة نيويورك تايمز فى ديسمبر:

دعنا نمتلك الفضيلة والشرف لحماية مراكز الحياة القديمة هذه، لكى، إن ماتوا، وهذا أمر لابد منه، أن يموتوا ميتة طبيعية. وفى الوقت نفسه، دعنا ننظم حياتنا ثانية، لوجهة النظر الهندية، أن نرفع خيطًا أسود قديمًا من بصيرتهم، ونرى ثانية ما يرون دون أن ننسى أنفسنا.

وهذه المقالة، ربما قد ساهمت فى فشل الإعلان.

وتوقعت ميبل أن يكتب لورنس الرواية الأمريكية الكبيرة التى ستكون قصة حياتها:

لوهان ٥٢ ، ٧٠ : بطبيعة الحال، هذا هو السبب الذى جعلنى أدعوه من الطرف الآخر للعالم – أن أعطيه الحقيقة عن أمريكا: أميركا الجديدة الزائفة السطحية فى الشرق، والحقيقة البدائية غير المكتشفة التى حُفظت فى سلالة الهنود... أردت أن يفهم لورنس الأمور من أجلى، أن يتناول تجربتى، المادة الخاصة بى، تاوس الخاصة بى وتشكيلها بأكملها فى عمل مبدع رائع.

فى صبيحة اليوم التالى لعودته من رحلة الأباشى، بدأ لورنس العمل مع ميبل فى غرفة نومها. كلمات لورنس الأولى مشئومة:

لوهان ٥٩ ، ٦٠ : "لا أدرى كيف سيكون إحساس فريدا تجاه هذا".

وهذا يعنى أنه كان مدركًا الأمر جيدًا، وإلى درجة كبيرة. فى اليوم التالى قال: إنه من الأفضل أن يعملا فى منزله. ولكن ميبل، لم يكن فى مقدورها، استعادة "التوحد الروحى المطلق، رؤية أحدهما للآخر فى كشف مستنير"، مع وجود فريدا، وهى تدق الأرض هنا وهناك، تكنس وتغنى. مع ذلك، كان لدى لورنس مادة كافية ليبدأ العمل، والبداية مبشرة بأسلوب جديد، تهكمى شائك. ولكن الفصل الأول فقط، هو ما سمحت فريدا بكتابته. لقد قابلت فى ميبل ندًا لها.

فكلما أحست فريدا أن اهتمام لورنس بدأ يشرد، كانت ستعمد إلى إثارته، وفى الغالب، ببعض التعبيرات السوقية والسيكارة تتدلى من فمها. وسينفجر لورنس فيها، ولكنها بذلك تكون قد أثارت اهتمامه، وبعد دقائق يعود الوفاق بينهما.

كان لورنس مشغولاً على الدوام، وإن لم يكن هناك عمل منزلى يجب إنجازه، كان يجلس تحت شجيرة ويكتب. وتعقد مساء تجمعات الأصدقاء للمناقشات والألعاب، ولورنس يلقى عليهم محاضرات متقدة، أو يمثل بشكل بارع، فى لعبة الشاراد، وقد تعلم ركوب الخيل، وكان ذلك متعة كبيرة للورنس وفريدا. وعلى الرغم من أن لورنس لم يبد مرتاحًا على ظهر الحصان، فإنه كان يركض به مسرعًا، دون خوف، ولم يسقط عنه أبدًا.

كان جون إيفانز، ابن ميبل (٢٠ سنة) على وشك الزواج بأليس هيندرسون (١٥ سنة)، فطلبت ميبل من لورنس أن يعطيه بعض النصائح. ترك الاثنان معا على انفراد لمدة ساعة، وفيما بعد، أخبر جون والدته أن لورنس نصحه أن يكون مستقلاً بنفسه على الدوام، ألا يسمح قط لزوجته أن تعرف أفكاره، أن يكون دمثًا معها، عندما تكون دمثة تجاهه، وأن يضربها عندما تعارضه، وكدمات فريدا أكدت أن لورنس كان يفعل بمثل ما نصح.

* * *

مزاج لورنس فى فضحه للزيف، استمر فى مشروعه التالى، الكتابة النهائية لـ(دراسات فى الأدب الأمريكى الكلاسيكى). وهنا لم يكن فضح الزيف متعلقا بشكل كبير بأميركا أو الكتاب الأمريكيين بقدر تعلقه بالإسراف والتصرف والأهمية المبالغ بها، التى أولاها لهم عندما بدأ فى وضع مخطط الكتاب، الذى لم يقدم أميركا الحقيقية، بل أميركا الأسطورية لقراءات طفولته وبنفس مستوى الحنين الرومانتكى لمرحلة الصبا.

ويبدو التطبيق الشخصى واضحًا فى المقدمة:

يكون الرجال أحرارا عندما يكونون فى وطن مفعم بالحياة، وليس عندما يكونون ضالين. يكون الرجال أحرارًا عندما يطيعون صوتًا داخليًا عميقًا لمعتقد دينى.





فريدا ولورنس .

يطيعون من دواخلهم. يكون الرجال أحراراً عندما ينتمون إلى جماعة حيوية مؤمنة متناسقة فيما بينها، لها مصالح مشتركة وفعالة فى تنفيذ مالم ينفذ، أو ربما لم يحقق من أهداف، وليس عندما يهربون إلى غرب بدائي!

كان لورنس فى النسخة الأولى من مقالة كريفيكور التى كتبها عام ١٩١٧، قد أصبح نزاعًا إلى الشك بصدد تصوير الطبيعة بشكل رومانتيكى. أما فى النسخة النهائية، التى كتبت فى الحقيقة فى "أميركا البرية السامية"، التى كان لورنس يتوق بشوق كبير لها منذ قراءته (فينمور كوبر) وهو فتى، فتوجد ملاحظة عن تحرره الشخصى من السحر أو الوهم.

(هيزليت، غودوين، ستيللى، كوليردج، الرومانيتكيون الإنكليز، كانوا قد اهتزوا إعجابا بـ(رسائل من فلاح أمريكى)، عالم جديد، عالم البدائية السامية، والبساطة الأصيلة للطبيعة الفردوسية، تلك الفخامة المنسابة من معين غير ملطخ لقارورة حبر . كان كوليردج محظوظًا لعدم تجاوزه مدينة بريستول، بعضنا قد قطع الطريق بأكمله.



مابل لوهان

ويتناول لورنس الموضوع ثانية فى مقالة (فينيمور كوبر)، (قد يبدو الأمر أسهل أن يحب المرء أميركا بتوقد، عندما يتطلع إليها من النهاية غير الصحيحة للتلسكوب، إلى الجانب الآخر من مياه الأطلسى، كما فعل كوبر غالبًا ، بدلاً من أن يكون المرء هناك حقًا. عندما تكون فى أميركا فعلاً، فأميركا تؤذى، لأن لها فاعلية تحطيم قوية على النفس البيضاء، إنها مليئة بشياطين بدائية لها قوة هائلة، غير قابلة للاسترضاء، غير قابلة للتهدئة ، وهى مليئة أيضًا بالأرواح الشريرة التى تضطهد الرجل الأبيض، حتى يتخلى الرجال البيض عن نقائهم المطلق.

ومرة أخرى فى مقالة ميلفيل:

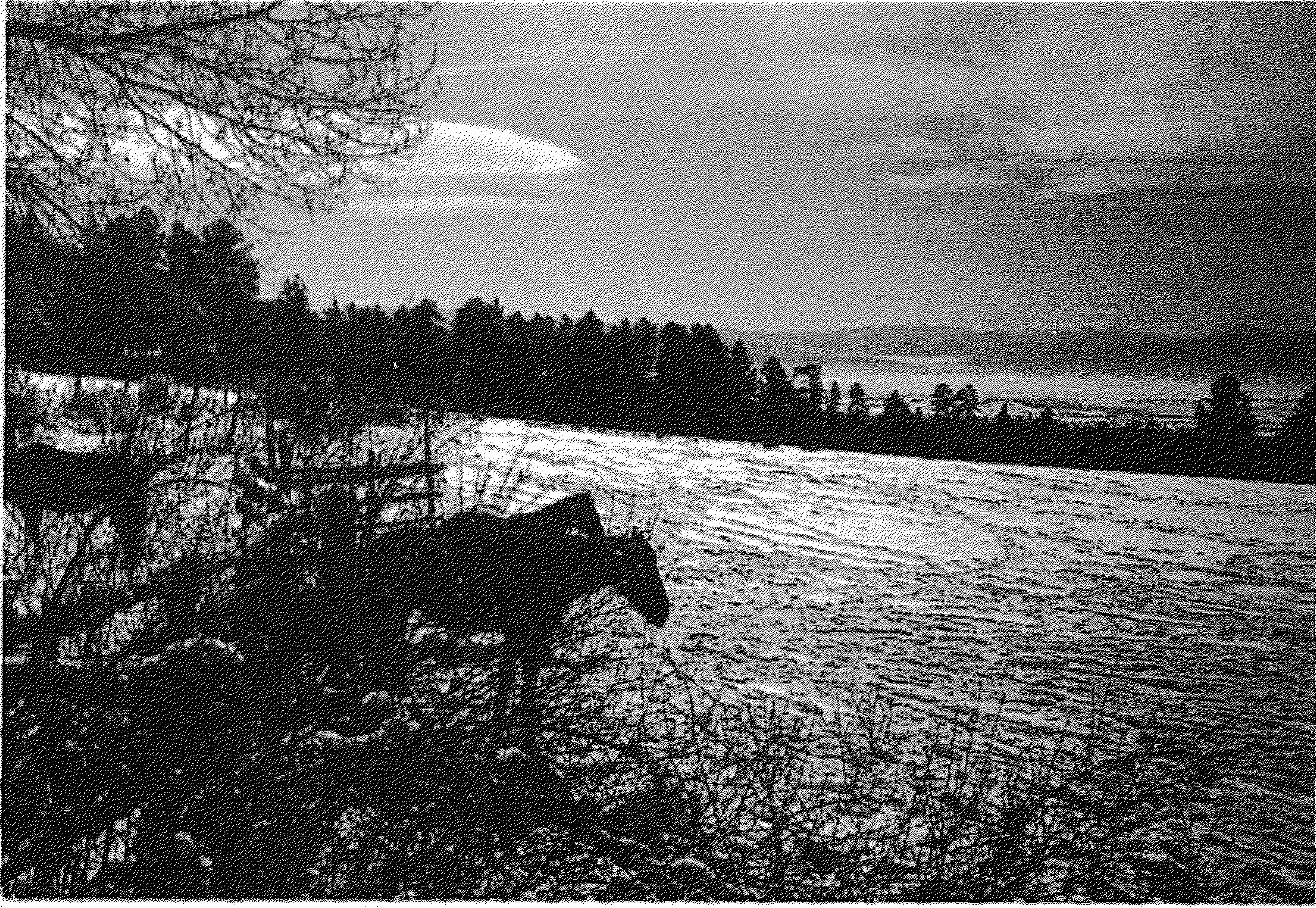
نحن لا نستطيع العودة إلى الوراء، لا نستطيع العودة إلى البدائيين غير المتمدنين: ليس خطوة واحدة. بإمكاننا أن نكون متعاطفين معهم . نستطيع أن نأخذ منحنى كبيرًا نحوهم إلى الأمام. ولكنا لا نقدر على إرجاع تيار حياتنا إلى الخلف، خلفًا نحو فترتهم المنحطة الموغلة فى القدم وإلى طينهم الأزلى ، ليس ولو لدقيقة واحدة. إن فعلنا ذلك دقيقة ، فإنه سيؤدى إلى إصابتنا بالعلل. نستطيع أن نفعل ذلك فحسب عندما نكون خونة، مرتدين. والمرتد يكره حياته نفسها، يريد موت الحياة .. وهكذا هم "أولئك الإصلاحيون" و"المثاليون" الذين يمجدون الهمجية فى أميركا. إنهم طيور الموت ، الكارهون للحياة، الخونة المرتدون.

كانت ميبل لوهان، أكثر ما يشغل ذهن المرتد لورنس بطبيعة الحال. وقد تعرفت ميبل على نفسها، بعدئذ، كونها "المرأة التى رحلت بعيدًا – "تلك القصة التى اعتقد فيها لورينزو أنه قد أجهز على". ولكن فى عام ١٩٢٤، عندما كتبت تلك القصة، كان موقف لورنس تجاه أميركا والهنود قد اكتسب إدراكا وتعاطفًا عميقين على نطاق متسع، وأصبح طابعه بعيدًا جدًا عن فضح الزيف.

* * *

كان واضحًا أن لورنس لن يقدر على البقاء طويلاً تحت جناح السيدة الحامية. وعندما أصبح الوضع فى منزل لورنس غير محتمل، وكان على كل واحد أن يطلب مساعدة من ميبل، التى وجدت نفسها، كما تفعل أحيانًا، فى صف فريدا. أحس لورنس أنه كان غاطسًا فى المشروب المخمر لساحرة، وأن عليه القيام بمحاولة للهرب.

وعلى الرغم من رغبته المعلنة فى الابتعاد عن تجمع (فنانى تاوس)، فإنه فى الحقيقة كان قد تعرف على عدد منهم ومن بينهم رئيسهم والتر يوفير، الذى قدمه إلى اثنين من الفنانين الهولنديين المتجولين، كانا قد وصلا المدينة توًا وهما كنود ميريلد وكاى غوتزشا. وقد وجد اللورنسان والهولنديان متعة فى رفقة بعضهم لبعض، ونمت صداقة سريعة بينهم. وفى شهر نوفمبر) قاموا برحلة، ونصبوا مخيمًا فى مزرعة مهجورة على جبال لوبو، التى تبعد عن تاوس سبعة عشر ميلاً، وكانت تعود لجون ابن ميبل. وفى إحدى الأمسيات، أخبرهما لورنس أن ميبل قد عرضت المزرعة لهم حتى الشتاء، ودعا الهولنديين للانضمام إليه وإلى فريدا هناك.



وجد الهولنديان الدعوة مغرية جداً، ولكنهما وجدا صعوبة فى قبولها، لأنه بسبب عدم تمكنهما من بيع أعمالهما فى تاوس، أحسا بعدم مقدرتهما على الإنفاق على نفسيهما هناك طوال الشتاء. ولمعرفة لورنس بعدم استعدادهما لقبول أى شىء يبدو إحساناً، فقد اقترح بلباقة إمكانية تدبير معيشتهما عن طريق تصميم أغلفة كتب له، وأيضاً المساعدة فى الأعمال الثقيلة، كما أن لورنس سيقوم بتكليف كوثزشا برسم لوحة شخصية له.

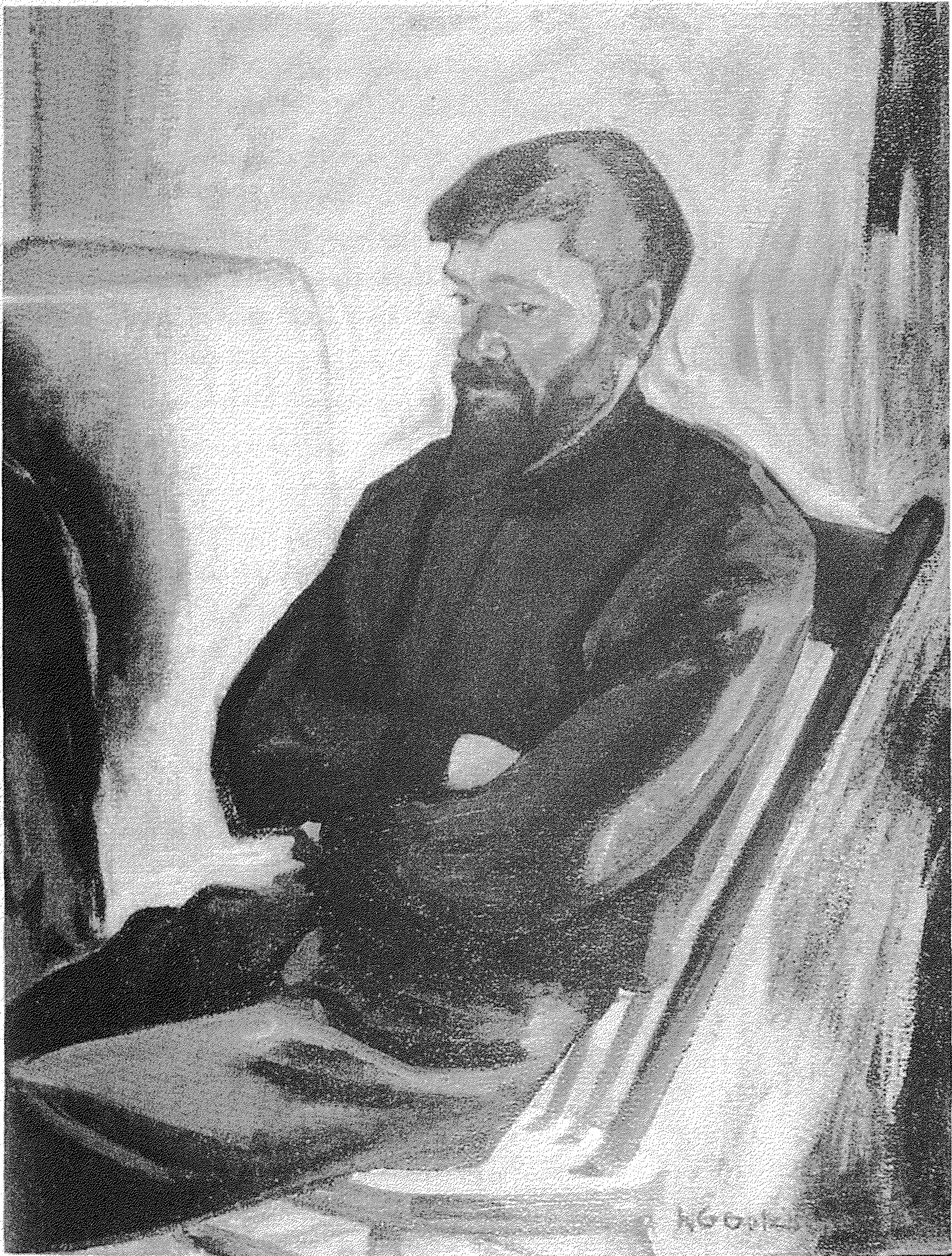
خرج الهولنديان فى الليل إلى خارج الدار لمناقشة الدعوة. كان الهواء نقياً وبارداً إلى درجة لا تصدق. لمعت حقول الفالفا المغطاة بالثلج فى ضوء القمر. الجبال المهيبة المظللة قبالة الفضاء اللانهائى، المرصع بالنجوم . نعبت بومة وعوت ذئاب . كيف يمكن أن يديرا ظهريهما لكل هذا وللورنس أيضاً. وتمت الموافقة ، إلاّ أنه فى اليوم التالى، قامت ميبل، التى لم يكن فى خططها أى مكان للهولنديين ، بإرسال من يخبر لورنس أنه سيكون بإمكانه استعمال – كابينة – واحدة فقط من اثنتين. انفجر لورنس بعنف ضد ميبل الحقود. وفى العصر خرج برفقة كوتزشا فى جولة استكشاف، عادا بعدها منتصرين . كانا قد استأجرا كابينتين من ويليام هوك فى مزرعة أدنى مستوى، وهى ديل مونتى. وفى الأول من ديسمبر بدأت الرحلة. كان هناك عمل كثير أمامهم لأن الكابينتين لم تكونا قد سُكنتا منذ أعوام عديدة: تصليح السقوف، أعمال النجارة، التلصيق، التجصيص، التزجيج، ورق الجدران، الصبغ، تبييض الجدران .. ثم كانت هناك أيام عدة لقطع الأخشاب وحملها وتخزينها للشتاء. كان لورنس يصر دائماً على تأدية حصته من العمل حتى وإن كان الأمر ثقيلاً بشكل واضح بالنسبة إليه. كان يعمل بسرور أى عمل ضمن نطاق قدرته الجسدية. ولحسن الحظ كان الهولنديان رياضيين ومعتادين على الأعمال الثقيلة التى رحبا بتأديتها . كانت كل الظروف بدائية، والماء عزيز جداً بحيث لا يمكن حفظ شىء منه للحمام، كان عليهم

دعك أجسادهم فى الثلج أو السفر عشرين ميلاً إلى ينابيع مانبى الساخنة ، فى سيارة الهولنديين (ليزى المخلصة) .



لورنس وفريدا مع بيلز "الكلبة الصغيرة السوداء صاحبة الأنف الغريب بنظرتها اللائمة المتجعِّدة ...
الكلبة الصغيرة الخجول ،
تنوِّه إلى أنها محنوبة
الإنسانية كلها حلوة عندك

أما الطعام فكان من أبسط الأنواع، وعلى الرغم من أن لورنس كان يعد وجبة خاصة، مثل الروست أو نوعاً من حلوى يوركشاير، كما أنه قام بعمل الخبز وكيك ممتاز. فإن فريدا آنذاك أصبحت، طباخة ماهرة، ولكن لورنس لم يكن يتحمل تركها وحيدة فى المطبخ . وقامت برعاية الهولنديين ، خاطت لهما الستائر والشراشف والوسائد وقبعات صوفية. وقد أزاح حضورهما الدائم ثقلا كبيرا عن فريدا.
عاش الهولنديان قريبين جداً من لورنس وفريدا لمدة أربعة أشهر، وبناء على فريدا ، كانت معرفتهما بها وبلورنس الأكثر حميمية من أى شخص آخر، من قبل أو من بعد.. ومع ذلك لن يتذكر الهولنديان أى شجار جاد بين لورنس وفريدا، ماعدا، ربما، حادثة واحدة، عندما حاول لورنس إسقاط سيجارة فريدا من فمها ولم يقدر، وكان على فريدا، بعد ذلك، إخفاء ذخيرتها من السجائر فى – كابينة – الهولنديين . وعندما كتبت إلى إنكلترا مستعلمة الأخبار عن أولادها ، كان مايزال عليها، أن تفعل ذلك سراً .



"يرسم جوتش لى بالقوة صورة وأنا أرتدى قميصى المصنوع من الجلد من فوق "الأوفرول" ، أزرق اللون – لعله لا يتلفها ، ١٩ يناير ١٩٢٣

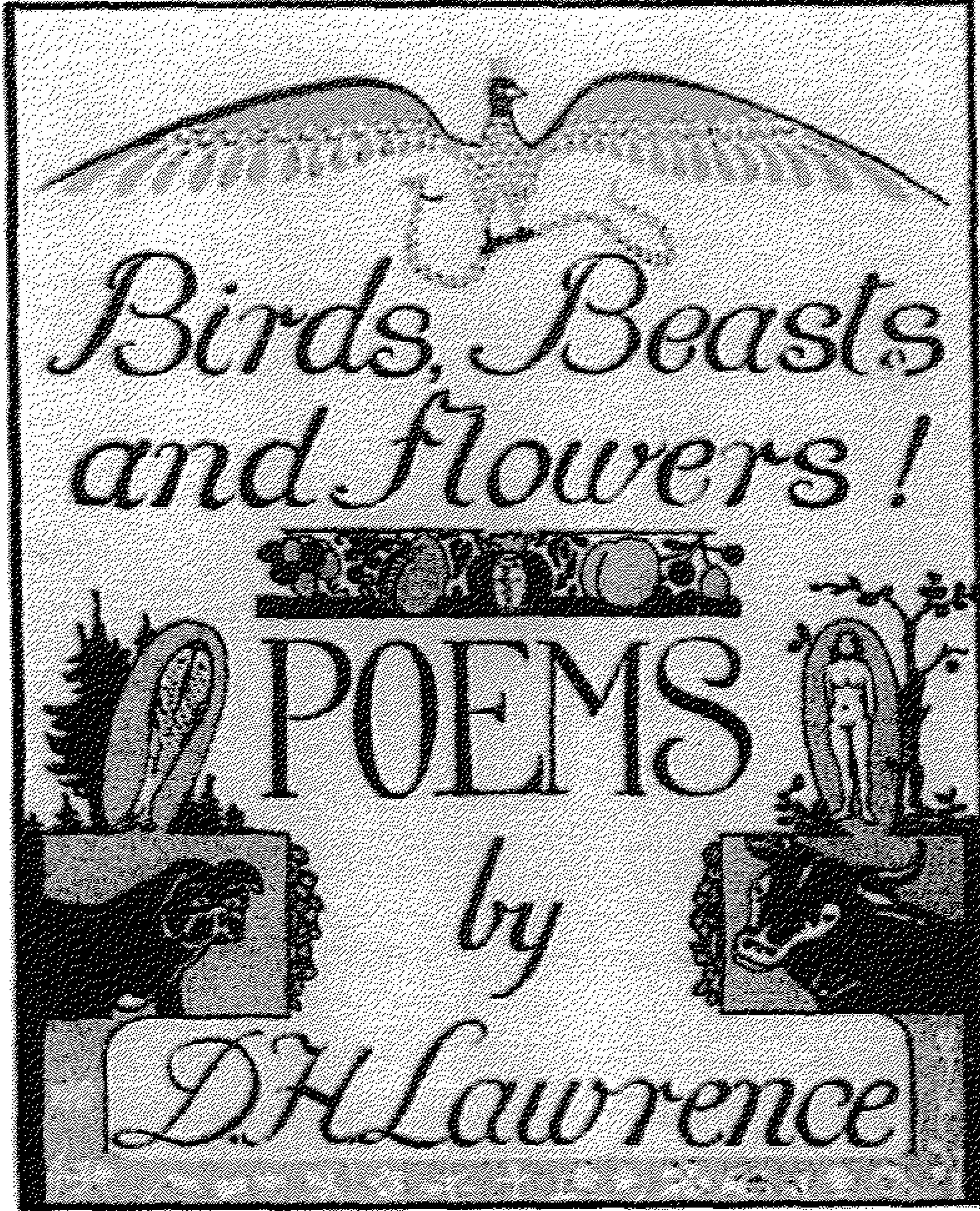
حدثت لحظة من التوتر بين لورنس والهولنديين وذلك عندما غضب لورنس لدى سماعه أن صديقة لهما، وهى فنانة متحررة ومؤلفة موسيقية وهى ميتاليهان، قد جاءت من تاوس إليهما على طريقة إيقاف السيارات لنقلها مجانا، واقترحت تمضية الليل فى كابينتهما. طلب لورنس قذفها إلى الخارج حيث الثلج. الأمر الذى أقلقه، لم يكن متعلقا إلى حد كبير بحقيقة بقائها، قدر تعلقه بالقيل والقال، الذى سينتشر. أكد الهولنديان أن الأمر خاص بهما، وبقيت ميتا.

شجار آخر اندلع تقريبًا، عندما فقد لورنس أعصابه مع أنثى الجرو التى كان يربيها (ببلز) وقام برفسها أمام أعين الهولنديين الغاضبين . كان لورنس ، اعتياديًا، يكره القسوة بكل أشكالها. وهو لم يكن قد امتلك القناعة الثابتة لكى يكون نباتيًا، ولكنه كان يقلق عندما كان الهولنديان يطلقان النار على الأرانب بالقرب من كابينته. كان يقول ، من الأفضل الخروج وقتل بعض الناس – الأمر الذى سيسعده – من أصحاب البنوك، والصناعيين، والمحامين، وصناع الحروب، ومدبرى المكائد، على اختلاف أنواعهم – بدءًا من ميبل.

ولورنس، بعد أن أصبح لديه مستمعون متجانسون مع مزاجه، أخذ يتحدث ساعات طويلة يوميًا مع الهولنديين.

"منذ أن أحس بهذا التجانس مع مستمعيه ، كان يتكلم ويتكلم دون أى اعتبار ذاتى فى كل الأمور، متحدثًا بشكل رائع وبالصراحة التى كان يكتب بها. كان يمتلك هبة عنصر التأثير والتشويق، وكان قادرًا على أن يجعل المرء مهتمًا بكل شيء .. يجلس أحيانًا مكتئبًا، ولكنه، فى الغالب كان مرحًا، بل حتى مازحًا إلى حد الهزل فى بعض الأحيان، مع إمكانه أن يصبح لاذعًا فى أحيان أخرى. كان ينفجر حقدًا شديدًا تجاه عفونة ودجل حضارة اليوم، مجتمعها وأناسها . كان يكره الخداع، محاولة بعض الناس تغيير شخص ما، كى يكون قريب الشبه بهم. لم تكن لديه أية مشاعر اجتماعية أو معنوية أو ثقافية وكان حرًا من أى نوع من سلوك التكبر أو التملق. كانت له نوبات انفجار عاطفية بين كل حين وآخر، ولكنه بصورة عامة، كان هادئًا ، فى الحياة اليومية، رجلاً ذا خلق وشخصية قوية، لا تقاوم تقريبًا ولا يعرف الخوف أبدًا.

قام ميريلد بتصميم أغلفة كتب، (ألعوبة الكابتن) و(قنغر)، و(دراسات فى الأدب الأمريكى) و(طيور ووحوش وزهور)، لكن لورنس كان قادرًا على إقناع سيلتزر لاستعمال التصميم الأول من هذه التصاميم، مع أنه فوّض سيلتزر فى دفع مبالغ عن جميعها، مقتطعة من حقوقه المادية. وضع سيلتزر أغلفة تجارية مروعة غير مناسبة، لنساء عاشقات وقنغر، واستخدم تصميم لورنس نفسه لـ «طيور ووحوش وزهور» ولم يعجب بشكل كتبه التى كان من المتوقع طبعها لدى دار نشر صغيرة، لقد عانى سيلتزر كثيرًا من أجل الدعاية لـ (بحر وساردينيا) وعندما قام جون. س.سومز، من جمعية نيويورك



تصميم الغلاف الذى وضعه لورنس للطبعة التى نشرها سيلتزر من رواية طيور ووحوش وزهور ؛

لقمع الرذيلة، بوضع يده على هذه الكتب الثلاثة، ومن بينها "نساء عاشقات" دخل فى معركة جريئة، وتمت تبرئته تماماً عندما هنأه القاضى جورج، و. سيميسون، على الجرأة الأدبية الرفيعة للكتب الثلاثة ورفض التهمة، وبيعت العناوين الثلاثة بسرعة ونفذت.

كان سيليتزر وزوجته يؤلهان لورنس تقريباً. لم يكن توماس يسمح لزوجته أن تمس رسائل لورنس قبل أن تغسل يديها .. وكانت آديل تعتقد أن فى لورنس كلاً من (شوسر Chaucer وبايرز بلومان وجون بونيان وفيلدنيك وشكسبير وغوته شوبنهاور ونيتشه، مجتمعين فى واحد، محدثين ، ومضافاً إليهم).

سيليتزر ١٨٥ : أمضى سيليتز وزوجته أسبوعاً فى ديل مونتى، ما بين عيد الميلاد، الكريسمس، والعام الجديد واستعاد سيليتزر، بحيوية ، "صوت لورنس، الخفيض والحلو"، وهو يغنى أناشيد عيد الميلاد الإنكليزية. كتب لاحقاً إلى ميريلد:

ميريلد ١٢٥ : اتبعه إلى المطبخ عندما يعد الطعام/ عندما يغسل ويكوى ملابسه الداخلية، عندما يؤدى أعمالاً يومية خفيفة لفريدا، ارقبه عندما يسير معك فى البلدة ، عندما يكون فى صحبة أناس يرتاح إليهم ويحترمهم إلى درجة ما. كم هو طبيعى فى كل حركة ، ومع ذلك كم هو متميز، كم هو مريح كونه طبيعياً، إنه ممتع فى محادثاته وهو غالباً عامل تاثير ملهم وذلك لقدرته غير الاعتيادية على خلق دفقة أو تيار بين نفسه والآخرين.

قرر لورنس أن بإمكانه وضع الثقة فى سيليتزر . وعلى الرغم من أن سيليتزر كان موثوقاً به بوصفه رجلاً ، فإنه لم يكن كذلك بوصفه رجل أعمال. وكان على لورنس أن يرقبه عاجزاً وهو يتدهور نحو الإفلاس فى العامين التاليين، على الرغم من مبيعاته الممتازة للعديد من أعمال لورنس. كان الوقت، بطبيعة الحال، سيئاً بالنسبة لناشرين، ورجال أعمال أفضل من سيليتزر، تهاووا تحت وطأته.

ومن تاوس سافر سيليتزر مباشرة إلى هوليوود للتفاوض بشأن حقوق فيلم عن "نساء عاشقات" عرضت شركة وارنر مبلغ عشرة آلاف دولار، التى كان لورنس سيقبلها بسرور، إلا أن سيليتزر أصر

ميريلد ١٢٦ : على عشرين ألفاً. وأنفق لورنس وفريدا والهولنديين فى خيالهم تلك الثروة المتوقعة برمتها عدة مرات. "كانت إحدى خططهم، شراء سفينة صغيرة تقطع البحار الجنوبية للبحث عن مكان بمقدورهم العيش فيه أبداً، فى الطبيعة، مبتدئين حياة جديدة". وفى تلك المرحلة، كان سيليتزر وصل إلى هوليوود، واهتمام شركة وارنس قد خمد، فغادرها فارغ اليدين.

كان بإمكان لورنس تعزية نفسه بأن عام ١٩٢٢، كان فى الغالب، أكثر أعوامه نجاحاً، حتى ذلك الوقت، من الناحية المالية، إذ بلغ دخله العام من أميركا وحدها مبلغ ٥,٤٣٩,٦٧ دولار.

وعلى الرغم من قساوة الشتاء (درجة الحرارة أقل من ٢٥ فهرنهايت تحت درجة التجمد ليلاً)، فإن الموسم كان أكثر من سعيد بالنسبة للورنس، ربما الأقرب من -الازدهار- يعمل ويركب الخيل، يقوم بنزهات طويلة على القدمين، يتحدث بغير كلفة مع أصدقائه الهولنديين. بدا الأمر، ظاهرياً ، مثاليا، ولكنه مع ذلك كان مايزال يقاوم روح المكان، حتى المشاهد الطبيعية، واصفاً إياها، رائعة وجميلة، ولكنها فارغة وميتة وعدائية . لم يلهمه لا المكان ولا الهنود لكتابة شيء أكثر فى ديل مونتى من بضع قصائد أخرى لمجموعة، طيور ووحوش وزهور، وتحدثت رسائله عن العودة إلى أوربا، عبر غرين لاند، أو تمضية بضعة أشهر فى روسيا.

* * *

من ويلينغتون، مسقط رأس كاثرين مانسفيلد، بعث بطاقة بريد إليها، فى ديسمبر. وكان قد كتب لمارى كانان:

رسائل (٤) ص٣٥٣ : "أرى أن مورى يتفق معى بعض الشيء – يناصرنى"

لابد أن أحداً ما بعث إليه نقد مورى المتحمس ، لـ «عصا آرون»، من صحيفة ، نيشن واثنييوم:

درابر ١٧٧ : قراءة عصا آرون بمنزلة شرب من ينبوع الحياة .. عصا آرون، أهم حدث فى الأدب الإنكليزى منذ الحرب. بالنسبة لتفكيرى، أعتقده أكثر أهمية بكثير من يوليسيس.

فى أواخر ذلك الشهر وبعد انقطاع ثلاثة أعوام، تسلّم لورنس رسالة ودية من مورى وأجاب عنها بودية. رسالة مورى التالية، التى تسلّمها لورنس فى ، ٢ فبراير، أعلمته بوفاة كاثرين مانسفيلد بمرض السل وهى فى الخامسة والثلاثين من العمر، فى مصحة للعلاج فى فاونتنبلو. ولورنس، الآن، الذى كان قد كتب ، أسوأ ما فى نفسه، قبل عامين، إلى كاثرين:

"تجعليننى أثور، أفور ببطء فى دائك".

رسائل (٣) ٤٧٠ : وفى مواساته، أظهر مدى قدرته على أن يكون رقيقًا، حساساً :

"الموتى لا يموتون، إنهم يراقبون ويساعدون".

وفى نفس ذلك اليوم، طلب لورنس من سيليتزر أن يبعث إلى مورى كتابيه عن التحليل النفسى. كان رأى مورى "أن فانتازيا"، كان كتابا رائعًا"، وهو "قمة أعمال لورنس":

مورى ١٠٤ – ٦: البحث عن، أديلفى(*)، حسم قرارى شبه المتشكل. كان هو راغبًا فى "الاندماج ثانية". كان فى نوبة اشمئزاز عنيفة إزاء أميركا "إذن دعه يعود وسنبدأ ثانية". وفى الوقت نفسه، سأهيئ المكان له. سأصدر مجلة جديدة، وأبدأ بطبع الفصول الأساسية من فانتزيا. لقد أبرقنا إليه فى نيومكسيكو، (أنا وكوتيليا نسكى)، وقد وافق على الطبع. لقد بدأت أديلفى . لم أرغب قط ولا أنوى لنفسى، أن أبقى مسئولاً عن التحرير فيها، كنت فى نظر نفسى ، ببساطة، رئيساً مهنيًا، فى غياب لورنس، وقد انتظرت بتوق شديد عودته.

ولكن لورنس لم يكن تواقًا بنفس الدرجة، كى يلعب دور المسيح بالنسبة ليوحنا المعمدان الخاص بمورى. كان يعلم أن مورى أكثر ملاءمة لدور يهوذا. مضافًا إلى ذلك، إحساسه العميق "بعدم الثقة بإنكلترا":

رسائل (٤)٣٩٧ : "وليس لدىّ أيضًا إيمان كبير فى المضاربات الأدبية، على السواء".

فى كل الأحوال، كان قرار لورنس هو الرغبة فى رؤية مكسيك القديمة، وربما يفضل الإقامة فيها ويبدأ فى تكوين مستعمرته، أولاً مع الهولنديين، ثم إضافة صديق أو اثنين فى كل مرة، سيكون لديهم مزرعة صغيرة، ويزرعون الموز، وهكذا ، غادر لورنس برفقة فريدا، إلى مدينة مكسيكو فى منتصف مارس.

(*) أديلفى : اسم مجلة أدبية . (المترجمة)



لورنس فى منزل باميز وهو فى الطريق إلى المكسيك . التقط هذه الصورة ويتر باينر

(١٤)

فردوس فُقِدَ وعُثِر عليه

فى مدينة مكسيكو، وجد لورنس فندقًا إيطاليا صغيراً، بسيطًا يوحى بالألفة ، وهو فندق مونتى كارلو، يتحدثون فيه بالإيطالية ويحتسون شراب جيانتى، ولهذا لم يكن من العجيب أن يجد مكسيكو تشبه جنوب إيطاليا. بعد أسبوع من وصولهما، التحق لورنس مع فريدا بأسرة باينروسبود، وسافروا سويًا لزيارة جميع المتاحف، والكاتدرائيات والمراكز السياحية الأخرى التى تهم السواح.

كان لورنس يعرف القليل عن تاريخ المكسيك، ما قبل كولومبس، ولكنه تعلم بسرعة . كان قد حمل معه رسالة تقديم من د. ليستر إلى عالمة الاجتماع والآثار الإنكليزية الشهيرة، زيليانوتا، التى كانت تعيش فى المدينة. تناول طعام الغداء معها، فى منزلها، ثلاث مرات. أعطته نسخة من كتابها «مبادئ أساسية لحضارات العالم القديم والجديد». الذى وجد فيه صورة الأزتيك، إله مصور من طير وأفعى ، والذى كان يرمز إلى الاتصال التخصيبى بين السماء والأرض (كما فعل هو فى روايته قوس القزح). مضافًا إلى ذلك، وجد فى الكتاب حشدا من الآلهة والرموز المرافقة لها والتى استعمل الكثير منها فى روايته التى أطلق عليها أولا، اسم (كوتزا كوتل)، وفيما بعد أصبحت (الأفعى المريّشة). كما أعارت السيدة نوتال لورنس عدداً من الكتب الأخرى، التى أغرته بالقراءة مثل كتاب برسكوت، غزو المكسيك.

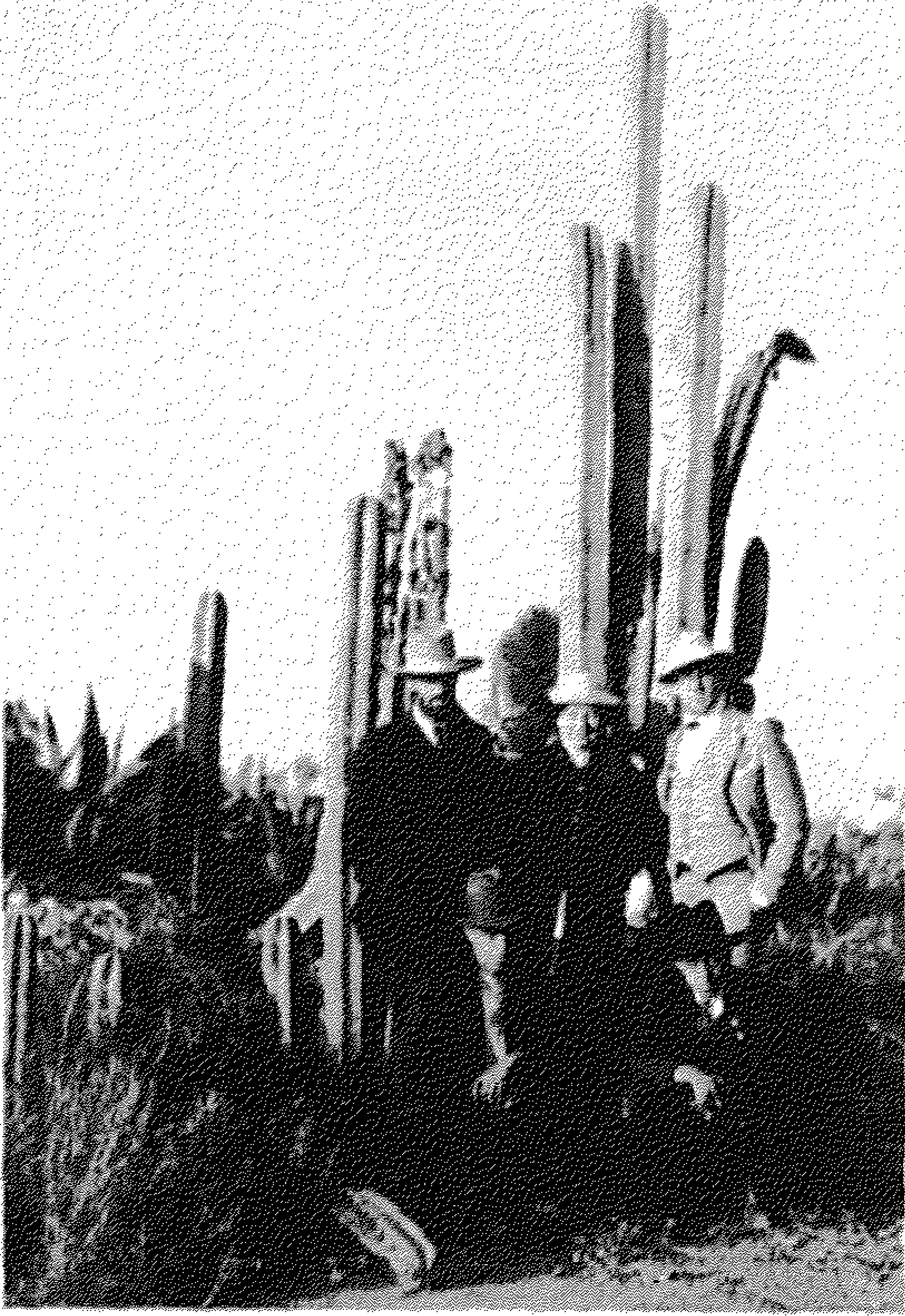
تبتدئ رواية "الأفعى المريّشة"، بتسجيل دقيق لمصارعة للثيران شاهدها مع مجموعته، فى أوائل شهر أبريل. رأى لورنس فى الحال كيف أن كل شيء قد تكوم بشكل خسيس وجدير بازدراء ضد الثور، "الوحيد الذى كان بينهم ذو عقل وقلب"، وطلب مغادرة المكان. أراد بقية أفراد المجموعة البقاء حتى نهاية الجولة الأولى على الأقل، ليشهدوا تمامًا الفعل الذى أدانوه. بقى لورنس ليرى الثور وهو ينتزع أحشاء حصان معصوب العينين، ثم قفز على قدميه مفجراً اشمئزازه، صارخًا بالأسبانية فى الحشد، غادر مضطربًا أشد الاضطراب، تتبعه فريدا. وفى الرواية تغير اسما باينروسبود، إلى أوين وفيليرز .. ولورنس، ومع ذلك، جلس بعد خمسة أشهر ليشهد مصرع ثورين.

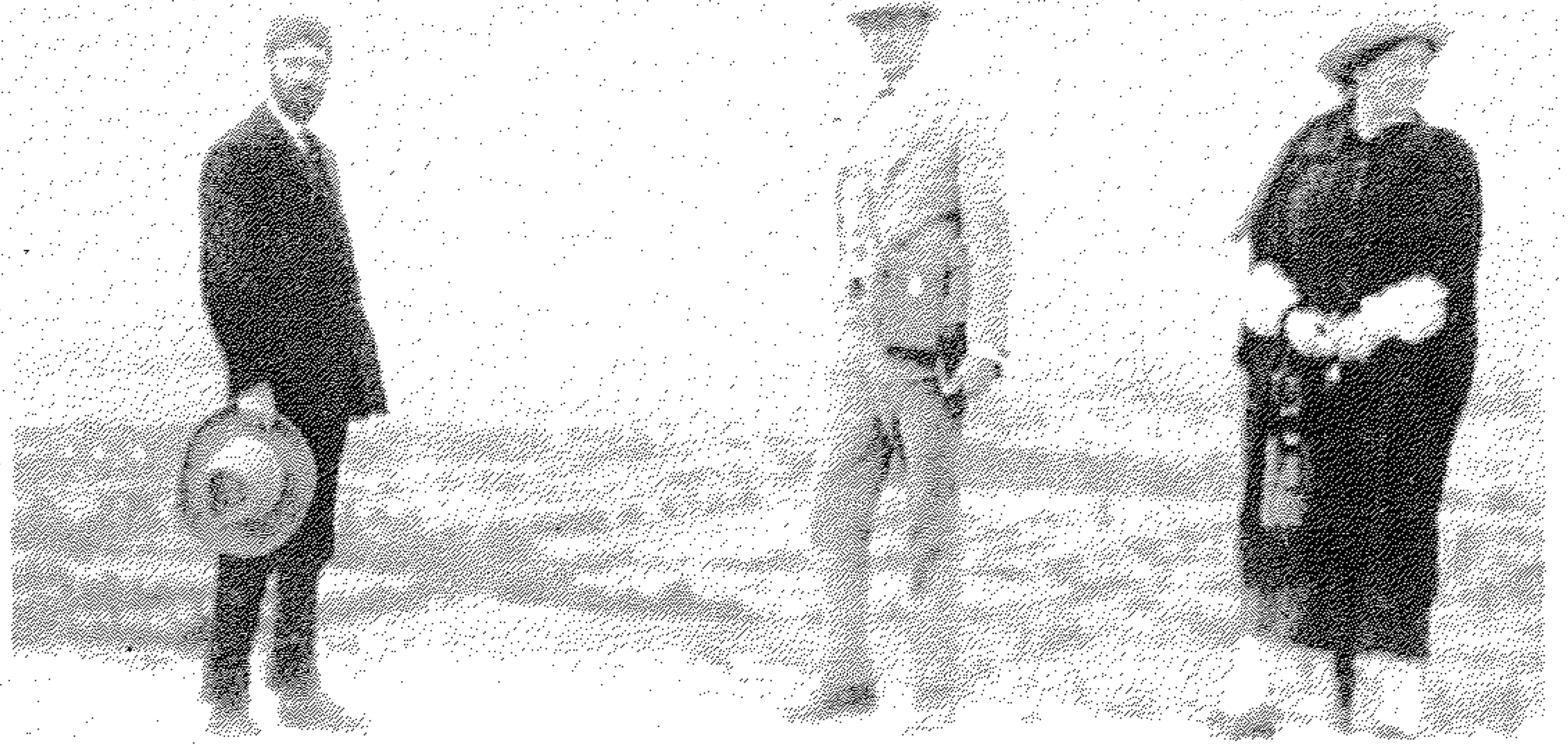
باينر ص٥٠ :

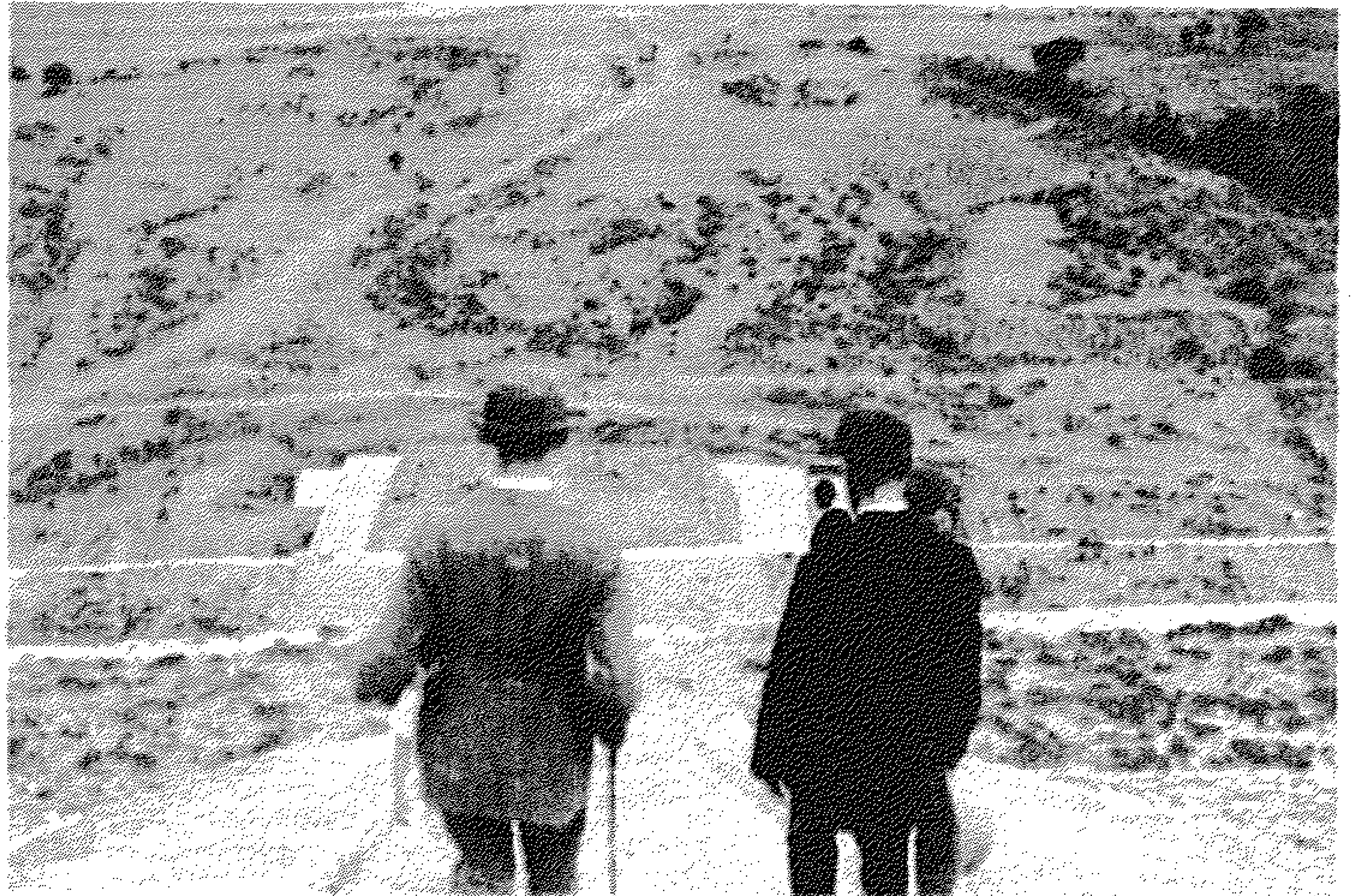
كانا سائحين ذوى امتياز. فبواسطة السفارة الأمريكية، قابلا روبيرتوهابرمان وقريدبيتون، اللذين يتوليان مسئولية تدريس اللغة الإنكليزية فى مدارس مكسيكو - المدينة، وعبرها التقيا بعدد من الفنانين والكتاب وقادة العمل، وكان تعاطف لورنس معهم قليلا، وكان اعتقاده أن الجداريات الجديدة لهؤلاء الفنانين مثل دييغو ريفيرا، كانت رسومات كاريكاتيرية بشعة. وعلى الرغم من ذلك أعرب عن رغبته للالتقاء بـ جوزيه فازكونسيلوز، وزير التعليم، ورتبت دعوة غداء من أجل ذلك، وفى اللحظة الأخيرة استدعى الوزير لاجتماع وزارى عاجل، ودعا المجموعة التى فى الانتظار إلى غداء فى اليوم التالى، لورنس، المعتد بنفسه، الغاضب، رفض حضور الدعوة بحجة المرض. لم يكن هذا الحادث الوحيد الذى أظهر فيه لورنس تصرفًا غير لائق بسبب مزاجه السيّئ، إذ ترك انطباعًا سيئًا لدى العديد من الأشخاص الذين التقاهم فى مدينة مكسكو.



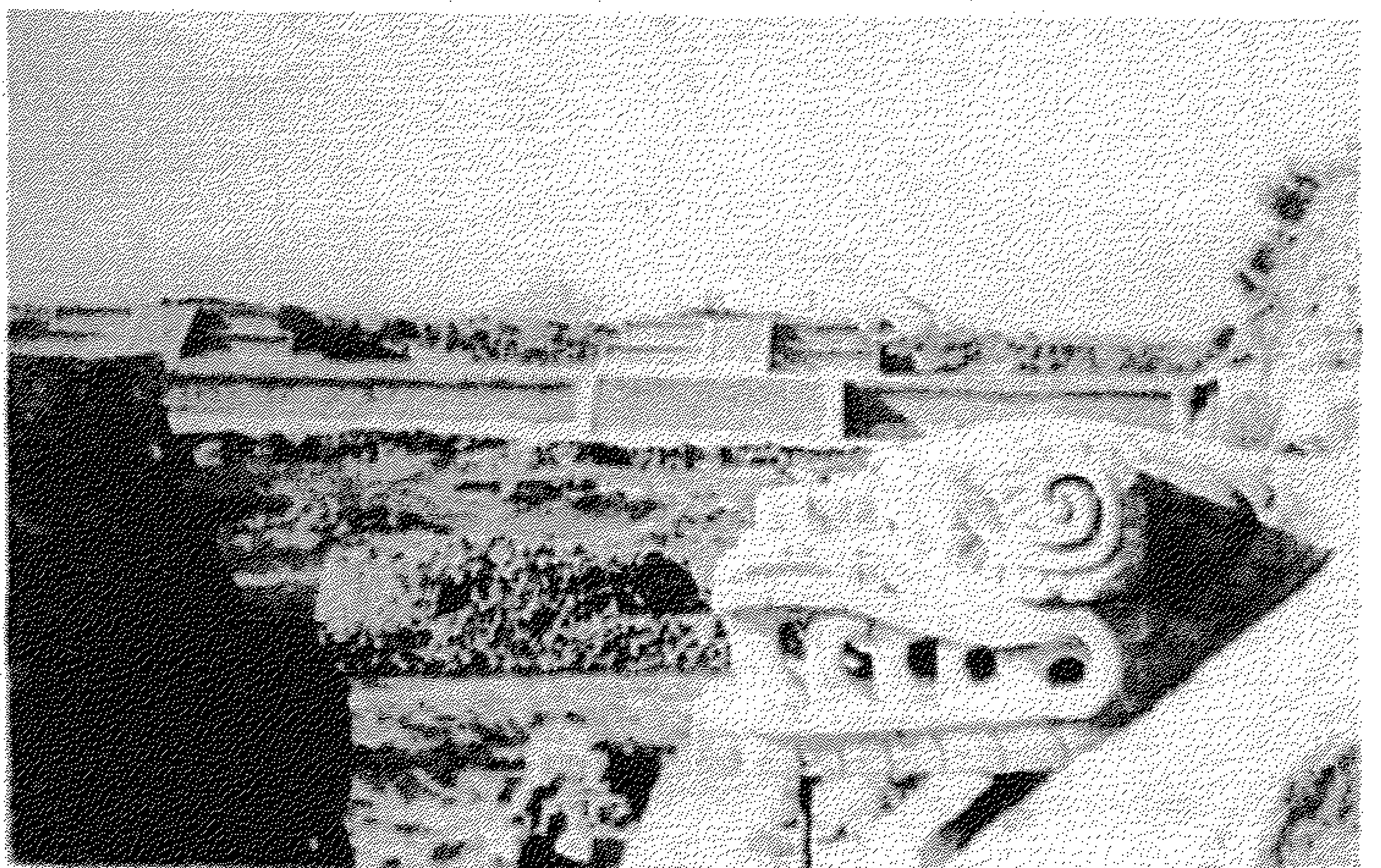
"أليست هذه صورة لطيفة - فى أروقة كاتدرائية كورنافاكا" التقط هذه الصورة ويتر باينر .







في تيوتيهو كان : ١١ ابريل العام ١٩٢٣
"وخارج سان جوان تيوتيهوكان حيث توجد الأهرامات العظيمة الخاصة بالشعب الذى جاء قبل الأزتك ثم اختفى ، طبقا لما قيل لنا - ثم إلى المعبد المسمى بهذا الاسم الذى يقال له : (كويتزال كوتل) - يرى الناظر إلى الجدار ، رءوساً بارزة من سطح حائط الهرم المنخفض."



كان لورنس قد توصل ، آنذاك ، إلى رأى وهو أن فازكو نسيلوز وبقية المكسيكيين الاشتراكيين والمصلحين كانوا (سذجًا) يسيئون بقدر ما يحسنون.

رسائل (٤)٤١٩ : "عمل إجرامى هو تعليم هؤلاء الكادحين ثقافتنا".

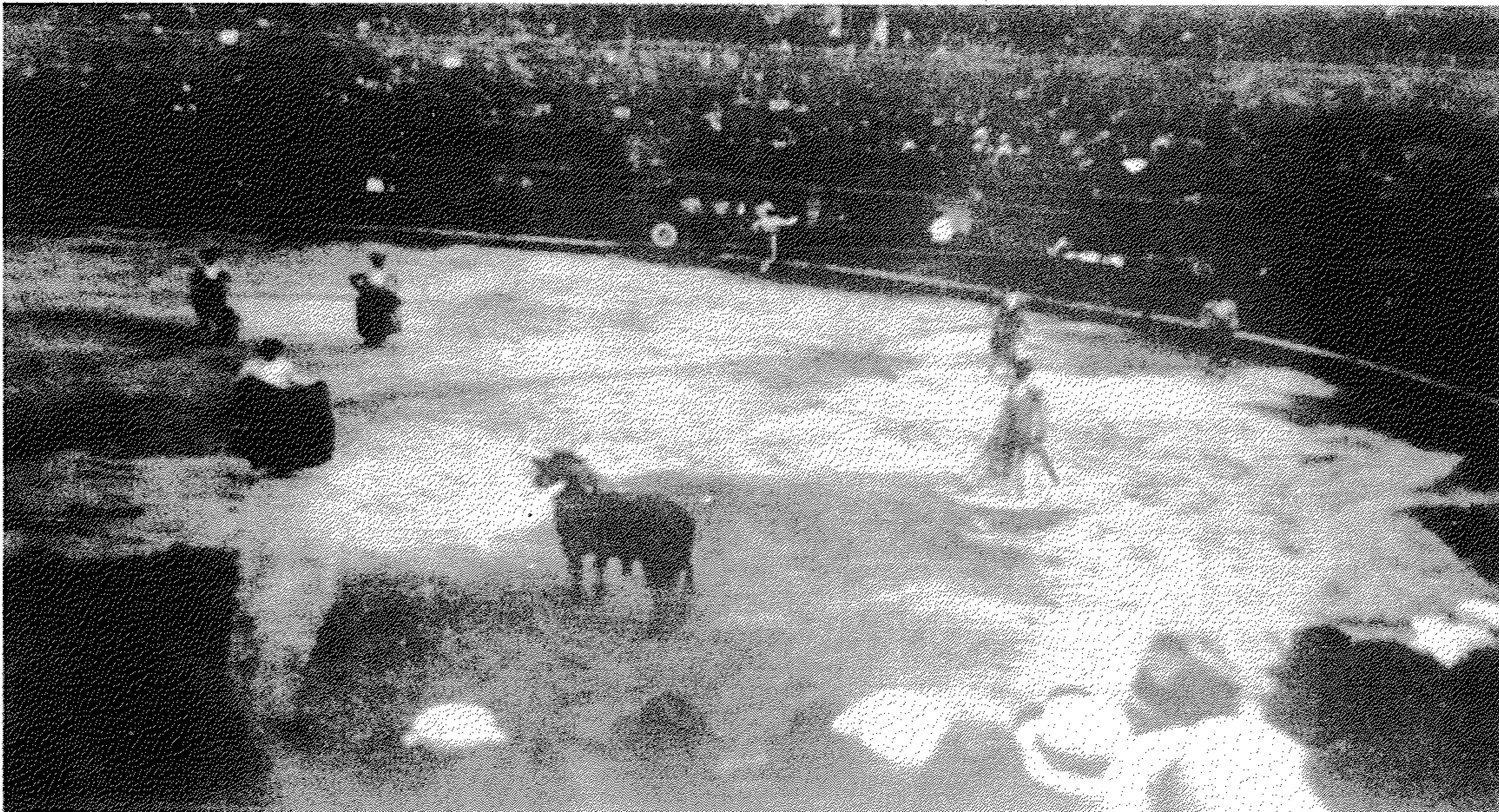
وقد بدت للورنس البنية الفوقية الكاملة لمرحلة ما بعد كولومبس، مجرد غشاء متداع، تقبع تحته الحقائق الأزتيكية وما قبل الأزتيكية، الآلهة الزاحفة ذات المخالب والأنياب، التى ألقى عليها نظرة خاطفة فى تيو تيهوكان. لم يكن الأمر كما فى إيطاليا - "لا شيء من عبادة الأعضاء الجنسية للرجل التى استغرق

فـــــونيكس : فيها السكان القدامى للبحر الأبيض المتوسط".

كان لورنس ممزقًا بين العودة إلى إنكلترا أو البحث عن مسكن خارج مدينة مكسيكو ، حيث يمكنه الاستقرار لكتابة روايته المكسيكية. وكانت رغبة فريدا البقاء، لهذا غادراها إلى بيوبلا فى ١٢ أبريل، تاركين سبود، فى المستشفى الأمركى يعانى من آلام فى الفقرات القطنية . كانت، آنذاك ، قطارات السكة الحديد هدفًا مفضّلاً بالنسبة للمتمردين وقطاع الطرق. وكان هناك حراس مسلحون يرابطون فوقها. وقد توقف القطار لنصف نهار، دون أى تفسير ، مع إسدال الستائر، وعندما واصل سيره أخيرًا، شاهدا عدداً من الجثث بالقرب من الخط الحديدى، وعلى مسافة بضعة أميال، كانت قد دُمرت العديد من المزارع ، فى انتفاضة زاباتا.

لم يتأثر لورنس ببلدة بيوبلو. وفى الوقت الذى وصلا فيه إلى أوريزابا، أصيب بزكام شديد وأحس بوجود الشر فى كل مكان، ولم يرد شيئًا غير العودة إلى إنكلترا. وهو ، حتى ذلك الوقت ، كانت معلوماته قد أصبحت جيدة عن تاريخ المكسيك، وكل مدينة فيها ذكرته بشناعة ما ارتكب فيها ، وكأنما روح المكسيك نفسها تطلبت القسوة والدماء. كانت بلدة "أتليكسو" أفضل حالاً، وأمضيا فيها بضعة أيام سعيدة، مسترخية ، ولكن لورنس لم يرغب فى البقاء. رغب فى "مكان ذى مياه". إنه سيمنح المكسيك فرصة أخرى، وإن لم تكن بحيرة جاباك، محتفظة بالأوصاف التى جاءت فى دليل، تيرى للمكسيك، فإنه سيحجز تذكرة سفر للعودة إلى الوطن. ذهب لورنس وحيداً ليتيقن.

* * *



"شاهدنا مصارعة الثيران هذه - شيء يثير الاشمئزاز" التقط الصورة ويترباينر



نحق فعلا في منزلنا – الجميل – قريب من البحيرة لكنه لا يطل عليها ، ولكنه يطل على حديقتنا الصغيرة !

"جابالا جنّة. استقلّي قطار المساء". هذا ما قالته البرقية لفريدا، في اليوم التالي، وفي الأول من مايو، رافق فريدا كل من سبود وباينر حتى غودا لاجاد، وضعاها في باص متوجه إلى جابالا، وبقيا هناك مع يورنيلز وزوجته. كانت آديلا بونيلز، طالبة سابقة لباينر، محرّرة في مجلّة شعرية صغيرة تسمى (بالمز)، والتي نشرت فيها لاحقًا، عدداً من مقاطع قصائد لورنس، مقابل برطمان من المربى المصنوعة منزليًا. وكان والد آديلا طبيب أسنان. في اليوم التالي كتب لورنس لباينر:

رسـائل (٤) ص٤٣٦ : "جابالا ممتعة جداً – منهل مائي مناسب للراحة، نستطيع أن نغتسل ونحن في المنزل".

ولاحقًا أخبر باينر بأنه المكان المناسب الذي كانا ينتظرانه، بعد بضعة أيام، التحق بهما باينر وسبود. لورنس وباينر، كرها ورفضا أصلا أحدهما الآخر، محتفظين بقشرة الرفقة. اعتقد باينر أن لورنس كان مغروراً، متسيداً، وفي أحيان نزاعًا إلى الشر. كان قد قرأ القليل من لورنس وفهم الأقل. وبدا باينر بالنسبة للورنس غير قادر على "العيش بجدية".

أطلق عليه لقب "مستهتر العالم الغربي"، متعاملاً مع الحياة كخليط مثير للشهية قبل الغذاء. أما

نيـهلز (٢) ص٢٣٩ : بالنسبة لسبود فكان لطيفًا جداً، غير ملتزم، إلى درجة أنه كان من الصعب امتلاك أية مشاعر تجاهه على الإطلاق، أبعد من الإحساس بأنه كان، في الواقع، مهذبًا، أكثر مما يتاح له اجتياز تجربة الحياة، من أن يكون صديقًا حميمًا لباينر. ومع ذلك، فقد أرادهما لورنس ليكونا إلى جانبه، ليس في جابالا فحسب، بل في المنزل. إلا أن باينر، ألح وبتعقل، على المكوث في فندق.



امتدح باينر فريدا، ونصحها بتعطيل نيران لورنس عن طريق البدء بالهجوم عليه، حتى وإن كان ذلك بشكل غير عقلانى، كلما ارتابت أنّه على وشك أن ينقلب ضدها. حاولت فريدا المناورة مع بعض النجاح.

خاف لورنس من أن هدوء جابالا المكسيك، قد يكون مثل خمود بركان. إذ كان قد سمع أقاويل عن محاولة ثأر توشك أن تحدث من قبل العمال الكادحين ضد صاحب العمل وضد الأجانب:

رسائل (٤) ص٤٥٣ : "لدينا رجل مسلّح، ينام فى الشرفة، وعلينا ألا نسير فى القرية خوفًا من التعرض للسرقة أو الاختطاف من قبل قطاع الطرق". ولكن لا شىء يفسد، حتى بالنسبة للورنس، السريع الغضب والعصبى المزاج، ذلك الهدوء الخاص، وفيض من حياة طيور غريبة جدًا فى اللون أو فى الشكل، وروعة جمال الغروب فوق البحيرة.

كانت المجموعة تعمل صباحًا، وتمضى الأمسيات فى الحديث . كان الأمر مثل مشاهد طبيعية توحى بجو من الرضا والطمأنينة. كان أشبه بحلم، كما استعاده سبود لاحقًا:

نيهلز (٢) ص٤٢٠ : وفى خلال ذلك كله ، ومثل مجموعة المنشدين المرافقين لأغنيتنا، كانت هناك دعوات غداء وأعياد ميلاد حميمة وزيارات سارة لأصدقاء من غوادا لاجار، وليال استوائية مقمرة، عندما يعزف على الجيتار وينشد مغّنون جوالون، من الطرف الآخر للبحيرة ، طوال الليل. وأصبحت الرحلات من ضمن عاداتنا اليومية، إلى هذه المدينة أو تلك، بحثًا عن كنيسة قديمة، أو عن احتفال ، أو رقصة هندية قديمة، ترافقها مسرحية أسبانية ، عن حياة قديس ذى معجزات، أو شراء تماثيل لآلهة قدماء أو أوثان تولتية.

أراد لورنس البقاء فى جابالا طوال الوقت الذى تستغرقه كتابة روايته المكسيكية، التى كان قد بدأها توًا، فى نهاية مايو، كان قد انتهى من كتابة عشرة فصول. كان يجلس دائمًا تحت شجرة صفصاف، عند النهر، وعلى ركبته دفتر للتمارين المدرسية، يكتب بسرعة، فى الغالب بحضور عدد من الحمير. ومن مكانه هناك، كان بمقدوره مراقبة تفاصيل الحياة فى جانب من البحيرة، والذى تحول إلى خلفية لروايته:

نيهلز (٢) ص٢٣٦ – ٧: كان هناك فتية صغار، يبيعون نماذج لآلهة من البحيرة ، نساء يغسلن ملابسهن عند حافة الماء ويجففنها على الرمال. كان هناك الصيادون المنعزلون ، ملابسهم مسحوبة حتى الورك، سيقان برونزية تخوض فى المياه، شبكة جيدة تصيد مئات الأسماك الصغيرة: رجال يديرون دفة مراكبهم الجميلة غير المصقولة، حول شبه الجزيرة، رجال ونساء ذاهبون إلى السوق وسلال مصنوعة من ألياف النبات فوق رءوسهم ، عشاق مطمئنون، يتجولون على طول الساحل الذى تعصف به الريح، قطعان من الماعز، أمهات وأطفالهن، وأحيانًا مجموعة من الأولاد المكسيكيين يسبحون عراة، بعيدًا عن الشاطئ.

كان مكانًا تتدفق فيه الكتابة بغزارة ، كما عرفت فريدا:

فريدا ١٥٦ : لورنس لا يستطيع الكتابة إلا حيث يكون لمخيلة المرء مجال للانطلاق حرًا، وحيث لا يكون الباب مغلقا للمستقبل ، حيث رؤيا المرء تجعله آهلاً بنفوس جديدة، على وشك الولادة، الذين سيعيشون حياة جديدة.

والحياة الجديدة التى تخيلها لورنس هناك ، أوجزها فى رسالة إلى والدة زوجته:

رسائل (٤) ص٤٥٢ : ولكن المكسيك ممتعة جدًا . شعب غريب. إنهم فى الغالب . هنود أنقياء، داكنو البشرة مثل شعب السيلان، ولكن بشكل أقوى. للرجال، كما أعتقد، أقوى عمود فقرى فى العالم. إنهم نصف متحضرين، نصف بريين. ولو كان لديهم اعتقاد جديد، فحسب، لكانوا أصبحوا شعبًا جديدًا، جميلاً، متمتعًا بحيوية الشباب. ولكنهم بوصفهم مسيحيين، لن يتقدموا أبعد، إنهم سوداويون، لديهم نزوع إلى الكآبة،

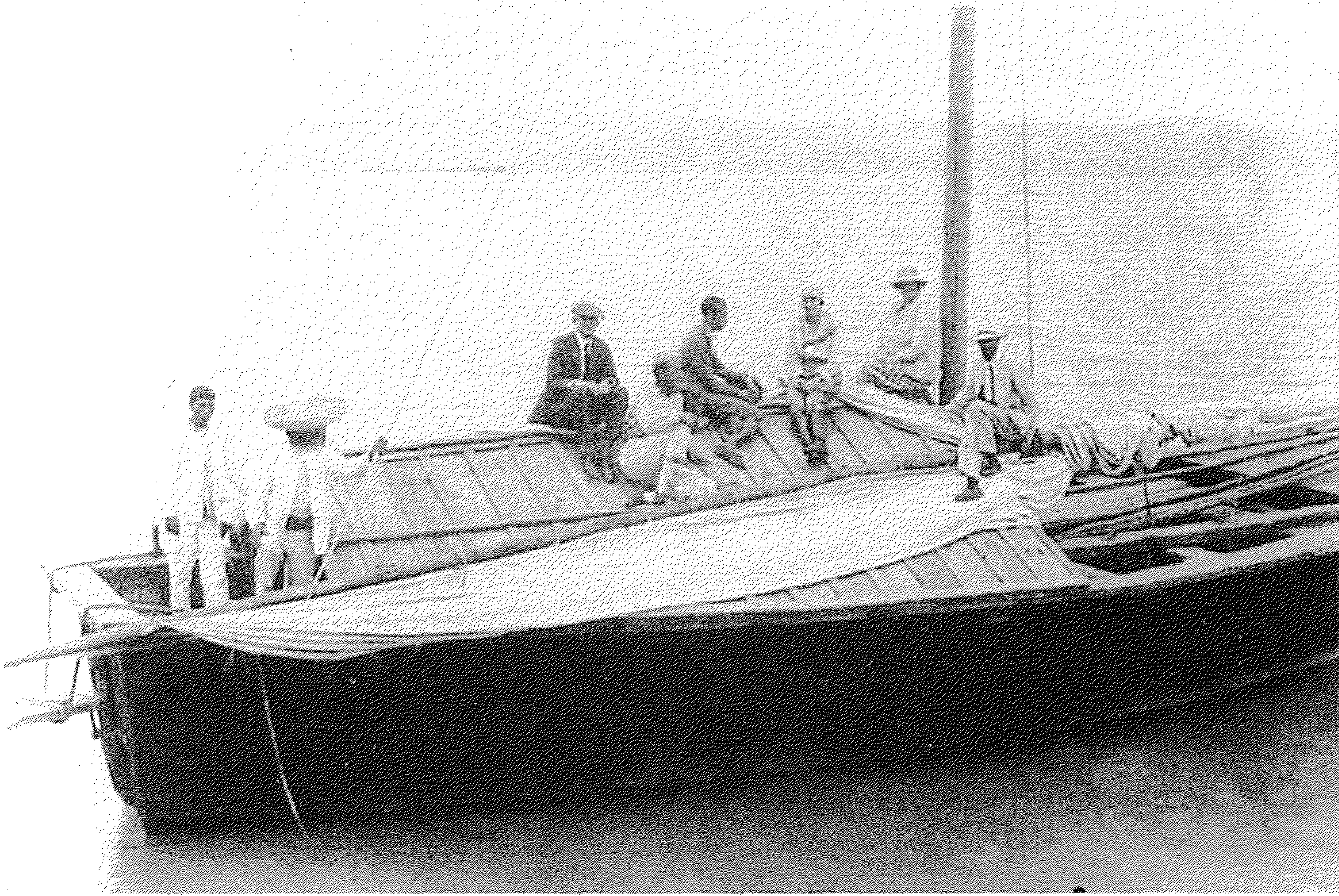
يعيشون بلا أمل، يحزنون فجأة ، ولا يحبون أن يعملوا.

وبطل روايته "دون رامون" يمحو المسيحية ويعطيهم إيمانًا جديدًا، أولاً فى نفسه بوصفه قائداً، أرستقراطيا سوى الروح ، وثانيا فى الآلهة التى يخدمها ، وقبل كل شىء، كويتزال كوتل، الإله التولتى القديم، الخاص بمصالحة الأضداد، الذين وضعوا أسس الثقافة المكسيكية، المتجددة المنبعثة ، كابن مشع للصباح الذى يخطو من مياه بحيرة جابالا، ليخلص شعبه.

فى يونيو حزيران ، خمدت رغبة لورنس المتذبذبة فى العودة إلى إنكلترا، وذلك عندما تسلَّم من مورى ، العدد الأول من مجلة أديلفى:

رسائل (٤) ص٤٦٢ : بدت بالنسبة لى هزيلة جداً ، مريضة بالسكتة ، لا تحوى شيئًا يبرر وجودها. أئن فقير معدم يسرى فيها. ليس ذلك حقًّا ! أهذا أفضل ما يمكن الحصول عليه فى إنكلترا؟.

فى ذلك الوقت ، كانوا قد قرروا التخلى عن المنزل فى نهاية الشهر. فى تحرك أخير، أبحر لورنس مع فريدا عبر البحيرة، إلى أوكوتلان لمعاينة تأجير مزرعة صغيرة . كتب لورنس إلى ميريلد:



الدكتور برونل ، باينر ، سبور، آيدلا ، فريدا ولورنس على ظهر قارب "عبارة عن وعاء بدائى كبير إلى حد ما ، شبيه بالسفن الصينية مسطحة القاع ، وله شراع دائرى ضخم ، (باينر) .



لورنس عند شراع القارب - صورة التقطها - ويتر باينر

رسـائل (٤) ص٤٦٣ : كنا فى رحلة عبر البحيرة مدة يومين بحثًا عن مزرعة . من السهل بالنسبة للمرء الحصول على أرض صغيرة المساحة ، إلا أنهم، فى الوقت الحاضر، يتوقعون المزيد من الثورات. فى الأمر مجازفة كبيرة، مضافا إلى ذلك، لماذا يعمل المرء ويبنى مكانًا ويجعله جميلاً، لا لشىء إلا لكى يدمر. لهذا ، فى الوقت الحاضر، على الأقل ، تخليت عن الفكرة ... لا فائدة منها، أعلم أننى أوربى ، ولهذا السبب قد أعود إلى الوطن لأجرب الأمور مرة أخرى.

لأجل تمضية أسبوعه الأخير فى جابالا، اقترح لورنس دعوة السيد الرئيس – يورنيل، وتأجير مركب صغير للإبحار حول البحيرة (التى كان طولها تسعين ميلاً) عدة أيام. وخلال الليلة الأولى، هبت عاصفة قوية حولت البحيرة إلى بحر هائج تتقاذف فيه الأمواج . هطلت الأمطار كالسيول. بدأ كل واحد منهم يعانى من دوار البحر، وخاصة أيديلا. أصبح باينر مريضًا إلى حد كبير، مما استدعى نقله فى الحال إلى مستشفى فى غودا لاجار، لإجراء عملية له. العناية والاهتمام اللذان لقيهما باينر من لورنس، خلال مرضه، دفعه إلى تغيير فكرته عن شخصية لورنس. وواصل بقية أفراد المجموعة رحلتهم لثلاثة أيام أخرى، دون حوادث مؤسفة ، فى البحيرة المسالمة، وثلاثة أشخاص مكسيكيين يغنون بمصاحبة الجيتار، ولورنس ينشد أغانيه الإنكليزية الشعبية ويستذكر سبود:

نيـهلز (٢) ص٤٢٠ : تحرك مركبنا مع حركة الريح ، واستقر واقفا هادئًا تحت عدد لا يحصى من النجوم، طوال عدة ليالٍ، مندفعًا نحو مرافئ غريبة، قديمة ، حيث اشترينا الفواكه والدجاج والبيض، وكعكًا من دقيق الذرة. كان المركب ينزلق بروعة فوق المويجات الناعمة المتلاطمة إلى الجزر، حيث امتلأ خزان الطعام عندنا بثمار المانجو وحليب الماعز – وحيث يذبح راع أحيانًا ، جديًا من أجل شهيتنا القرصانية. طبخنا معظم الطعام لأنفسنا ، فوق موقد الفحم الذى صنع من علبة نفط.

رحبت بهم إيديلا لدى عودتهم من الرحلة.

كم بدوا مهملين أنفسهم، غير حليقى الذقن، وسعداء! وكم كانوا ممتلئين سعادة بمغامرتهم.

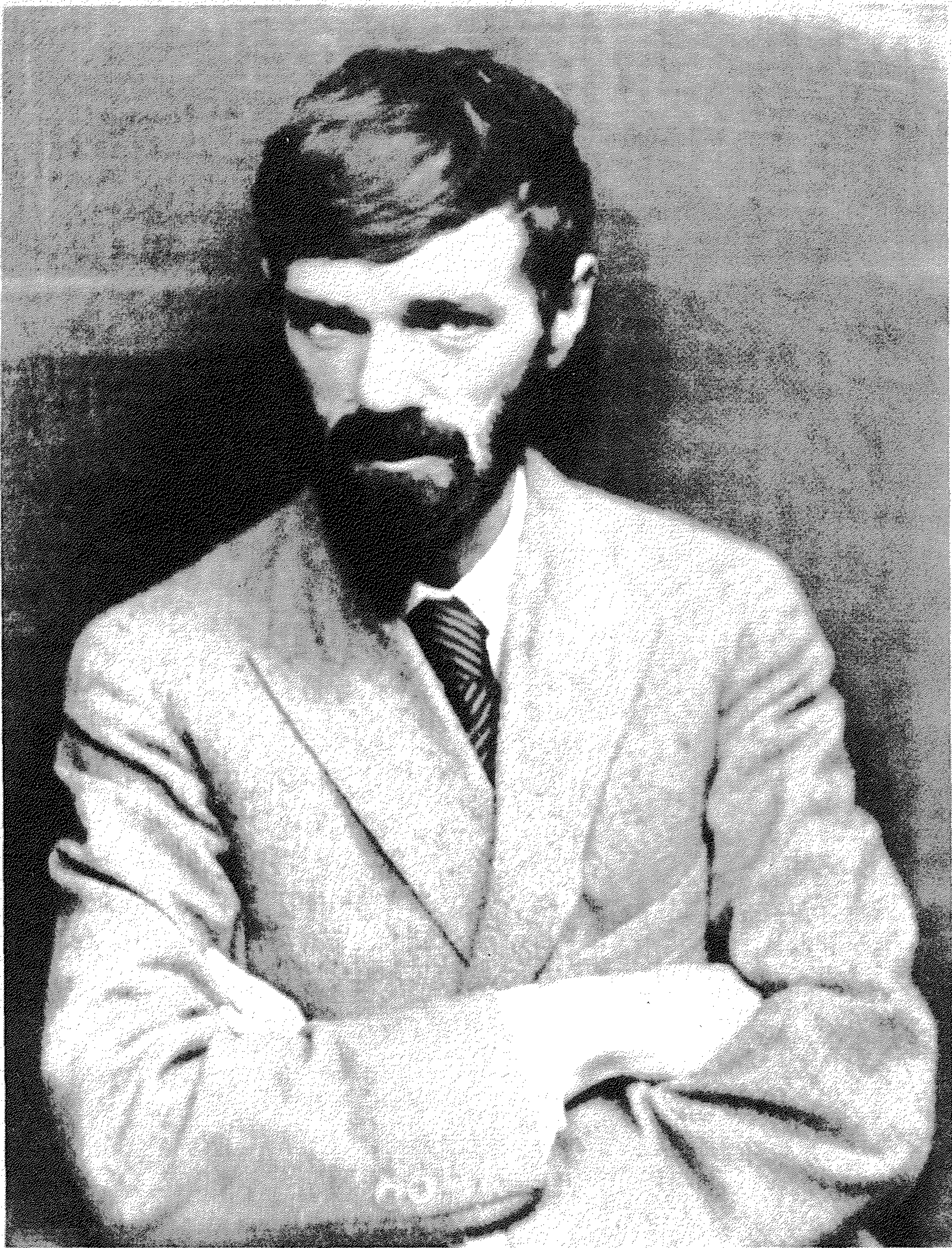
وهكذا وبأسف كبير، غادر لورنس جابالا فى ٩ يوليو:

رسـائل (٤) ص٤٥٨ : لا أريد العودة حقًا إلى أوربا، ولكن فريدا تريد رؤية والدتها، لهذا يتوجب علىَّ الذهاب. إلا أننى أحس أنى لن أمكث طويلاً – ربما حول العالم ثانية، ومحاولة كتابة رواية فى الهند أو الصين: الشرق ، ثم إلى أميركا، وربما أعود ثانية إلى المكسيك. أنا حتى الآن، أعتقد أنى أحب المكسيك أكثر من أى مكان آخر، أن أعيش فى ... أنا حزين لعودتى. ولكنى أعتقد أنه المكان الأفضل فى الوقت الراهن.

وهكذا حاول لورنس ، أن يعزو مسئولية السفر إلى فريدا، ومع ذلك ، مسحت فريدا أنفها، بمنديل كبير قائلة:

"أنا أحب جابالا .. أحب جابالا".

* * *



صورة التقطها نيكولاس موري

استغرقت رحلة العودة من جابالا إلى نيويورك عشرة أيام، عبر لاريدو، سان أنطونيو، نيو أورليانز وواشنطن . كان سيليترز قد استأجر لهما كوخا ريفيا فى نيو جيرسى، و دعا لورنس سيليترز و زوجته للعيش معهما هناك، و عاش الأربعة سويا ، أربعة أشهر، وفى ذلك الكوخ الريفى، صحح لورنس (بروفات) أعماله الثلاثة : قنغر ، طيور ووحوش وزهور، والأستاذ دون جيزوالدو، وكانت عملية التصحيح هذه بمنزلة مباراة فى الصبر والتحمل. ولكن الأمر لم يكن شبيها بـ (ديل مونتى) إذ تعكرت متعة سيليترز وزوجته ببعض المشاحنات الخفيفة التى جرت بين اللورنسين.

وجد لورنس نيويورك مدينة مرهقة و مملة . بدأ يتوق إلى الغرب والجبال والصحراء. وعندما حان موعد حجز تذاكر السفر إلى إنكلترا ، لم يستطع تحمل الأمر:

رسائل (٤) "أجد روحى غير راغبة بالسفر إلى أوربا. الأمر يشبه حمار بلعم، لا أستطيع التقدم مسافة أبعد" .

ص٤٨٠ : وكتب لورنس إلى مورى : "ستذهب فريدا بمفردها لرؤية أولادها ، "أهو خطأ أم لا !" فأنا لا أستطيع تحمل مطاردات أطفال ويلكى". وسيلتحق هو فيما بعد بالهولنديين فى لوس أنجلس. وإلى ميريلد كتب :

رسائل (٤) "قد نرغب بتمضية الشتاء فى بالم سيرنغر أو بين التلال ... أو قد نسافر ثانية إلى مكسيكو. أنا أرغب

ص٤٨١ : فى رؤيتك ورؤية غوتزشا ، والتحدث حول المستقبل وإن لم يكن هناك شيء آخر نقوم به ، فربما نحزم حاجياتنا و نذهب إلى الجبال على ظهور الحمير ، أو قد نجد زورقا ، أو مركبا شراعيا ليأخذنا إلى الجزر ، أنت البحار وأنا الطباخ : إنها مجرد تسميات".

ودع لورنس فريدا فى ١٨ أغسطس . كتب لكل من يراسله أنها ستلحق به فى شهر أكتوبر ، ولكن أفكاراً أخرى كانت تدور فى رأس فريدا :

سيليترز ١٠٥ : أنا سعيدة لكونى وحيدة ولن أعود إليه وإلى مطارداته الدائمة لى . الأمر مهين جدا ! لن أتحمل مزاجه السيئ بعد الآن . وإن لم أره بعد الآن أبدا – كتبت له هذا – فبإمكانه أن ينفجر غضبا. لقد اكتفيت بما نالنى – لقد انتزعت نفسى منه .

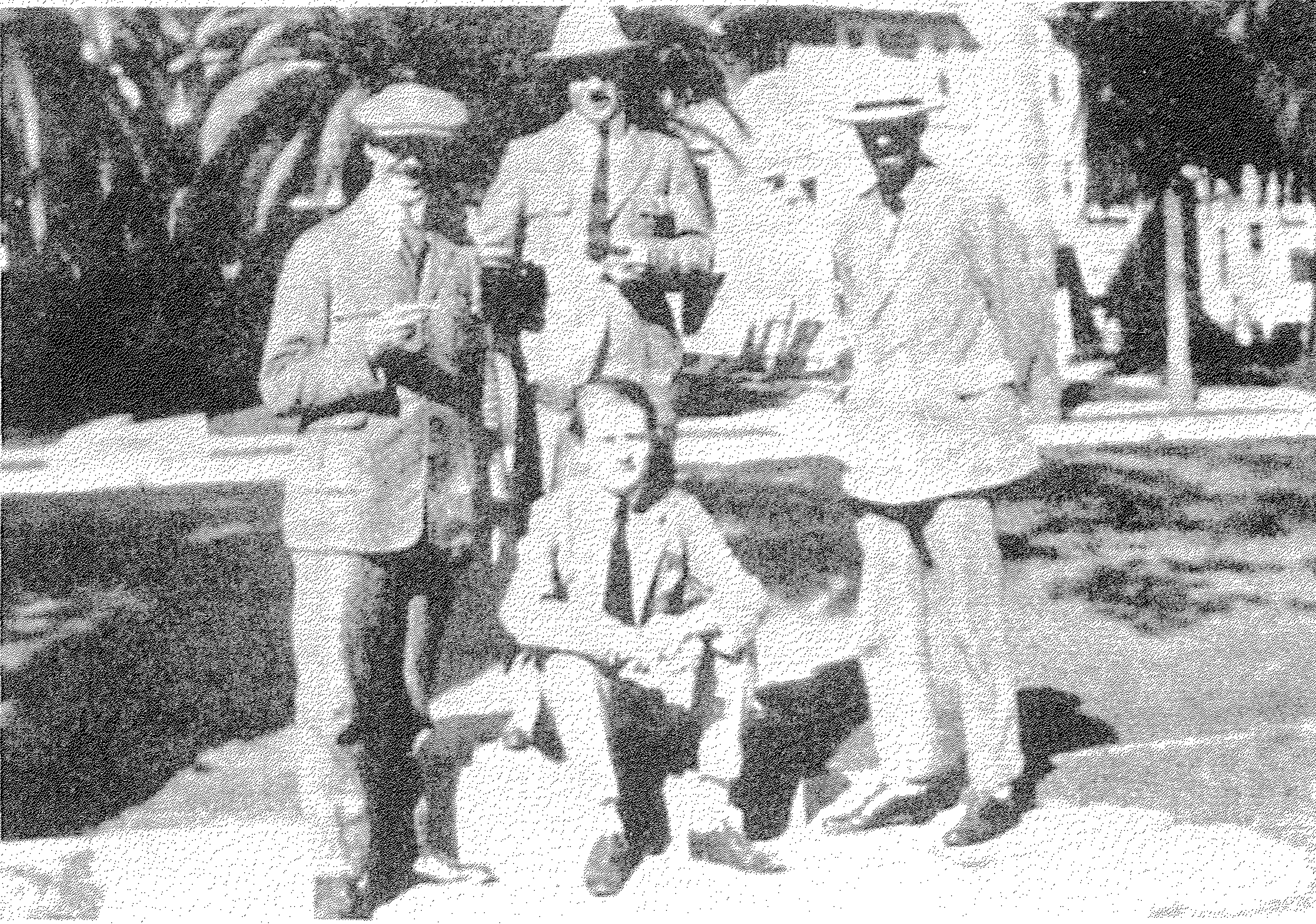
الروح التمردية هذه استمرت حتى وصول فريدا إلى إنكلترا . وحين دعت مورى ، الذى كان لورنس قد أوصاه بالاهتمام بها ، ليكون حبيبها ، أخذها مورى فى رحلة قصيرة إلى أوروبا وهناك أغويت بشدة ، ولكنها تجنبت الخروج من دائرة الإخلاص للورنس .

سافر لورنس غربا . محطته الأولى كانت بفلو ، حيث مكث أربعة أيام ، تناول الغداء مع والدة ميبل وزار النبلاء فيها ، مبديا سلوكه الأمثل :

"المدينة أشبه بمانشستر قبل ستين عاما – أو نوتنغهام – إنها مريحة وفيها نوع لطيف (من الطبقة الوسطى. البورجوازية) .

رسائل (٤) فى ٣٠ أغسطس وصل لورنس لوس أنجلس، على أن يلتقى الهولنديين فى المحطة . فى الطريق كان قد

ص٤٩٢ : انتهى من قراءة مخطوطة رواية مولى سكيز "منزل إيليز" وكتب فى الحال إليها عن عدم وجود أمل فى طباعتها و هى على وضعها الحالى .



كندميرلد ، وكاى جوتش ، وجى ونشل بوترن ، ولورنس فى لوس أنجلس

وأنه سيكون سعيدا لو أنه أعاد صياغتها، إن منحته حرية العمل . بدأ العمل مباشرة ، مغيرا العنوان إلى "ولد فى الأدغال".

على الرغم من النزهات و رحلات بالسيارة، كان لورنس ضجرا ، شاعرا بالوحدة فى لوس أنجلس، وخاصة فى أوقات الصباح، عندما كان على الهولنديين العمل. ذهب إلى رصيف الميناء محاولا العثور على عمل كطباخ على ظهر مركب ما ، والهولنديين كنوتيين، ولكنه لم يحقق نجاحا . وكان الثلاثة، فى كل مساء يبحثون فى مختلف الاحتمالات. كان لورنس يريد العودة إلى مكسيكو والبحث عن مزرعة فيها ، بينما كان ميريلد يجمع النقود من أجل نفقات الرحلة إلى البحار الجنوبية على طريقة الحج الفوغانى.

ومع أن ميريلد كان مؤمنا بلورنس ، فإنه أراد أن يشق طريقه بنفسه دون أن يعتمد فى معيشته عليه . كما أنه لم يعتقد فى إمكانية بقاء لورنس طويلا بدون فريدا ، واعتراضات مثل هذه لم تغير غوتزشا : "أنا محظوظ جدا فى الذهاب مع لورنس إلى مكسيكو ، مهما تكن النتائج ، و أنا على استعداد لإنفاق آخر قطعة نقدية معى" . **ميريلد ٣٢٩ :**

فى ٢٥ سبتمبر ، سافر لورنس وغوتش عبر جنوب المحيط الهادى إلى غويماز، وهناك منح لورنس قطعة أرض مجانا من أجل كيمونته، و لكنه رفضها بسبب قفرها وعزلتها. كان الأمر سيغدو مثل العيش فى المريخ، نافاجوا، لا تعتبر تقدما. و من هناك كتب إلى باينر:

رسائل (٤) ص٥٠٥ – ٦ : هذا الغرب ، أكثر بورا وقفرا وأشد استحالة من جابالا. إنه يجعل المرء يحس وكأن الباب قد أطبق عليه. هنا الشمس المحرقة، السماء العريضة الساخنة، جبال وتلال خضر، بحيرة متوحدة، لا يعيش فيها

البشر. ساحل عريض محرق مع بضع أشجار نخيل، أحيانا، بحر أزرق داكن، كأنه لا ينتمي تماما إلى هذه الأرض، ثم مدن صغيرة تبدو وكأنها تنحدر إلى هاوية، وباب الحياة أغلق على جميع الأشياء، ما عدا أن الشمس تحرق، والطيور تمر عابرة، الزنابير مثل الذباب، أشجار النخيل المتوحدة المنسية، التراب الكثيف للطرقات، حركة الحمير فى سحابة من تراب ذهبى، مناجم فضة منسية فى الجبال. يبدو أن هناك حكما بالانقراض قد كتب عليها جميعا - ففى السوق الصغير المغطى، فى الاموس ، يستلقى بين اللحم والخضراوات ، كلب ميت وكأنه نائم. و قال بائع اللحم لبائع الخضراوات: "من الأفضل أن ترميه إلى الخارج" نظر بائع الخضراوات إلى الكلب الميت و لم يجد سببا فى رميه خارجا. وهو بلا شك ما زال مستلقيا هناك. ولقد ذهبنا إلى مزرعة - مزرعة مواشى: برية، وحشية، غريبة، مخربة تماما). وقد سافر الاثنان بالقطار حتى تيبيك ، ثم بواسطة السيارة ، عبر طرق وعرة مستحيلة و بعدها بواسطة البغال لمدة تسع ساعات ، إلى أكستلان، و ست ساعات أخرى على البغال فى اليوم التالى حتى إيستلاتلان، حيث كان بالإمكان العودة بالقطار إلى غوادالاجار .

رسالة من فريدا كانت بانتظاره هناك :

رسائل (٤) ص٥١٣ : تقول فريدا : إنها تحب إنكلترا الآن ، و هى المكان المناسب لى ، وإنه يتوجب على العودة . ينتابنى العجب .. مكسيكو لها سحر غامض آسر بالنسبة لى ، و كأنما الآلهة كانت هنا، الآن فى أكتوبر هذا، النهارات صافية جدا وممتعة، مثل السحر، وكأن بعض الآلهة السود ما تزال فتية. أود أن أبدأ فى إيجاد مركز صغير - مزرعة - هنا فى هذا المكان، حيث يكون بمقدورنا امتلاك منازل صغيرة من التبن و نعيش حياتنا.

ونفس الدعوة الغامضة أرسلت إلى كارسويل وزوجته وإلى آن بريوستر. كتب لورنس إلى سيليتزر من جابالا:

رسائل (٤) ص٥١٩ : "البحيرة جميلة جدا. مع ذلك فالبحيرة التى عرفتها فقدت - شىء ما قد فقد، و كان الأمر غريبا لى. أعتقد أنى سأذهب قريبا إلى أوروبا ......".

الذى كان قد فقد هو فريدا . لم يستطع تخيل حياة جديدة أو أية حياة من دونها . بدأ يعى، فجأة، الصعوبات العملية لإنشاء مزرعة فى جابالا و التى كان غفل عنها فى السابق.

كتب غوتش إلى ميريلد، "وكما ترى، حتى الخطة بدأت الآن فى الانحلال.

ميريلد ٣٤١ : أنا واثق من أنه سيكون أكثر سعادة، ويعيش سعيدا إن استطاع أن يغادر منزله بضع ساعات فى النهار، ويكون عليه تأدية عمل ما، حلب بقرة أو حرث حقل. أما عن حياته الآن، فهو يكتب فى الصباح ويمضى بقية اليوم متسكعا، يجلس على مقعد، أو يتوجه إلى السوق، يداه فى جيبيه، ربما لشراء بعض الحلوى أو الفواكه أو أى شىء أو يجد فقط طريقا إلى مطبخ، لإعداد طعامنا، فذلك سيشغله ساعات عدة.

العمل القليل الذى كان يفعله هو ما يتعلق بـ(ولد فى الأدغال). كتب لورنس إلى مورى، إنه من المحتمل أن يعود إلى الوطن من أوائل ديسمبر، وسيعمل معه بعض الوقت فى أديلفى. بعد يوم أو يومين وصلته رسالة ثانية من فريدا تقول فيها : إنها لن تعود إلى مكسيكو لأى سبب كان، فى ٢ نوفمبر وصلت برقية من فريدا، من كلمة واحدة، (تعال)، وكانت فريدا قد استمتعت بوقت رائع مع أولادها، ولكنها أدركت أنهم لم يعودوا فى حاجة إليها. كانت قد أَحَسَّت بميل شديد نحو مورى، وتصورت أن مورى وكوت

يحملان لورنس إلى (احتفال لتكريمه). مع اقتراب الشهر، كان أكمل، (الولد فى الأدغال) أراد إعادة كتابة كويتزال كوتل، إلا أن ذلك العمل كان قابلا للانتظار لم يعد هناك ما يبقيه .

رســــائل (٤) ص٥٢٨ : فريدا وكل إنسان آخر يلح عليَّ بالعودة إلى إنكلترا. سأستسلم أنا مرة أخرى فى مقاومتى الطويلة، ربما سأذهب إلى إنكلترا أخيرا، وأستقر فيها، ولكننى لن أبقى طويلا، زمنا قصيرا فقط وسأعود، بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى هذه الجهة، مكسيكو.

وهكذا وبأسى كبير، وظنون عميقة تساوره، غادر لورنس فى ٢٢ نوفمبر فيرا كروز إلى إنكلترا.

(١٥)

انبعاث

مـــــورى (١) استقبل لورنس، فى واترلو، من قبل فريدا وموري وكوت. تذكر موري ذلك قائلا: إن لورنس

ص١١٠ : "بدا مريضا بشكل أكيد":

كان لوجهه شحوب غير طبيعي. أولى الكلمات التى تفوه بها كانت "لا أستطيع تحمل ما أنا فيه. بدا، وأعتقد أنه شعر، كأن حلما مروعا أخذ يراوده ثانية. كل ما كان عليه اقتراحه هو أن على أديلفى (المجلة) مهاجمة كل شيء، كل شيء، وأن تتفجر غضبا فى شجبها للأمور.

لم ترتفع معنويات لورنس، بإدراكه في الحال وهو على رصيف المحطة، أن العلاقة بين فريدا وموري قد أصبحت أكثر (حميمية) من قبل وفى ذلك الوقت أدرك أن عودته كانت خطأ.

رســـــائل (٤) أنا هنا، أشمئز من لندن - أكره إنكلترا - أحس أنى فى مصيدة، كل شيء يبدو ميتا تماما، مظلما

ص٥٤٢-٣ : ومدفونا - مدفونا بشكل كامل، أريد العودة إلى الغرب - تبدو تاوس جنة بالمقارنة، حتى وإن كانت مكسيكو غير مناسبة فى هذا الوقت. أمر جيد أن أرى فريدا من جديد، ولكن حينذاك بمقدورى أخذها معى إلى خارج هذا الحمام البارد.

إلهى، أخرجنى من هنا، هكذا صرخ فى رسالته التالية إلى سيليتزر بعد ثلاثة أيام.

على الرغم من مقالات موري الافتتاحية الرديئة، فإن أديلفى قد أصبحت أكثر نجاحا من جرأة موري على التخيل. أما بصدد نصرته للورنس فهو بالتأكيد نشر شيئا عنه فى كل عدد من المجلة ولكن روحها من جهة أخرى، كانت تعكس بشكل واضح، النفس الضعيفة الصفراء لموري، والغريبة تماما عن لورنس.

اقترح لورنس البقاء أربعة أشهر وتولى مسئولية التحرير للمجلة. رفض موري الاقتراح معتقدا أنه سيدمرها فحسب، وأنه لن يسمح بتدميرها أداة نافعة تماما لذاته.

حجز لورنس غرفة خاصة فى الكافيه رويال، لحفل ضم مجموعة من أصدقائه الشخصيين كان ضيوفه: موري، كوت غيرتلر، كارسويل وزوجته، ماري كانان دروثي بريت. جرى فى الحفل احتساء الكثير من الخمور، أكثر مما اعتاد عليه كل واحد منهم. أعلن كوت فى إعلان عاطفى عن إعجابه بلورنس، قوطع بتكسير عدد من الأقداح، ثم تحدث لورنس قائلا: إنه قد جمعهم فى ذلك الحفل لسؤالهم، الواحد تلو الآخر، عن إمكانية الذهاب معه إلى نيومكسيكو، وبدء حياة جديدة. استعادت كاثرين كارسويل ردودهم.

كارسويل ٢١١ : كانت مارى كانان الوحيدة من بينهم التى "أجابت بالنفى صراحة على سؤال لورنس. قالت بقوة : (لا)، أنا أميل إليك، ولكن ليس إلى تلك الدرجة، وأنا أعتقد أنك تسأل أمرا لا يملك أى إنسان الحق فى توجيهه لآخر". تقبل لورنس الإجابة دون اعتراض أو استياء. كان جوابا صادقا، واضحا، وثابتا. لم أعد أتذكر ما قاله غيرتلر ولكنه كان، حسبما أعتقد إيجابيا جافا فكها، وأدركنا جميعًا من خلاله أنه لا يعنى شيئا. كوت ودونالد قالا : كإنهما سيذهبا بجفاف أقل ولكن بشكل أدرك منه السامعون أنهما يتحدثان بِنِيَّة طيبة، ولكن بدون هدف جاد. دروثى بريت قالت بهدوء إنها ستذهب، وأنا مدركة أنها ستفعل وقد حسدتها، وعبّر مورى بانفعال عاطفى أنه سيذهب، ولكن بطريقة تجعل المرء يحس أنه لن يذهب. أنا قلت: نعم سأذهب، وكنت أعنيها، على الرغم من عدم معرفتى كيف يمكن تحقيق الأمر ولمدة طويلة من الزمن، كنت خلافا لمارى ودروثى بريت، لا أمتلك مالا ولا تحررا من المسئوليات.

قبّل مورى لورنس الذى قال له: "لا تغرر بى!". أجابه مورى: لورنزو، أنا أحبك، ولكنى لا أعد بعدم التغرير بك، بعد قليل سقط لورنس أمامًا، وهو يتقيأ ثم فقد الوعى وتم نقله إلى منزله.

وفى يوم عيد الميلاد، وفى منزل بريت قام لورنس بطبخ إوزة محشوة للغداء وفيما بعد، ما بين الأغنيات، أعاد كل من مورى وكوت إلحاحهما عليه بعدم مغادرة إنكلترا وعندما ذهب الجميع لمشاهدة ·العربة المغطاة)، وظهر عدد من الهنود الحقيقيين على المسرح تنهد لورنس بعمق، لم يحس من قبل مثل هذه العواطف تجاههم: كانوا من عالمه.

فى عشية رأس السنة، كتب لورنس إلى سيليتزر عن نيته فى السفر إلى أميركا فى أوائل الربيع:

رسائل (٤) ص٥٤٩–٥٥٠ : يتحدث مورى عن المجىء معنا، يريد هو أيضا تغيير عاداته. الفكرة هى أننا لو تمكنّا من نشر أديلفى فى أميركا، بعد ستة أشهر أو سنة، وطبعها هناك، واكتساب المزيد من المساهمين الأمريكيين، على أن نحتفظ بها، مجلة "عالمية" ما على المرء إلا المحاولة – دروثى بريت، صديقة قديمة، تريد المجىء أيضا – إنها صماء – وترسم صورا – وهى ابنة الفايكونت إيشر. إلا أنه اعترف لميبل قائلا:

رسائل (٤) ص٥٥٣ : مورى يبدو ظاهرا راغبا فى المجىء، ولكننى لا أثق به تمامًا. لا أستطيع الاعتماد عليه أبدا.

عدم ثقة لورنس كان لها أساس من الصحة. إذ كان مورى، آنذاك قد قرر بتعقل أنه لو كان ذاهبا مع لورنس وفريدا، أو مع مجموعة أكبر، فإنه لن ينسجم مع بريت. كان توًا قد خلص نفسه من علاقة معها. ومع ذلك لم يخبر لورنس بالأمر، بل إنه أثار معه مسألة الملابس الجديدة التى عليه شراؤها من أجل تاوس.



والد لورنس بعد التقاعد فى رايبلى - "قال لورنس : إنه جاء ليفهم والده ويحترمه أكثر مما حدث عندما كتب روايته أبناء وعشاق، حزن الرجل للصورة المعادية - كان والده قطعة من إنجلترا السعيدة الماضية التى ولّت .(ديز دافيز) .

احتفل لورنس بالعام الجديد مع أسرته فى ميدلاند ورأى والده للمرة الأخيرة. أحس هنالك أن يد الماضى الهامدة هى أيضا ندية.

من هناك ذهب لورنس إلى شروبشاير لزيارة فريدريك كارتر، قام الاثنان باجتياز التلال الحدودية سيرا على الأقدام، وهما يناقشان أنواع العطايا التنينية، ولورنس يبدى غضبه تجاه سان جون السامى، لسبه رموز الحياة الكبيرة وكان فى جولته تلك يدخر انطباعات عن تلك المنطقة لاستخدامها فى قصته "سانت مور" التى كتبها بعد عدة أشهر:

فى ٢٣ يناير كان اللورنسان قد فقدا الإحساس بلندن فغادراها إلى باريس وبادن بادن، وجد لورنس باريس، "عديمة الحيوية بشكل مقبول".. فى ألمانيا أحس :بالاتقاد القديم يعود إليه"، ورحب به خائفا فى رسالة من ألمانيا إلى مجلة نيوستيتمان، تنبأ بأتيلا آخر، انتظرت المجلة عشرة أعوام حتى تنشر تلك المقالة الأدبية. وفى ذلك الوقت كانت كل توقعاته قد تحققت.

عاد اللورنسان إلى لندن فى نهاية فبراير، وخلال أسبوع حجزا على أكويتانيا، المتوجهة نحو نيويورك آخذين معهما دورثى بريت، وكانَ من المتوقع التحاق مورى بهما فى غضون بضعة أسابيع، ولكنه كتب يقول "إنه يفضل بدلا من مطاردة إوزة برية فى قارات أخرى، البقاء فى الوطن والزواج من مارى فايوليت لامسيتر، المساهمة فى مجلة أديلفى والبالغة من العمر ثلاثًا وعشرين سنة، والتى كرس مورى نفسه لتحويلها إلى نسخة مطابقة لكاثرين مانسفيلد، فى عملية تمت بشكل تام جدا، بحيث إن فايوليت أصيبت بسل مميت فى أقل من عامين.

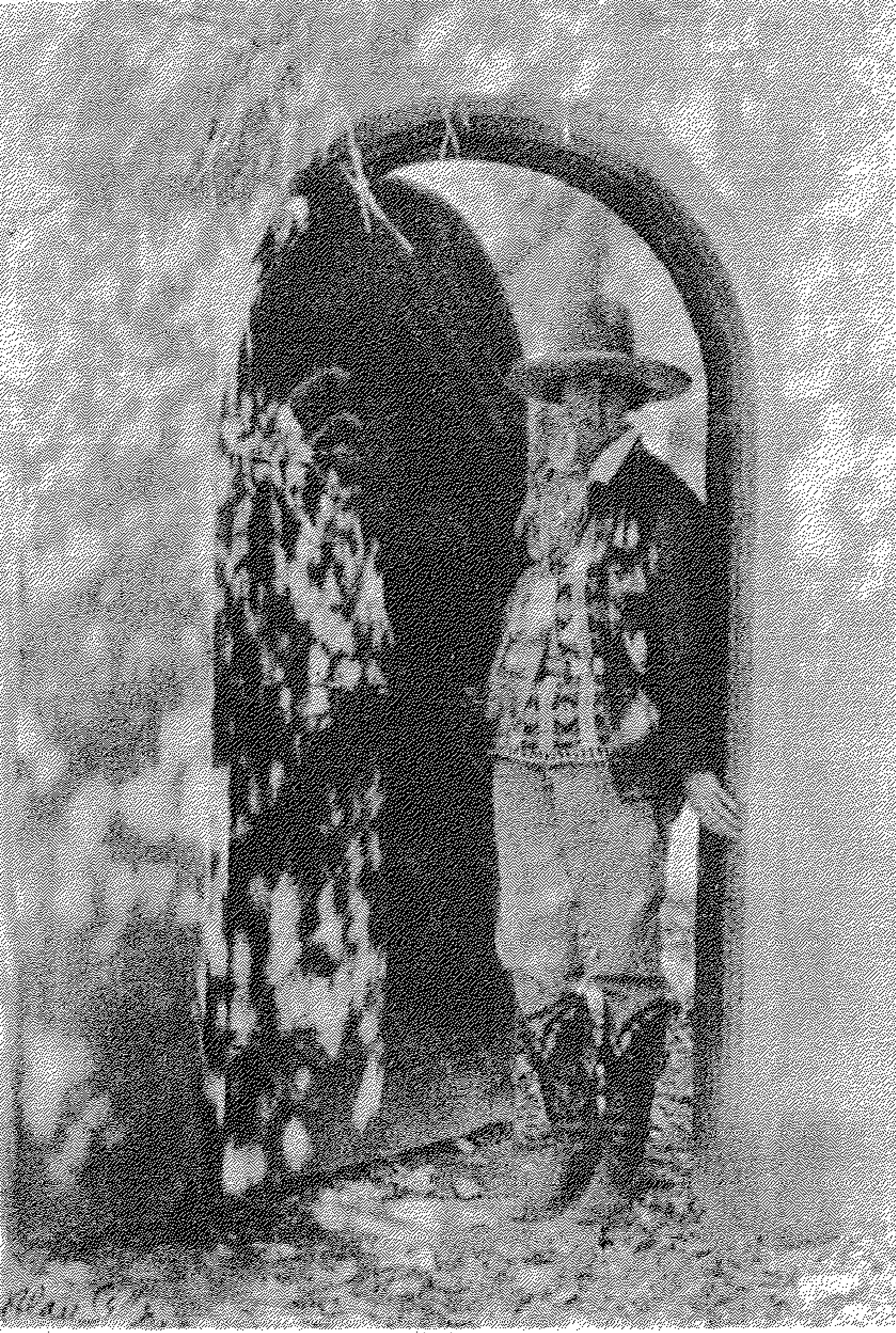
* * *

خلال فترة غياب لورنس عن تاوس، حصل صلح جزئى مع ميبل التى ادَّعت توصلها إلى صلح مع نفسها، وبالفعل بدت أكثر تعقلا بالنسبة للورنس، عندما استقر مع فريدا لديها لدى عودتهما. ومؤشراً على صداقتهما المتجددة منحت ميبل فريدا مزرعة «القلب الطائر» التى كانوا سيعيشون فيها جميعا، لولا غيرة ميبل من الهولنديين ردت فريدا المجاملة بمنح ميبل مخطوطة رواية «أبناء وعشاق» التى كانت أغلى بكثير من المزرعة واستخدمتها ميبل لاحقا فى دفع أجور طبيبها النفسى.

مضى شهر أبريل فى كسل وتراخ فى تاوس، ركوب الخيل إلى الينابيع الساخنة زيارة رقصات سانت دومنغو، لعب الـ ماه جونغ والشاراد فى الأمسيات. أراحت تاوس لورنس: المساحات الكبيرة ورائحة أغصان نبات القصعين وأصوات الطبول الهندية. كانت بريت "سعيدة جدا" وهى على ظهر الحصان، امتطته مثل امرأة مسترجلة مع قبعة راعى البقر ولكن عندما كان لورنس وبريت يركبان الخيل أو يرسمان معا، كانت ميبل تحس أنها مهملة وتعبر عن كراهيتها لبريت ومنعت نافخ البوق المعدنى الكبير الخاص ببريت من المحادثة ولكن فريدا قالت : إن بريت لا يهمها الأمر.



الصورة التى رسمها اورنس لراقصات الحصاد فى سانتو دومنجو بويبلو، فى شهر إبريل من العام ١٩٢٤ .
"تستطيع أن تعى صلصلة الأجراس المعلقة فى أرجل الراقصات.. تستطيع أن تعى أيضًا صوت خشخشة الحبوب الناجم عن وجودها داخل حبات قرع القلل، عندما تغير الراقصات أوضاعهن، وتستطيع أيضًا أن تعى تمايل مجموعات الأغصان الصنوبرية الخضراء المثبتة خلف أذرع الرجال الذين يرقصون. وهنا تأتيك بالتدريج الصلابة السوداء الراسخة للراقصات، اللاتى يتخذن وضعا شبيها بالخيال الصلد، امرأة خلف كل رجل من الرجال الذين يتمايلون ويقفزون، شعر النساء الأسود الحريرى الطويل متهدلا على ظهورهن، وكذلك شعر الرجال، اللامع المنساب على أكتاف عريضة عارية تجمع بين اللونين البرتقالى والبنى وتستطيع أن تعى أيضاً وجوه نساء بدينات إلى حدما، وجوه تجمع بين اللونين الذهبى والبنى، وعيون كسيرة، ومزينة من أعلى بأقراص خضراء، مثل الأكاليل. تحس شيئًا غريبًا ونبيلا عن تلكم النساء الحافيات ميتات الإحساس وهن يرتدين ثياب الكهانة السوداء، وهن يرقصن ولكن بتحركات جد نادرة، ولكن فى توافق إيقاعى، وهن يتمايلن وفى أيديهن حزم أغصان الصنوبر، التى يحركنها على إيقاع الطبل (رقصة اسنبات الذرة).





لورنس وفريدا بصحبة كانديدو، ترينداد، ومعهم نجار مكسيكى.

"أحدث صور بريت – أليست عصرية" ؟

"بصحبة ثلاثة هنور ونجار مكسيكى استطعنا بناء كابينه مكونة من ثلاث غرف – ومنزل صغير جميل جداً – وصلحنا طوبا نيئًا للمدخنة... أعنى خلال الاسابيع القادمة، الانتهاء من المنازل كلها، وإنهاء الأسقف وكل شىء ... وأنا لا أكتب عادة عندما أكون مشغولاً ببناء المنزل – ذراعاى أحس بهما ثقيلين، على الرغم من أنهما يبدوان نحيفين.

عند قدوم الربيع، كان الوقت قد أزف للانتقال إلى المزرعة وإعدادها للسكن. غير لورنس اسمها إلى لوبو، وهو اسم الجبل، وفى ٢٥ مايو انتقلوا إلى المزرعة، وبعد أسبوعين، كتب لورنس إلى آل سيليتزر:

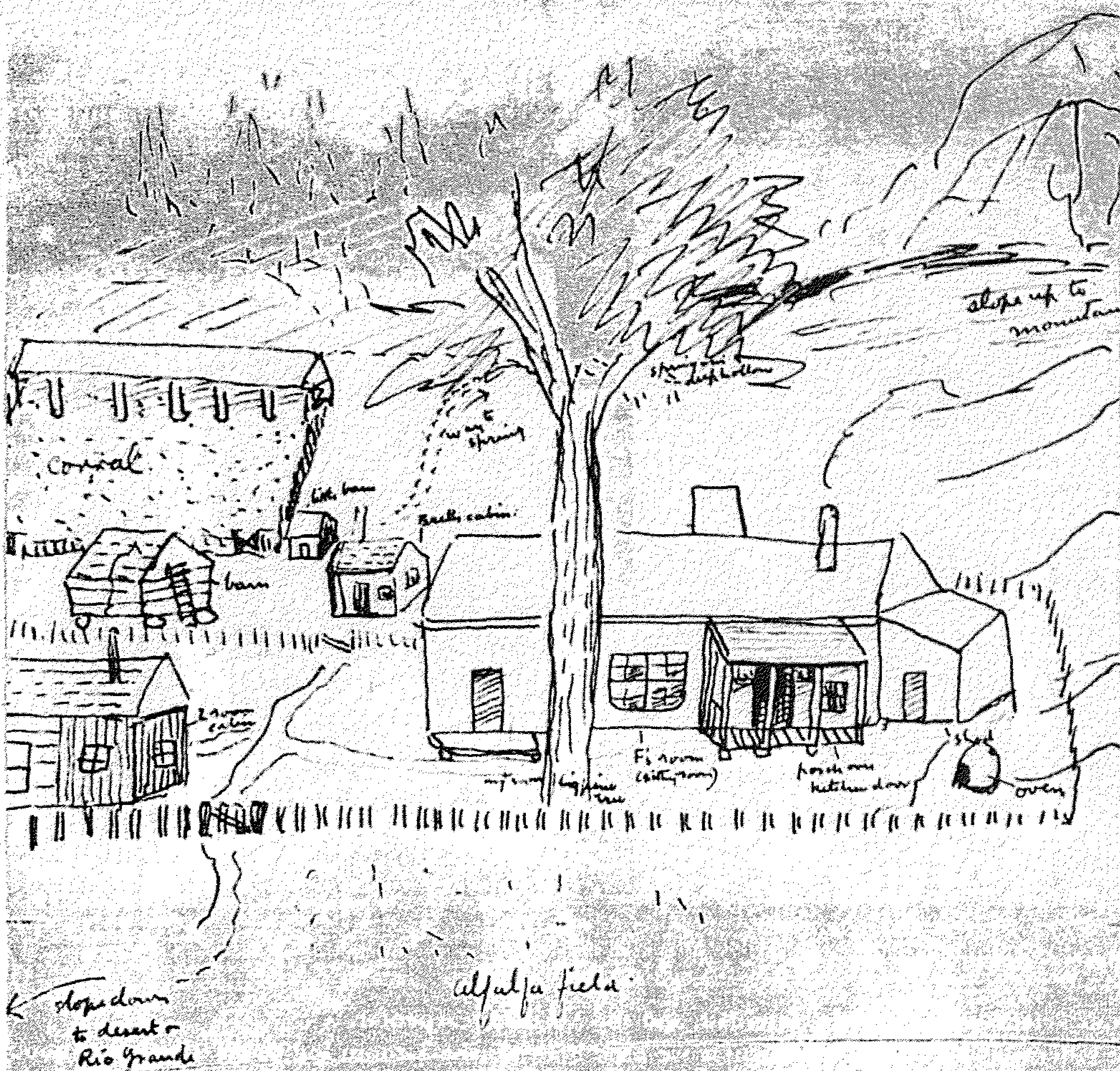
رسـائل (٥) ص٤٥-٦ : تبدو تاوس جميلة جدا، ربيع تام، أشجار الخوخ مزدهرة بكثافة، مثل ثلوج جامحة تغطى المدقات الوعرة والخضرة، خضرة بنات الحلفاء، بساتين التفاح مزدهرة، المنازل قرنفلية اللون تقريبا فى الشمس، الأمر أشبه بأركاديا(*)، ولكن النفسية التحتية فى هذا البلد، لا تمت بصلة إلى أركاديا.

فى اليوم نفسه، كتب دعوة إلى كارسويل وزوجته:

رسـائل (٥) ص٤٥ : آمل أن تعملا على توفير المال من أجل تمضية موسم صيف بأكمله هنا، ربما فى العام القادم، حاولا ذلك، سيكون الأمر مدعاة لتغيير نمط الحياة، وهناك فائدة فى النظر إلى مناظر طبيعية جديدة.

كما أن أسرة فريدريك كارتر تلقت دعوة مماثلة .

(*) أركاديا – منطقة جميلة فى بلاد اليونان، اشتهرت بأنها موئل الرعاة البسطاء القانعين. (المترجمة)

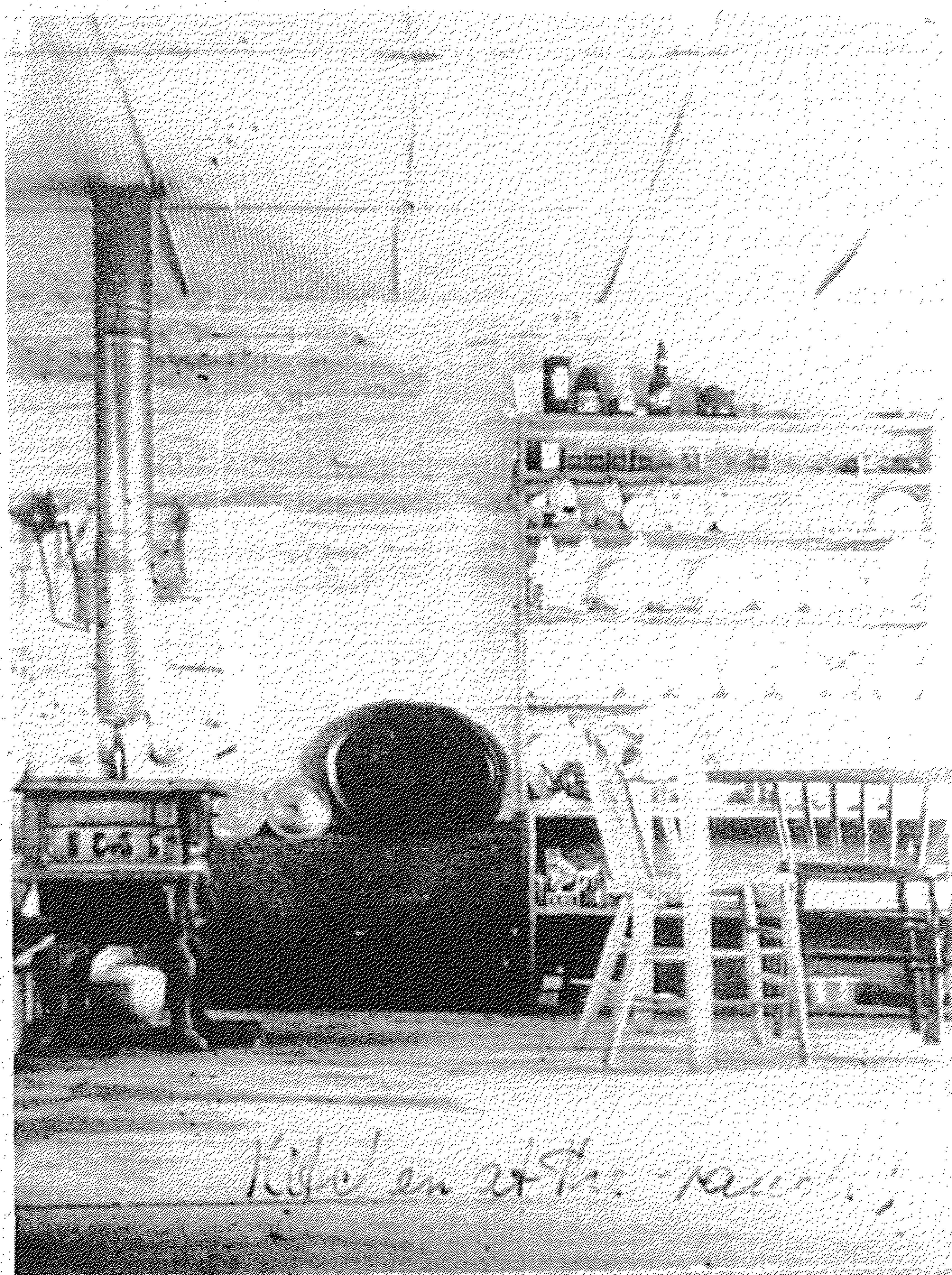


We have only one little spring of water – pure water – that will fill a pail in about 3 minutes: it runs the same summer & winter. If we want to grow anything, we must water, irrigate. Maclure used to bring the water in a made ditch, over deep places by a wooden runnel bridges, for nearly 3 miles: from the Gallina Canyon. Then, from the home canyon, he brought it down two miles. It's very difficult, though, in a dry country with dry gravelly soil. You can't bring much flow, so far: & in summer very often none. So we leave the ranch quite wild – only there abundant feed for the five horses. And if we wanted to take the trouble we could bring the water here as Maclure did, & have a little farm. – There's quite a lot of land, really – it say 160 acres, but it takes a terrible long time to go round the fence, through the wild forest. – We got lots of wild strawberries – & we still get gallons of wild raspberries, up our own little Canyon, where no soul ever goes. If we ride two miles, we can get no further. Beyond, all savage, unbroken mountains.

We get our things from Taos – 17 miles – either by wagon or when someone is coming in a car. Our road is no road – a breaking through the forest – but people come [illegible] see us. Every evening, just after tea, we saddle up and ride down to Del Monte Ranch, for the milk, butter, eggs, & letters. The old trail passes their gate, & the mailman, on horseback, leaves all the mail in a box nailed on a tree. Usually we get back just at dark. Yesterday we rode down to San Cristobal, where there is a cross-roads, a blacksmith, & a tiny village with no shop, no anything, save the blacksmith – only a handful of Mexicans who speak Spanish. We went to get Frieda's grey horse – the Azul – shod. They call him in Spanish el Azul – the Blue. – During the day there is always plenty to do – chopping wood, carrying water – & our own work. Sometimes we all paint pictures. Next week the Indian Geronimo is coming up to help me mend the corral, & build a porch over my door,

الرسالة التي أرسالها لورنس إلى ابنة أخيه مارجريت .





صورة الكابينة الكبيرة يعد انتهائها، وبعد تمضية فترة الصباح فى تزيين الدولاب ذى الرفوف، الأخضر خضرة لون التفاح بأطباق وأكواب وصحون. ودهش حقا أن نرى شكل الأطباق القصديرية القديمة، هى وتلك المجموعة الغريبة من الأكواب - هنا ستحس بانفجار لإنجاز هذا العمل وتدعونا لنُبدى إعجابنا به، (بريت).

رســـائل (٥) "بإمكانكما البقاء فى أحد البيوت، وبإمكان السيدة كارتر أن تبدأ مزرعة جديدة".

ص٥٠ : وكذلك كان الأمر مع باينر وسبول. إلا أن اللورنسين استقرا مع بريت وتوبى.

كان على بريت العيش فى كابينة صغيرة جدا، تتسع فقط لسريرها الخفيف النقال، مع مائدة صغيرة وكرسى وحقيبة السفر. وقد أصبحت الوصيفة المعينة بإرادتها للورنس، فعندما كان يستعمل المطرقة كانت هى تحمل له المسامير.

رســـائل (٥) "بريت ساذجة بعض الشىء وهى تحب تقديم المساعدة".

ص٦٣ : مرة أعطت فريدا لبريت نصف كرون، لمجرد التناقض مع لورنس، إلا أن بريت لم تكتسب من عملها قط.

على الرغم من آلام ذراعيه بدأ لورنس كتابه (بان فى أمريكا)(*) فالمقالات التى كان قد كتبها عن الهنود فى الأشهر السابقة كانت ما تزال تفضح زيفهم:

بإمكانك تأدية الخدعة العقلية، وتخدع نفسك والآخرين للتصديق أن الساحر المريش والملطخ بالألوان، هو أقرب إلى الآلهة المثاليين منا. وهذا هراء ومجرد خدعة.

فونيكس ٣١ : وربما أن العيش مع الهنود فى المزرعة، قد منحه فهما أكثر لهم وأعمق:

"ولا يزال فى أميركا، بين الهنود، بان العتيق حيا".

كان للهنود طقوس تمكنهم من التعامل مع الطاقات الفعالة والكامنة المدمرة لبان، فبالنسبة للرجل الأبيض، يجب أن يكون هناك موت للوعى القديم (رمز إلى ذلك بتضحية البطلة فى "المرأة التى رحلت بعيدا"، يتبعه انبعاث، مؤلم بنفس الدرجة، إلى حقيقة جديدة – المطلق. حقيقة بان الدنيئة الجميلة التى تثير الرعب والتى كان لورنس يصارعها الآن فى مزرعة تغزوها قطعان الجرذان تركت الصواعق ندوبها عليها، ولكنها بالتأكيد كانت مزرعة لم يتخل عنها الله، وقد ألهمت الحياة هناك لورنس لكتابة أروع قصصه منذ الحرب، فى ذلك الصيف وهى – "سانت مور". قصة جيدة لأنها تجد حجما ملائما تماما ورمزية تسبر أعمق

رســـائل (٥) تأملات لورنس: موت إنكلترا إنكلترا هى غير حقيقية مثل كتاب تمت قراءته منذ زمن بعيد، الحاجة لإيجاد

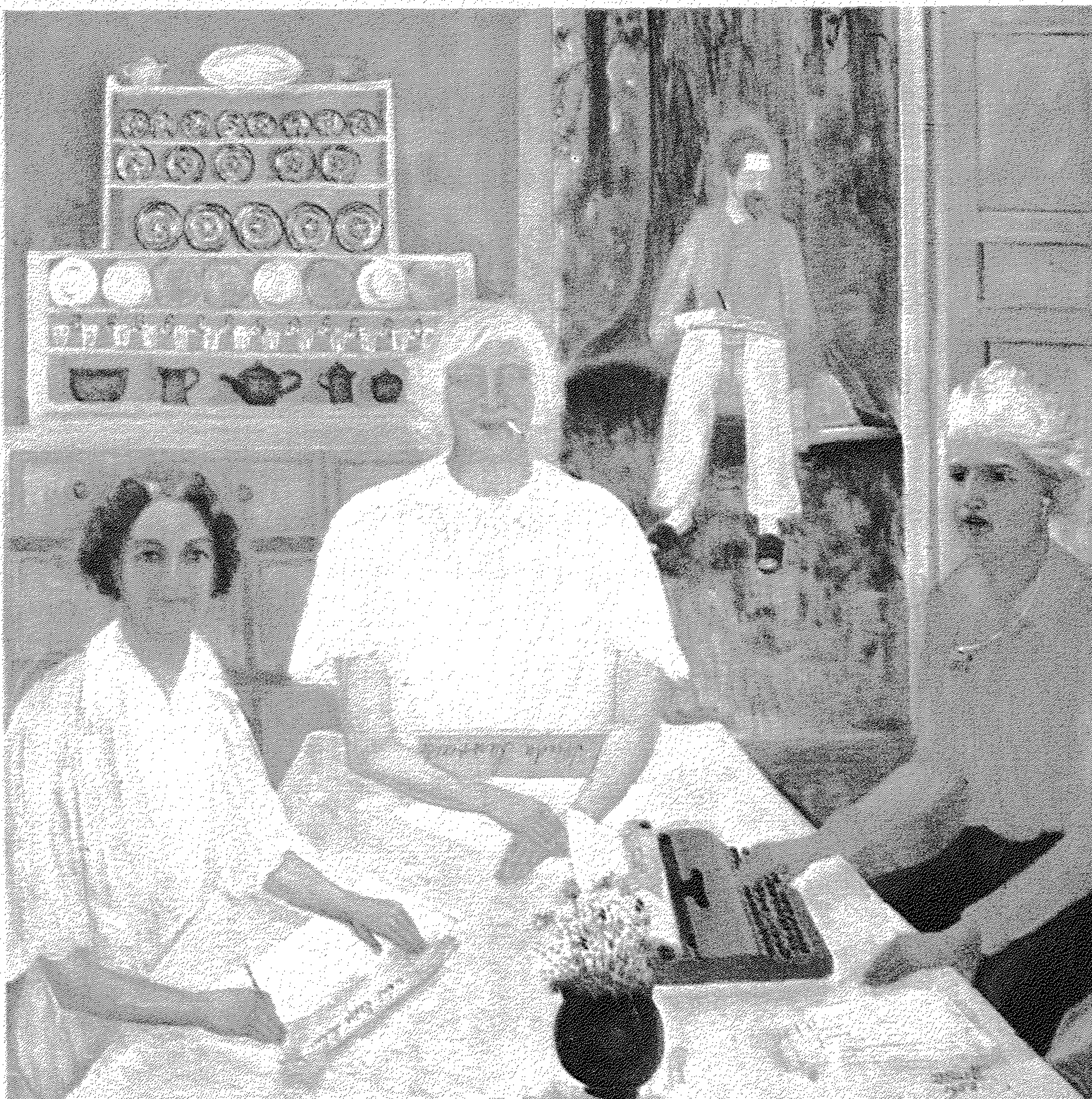
ص٤٤ : حقيقة أخرى، ادعاءات الحياة الرهبانية أو التنسك، النتيجة المنطقية للتعرض لبان وفحل الحصان، سانت مور، يمنح لو خيارا (بين عالمين). إنه رسول من العالم القديم للآلهة، من تلك الأماكن القصية حيث ما تزال الآلهة تذكر، كما فى ويلز إنها لم تمت حتى الآن، كما فى نيو مكسيكو، تتقبل لو الرسالة وتذهب إلى مزرعة لوبو، مثل بريت، إنها تتقبل آلهة ذلك المكان التى هى "متجهمة حسودة عديمة الشفقة، أضخم من الإنسان، وأدنى منه" سواء أكانت قادرة على العيش معهم، أم كان ذلك الأمر يمنحها الاكتفاء ، فذلك يبقى فى النهاية مثار سؤال.

لورنس نفسه كان سعيدا بالتأكيد فى ذلك الصيف، ولكن الطمأنينة كانت تقطع بعدد من المشاجرات التى تحصل نتيجة العلاقة المستمرة الثابتة مع ميبل.

رســـائل (٥) نحن نجلس هنا فى هدوء، مع الشمس والعواصف الرعدية، والأشجار والخيول.. أواصل ببطء كتابة

ص٨٠ : قصتى القصيرة – الطويلة – الثانية وهى قصة غريبة، فريدا بطبيعة الحال، تمتدح "منزلها" طوال الوقت.

(*) بان – إله الغابات والمراعى والرعاة (المترجمة)



لورنس وبديناته الثلاث، بريشة بريت - النساء هن: ميبل، فريدا وبريت

فى شهر أغسطس أخذت ميبل مع تونى اللورنسين لرؤية رقصة ثعبان هويس، فى أريزونا، وفى طريق العودة، كتب لورنس فى سانتافى واحدة أخرى من مقالات (عن فضح الزيف)، عائدا توا، من رقصة الثعبان - متعب جدا - وهو لا يهاجم الرقصة التى لم يتحدث عنها لورنس إلا قليلا، ولكن أولئك البيض الذين تجمعوا لرؤية العرض:

وهوبى الطيب المسن، أنا بالتأكيد بارع، وصلصلة بين أسنانه، وكانت ميبل غاضبة:

لوهان ٢٦٧ : لقد كتب مقالة كئيبة عن رحلتنا الطويلة إلى قرية هوبى وعن الرقصة مجرد سرد واقعى كان من الممكن أن يتم من قبل رجل أعمال متعب وساخط. لا رؤية فيه ولا تبصّر ولا إعجاب من أى نوع.

وعلى مضض وافق لورنس على المحاولة ثانية، وقدم ما يمكن اعتباره أفضل كتاباته عن الهنود، "رقصة ثعبان هوبى":

نحن نكبح مياه النيل ونُجرى السكة الحديد عبر أميركا، والهوبى يلمس الثعبان المصلصل ويحمله فى فمه لإعادته إلى الأماكن المظلمة للأرض، رسول إلى القوى الباطنية".

فجأة جاء الخريف مع جماله السريع الزوال ولياليه الجليدية:

البلدة هنا جميلة جدا فى هذا الوقت، أشجار الجوز فوق الجبال تبدو كندف من ذهب، السنديان الخفيض بلون أحمر مسود، والطيور آتية مقبلة إلى الصحراء إنه وقت الذهاب جنوبا - هل أخبرتك أن والدى قد توفى فى العاشر من سبتمبر، اليوم الذى يسبق يوم ولادتى؟ يجعلنى الخريف عادة فى حالة سيئة ، وكلما تفجّر ألوانا وددتُ الذهاب جنوبا حيث لا خريف هناك، حيث البرد لا يجثم على المرء مثل فهد ثلجى ينتظر الانقضاض . قلب الشمال ميت وأصابع البرد أصابع جثة.. ولكنى أريد الذهاب نحو الجنوب ثانية، إلى أوكساكا، إلى الزبوتيكاس وإلى ألمايا.

ولهذا السبب تم إكساء المزرعة بألواح خشبية من أجل الشتاء وتوجه اللورنسان مع بريت إلى أوكساكا.



فى ذات الوقت تقوم ميبل بجدل النباتات الطويلة الزاحفة على شكل أكاليل - أنت متوج بواحد منها بالفعل وأنت تبدو مثل بان بالفعل- أنت تحس إحساسه أيضًا : هناك لمعان فى عينك، وحولك شىء من البهجة والمرح... تلتقط لك الصور؛ وبذلك تعبد، ثم تتكوم ثانية فى العربة؛ (بريت)

* * *

رســائل (٥) ص١٥٦ : وجدوا القليل ليفعلوه فى مدينة مكسيكو، "هذه المدينة عقيمة"، إلا أن لورنس تناول الغداء مع أعضاء نادى القلم وقابل سومرست موم " كريه الرائحة بعض الشيء"، وتعرف على نائب القنصل البريطانى الذى كان شقيقه بادر إدوارد أ. ريكاردز، قسيسا فرع الكاتدرائية أوكساكا، وكان لديه منزل للإيجار.

فى ٨ نوفمبر، غادر اللورنسان مدينة مكسيكو إلى أوكساكا، فى رحلة متقطعة وسيئة على طول طريق السكة الحديد الضيق مع عشرين حارساً لحماية أربعين راكبا، الانطباعات الأولى كانت جيدة جدا:

رســائل (٥) ص١٦٢-٣ : أوكسـاكا مـدينـة صـغيـرة هادئة جدا، مع عدد قليل من الهنود الفقراء إلا أنهم فخورون بأنفسهم - زابـاتيون. المناخ ممتاز - ملابس قطنية، الجو ليس حارا تماما. إنها آمنة ولها جمالها الخاص المنعزل.

رســائل (٥) ص١٦٤ : أحس أن "الهواء الناعم الدافئ"، على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، مفيد لرئتيه وبلعومه.. كان السبب الأساسى للمجيء إلى مكسيكو هو "أن يصبحوا أقوياء فى هذا الشتاء، وتمضية أغلب الأوقات فى العام المقبل فى المزرعة".

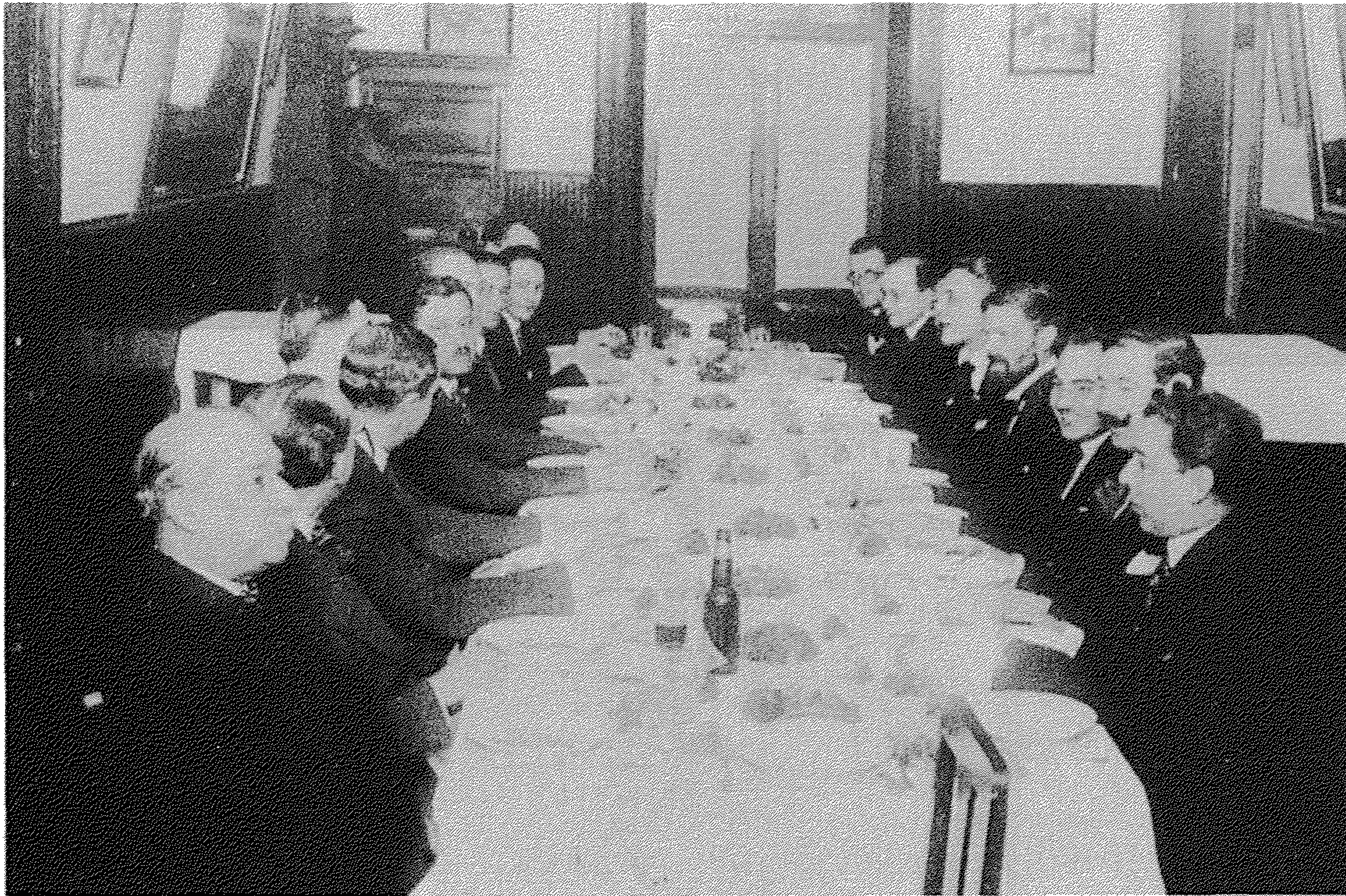
بعد عشرة أيام، انتقل اللورنسان إلى منزل بادر ريكاردز، تاركين بريت فى فندق فرانسيا. نُظفت الأرضية صبغت الكراسى بلون أبيض، خيطت الأفرشة والستائر، وأوقدت النيران، كان الأثاث قد أعير لهم من قبل المركز الأمريكى وتم شراء بعض الحاجيات الصغيرة، خادم شاب جاهم يدعى رزالينو. وعندما رأى لورنس الغطاء الرث الذى كان ينام تحته، أخـــذه إلى السوق واشــترى واحــدا جــديدا من اختــيـاره



السيدة كونواى، ولورنس، وإدوارد ريندون، وفريدا. التقط هذه الصورة جى.آر.جى كونواى فى حديقة منزله فى مدينة المكسيك العاصمة.

كان لورنس يمضى يوميا ساعة معه لمساعدته فى تعلم القراءة والكتابة، على الرغم من اكتشاف كونه "غبيا" وروزالينو الذى كان قد عرف الكثير من القسوة والقليل من الحنان، أحب لورنس إلى حد الافتتان به.

بريت ١٨١ : بدأ لورنس فى الكتابة مباشرة، أعاد قراءة المسودة الأولى لـ كويتزال كوتل، وأدرك أن عليه إعادة كتابتها: "لا تمتلك جابالا حقا روح مكسيكو، إنها مروضة جدا، مهيئة للسياحة، هذا المكان يحتفظ ببدائيته بشكل أفضل، إنه لم يلمس بعد". ولكن على الرغم من جمالها وجودة مناخها، فإن هدوء أوكساكا أصبح يبدو تدريجيا ثقيل الوطأة، مثل هدوء سجن، الأمر الذى جعل لورنس يشعر بإحساس من يشترى مسدسات ضخمة وسكاكين لقتل شخص ما. وسرعان ما أخذ يتوق إلى البحر الأبيض المتوسط أو غرب أستراليا ويخطط للإبحار من هذه الأرض "القاسية المخيبة للآمال" ذلك أنه وجد نفسه غير قادر على العمل فى أوكساكا. إلا أن العمل فى الرواية تواصل بشكل جيد، وفى نهاية ديسمبر كان قد كتب نصفها، على الرغم من اقتطاع الوقت لكتابة أربعة موضوعات عن الحياة فى أوكساكا لكتابه (صباحات فى مكسيكو) – تلك الصور العلمية الجيدة للببغاوات الخضر فى تقليدها الساخر لروزالينو أو لشخص ينادى على كوراسمين بالأسبانية، أو كوراسمين نفسه وهو ينبح، مع القليل من الإضافات، وكانت تلك الموضوعات تتضمن أيضا وصفا لمحاولات لورنس العديدة الفاشلة لشراء البرتقال من قرية هوايابا، المليئة بالبرتقال، وعن الحنين الذى ساور روزالينو إلى قريته الأصيلة والذى أثاره المشى إلى هوايابا، وعن الفلاحين والهنود وهم يهرعون إلى المدينة من أجل التسوق مع حميرهم المحملة والعربات التى تجرها الثيران والتى تتحرك بتثاقل مثيرة سحبا من الغبار. عن لورنس نفسه وهو يبدى ازدراءه نحو القذارة المنتشرة فى المكان والتى لم تكن تثير استياء المشترين.



عشاء نادى القلم فى المقهى الشرقى، مكسيكوسيتى، يوم ٣١ أكتوبر من العام ١٩٢٤ . لويس كوينتانلا على يسار لورنس. "قلت: نحن هنا جميعًا بعضنا مع بعض، بعضنا إنجليز، وبعضنا الآخر مكسيكيون وأمريكان، كتاب، ورسامون ورجال أعمال الخ، لكن أمام الجميع وقبل كل شيء نحن بشر بعضنا مع بعض هذه الليلة. كان ذلك عما أردت قوله– لكن شابا مكسيكيا قفز واقفا: "هذا كله جميل جدًا أن يقول إنجليزى إنى رجل أو لا، وقبل كل شيء، لكن المسيكى لايستطيع قول ذلك، لأنه يتحتم أن يكون مكسيكيا فوق كل شيء.

قبل عيد الميلاد بقليل، كان لورنس قد ذهب برفقة بريت فى رحلة نحو طريق ميتلا، استغرقت يومين متتاليين، كى تقوم بريت بالرسم، ويكتب لورنس مقالاته، عندما لا يكون مشغولا (بتعديل) رسومات بريت، كانت فريدا غاضبة لدى عودتهما، ولم تعد واثقة من كون بريت غير مؤذية.

وبناء على أقوال بريت، فإن فريدا تحدثت عن استيائها للعلاقة التى تتسم بالرعاية والإعجاب بين الاثنين، وأنها تفضل بدلا من ذلك علاقة حسية، لولا أن لورنس لا يقدر على حب مثل هذا "العود من نبات الهليون". وفى رأس السنة اشتد الخلاف إلى الدرجة التى دفعت لورنس إلى الكتابة لبريت:

رسائل (٥) ص٢٠٣-٤ : أنت وفريدا وأنا، لم نعد نؤلف اتحادا سعيدا. الأفضل أن نعد أنفسنا للفراق، وعليك اتخاذ طريقك الخاص.

وهكذا أُرسلت بريت إلى المزرعة. بعد أسبوع كتب إليها لورنس:

رسائل (٥) ص٢٠٣-٤ : الصداقة بين الرجل والمرأة، كشىء يحتل الاهتمام الأول بالنسبة لهما، أمر مستحيل: وأنا أعرف ذلك، نحن مخلوقات مؤلفة من نصفين، روحى وحسى، وكل نصف مهم للآخر. أى علاقة مبنية على نصف واحد ولنقل النصف الروحى الرقيق وحده – تجلب حتما تغيرا وخداعا، كانت صداقتك لموري روحية – سحبت الجنس إليها – فكرهك هو.. كان سيكرهك على أى حال.. صداقتك النصفية أكرهها أنا أيضا، ولا يوجد بينى وبينك أى توافق حسى .. أنت لست أقوى من الجنس، ولن تكونى قط، ولكنك فى الغالب أدنى منه ، يعجبك اهتياج الجنس فى العين أو فى العقل، إنه شىء سيئ ومدمر.. تجعليننى أحس بالغثيان بالانجذاب إلى نصف على حساب النصف الآخر. وأنا الآن أفضل حالا منذ ذهابك.. إذن، اجلسى تحت شجرتك، أو قرب الموقد، وحاولى، حاولى، حاولى أن تحصلى على عطف حقيقى تام.. لا تواصلى النظر إلى رجال لهم أعين غريبة يعرفون الحياة من الألف إلى الياء. ربما أنهم قد يفعلون – يغفلون عن بقية الأحرف، مثل اللب المأخوذ من قشرة بيضة فارغة. ابحثى عن لهب صغير لمودة دافئة. إنها أكثر من الألف والياء.

فى منتصف يناير، أدرك لورنس أنه فى طريقه إلى الانتهاء من كويتزال كوتل، وكان يخطط أن يكون فى إنكلترا فى الربيع. أحس بشوق كبير إلى الربيع الإنكليزى، الذى لم يره منذ خمسة أعوام. وكانت والدة فريدا ترجو زيارة منهما. أقسم لورنس أنه لن يلتقى فى إنكلترا إلا وكيله وشقيقاته. وهو فى الأخص سيتجنب مورى – "المرة الأخيرة حدث أكثر مما ينبغى". أنهى لورنس كويتزال كوتل فى ٢٩ يناير وكان عليهم مغادرة مدينة مكسيكو فى الأسبوع التالى. ولكن لورنس كان يعانى من الأنفلونزا منذ عيد الميلاد، وسقط طريح الفراش إثر مرض الملاريا، الذى كان الجنود قد نقلوه معهم إلى المدينة، وصف له الطبيب المحلى حقن الكينين، ثم ابتعد عنه لخشيته من الأجانب. وضعت فريدا أكياس رمل ساخنة على لورنس والتى أراحته.







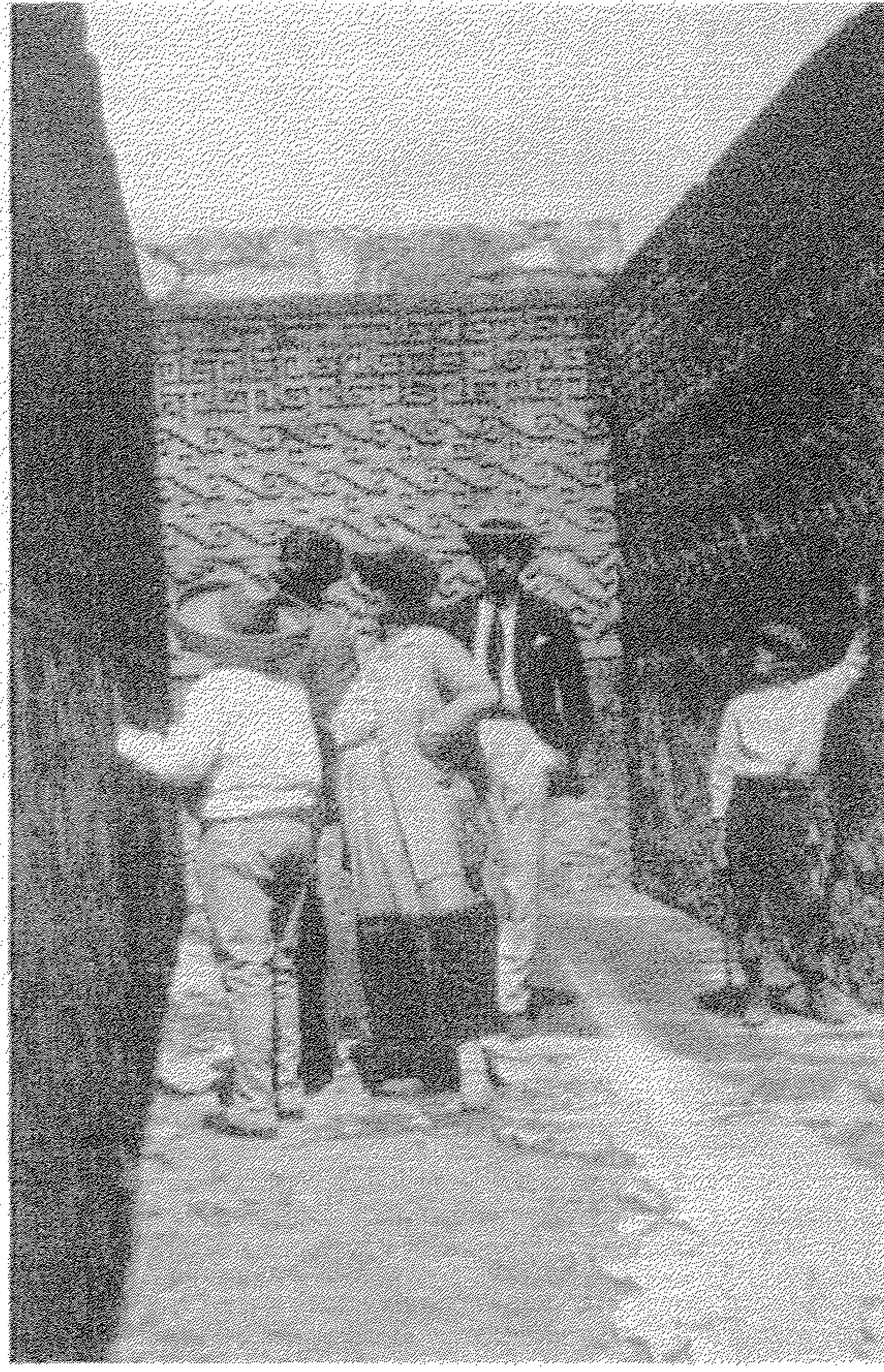
أوكساكا :

أعلى إلى اليمين: الطفل الذى فى الصورة هو موزو وزالينو - يتسوق معنا.

أعلى إلى اليسار : "هذه فريدا وأنا فى الحديقة، مع القس صاحب المنزل والكلب كوراسمين والببغاوات :

أسفل : لورنس وفريدا على سلم كنيسة سولداد، ١٨ ديسمبر ١٩٢٤ . صورة التقطتها برين .







أعلى إلى اليمين : الصورة لمتلا : فوق رأسي. والآنسة بريت منشغلة بالتصوير. الرجل الآخر هو خوزيه جراسيا. "الأحواش المنحوتة فى متلا، بسحرها الذى يوحى بالخوف والندم- متلا رباعية الأضلاع، حادة الزوايا الملتوية مثل فأس من الحجر، (الحية المريشية).

أعلى إلى اليسار : "لكن الشارع الأول من المناجم كان مجرد طريق بين ذلك السور من بنات الصُّبير الحى، وأشجار أخرى تحمل أزهاراً قرمزية اللون. (السير إلى هوايابا).

أسفل : القسر يكاردز ومعه كوراسمين ، وفريدا، ولورنس، وماكميليانون ساليناس، وهم يقصدون فلايب دل أجوا - صورة التقطتها بريت.

إرفـــــن (٢) ص٤٤ : إلا أن صحته تدهورت وبقى لعدة أيام أقرب إلى الموت من الحياة بدا كما قالت فريدا: "مثل ظل لورقة ورد بيضاء". فى ليلة من الليالى قال لها:

فـــريدا ١٦٥ : "ولكن إن مت، لا يهمنى شيء سواك، لا شيء على الإطلاق".

فريدا نفسها أصبحت مريضة. هَزّ زلزال البيت، لذا تقرر نقل لورنس إلى فندق فرانسيا، وكان يتجمع فيه أعضاء الجالية الأمريكية ومالكو المناجم والمهندسون، وتدريجيا، استعاد لورنس عافيته، وفى ٢٤ فبراير، غادر اللورنسان أوكساكا إلى مدينة مكسيكو، حيث حجز لورنس تذاكر سفر للإبحار إلى إنكلترا فى ١٧ مارس، آملا أن يسترد صحته على شاطئ ديفونشاير.

رســـــائل (٥) ص٢٢٠ : "مقاوما عبر الأيام ببعض الصعوبة شاعراً بنهايته فى هذا المرض القذر"، لم يرد لورنس رؤية أحد ما ولكن صديقا من زياراته السابقة لويس كوينثانيلا أستاذ الإنكليزية فى جامعة مكسيكو، وهو شاعر ودبلوماسى، سمع أن لورنس موجود فى فندق أمبريال، وبعث إليه طالبا رؤيته، فَدُعى برفقة شقيقه. رُوِّع الاثنان لحالته الشديدة وأقنعاه برؤية طبيب من معارفهما.. بعد فحص الدم، قال د. يوهلفيلدر لفريدا:

فـــريدا ١٦٧ : "خذيه إلى المزرعة، إنها فرصته الوحيدة، لديه تدرُّن رئوى من الدرجة الثالثة. سيعيش سنة أو سنتين على الأكثر" أُعلم لورنس بإصابته بالتدرن الرئوى، إلا أنه ليس من الدرجة السيئة، وأن الرحلة إلى إنكلترا ستكون مضرة بالنسبة له.

ألغيت الرحلة، وفى ٢٥ مارس، غادر اللورنسان مدينة مكسيكو، متوجهين إلى المزرعة، ولكن حالة لورنس بدت سيئة جدا، بحيث إن الموظفين فى إيل باسو، لم يسمحوا له بدخول الولايات المتحدة الأمريكية، احتجز هناك يومين، ولم يتمكن من الخروج إلا بمساعدة السفارة فى مدينة مكسيكو، وبوضع شيء من أحمر الشفاه على خديه، وفى خلال الرحلة هذه، بدأ لورنس فى كتابة قصته الجميلة "السمكة الطائرة" ممليا الصفحات الأولى منها على فريدا ولم يكملها على الإطلاق:

بريويستر ٢٨٨ : "إنها كتبت عند حدود الموت، ولهذا لم أكن قادرا على الاستمرار فيها، فى ضوء النهار البارد الواهن".

* * *

بعد بضعة أيام برفقة هوك وزوجته فى ديل مونتى، انتقل اللورنسان إلى مزرعتهما، التى قرر لورنس الآن تسميتها "كيوا" تيمنا بالهنود المحليين، كان على بريت البقاء فى ديل مونتى. ترينداد وزوجته روفينا، ساعدا فريدا فى أعمال المنزل، بينما ارتاح لورنس، وقرأ صحراء الجزيرة العربية(*)، ولعب مع القطة تيمسى ويميس بل إنه حتى سمح لفريدا أن تعد الطعام.

الهواء النقى، حمامات الشمس والربيع، أعادت لورنس تدريجيا إلى الحياة، كان الأمر انبعاثا حقيقيا، وكما لاحظت فريدا:

(*) هذا هو كتاب: "ترحال فى صحراء الجزيرة العربية، الذى ألفه دوتى، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور صبرى محمد حسن، وهو من منشورات المركز القومى للترجمة (المراجع).

فـــريدا ١٦٨ : كم كان الأمر مثيرا، أن يحس بسريان حيوية جديدة فيه.. كان الأمر معجزة حية، أعجوبة أمام أعين المرء كم كان ممتنا فى داخله. بإمكانى أن أصنع أشياء أخرى، أستطيع أن أعيش، وأفعل ما أشاء، ألا أقعد بعد الآن بسبب مرض مستبد. كما أحب كل دقيقة من الحياة فى المزرعة، الصباح، السنجاب، كل وردة ازدهرت فى موعدها، الأشجار الكبيرة، تكسير الحطب، الدجاج، إعداد الخبز، وجميع أعمالنا الشاقة والناس، كل شىء أكد لنا بهاء حياة جديدة.

وسرعان ما بدأ "العمل فى المزرعة ثانية" وفى رسالة إلى شقيقته إميلى فى ٣٠ مايو، وصف لها صورة الحياة فى المزرعة:

رســــائل (٥) ص٢٥٧-٨ : إنه ربيع جاف جدا، لقد احترق كل شىء. أخرج صباح كل يوم إلى الحقول لرىّ مساحة جديدة من الأرض. وهكذا فإن مساحة ١٥ فدانا من الحقل خضراء تماما، ولكن ما حولها جاف، جفاف الرمل، لا ينمو فيها شىء تقريبا ماعدا الفراولة البرية، التى تزدهر بكثافة وكذلك الكشمش، وتأتى مجاميع صغيرة من الطيور المدندنة إليها. نحن الآن نبنى زريبة جديدة لأربع من الخيول، وستكون لدينا بقرة سوداء يوم الاثنين القادم - ولدينا دجاجات بيض بنية اللون، وديك أبيض - وقد أمسك ترينيداد بأرنب برى صغير وهو مسلٍّ جدا.





يمينًا : اتركى النار تخمد وجرّفى الرماد الحار. تدخل هذا الفرن واحدة من دجاجنا السمين وكذلك الخبز، وسرعان ما يغلق اللوح الذى يستعمل باباً، ومن خلفه كتلة الحجر. ثم تجلسين وتنتظرين. وأثناء الانتظار تقولين لى: كيف كنتى تنظرين إلى حافة الطاولة وتشاهدين أمك وهى تضع الخبز. وأسارع أنا لإحضار آلة التصوير وألتقط لك صورة وأنت جالسة على سلم الحظيرة بالقرب من الفرن : (بريت).

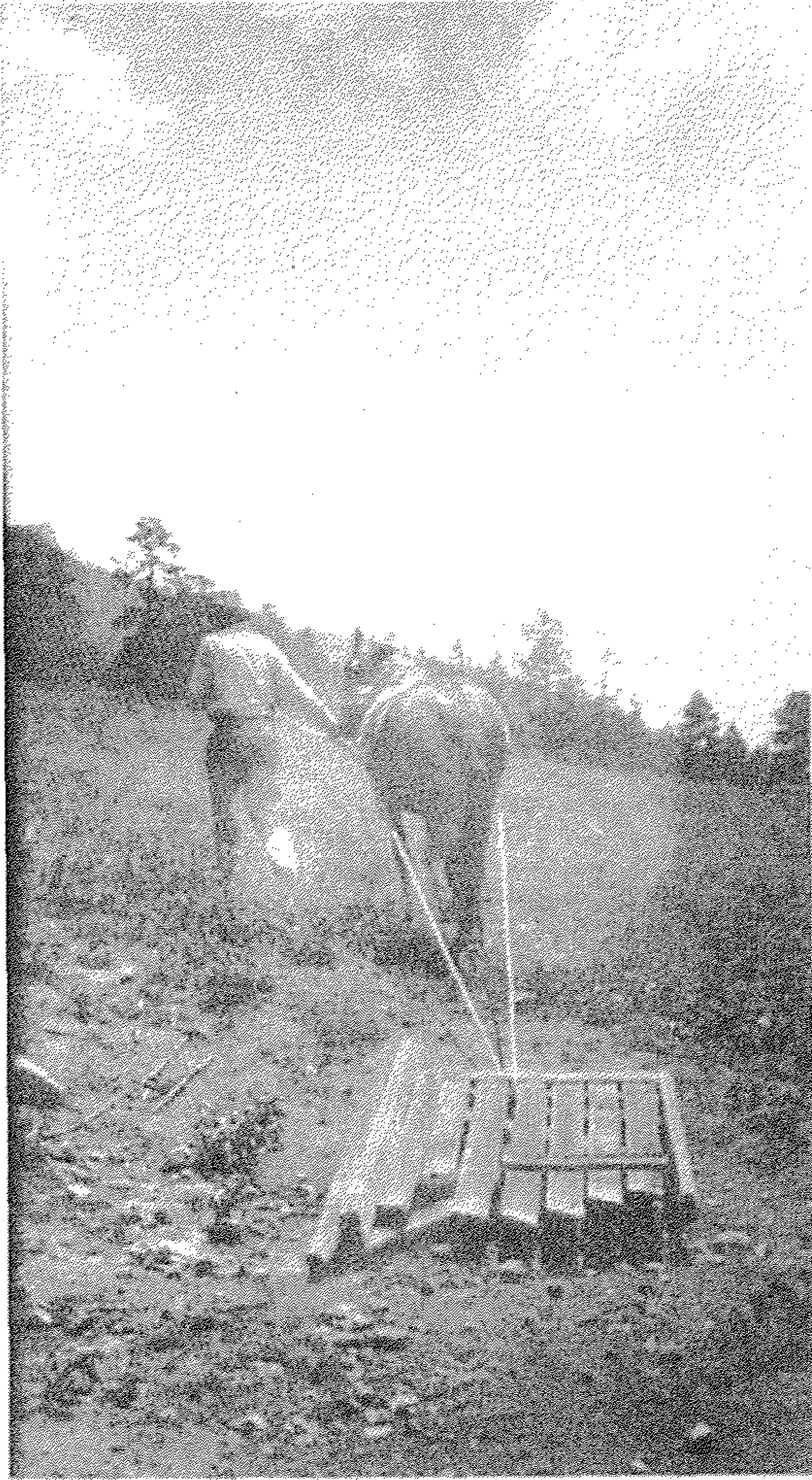
يسارًا : لورنس ومعه القطة تيمس - صورة من التقاط بريت.

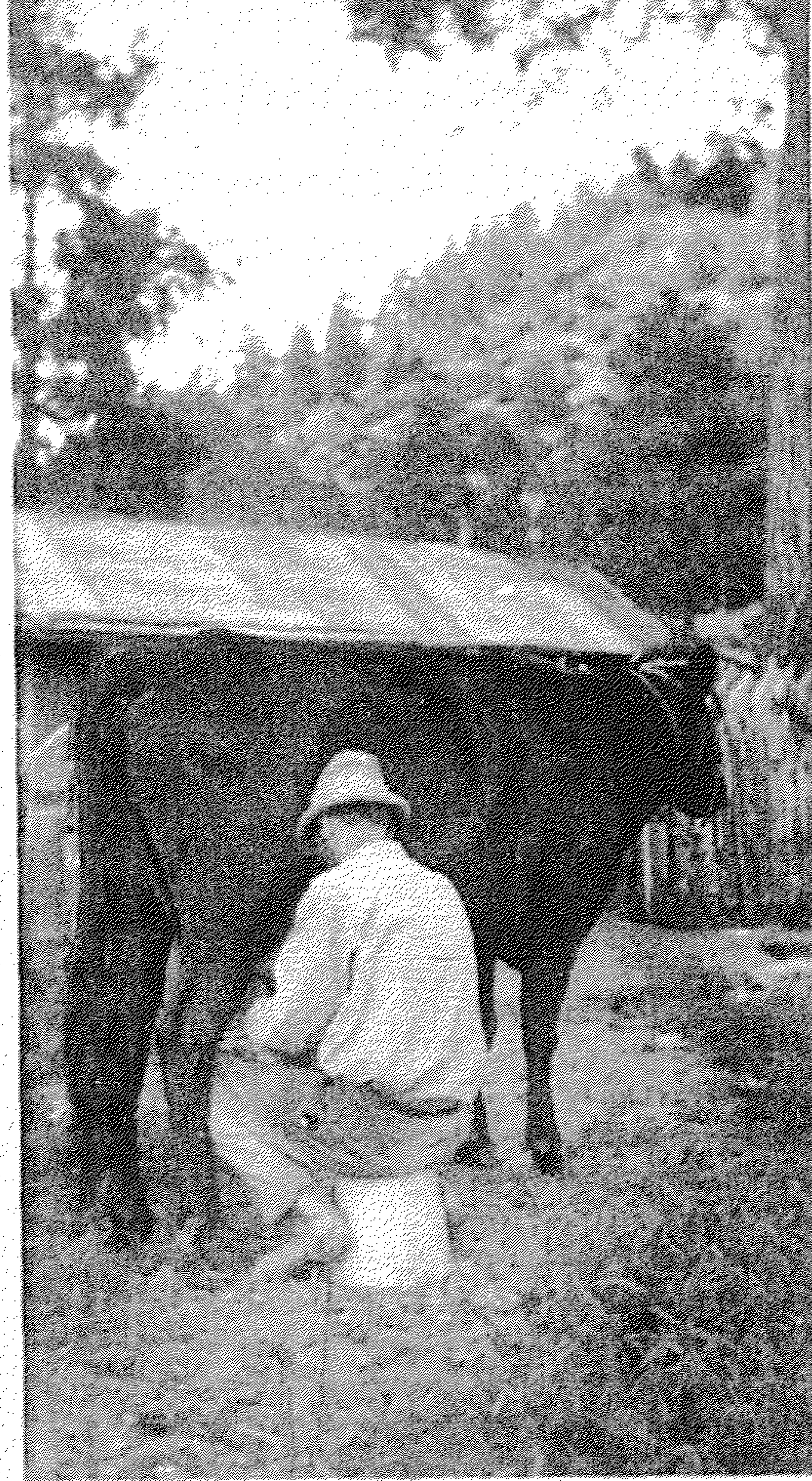
تلك البقرة، سوزان، برهنت، على فائدتها، وكانت هناك مشاكل أخرى:

رســـــائل (٥) ص٢٦٨ :

أنا أقوم بحلب البقرة - سوزان ذات العينين السوداوين - وتقوم فريدا بجمع البيض، يبدو الأمر مشهدا ملائما لأنشودة رعوية، ولكن البقرة تهرب إلى الجبال، نقبض عليها ونحن على ظهور الخيل، ونلعنها كى تكون أكثر سوادا. لقد هاجم نسر إحدى الدجاجات، أما حيوان الضربان فيأخذ البيض، البقرات نصف الوحشيات يتسللن إلى المرعى التى فى طريقها إلى الجفاف جفاف الفلفل. لا مطر لا مطر، لا مطر. إنها بلدة قاسية.

وضربت صاعقة شجرة الصنوبر وشطرتها، بالقرب من الكابينة أعداد من حيوان النيص أخذت تقرض من جديد أشجار الصنوبر. اندفعت فريدا مرة إلى الداخل وهى تعتقد أنها رأت دبا.





يمين : وعندما تكون آمنة فى مكان حلبها تروح تراقبنى بعينيها السوداوين الكبيرتين وأنا أنزل من فوق الحصان. وتروح تتشمم يدى قبل أن تلزم الهدوء الذى ينزل عليها أثناء عملية الحلب، إلى أن يحدث ذلك يكون هناك شىء من الهدير فى فوضى كونها. وعندما يتملكها سلام البقر، يصبح كونها صامتا، وتصبح هادئة المد مثل البحر وبلا شراع أو دخان: بلا أى شىء. هذه هى سوزان بقرتى السوداء. (... كان الحب صبيا صغيرا ذات مرة). الصورة من التقاط بريث.

يسار : لورنس مع الحصان برنس ، يبنى حظيرة للبقرة سوزان - يوليو ١٩٢٥، صورة من التقاط بريت.

خرج لورنس يحمل مسدسا عيار ٢٢ ذملم وكان قد تدرب على استعماله تجاه باب الحمام وقتله بمزيد من الفخر والأسى، إلا أنه لم يسمح لترينيداد بإطلاق النار على الغزال الذى كان يشاهد أحيانا وراء الكابينة.

ارفـــــاين (٢) ص٥٠ : وعلى الرغم من أن بريت كانت قد نفيت إلى ديل مونتى فإنها أحبطت الهدف من ذلك بذهابها يوميا إلى كيوا. وكانت تلميحات فريدا لا تلقى الاهتمام وأخيرا كتبت إليها فريدا طالبة منها "الابتعاد بهدوء وكرامة.. أنت مزعجة بشكل بغيض جدا" لورنس نفسه أطلق عليها "المفرقة بالولادة".

بـــريـــت ٢٢٨ : وقررت بريت هذه المرة الرد والمقاومة، معلنة للورنس، "إن بدأت فريدا بإطلاق أوصافها العانس، الوصيفة، وعصا نبات الإسبراغوس، فسأشدها بحبل إلى شجرة وأضربها على أنفها، حتى أسبّب لها ما يصح أن تشكو منه حقا". وبدأت بريت تعتبر المزرعة مسكنا لها، ولكنها بالنسبة لفريدا كانت مجرد ضيف أطال فترة بقائه. كانت فريدا غاضبة، وسبب ذلك يعود جزئيا إلى خلافها مع لورنس حول رغبتها بدعوة بناتها إلى المزرعة، كما أن بريت لم تعد تمتلك رغبة للعودة إلى حياتها الأولى، التى رفعها منها لورنس. وبسب كونها صماء فقد كان السفر صعبا بالنسبة إليها. وإلى أين كانت ستذهب؟ على أى حال، كان اللورنسان يخططان للعودة إلى أوربا فى سبتمبر والبقاء عاما كاملا، ولكن لورنس لم يحبذ فكرة ترك بريت بمفردها فى المزرعة طوال الشتاء وأقنعها بزيارة قصيرة إلى إيطاليا، واعدا إياها برسالة توصية إلى أسرة بريوستر فى كابرى.

وهكذا أغلقت المزرعة ثانية، وبعد وداع حزين رافقته الدموع، قاد بيل هوك اللورنسين عبر الخط الترابى للمرة الأخيرة وكان ذلك فى الذكرى الأربعين لولادة لورنس. ومن نيويورك كتب لورنس إلى بريت:



بريت : صورتى الكبيرة التى التقطتها للصحراء، فيها كل مظاهر حياتنا كنا نعمل فى المزرعة- أنت وأنا نقوم بالقسم الأكبر من هذا العمل وتسألين: "انظر إلى التبيين والهنود أليسوا أفضل مما لديك؟" ثم تقولين: « سأضع القطة تيمى هناك"، وبأنامل واعية تروحين ترسمين تيمى وهى تقوِّس ظهرها ... وتدفعينى جانبا بعنف. " إن كانت تلك سوزان، فليساعدها الرب - لأنها لن تستطيع الوقوف مطلقا على أرجلها على هذه الشاكلة، ناهيك عن الجرى". أنا ملك الماهرة، هى التى رسمت البقرة الطائرة سوزان.

يكون المرء مجنونا، بطبيعة الحال، بترك المزرعة، ولكن قد تكون أوربا جيدة بالنسبة إلينا فى الشتاء.. أمسك نفسى بالكاد من تذكر أزول وتيمسى وموسيس وكل شىء هناك.

وفى اليوم التالى كتبت فريدا:

"لور، لا يبدو فى حالة حسنة تماما!". فى ٢٢ سبتمبر أبحرا بواسطة س. س. ريوليوث، متوجهين نحو ساوثمبتون.

* * *

فى إيطاليا، بعد شهرين كتب لورنس مقالة "القليل من ضياء القمر وليمونة"، لصحيفة لافينغ هورس:

أتعجب إن كنت هنا، أم أننى على وشك الذهاب إلى سريرى فى المزرعة، ربما أبحث فى القائمة المصورة لمونتغمرى وارد، عن شىء يصلح لعيد الميلاد وأحتسى (ضوء القمر) مع الماء الساخن ما دام باردا، أو أذهب إلى الخارج لاستطلاع أمر الدجاج، إن كان وضع فى مكان دافئ، إن كانت الخيول فى أماكنها، إن كانت سوزان البقرة السوداء، قد ذهبت إلى المأوى المخصص لها بين الأشجار لتمضية الليل. فى برد مثل هذا، تنخطف النجوم فى حركة مفاجئة مثل ذئاب الشمال الصغيرة، خلف القمر، وستشاهد ظل ذئب حقيقى يسير خلال حقل الحَلْفَاء. وأشجار الصنوبر تصدر فجأة أصواتًا خفيضة مختلسة، وكأنها تسير هنا وهناك. المكان يجيش بالأشباح ولكن عندما يعتاد المرء أشباح بيته الخاص، وهى لا تعد كثيرة أو فعالة بدرجة كافية فهى تصبح مثل عائلة الفرد، ولكنها أقرب من الدم. الأشباح هى التى يفتقدها المرء أكثر من أى شىء آخر، الأشباح هناك، فى جبال روكى، التى لا تذهب أبعد من الغابات، وتتريث مثل الحيوانات عند ينابيع المياه، إنى أعرفهم، وهم يعرفوننى: نحن نعيش معا. ولكنهم يلوموننى بسبب سفرى وهم مستاء ون أيضا.



لورنس وفريدا على ظهر الباخرة ريزوليوت، يغادران أمريكا إلى الأبد.

(١٦)

لا مبالاة

أمضى اللورنسان أسبوعا فى لندن. وهو على الرغم من جميع احتجاجاته، كانت أولى الرسائل التى كتبها من فندق غارلاند إلى مورى، استفهاما حول ما إذا كان الرجل أو لم يكن فى المدينة. ورد مورى عارضا على الزوجين بيتا ريفيا قريبا فى أبوتسبورى فى دورسيت:

رسائل (٥) ص٣١٣ : ولكن .. إنه يتناول السيد المسيح بشكل سيئ وقذر.. صحيفة نيشن تقارن مورى بالسيد بيكسنيف، على أى حال، كل شىء يبدو قذرا ومقرفا. لن أذهب هناك،

فضَّل تمضية نهاية الأسبوع مع كارسويل وزوجته، اللذين كانا "مدفونين أحياء فى منزل ريفى صغير، بشع رطب وموحش وكئيب".

جاءت باربى مع خطيبها إلى العشاء فى الفندق، وبعده ذهبوا جميعا إلى السينما لمشاهدة، (اندفاعة الذهب) لم يعجب لورنس بالخطيب، "شخص لا يعنى شيئا على الإطلاق، فى الخامسة والثلاثين، وسيكون فى يوم ما رساما، إنه فاشل بالولادة، طفيلى على عواطف امرأة". وقرر أن يقوم هو وفريدا، أن يجعلها تشعر أنه غير جدير بها، وذلك عن طريق السخرية منه، ولقد فعلا ذلك فعلا، إلا أن لورنس كان بعيدا عن ترضية مع أولاد فريدا:

رسائل (٥) ص٣٣٢-٣ : بشكل خاص، لا أستطيع تحمل أولاد فريدا، إنهم يمتلكون نوعا من تبجح سكان الضواحى وغرورهم. عندما يظهرون أختفى. حافظ الولد على ترفعه وفق عرف متحف فيكتوريا وألبرت، ومن المحتمل أنه سيجلس سريعا فى أحد الصناديق الزجاجية ليحفظ نموذجا للشاب الإنكليزى المثالى.

رسائل (٥) ص٣١١ : زار لورنس أيضا أسرة سيكر فى بريدج موت، والتقى بأسرة إيدر، ولكنه لم يلتق "المجموعة القديمة، ومنهم كوت" وذلك قبل ذهابه شمالا لزيارة شقيقاته، وفى الحال أصيب لورنس بالبرد، بعد بضعة أيام، ذهب بصحبة أدا وإيدى الذى كان يقود السيارة إلى ديربى شاير..

رسائل (٥) ص٣١٨ : "واحدة من أروع المناطق فى إنكلترا، ولكنى لا أستطيع التطلع إلى جسد الماضى الخاص بى، الروح كما يبدو قد تلاشت".. أحس بالاختناق بسبب ذكريات طفولته وكان سيحس بسعادة تامة "لو أن المكان اختفى عن سطح الأرض بنفخة واحدة".

كارسويل ٢٢٩ : فى الليلة الأخيرة، وقبل مغادرته لندن إلى بادن بادن، دعا لورنس مورى لتمضية الليل عنده، تحدثا عن المسيح ويهوذا. ووجه لورنس دعوة إلى مورى للانضمام إليه فى راغوسا أو فى مكان ما فى إيطاليا، تقبل مورى الدعوة، ربما فى نية السفر رحلة قصيرة فقط، وفى هذا الوقت منع الطبيب زوجته من السفر، التى كانت تتوقع مولودها الثانى، وفى اليوم التالى بينما كان مورى ينتظر سيارة الأجرة، هرع

لورنس لشراء كيس من الفواكه، طالبا من مورى توجيه السيارة ناحية دكان الفواكه، إن جاءت قبل عودته. ذهبت سيارة الأجرة نحو وجهة مخالفة وكان الوقت جد متأخر للعودة. وكان على مورى أن يستقل القطار ولم ير لورنس بعد ذلك قط. بعد ثلاثة أعوام، كتب لورنس:

قصائد ٦٠٣ : كتب رجل إليّ: لقد فاتنا الأمر، أنا وأنت.

كان أحدنا سيعنى الكثير للآخر؛

ولكن فاتنا الأمر

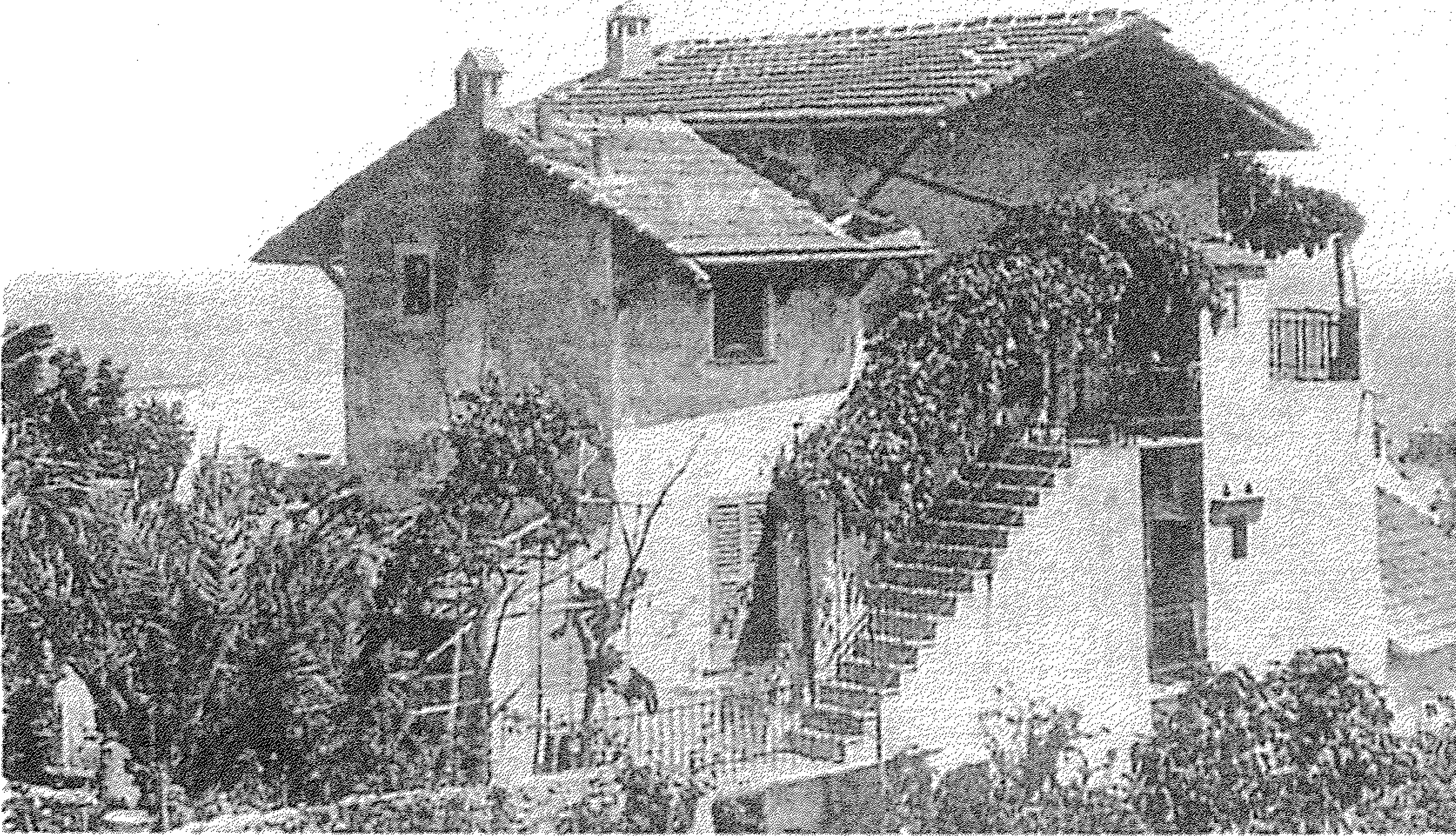
وبوسعى أن أجيب فحسب:

إن الكبوة تعادل ميلا فى الواقع

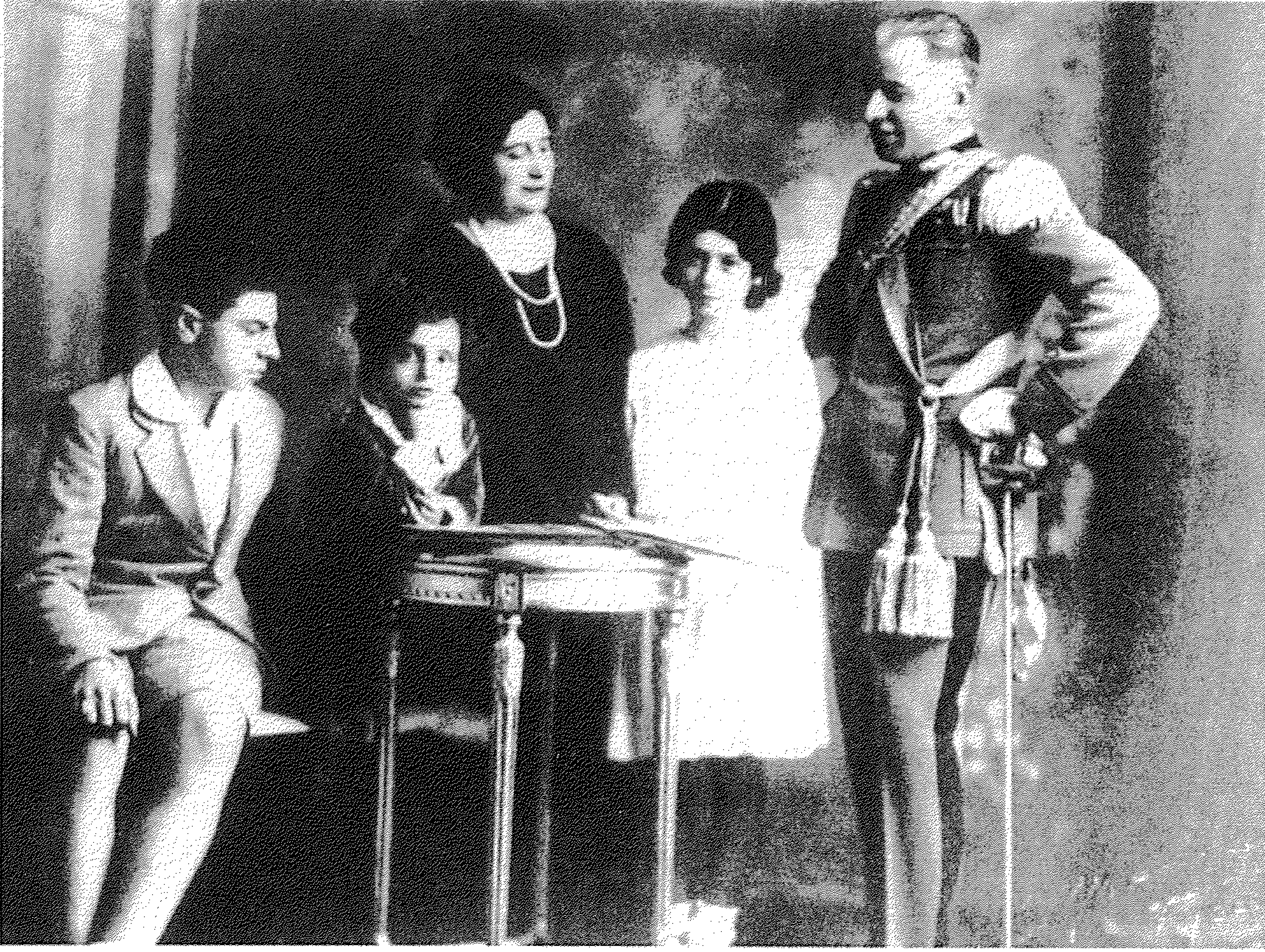
أيها السيد!

فى بادن بادن وجد لورنس والدة زوجته قد تقدمت فى السن بشكل ملحوظ مع احتفاظها بحيويتها وسط زوال مهابة لودفيك فيلهيلمستيف وكان عليه أن يهرع إلى الغابة السوداء للتخلص من جولة أخرى من لعب الورق، "مع عدد من البارونات القدماء والكونتات وأصحاب السعادة" - "أشباح مرحلة تورغنيف".

* * *



بيت لطيف قديم يبرز من التل الصغير؛ تحت القلعة، وهو فوق مستوى القرية والبحر أيضًا، الشمس تشرق، والبحر المتوسط الأبدى أزرق وشاب، وآخر الأوراق تتساقط من أعواد الكروم فى الحديقة. الفلاحون طيبون - عندى حصيلة ومخزون صغير من النبيذ الأبيض والأحمر - من حديقة هذا المنزل - نحن نأكل دجاجا مقليا وفطيرا. ونشم رائحة نبات الروزمارى الذكية هى الريحان فى عملية الطهى - وهناك شخص يحمص البن بصورة مستمرة - والبرتقال أصفر اللون فى أشجار البرتقال - إنها إيطاليا، وهى كذلك إلى الأبد".



أنجلو رفاجلى وأسرته.

عادت رينا زوجة مارتن سيكر من سيوتورنو، وقد زكَّت هى وزوجها المكان للورنسين حيث وَصَلاه فى ١٥ نوفمبر وفى الأسبوع التالى انتقلا إلى فيلاّ بيرناردا.

كانت فيلاّ بيرناردا تعود لزوجة ملازم أنيق فى بيرساغليرى وهو أنجيلو رافاجلى، الذى قدر له أن يكون زوج فريدا الثالث. لم يكن ينوى لورنس البقاء طويلا فى سبوتورنو، وكان غير واضح بالنسبة لخططه كتب إلى بريت التى كانت تقيم فى كابرى:

رســـــائل (٥) ص٣٤٣ : ربما سنقوم جميعا برحلة قصيرة، مع أمتعة خفيفة إلى أمالفى وبيستوم (التى لم أتوقف عندها قط) وصقلية أود لو أننا لم نكن فقراء على الدوام. كنت أرغب فى الذهاب إلى دالماتيا وإلى الجزر اليونانية لماذا لا يمتلك أى واحد منا يختا ليبحر فى شواطىء البحر المتوسط - اليونان وإسطنبول ودمشق ويافا ومصر وتونس والمغرب أو على الأقل الجزائر، كم كان الأمر سيكون رائعا.. ولكن حتى لو جمعنا كل ما معنا من مال، لما استطعنا أبدًا شراء سفينة صغيرة.

فى كابرى فى مارس التالى كلف لورنس صديقا يعمل فى البحر لإيجاد مركب شراعى رخيص له، ولكن لم يتم أى شىء فى هذا المجال.

وفى الوقت نفسه وجد لورنس فى إيطاليا، بعد ذلك التوتر السائد فى أميركا، لا مبالاة مريحة:

فـونيكس ١١٨ : كنت أخدع نفسى، قائلا: إن أوربا انتهت بالنسبة لى . لم تكن أوربا على الإطلاق، كانت نفسى، قابضة بقوة على نفسى ... لا إنها لراحة أن يكون المرء عند البحر المتوسط، يدع الاضطراب الذى فى داخله

يرتخى تدريجياً. هناك وفرة من الحياة فى اللامبالاة، التى هى فى الحقيقة علامة للصدق، بدلاً من ذلك الاهتمام المتهيج المتناغم الذى هو سمة حضارتنا / والذى نجد أسوأ حالاته فى أميركا.

ذلك الاقتراب من الموت قبل عام، كان له تأثير دائم على لورنس. كل ما كان يريده الآن هو أن يكون فى صحة جيدة ومسترخى الأعصاب. رفض أن يكون تام الجدية "ماعدا الفترة الزمنية ما بين الثامنة والعاشرة صباحًا .. وعندما تدق الساعة الثانية عشرة". علينا ألا نكره الأعداء، بل ننساهم . وكانت هناك الكثير من النعم التى يجب احتسابها ، وليس أقلها الشمس والبحر:

رسائل (٥) ص٣٧٢،٣٧٦ :

الشمس تعنى الكثير. إنها نعمة إلهية بحد ذاتها. دع السمك البحرى يبتلع يرقان كل الكلمات! البحر يدخل ويخرج من خلجانه، يتألق ساطعًا بشدة، هناك شىء ما يبقى أبدًا مبهمًا وسعيدا فيما يتعلق بالبحر المتوسط: أشعر وكأنى فى بيتى وأنا بجواره.



لورنس وسيكر فى فيلا برناردا.

فى شهر ديسمبر، كتب لورنس ثلاث قصص، "ابتسامة" و"شمس" و "أشباح سعداء". قصة الشمس، استوحاها لورنس بشكل واضح من حالة أسرة سيكر: كانت رينا وابنها الصغير أدريان البالغ عشرين شهراً، يأخذان حماما شمسيا فى بساتين الليمون فى سيور تورنو، بينما كان زوجها مارتن يأتى لزيارتهما كلما استطاع. فى ٣٠ نوفمبر، كتب لورنس إلى سيكر:

رسائل (٥) ص٣٤٦ :

اليوم مشمس ودافئ بشكل غير اعتيادى – كذلك كان يوم أمس. تأتى رينا اعتياديا مع أدريان فى الظهيرة. إنها الآن أفضل بكثير، كانت قلقة فى البداية، الأمر الذى يرهق والديها دون شك، ولكنها تتحسن الآن بشكل يومى. أدريان فى أوج صحته ، إنه نحيف، وهو ينمو بسرعة، وسعيد تماماً ومبتهج هنا.

ولورنس فى قصته، يهزأ من الزوج، بينما كان متعاطفا فى الحياة الحقيقية مع سيكر: "إنه إنسان دمث وطيب، من دون اهتزاز، وزوجته قطعة حية من عدم الرضا – لماذا، ؟ لا أعرف، مع أنها ليست متكاملة تماما".

أما قصة "أشباح سعداء" فقد كتبت لكتاب الليدى إسكويث عن الأشباح ولكن مزج لورنس بين الجنس والأمور الخارقة (دون ذكر المزاوجة الباهتة الخفية بينه وبين الليدى أسكويث) لم يوافق ذوقها، وقد كتب لها متحملا قصة "الفائز بالحصان الهزاز" بدلا عن تلك القصة.

عندما بدأ الشتاء ، كان لورنس يفضل الانتقال جنوبا إلى كابرى أو صقلية، ولكن فريدا كانت قد دعت بناتها، ولورنس من أجل الموازنة دعا شقيقته أدا وصديقة لها، وكان أيضا يتوقع قدوم مورى وزوجته فى شهر يناير. كانت باربى آنذاك تعيش فى الإسيو، على مسافة خمسة وعشرين ميلا، ولذا كان بإمكانها القيام بعدد من الزيارات. كانت قد أخذت تميل إلى لورنس، بينما كان ما يزال مستاء منها بوصفها جزءًا من عالم فريدا الذى لا حصة له فيه. فى إحدى المرات قذف شيئا من الخمر على وجه فريدا، أمام باربى، التى اندفعت للدفاع عن والدتها، إلا أن لورنس سرعان ما استسلم أمام إعجابه بباربى وقام بتشجيعها على الرسم مضيفا عددا من

رسائل (٥) ص٣٦٤ : الرموز إلى بعض أعمالها، أحس لورنس أن السليد Slade "وهو معهد جنائى" قد أخذ كل الحياة من عملها. وقد أخبرته باربى كيف كان النضوج فى منزل لا يمكن فيه ذكر اسم والدتها وفى أسرة تسيطر عليها عمتها وجدتها، أعاد لورنس خلق تلك الأسرة فى قصته التالية "العذراء والغجرى".

إلا أن لورنس ببقائه طوال الشتاء فى سبوتورنو استطاع أن يخطط لموسم الربيع فى ٩ يناير كتب إلى أسرة بروستر:

رسائل (٥) ص٣٧٢-٣ : دعنا نفعل شيئا بين الحين والآخر. الأفضلية للسفينة. أما أسبانيا فى شهر مارس - جزر باليريك ومايوركا ومينوركا - أو وسط صقلية ذلك المكان، أهو كاستيلفترانو، حيث الزهور تعتبر أعجوبة حقا، فى شهر مارس، فإنه المكان الذى ينهض فيه بيرسفون من الجحيم فى كل ربيع أو كالابريا - مع أن معظم الناس يصابون هناك بالتيفوئيد، بسبب الماء القذر. أو تونس إلى القيروان، عند حافة الصحراء. أو عبر إيطاليا إلى دالماتيا، سباليتو وراغوسا، وهى جميلة جدا وأيضا مونتينيغرو إلا أننا بواسطة السفينة نستطيع أن نقوم بكل ذلك بأعجوبة وأستطيع أن أكرس ١٠٠ جنيه أسترلينى للسفينة.

رسائل (٥) ص٣٨٠ : ولكن جواب إيرل بروستر الذى وجده لورنس (عديم القيمة وساخرا)، أعلن عن نيته فى السفر مع زوجته ثانية إلى الهند فى الربيع.

رسائل (٥) ص٣٧٤ : خطة لورنس التالية كانت السفر إلى روسيا برفقة كوت، الذى عاد الآن ليصبح مفضلا بعد إحجام مورى، بدأ فى الحال فى تعلم الأبجدية الروسية، وأعاد قراءة الإخوة كرامازوف، ليس بوصفها رواية بل بوصفها حياة. وقد قام بدعوة ويتر باينر إلى روسيا أيضا، ولكنه سرعان ما تخلى يائسًا عن قواعد اللغة الروسية.

فى ١٠ فبراير وصلت إدا وصديقتها السيدة بوث، ليجدا لورنس فى الفراش بسبب الأنفلونزا التى سببت نزفا له، كان المطر ينهمر بشكل متواصل، والبرد شديد، ولم تكن النيران أوقدت فى فيلاّ بيرناردا . نشب شجار بين فريدا وإدا حول من ستتولى العناية بلورنس فى مرضه.



بربارہ ویکلی


إدا تحب لورنس حبًا جمًا وأحست أن لها حقوقا تجاهه.

كانت إدا تحب لــورنــس حبا جـمــا وأحســت أن لهـا حقـوقا تجــاهــه تفــوق تلك التى لدى فــريدا، التـى هــى مجـرد زوجــة، أعلـنت إدا عن كراهيتها لفـريدا من الأعـمــاق، فى إحــدى الليــالى ذهـبت فــريـدا إلى غـرفة لورنس فــوجدت الباب مقفــلا، وكـان المفتـاح لدى إدا، أحسـت فريدا أن مـشاعرها جـرحت بشكل لا مـثيل له، فـانتـقلت هى وبناتهـا إلى الفندق، كـانت فكرة لورنس بإقامة توازن بين مـاضـيه ومـاضى فريدا، مـشئومة. إذ قـام بعد مرور عدة أيام بأخذ إدا إلى مونتى كارلو، ثم ودعها عائدة إلى إنكلترا من نيس، وبعد ذلك، غيـر قـادر على مـواجـهـة فـريدا وابنتيها هرب إلى كابرى.

مضت ستة أسابيع قبل أن يعود إلى البيت. أمضى الأسبوعين الأوّلين فى كابرى برفقة بريت وأسرة بروييستر وأيضـا فى الالتـقـاء بأصـدقـاء قـدامى مـثل أسـرة بريت يونـغ، كـانت مــارى كـانان (أصـبـحت ثرثارة بشكل لا يحـتمل)، أمـا فيث ماكنزى التى كان زوجـهـا فى إحـدى الجزر التى يملكها فقد أسـرّت إليه بشىء مما يتعلق بحياتها، وقد استخدم لورنس تلك المعلومات فى مؤلفه، "الرجل الذى أحب الجزر"، بعد عدة أشهر.
وجدت بريت لورنس مرهقا مجروحا وبائسا:

بــريـت ٢٧١ : حياتى لا تحتمل، أحس أنى قادر على الصمود أكثر. التغيير والتحول ليسا طريقى، كمـا تعلمين، وقد زهقت من كل ذلك، إنها ترهقنى أيضا، لا أعرف ماذا أفعل، لا أعرف تماما ماذا سيحدث.

قامت بريت بتشجيع لورنس على الافتراق عن فريدا، وإن لم يستطع ذلك، فعليه على الأقل "أن يستمتع عندمـا يكون الجو مـلائما"، وعندما رحلت أسرة بريوسـتر إلى الهند، أخذ لورنس بريث معه إلى رافيللور ظاهريا لزيارة مـيليسنت بيفريدج وميبل هـاريون، التى كانت تعيش هناك، كانت غرفتـهما متجاورتين فى فندق بالومبو وقد سجلت بريت ما حدث:

بــريـت ١١١: دخل لورنس غـرفتى فجـأة وهو فى منامـته وقـال لى: "أنا لا أعـتقد بعلاقـة ما لم تكن هناك أيضـا علاقـة جسدية". كنت خـائفة كما كنت مستفزة. جاء إلى فراشى، استدار وقبلنى ما زلت حتى الآن أحس بنعومة لحيتـه وبتوترى. ومـا زلت أحس بالرغبة الغـامرة فى أن أكون مـلائمة له، كنت تواقـة بانفعـال كى أكون ناجحة، ولكنـى لم أكن أمتلك أى فكرة عما أفعل، لم يحدث أى شىء، قام لورنس فجـأة وقال: "لا فائدة من الأمر" وخرج من الغرفة كنت مدمرة، عاجزة ومرتبكة.

(*) بان – إله الغابات والمراعى والرعاة (المترجمة)

طوال اليوم التالى، كان لورنس كئيبا بعض الشىء لم يقل شيئا وأنا بدورى كنت متوترة وعصبية وغير قادرة على قول أى شىء وحتى لو كنت أعرف ماذا أقول. فى تلك الليلة، توجه نحو غرفتى وقال: "لنحاول ثانية"، ومرة ثانية جاء إلى فراشى حيث استلقينا عليه شعرت باليأس، كل الحب الذى كنت أحس تجاهه، كل الحميمية الروحية معه والرغبة العنيفة لمنح ما شعرت أنى يجب أن أمنح، أحبط بفعل الخوف والجهل بما أفعل، حاولت أن أكون محبة ودافئة وأنثوية. وكان - كما أعتقد - يجاهد أن يكون رجلا ناجحا كان الأمر ميئوسا منه، وفشلا مريعا ويائسا".

قرر الاثنان أنه من الأفضل أن يفترقا مؤقتا، كان على بريت العودة إلى كابرى، رافقها لورنس حتى المركب، كان، كما قالت: "لطيفا، قلقا ومضطربا" بقى الاثنان يلوحان طويلا بعضهما لبعض. لورنس، فى عربته، صاعدا التل وبريت واقفة على رصيف الميناء، لم ير أحدهما الآخر مرة أخرى قط، بعد بضعة أيام كتب لورنس لبريت:

رسائل (٥) ص٤٠٦ : ما على المرء سوى النسيان وتقّبل ما هو مفيد وصالح. نحن لا نتمالك أنفسنا بقليل أو كثير من التعرض للأذى، الذى يتوجب علينا فعله هو التشبث بالجزء الصالح من أنفسنا ومن كل واحد منا، ونواصل التفهم بناء على ذلك. لا أرى ما يحول دون أن نصبح أصدقاء على نحو أفضل، بدلا من أسوأ ولكن على المرء ألا يحاول الإكراه على أى شىء.

فى شهر مايو عادت بريت إلى مزرعة كيوا.

بعد مغادرة بريت بفترة قصيرة، وصلت رسالة معتدلة من فريدا. توجه لورنس شمالا ببطء برفقة ميللى بيفيردج وميبل هاريسون، ممضيا بضعة أيام فى بيروجيا، أسيسى، فلورنسا، ورافينا عاد إلى سبوتورنو فى بداية شهر أبريل ليجد ثلاث نسوة ينتظرنه فى المحطة متألقات بقبعاتهن الخاصة بعيد الفصح: "الكل هادئ ومرحب هنا - تغيير تام"

رسائل(٥) ٤١٠: وجد لورنس الآن، أنه بالإمكان ضم باربى وإلسا إلى صفه.

رسائل (٥) ص٤٢١ : وجدت فريدا وقد أصبحت أكثر لينا بكثير. ابنتاها شديدتان معها. إنهما ببساطة لا تحتملان الغطرسة، وتهاجمانها بضراوة على أسلوبها، الأمر الذى يربكها ويحيرها إلى حد كبير، أنا أتسلى بما يدور.. إنها باكتشافها أن ابنتيها أكثر قسوة بكثير وأكثر تصلبا معها منى، بدأت تغير طريقة تفكيرها فى العديد من الأمور.

لم يكن التغيير من جانب فريدا وحدها، فلورنس نفسه أصبح أكثر تشذيبا:

رسائل (٥) ص٤١١،٤١٧ : أنا فى هذه اللحظة، حمل الفصح، عندما سافرت كنت غاضبا جدا، ولكنه يجب على المرء أن يكون قادرا على أن ينسى الكثير ويتواصل.. سأكون سعيدا عندما يكون هذا الشتاء الممل والموحل فى حكم المنتهى.

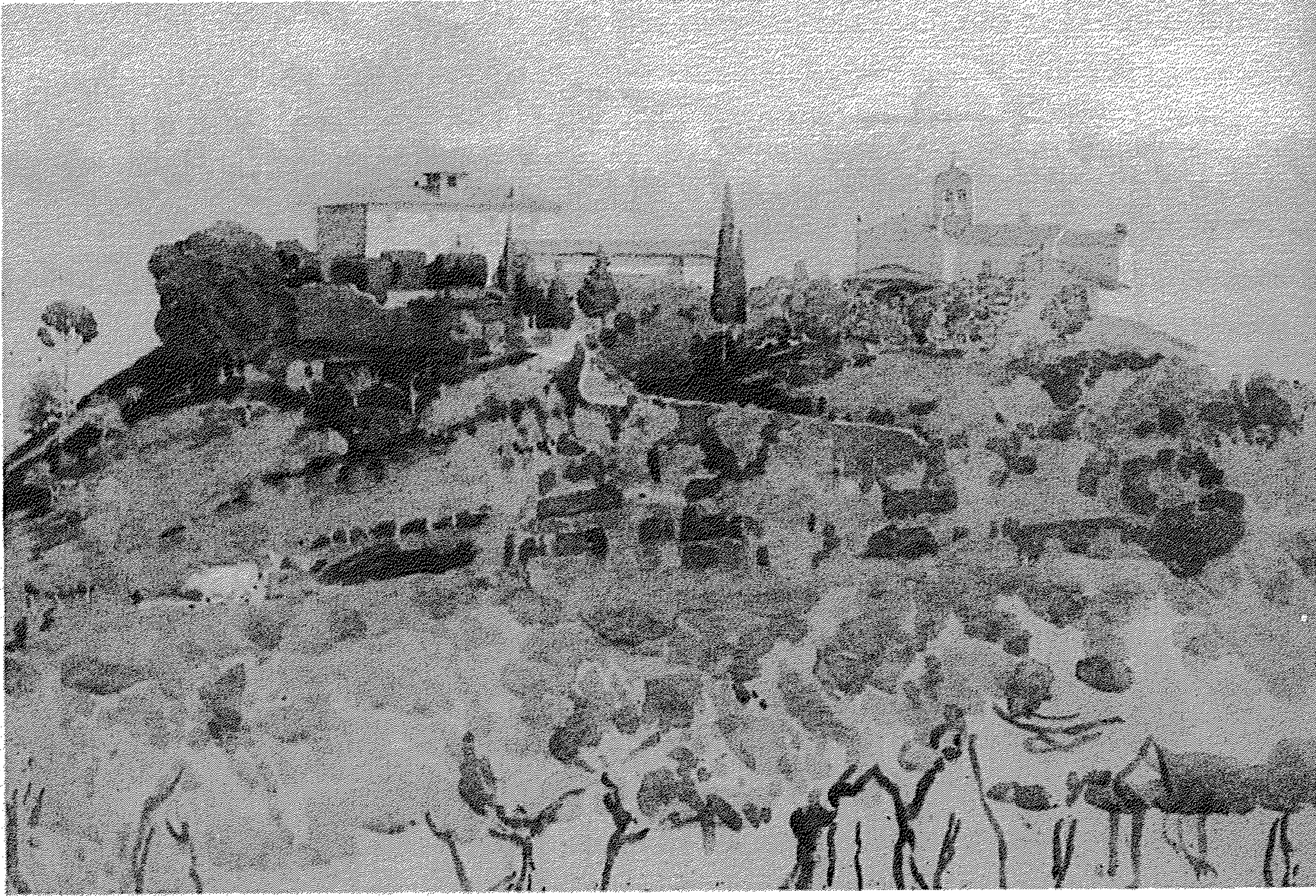
* * *

لم يكن للورنس أى تعاطف مع الفاشية الإيطالية الصاعدة. فى ٧ أبريل أطلق صاحب الشرف فايوليت جيبسون رصاصة على موسولينى، مرت عبر أنفه، فى اليوم التالى نصح لورنس رافاجلى قائلاً : "مرر حلقة فيه". كان فى فلورنسا قد سمع قصصا مرعبة عن روسيا، وحماسته نحوها تبخرت إلا أن ما ألهب خياله كان متحف الجامعة فى بيروجيا الذى دفعه إلى الرغبة فى الكتابة عن إيتروسكانيا:

رســـائل (٥) ص٤١٣ : قد تذهب إلى بيروجيا، وقد أؤلف كتابا عن بقايا إمبرياواتيروسكانيا. سيكون نصفه من نوع كتب الرحلات والنصف الثانى عن إيترو سكانيا. التى تثير اهتمامى بشكل كبير.

فى ٢٠ أبريل كان اللورنسان لا يزالان مع باربى وإلسا، وقد غادروا سبوتورنو إلى فلورنسا.

رســـائل (٥) ص٤٣٦ : استمتعت فريدا بتمضية الوقت مع ابنتيها اللتين لهما "سيقان طويلة".. أرادت أن تستقر زمنا فى بيت فى مكان ما بالقرب من فلورنسا. لم يكن لورنس يعرف ما يريد، أبعد من جلوسه تحت شجرة قنب فى مكان ما. فى ٢٨ أبريل، اليوم الذى غادرت فيه البنتان ذهب اللورنسان للبحث عن شقة خالية فى فيلاّ ميرنيادا، سان باولو موسيانو، فينجونى، التى تبعد سبعة أميال عن فلورنسا على تلال توسكانيا، استأجرا الطابق العلوى لمدة عام:



سان باولو موسكيانو . أكبر المبانى هنا هو ڤيلا مايرندا. "هناك فيلا مبنية على قمة تل من التلال التوسكية الصغيرة – اشتاق قلبى إلى تلك الڤيلا . رغبت الحصول عليها . كانت الفيلا كبيرة إلى حد ما، لكنها جيدة المكان، وتسمح برؤية بانورامية بلدة ڤالدارنو الموجودة أمامها، فى حين توجد فلورنسى على يسارها، ومن خلفها توجد غابات أشجار الصنوبر الشبيهة بالمظلة. (فريدا لورنس) من رسم رسمة آرثر ولكنسون.

فريدا ٢٠٣–٤ : قمنا بصبغ مَصاريع النوافذ والكراسى باللون الأخضر، ووضعنا سجادة وبرية سميكة بلون العشب الشاحب على الأرضية المكسوّة بمطاط أحمر لغرفة المعيشة الكبيرة، كان لدينا عدد من الكراسى نوع فالومبروسا، حَول المائدة، جهاز بيانو مستأجر، أريكة ومقعد قديم. كانت الجدران بيضاء.. تم كل ذلك بسرعة، وانهمرت الشمس على الغرفة الكبيرة هادئة تماما وساخنة. الأصوات الوحيدة كانت تأتى من الفلاحين ينادون أو يغنون خلال أعمالهم، أو صوت الماء وهو يسحب من البئر أو الصوت الأفضل القوى جدا تقريبا، كانت أصوات العنادل وهى تغنى بشكل متواصل منذ انبثاق الفجر، الربيع فى ذلك العام كان

كشفا للأزهار، من أولى البنفسجات فى الغابة.. استمتعنا بامتلاكنا حوالينا بلدة غير معطوبة، أقرب إلى العصور الوسطى.

انصرف لورنس إلى العمل فى الحال لكتابة "عصفوران أزرقان" و"قراءة ما يتعلق بإيتروسكانيا التى تهمنى جدا".

رســـائل (٥) ص٤٦٥ : تماثيلى البرونزية والفخارية جميلة جدا، تبدو كأنها حقيقية وحية، مع قوة مادية، والتى هى بالتأكيد بعظمة أو بقداسة المثل الأعلى لليونانيين والألمان.

رســـائل (٥) ص٤٤٧ : فى فيلاّ بوجى، المجاورة كانت أسرة ويلينسون:

هناك عائلة إنكليزية بجوارنا، رؤيتك لها ستسبب لك نوبات عاطفية: إنه يمتلك أكثر اللحى الحمراء غلاظة، يبقى فى المكان طوال الوقت – وزوجته وابنته وابنه، الجميع يرتدون الصنادل ويحملون حقائب على ظهورهم، إلا أنهم مرحون وماهرون، يرسمون ويعزفون على الجيتار وأشياء أخرى، تعودوا على عرض من ألعاب الدمى الجميلة، دمى يصنعونها بأنفسهم يذهبون مع قافلة ما، يقدمون العروض فى كل القرى فى إنكلترا، شىء مسلّ! .

كانت عائلة ويلكبنسون ميالة كثيرا إلى المشى، ومن محبى الطبيعة والحفلات الموسيقية ورواد مسارح، يسعون بنشاط إلى الثقافة والصحة، فى محاولة لجعل كل يوم عملا فنيا غير ملطخ بأفعال قبيحة لأناس آخرين فى العالم وراء تلال توسكان. هذه العائلة قامت برعاية لورنس بسبب إظهار سخطه على ذلك العالم: "الرجل المسكين – أى كابوس يعانى".

نيـرنر ٥٤ : أطلق عليهم لورنس اسم "المتطفلين القرويين على الفن"، ومع ذلك شكل اللورنسان وعائلة ويلكبنسون صداقة دافئة ودائمة، وسرعان ما تعلم لورنس ألاّ ينطلق فى هواياته أمامهم كثيرا. وعدم تعاطفه مع أسلوبهم فى الحياة، لم يجد وسيلة للتعبير عنه إلا عن طريق المزاح الخفيف المعتدل. فى كل يوم تقريبا، كان هناك بعض الوقت لتمضيته مع "أسرة ويلكبنسون" – شاى أو حفلات عشاء – إنشاد أغنيات، سير على الأقدام، رحلات قصيرة..

فى يوم مثالى من يونيو، كان لورنس ينهض من النوم فى حوالى السادسة صباحا ليمشى نحو غوفينغون مع سلة لمشتريات المؤن اليومية ثم يمضى بقية الصباح جالسا بين أشجار الزيتون بالقرب من فيلاّ ميريندا، ليكتب آخر قصصه "الرجل الذى أحب الجزر". بعد الغداء والقيلولة، كان يجلس فى الشرفة ليطبع ما ترجمته فريدا من كتاب ديفيد إلى الألمانية، بعد العشاء كان من الممكن حضور أسرة ويلكبنسون "فى وجود الكيك وشراب الكومل الموعود، ودعنا نأمل بمعزوفة أو اثنتين"



* * *

لوهان ٣٠٧ : في ١٢ يوليو، غادر اللورنسان ميريندا إلى بادن بادن، للاحتفال "بالذكرى الخامسة والسبعين لميلاد البارونة"، ثم إلى إنكلترا. وجد لورنس ألمانيا هادئة، شرب المياه الساخنة من أجل "قصبته الهوائية السيئة والهزيلة" وسار في الغابات شديدة الخضرة الكثيفة الأشجار وفي نهاية الشهر، كان اللورنسان في جيلسي وهناك قابل لورنس مونتاغو ويكلي للمرة الأولى، منذ هروبه مع فريدا، وأحدث تأثيرا سريعا فيه. كانت فريدا مندهشة وسعيدة "للمودة اللطيفة" بينهما، "مشاعر مفعمة بين الطرفين".

رجل شاب آخر جاء لزيارة لورنس في روزيتِّي غاردنز وهو رولف غاردينز. كان غاردينز قد وجد كيمبردج غير مناسبة له، واختار لورنس بديلا ومنارة للإرشاد، فهو شاعره البطل والشخصية الأدبية المحاطة بالإعجاب، كان غاردينز قد انخرط في حركة كيبوكيفت لهارغريف، وبعد شعوره أن الحركة تميل نحو الفاشية، خرج منها محاولا تأسيس منظمة عالمية للشباب حسب مجرى أفكار لورنس - مكَرَّسَةً لتدمير التنظيم الصناعي للمجتمع، والمذهب العقلي والديمقراطية من أجل المصلحة الفردية والأرستقراطية الطبيعية. كان غاردنز يرغب في انضمام لورنس إليه، كان لورنس منجذبا ولكنه حذر:

رسائل (٥) ص١٠٥-٢ : إلا أنني أحب المجيء إلى يورك شاير، بل أحب أيضا أن أمارس لعبة السيف مع عمال منجم الحديد وراء ويتبي، أحب أن أكون مرتبطا بشيء مع عدد محدود من الناس في شيء ما، وعلى قدر ما يتعلق بالأمر، كنت دائما منفرداً بنفسي كثيرا وأنا نادم على كل ذلك، ولكني لا أستطيع الانضمام إلى نوادٍ أو جمعيات أو الماسونية، أو أي شيء رديء، ولهذا إن كان هناك معك نوع من فعالية يكون بمقدوري الانضمام إليها فسأشكر طالعي. ولكني بطبيعة الحال سأكون حذرا جدا قبل أن أتعهد بذلك.

في اجتماعهما استجوب لورنس الكثير من غاردينز كان غاردينز الرجل الوحيد الذي قابله لورنس والذي استجاب تماما لاختباره، والذي جاء إلى منتصف الطريق لملاقاته. والذي كان مستعدا لتكريس حياته بأكملها للقضية الكبيرة. قوته الشديدة، ربما أخافت لورنس وإلحاحه على إقامة المخيمات، السير مسافات طويلة، الرقص وغير ذلك من الفعاليات العنيفة، لم تكن تماما أسلوب لورنس، وقد نصحه لورنس بالتخلي عن ذلك كله ومحاولة تأسيس "أديرة مرنة" - أقرب إلى الازدهار، بالتفويض. في عودته إلى إيطاليا، كتب لورنس إلى غاردينز:

رسائل (٥) ص٥٩١ : علينا أن نؤسس بقعة على الأرض، تكون شقًا إلى العالم التحتي، مثل مهبط الوحي في ديلفي، حيث يكون بمقدور المرء المجيء إليها دائما. سأحاول القيام بتأسيسها بنفسي. سأحاول القدوم إلى إنكلترا واختيار مكان ما - منزل هادئ في البلاد، حيث يمكن للمرء أن يبدأ - ومنه يكون المسافر ربما قادراً على التفرع منه. مكان ما فيه مخزن للحبوب وحظيرة للماشية وقطعة صغيرة من الأرض - إن كان المرء يمتلك بعض المال.

وأجاب غاردينز:

نيـــهلز (٣) ص١٢٢ : فكرتك عن مركز ما كانت في بالي منذ زمن طويل، يجب علينا أن نمتلك ملكية تامة للأرض ونسعى من أجله بصدق وبراعة. علينا أن نعود إلى القوة الحقيقية ثانية، وكل شيء من دونه غير ذي جدوى.. نريد المزارع مع المباني والقصور والأديرة من جديد، مثل الكنيسة ونظام الفروسية الذي كان في العصور المظلمة الكثير من هذه المراكز وربما دولة ضمن دولة تنمو مثل براعم جديدة تحت أشجار فاسدة.. دولة داخل دولة من البحر الإدرياتيكي إلى القطب، من ويكسيل إلى الأطلسي.. أعتقد أن الأمر ممكن لهذا فأنا أفكر في أن على المرء أن يحرك الناس أولا بنشاط منظم، يهيئ جماعات في كل زاوية من شمال أوربا، إلا أنه لا توجد حتى الآن منظمة قوية وراسخة ومتماسكة: هناك المناهج فحسب، وربما الرمز يجدرازيل(*) .

لم يكتب لورنس ردا على هذه الرسالة لعدة أشهر، وعندما جاء الرد كان موحيا:

رســـائل (٦) ص٩٦ : ولكن لا تنسَ أنت نفسك تريد أن تكون فجأة وبشكل تام قائدا مبرزا، متأهبا ومسلحا بموهبة من عقل جوبيتر. لن يتبعك الإنكليز – حتى ولو حفنة منهم – سترى إن فعلوا.. ولكن انطلق – لا يوجد شيء من دون محاولة.. سأكون مسرورا لمعرفة ما الذي تفعله من "مركزك"، عندما تحصل عليه، يبدو لي أن الأكثر أهمية هو – أن العالم مبحر نحو انهيار – المخيمات والترحل لن يفيد بشيء، ولكن وجود سفينة صغيرة في مكان ما، مكان هادئ سيكون نافعا. إذن افعل إن استطعت".

ولكن لا يوجد المزيد من الحديث حول انضمام لورنس للمغامرة.

فونيكس ٢٦٧ : أحرز غاردينر مزرعة "غور" في دور سيث من عمه، بنى مخزنا كبيرا للحبوب هناك، وبدأ المنبع لمركزه، إعادة التنظيم الريفي وكان قد عاد لورنس إلى تنفيذ وعده، إلا أنه كان متأخرا حوالى سنة. إذ كان لورنس قد أصبح أكثر رقة بفعل أوربا، هناك في أميركا "شيء ما في الروح يفني: النعومة، والتألق والرقة الطبيعية". وقد أنعشت أوربا هذه الخواص فيه. في عيد الميلاد ١٩٢٦، كان غاردينز قد كتب:

نيـــهلز (٣) ص١٢٢ : "إني أصدق ما عنيته في "الأفعى المريشة" بجدية تامة بالنسبة لي، كانت مقالة جريئة رائعة للتفكير في القضية وبحث كيفية العمل إزاءها في مكان ما.

في العام ١٩٢٥، كان لورنس سيجيب كما كتب لسيكر: "أنا أعنى حقا ما عناه رامون – بالنسبة لكل

رســـائل (٦) ص٣٢١ : واحد منا". ولكنه في نهاية عام ١٩٢٦ كان في طريقه للتنكر لدون رامون:

(*) يجدرازيل: شجرة سدر ضخمة تربط الأرض والسماء والجحيم معًا بجذورها وأغصانها. (المترجمة)

البطل(*) هو من طراز عتيق وقائد الرجال شخص محافظ متمسك بالأساليب القديمة، وبعد كل شيء يقف خلف البطل المقاتل النموذج: والمقاتل النموذج أو النموذج المقاتل يبدو بالنسبة لى شخصا واهنا أيضا، نحن بشكل ما نشمئز من كل الهيئات العسكرية والروح العسكرية، ولم يعد الناس تستخدم اسم، مايلز(**)، علاقة القائد بالأتباع هى مصدر إزعاج والعلاقة الجديدة ستكون متصفة، نوعا ما بالرقة والحساسية، بين رجال ورجال ورجال ونساء، لا أن يكون الواحد أعلى من الآخر، قدنى إلى الضلال، أتبعك إنه نوع من عمل.



رولف غاردنر، مايو ١٩٢٨ من صورة رسمها ماكسويل آرمفيلد.

رسائل (٦) ص٣٠٧ : استمر لورنس فى إسداء النصح لغاردينز ولكنه أكد أن القيادة يجب ألا تؤسس على القوة ولكن على "تبادل الرقة". أصبح غاردينز رائدا فى المحادثة والعلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها، ميدان كان يُعْتَقَدُ أن لورنس سيكون جد فعال فيه إن كان عاش النصف الثانى من القرن. كان لغاردينز بعض التأثير الدائم فى لورنس الذى وضع فى" عشيق الليدى تشانرلى" ، "حلم حياة" و"توتنغهام والمناجم المتاخمة" شيئا من يوتوبيه (فضيلة) غاردنز، وحماسته للرقص والغناء الشعبى.

* * *

دُعى لورنس من قبل صديقين لزيارة سكوتلندة، كومبتون ماكنزى إلى جزيرة بعيدة عن لويز، فى ضواحى هيبرايدز، وزيارة ميللسنت بيفريدج، فى موطنها نيوتونمور، فى أنفيرنيس، قبل لورنس الدعوة الأخيرة، وخلَّف فريدا فى لندن، ليصل نيوتونمور فى ١١ أغسطس ومن هناك قام برحلة قصيرة إلى سكاى التى أحس فيها أنه قد استعاد آدم القديم فى نفسه:

رسائل (٥) ص٥١٢ : (هناك لا يزال شيء من الأوديسة، بين الجزر والبحيرات. ومثل الفجر الكاذب لصباح العالم، طيور مالك الحزين تصطاد من دول لن يعكر صفوها أحد عند الماء، والبحر يجرى مسافة أميال بين التلال الهزيلة المبتلة حيث البيوت الريفية منخفضة وشبه غير مرئية مبنية فى الأرض.

(*) يتحدث عن البطل فى رواية الأفعى المريشة. (المترجمة)

(**) مايلز :تعنى جندى. (المترجمة)



لورنس ومعه شقيقته أدا فى ميبلثورب، «أحب هذا الشاطئ المنبسط، إنه المكان الذى عرفت منه البحر أول مرة»

"الرجل الذى أحب الجزر"، لم يكن كومبتون ماكنزى فقط، ولكن لورنس نفسه ومن سكوتلندة ذهب لورنس مباشرة إلى ميبلثورب، على ساحل لينكولنشاير، حيث كانت شقيقاته قد استأجرن بيتا ريفيا لمدة شهر، وانضمت إليه فريدا بعد بضعة أيام واستأجرا بيتا ريفيا فى سوتون – أون – سى لأسبوعين على مبعدة ميلين.

رســـــائل (٥) ص١٩٥–٢٠ : بشكل غريب أحب إنكلترا مرة أخرى وأنا الآن فى المقاطعة التى أنتمى إليها، إنها تثير نشاطى وتقوى معنوياتى: ويبدو أن هناك شيئا غريبا، غير سوىّ، كامن فى هؤلاء الناس، خاصة عامة الناس، يحس المرء فيهم تنوعًا غريبًا غير مألوف من فصيلة دم متألقة ووليدة إنهم لم ينتهوا بعد، لديهم نوع عجيب من النقاء والدماثة، وفى الوقت نفسه القدرة على عدم الانكسار وذلك يجذب المرء. ولكن تأثير إضراب الفحم أقلقه:

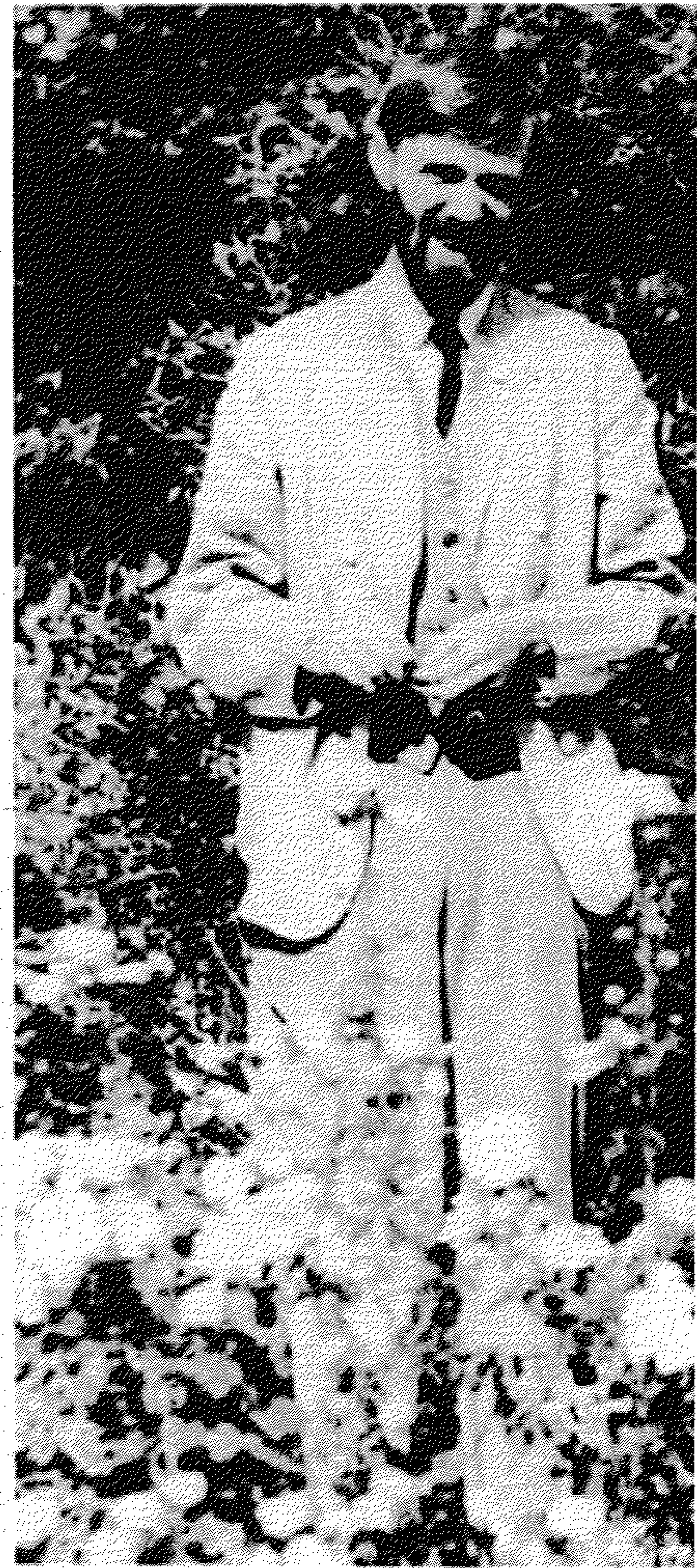
رســـــائل (٥) ص٥٣٦ : هذا الإضراب قد أحدث ضررا كبيرا وهنالك الكثير من البؤس – عوائل تعيش على الخبز والزبدة والبطاطس – ولا شىء أكثر.

أما الأمر الذى أبقى لورنس فى إنكلترا فكان رغبته فى حضور البروفات الأولى لمسرحيته، ديفيد، والتى كان من المقرر تقديم عرضين لها من قبل "ستيج سوسايتى" فى نهاية أكتوبر. ولكن عندما عاد لورنس إلى لندن فى ١٦ أكتوبر أيلول، وجد أنهم قد أجلوا إنتاجها حتى ديسمبر، وأحس أنه لن يستطيع الانتظار أكثر. كان قد أعطى وعدا بالعودة إلى بادن، من أجل علاج الاستنشاق واتخذ قرارا أنه قد اكتفى من السفر، وعليه العودة إلى ميريندا فى موسم حصاد الكروم. غادر اللورنسان إنكلترا فى ٢٨ سبتمبر، كانت زيارة لورنس الأخيرة لمسقط رأسه.

(١٧)

رقَّـــــة

ما شاهده لورنس فى إنكلترا قد أقنعه أن البلاد كانت على حافة حرب طبقية. فى منتصف أكتوبر بدأ قصة عن كيف أن شخصين عبر حساسيتهما ووعيهما واحترامهما للحياة دون أى شىء آخر من الممكن أن يقيما جسرا متجاوزين هوّة الطبقة القدرية ويبنيا فلكهما الصغير ضد الفيضان القادم، حكاية سيطلق عليها اسم "عشيق الليدى تشاترلى".





لورنس وفريدا بصحبة ميلسنت بيفردج فى ڤيلاتها بالقرب من فلورنسا.

فى يونيو المنصرم، كان لورنس قد زار السير جورج والليدى إدا سيتويل فى قصرهما الذى يعود إلى القرون الوسطى فى مونتجو فوني، بالقرب من فلورنسا وعندما أطلع السير جورج فريدا على مجموعته الضخمة من الأسرة التى يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر، أثارت دهشته بتجربتها جميعا، كان بين لورنس والسير جورج قاسم مشترك واحد وهو المعرفة التامة بديربى شاير ومن الجائز أن السير جورج حدَّث لورنس عن العناء الذى يبذله ابنه أوسبرت فى الحفاظ على سوتون سكارسديل، وهو قصر يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر قريب جدا من قصره رينيشو. فعائلة أركرايت البارزة جدا فى الثورة الصناعية قد شغلت سوتون سكارسديل لأكثر من مائة عام، إلا أنها باعته فى عام ١٩٢٠ وكان آخر فرد من عائلة أركرايت قد شغله هو ويليام أركرايت، قد توفى فى عام ١٩٢٥ ولابد أن السير جورج قد تحدث عن قصته الغريبة فقد ولد عام ١٨٥٧، تلقى التعليم فى إيتون وكريست جيرج، وعانى ويليام أركرايت من إصابات فظيعة عند سقوطه عن حصانه وهو فى سن العشرين. استلقى طريح الفراش، فاقد الوعى ستة أسابيع وعولج بإدخال صفيحة فضية فى رأسه. بعد أن استعاد صحته تماما بدأ يكتب. أنجز ثلاثة كتب وأصبح خبيرا لغويا. إلا أن تلك الحادثة تركته عنينا. بعد سبعة أعوام وضد نصيحة أسرته تزوج من شابة جميلة من عائلة أرستقراطية، وهى أغنس مارى سومرز – كوكس. لم يكن الزواج سعيدا وعاشا منفردين معظم حياتهما.

لقد اقتُرح على لورنس خلال زيارته للندن، أن عليه زيارة أوسبرت وإيديث فى قصر رينيشو. وقد فعل ذلك خلال جولته فى ديربى شاير بسيارة شقيقته، ولكن عائلة سيتويل كانت قد غادرت إلى إيطاليا. مع ذلك، كان قد شاهد ما يكفى من القصر وما يحيط به، لاختياره نموذجًا لـ راغبى **Wragby**،



لورنس وفريدا فى مايرندا. صورة التقطها آرثر ولكنسون

فى الليدى تشاترلى. قابل لورنس أوسبرت سيتويل فى مايو التالى، للمرة الأولى، وكان فى ذلك الوقت قد كتب النسختين الأوليين من عشيق الليدى تشاترلى. ومع أنه لم يجسد بعض ملامح أوسبرت فى السير كليفورد تشاترلى، فى النسخة الثالثة، فإن السير كليفورد لم يكن بأى معنى، كما ادعت إيديث سيتويل فيما بعد، "صورة لأوسبرت"، وأن عائلة أركرايت، وليست عائلة السيتويل، هى التى ربما أوحت بالقصة.

* * *

فى لندن، كان اللورنسان قد جدَّدا صداقتهما مع أسرة الدينغتون، ريتشارد وأرابللا، ووجها إليهما دعوة لزيارة، ميريندا، وقت حصاد الكروم. وجدا المنزل محوطًا بمجاميع من عناقيد عنب صغير وحلو، وكميات كبيرة منه للتخمير فى الطابق السفلى فى انتظار عصرها. كما أنهما وجدا اللورنسين يانعين بنفس الدرجة. كانت الأشهر التسعة التالية بداية فترة فاصلة ذهبية فى حياة لورنس فى ميريندا.

الزوار التّالون كانوا ألدوس هكسلى وماريا هكسلى، اللذان كان لورنس قد التقاهما فى لندن، كانت لهكسلى الخلفية نفسها لمورى، نفس وجهات النظر غير المركزة، وكانت جماعة بلومزبرى قد أولته شأنًا، ولكنه كان على العموم أكثر ذكاء من مورى، عقلية منفتحة، محبًا، جديرًا بالثقة، أكثر من مورى. ونظرًا لأن لورنس قد تعلم الآن أن يطلب القليل من أصدقائه، فقد ازدهرت الصداقة.

كان الزوجان هكسلى قد اشتريا، توًا، سيارة إيطالية حديثة، وحاولا إقناع لورنس بشراء سيارتهما القديمة - المثالية لجولته الأتروسكانية:



لورنس والدوس هكسلى فى فيلا مايرندا، ٢٨ اكتوبر ١٩٢٦ صورة التقطتها ماريا هكسلى.

رســائل (٥) ص٥٦٦ :

ولكنى لن أزعج نفسى بتعلم القيادة وأن أبذل جهداً مع الماكينة. ليست لدى الرغبة للانطلاق بها فى البلاد بنفسى. الأمر أفضل فى الذهاب بهدوء إلى غابات الصنوبر والجلوس هناك وأن أفعل ما أود فعله. لماذا الركض من مكان إلى مكان.

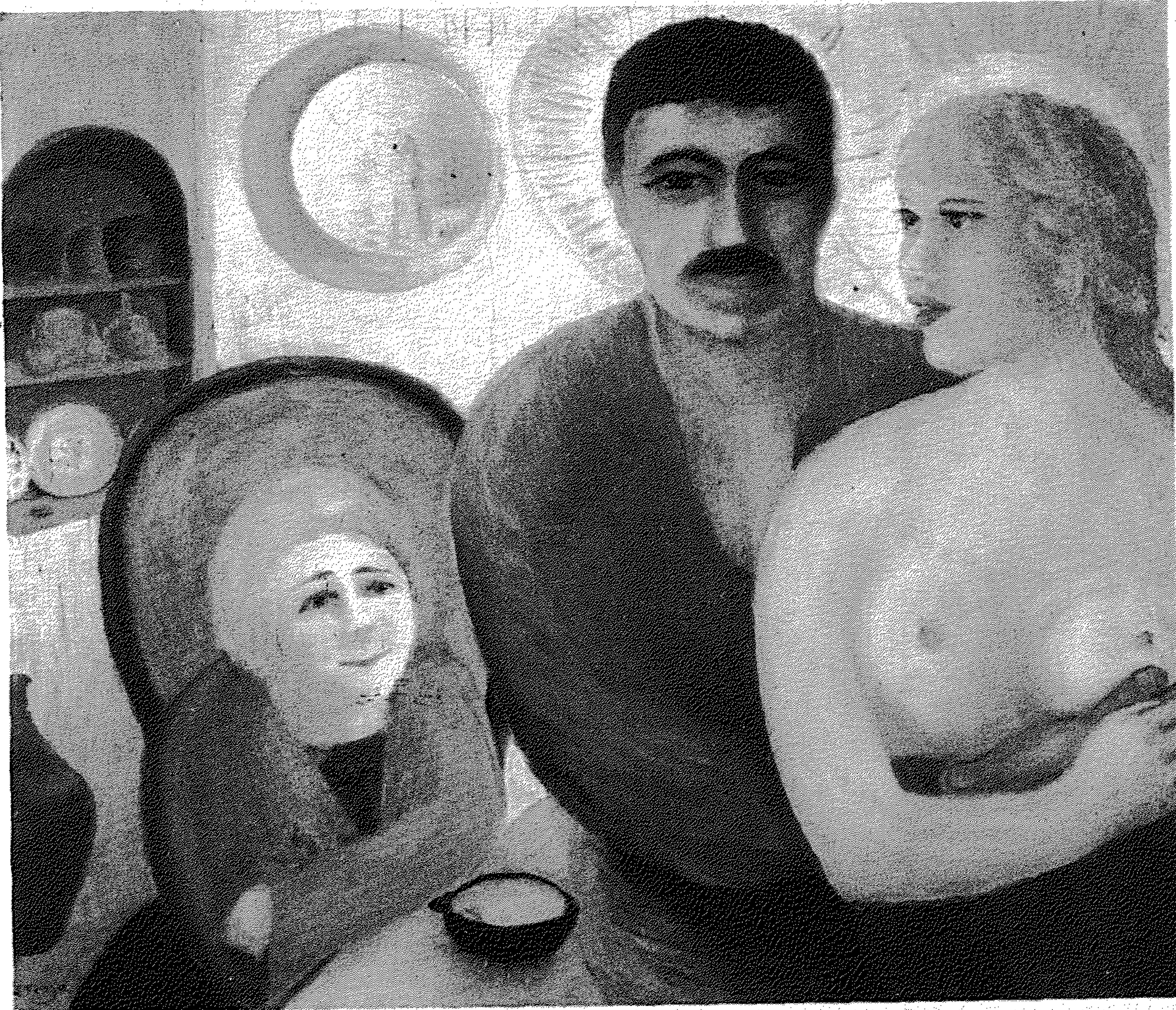
نجح الهكسليان فى التخلص من عبء أربع قطع من قماش القنب (كانفاس)، كانت مهملة فى دارهما. بعد أن شبع لورنس من صبغ الأبواب والنوافذ والأدراج، لم يستطع مقاومة ذلك.

فونيكس (٢) ص٦٠٣ :

جلست على الأرض وقطع القماش مسندة على كرسى - وببعض من فرش التلوين وبعض الألوان فى أطباق خزفية صغيرة، تلاشيت فى ذلك الكانفاس.

رســائل (٥) ص٥٧٤ :

اللوحة الأولى التى ظهرت أطلق عليها، عائلة غير مقدسة. "لأن الطفل - بهالة نورانية - يرقب بقلق ليرى الشاب وهو يحتضن المرأة شبه العارية... الكثير من الحداثة"حسبها آل - ولكنسون وبقعه على الجدار":



عائلة مقدسة، (نوفمبر ١٩٢٦) ، زيت على قماش الخيش ، ٧٦×٦٥سم

تيـــــرنـر ٣٠: العم روجر، وامرأة متينة بلهاء تفتقر إلى القسم الأكبر من ملابسها، وطفل متبجح، كل هؤلاء فى تجميع كريه. ولورينزو يفسر ذلك على دوائر، ومنحنيات وألوان، ونحن نتركه يقول مايريد ولا نعرضه للنقد.

من أجل لوحته الثالثة، استعار لورنس بعد أسبوعين، مسنداً خشبياً من أسرة ويلكنسون، لأنه كان يولى عناية جادة برسمه:

رســـــائـل (٥) ص٦٠٠ : أتظاهر بكتابة رواية – المشهد فى إنكلترا – ولكننى أكثر قرباً من مايسترو يرسم لوحة لقصة بوكاشيو عن راهبات يجدن فلاح حديقتهن نائماً بين الأشجار فى ظهيرة حارة، وقميصه قد انكشف عما يسرّ الناس بتسميته "الفرج" والذى أسمته الراهبات، موضع الاعتزاز. صورة جميلة جداً.

(وهى بالتأكيد لوحة جميلة، الراهبات فى "أردية مثل زهور الخزامى"، يهززن قبعاتهن الصفراء بلون العسل، يسرن على أطراف أصابعهن عبر حقل محروث مسيج بأشجار زيتون تتدفق فضة، نحو الفلاح المنبطح ذى الأطراف المتوهجة، الذى يتظاهر بالنوم فحسب. ونظرا لأن آل – ولكنسون اكتشفوا أن لوحة (أشجار الصفصاف الحمراء" التى هى واحدة من رسوم لورنس البريئة ، "الداعرة" قام لورنس بحجب هذه اللوحة عنهم.

رســـــائـل (٥) ص٦٠١ : أصبح الرسم ولعًا بالنسبة للورنس: "أعتقد أنى سأتحول إلى رسام. إنه يكلف المرء أقل، وربما يعود بفائدة أكبر من الكتابة". طريقته، المفتقرة إلى أى تقنية خاصة يُلْجأُ إليها، كانت تصيب حيناً وتخطئ حيناً.



قصة بوكاتشيو، (نوفمبر– ديسمبر ١٩٢٦)، زيت على خيش ٧٠×١١٧،٥سم.

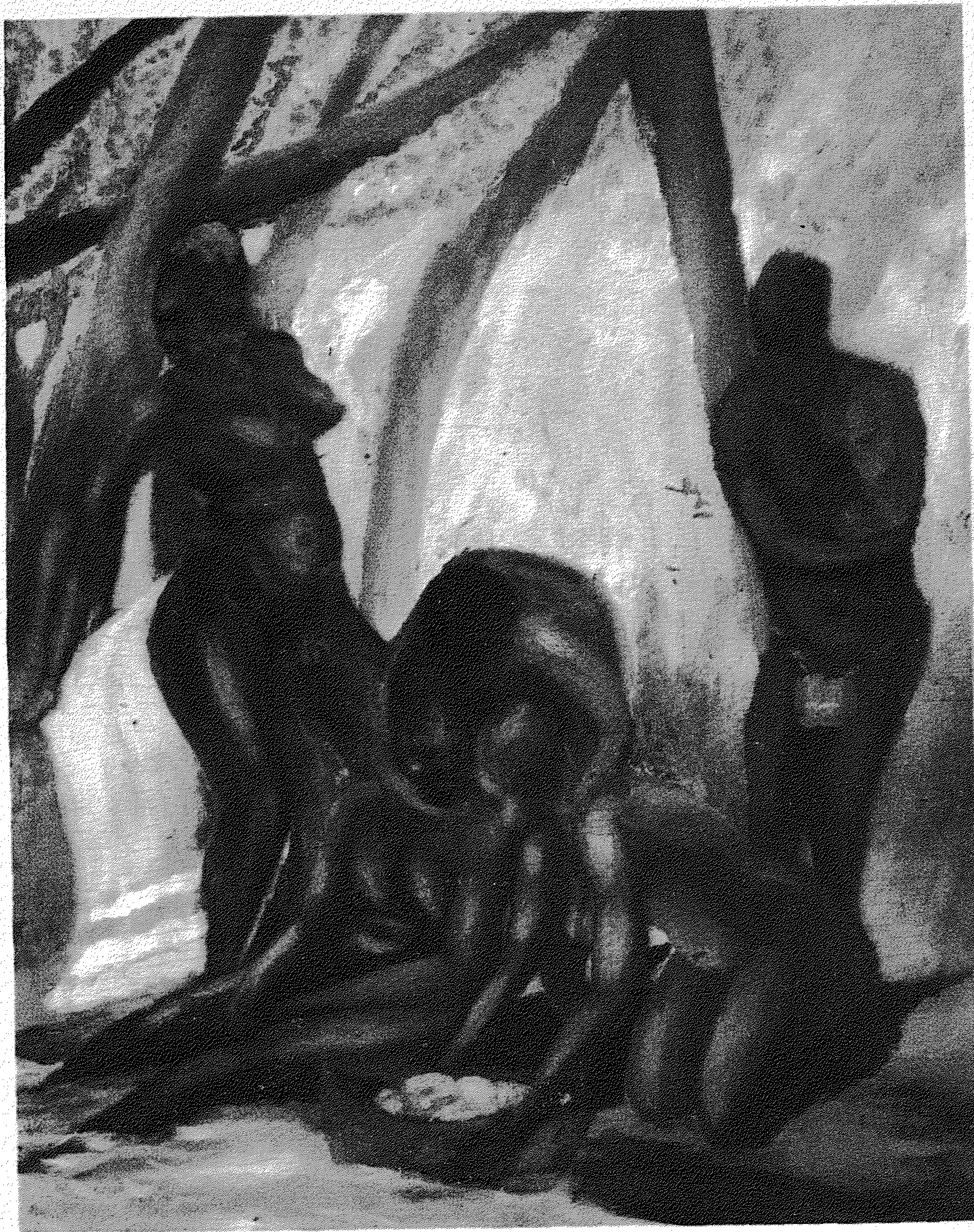
ولكن هناك الكثير من النجاح: الكتاب المقدس، الانبعاث، العثور على موسى، ردّ التفاحة، الفجر الصيفى المتوهج، والتخطيط الجيد لـ كونتادينى، ليدا الحسّية، أشجار الصفصاف الحمراء، التى يدمج فيها لورنس رجاله العراة فى فضاء يذكّر بـ فرا أنجيليكو؛ ولوحة مخطط رقص التى يبدو فيها الرجال والنساء والماعز والبستان، يتابعون إيقاعًا واحداً، ولادة جديدة حيث رجلان متوهجان كأنهما وُلدا من جديد حقًا، بجسدين مثل عرق اللؤلؤ. لقد صب لورنس حياة فى لوحاته، كما فعل فى كل شىء لمسه: "أصيب بعض الناس بصدمة – أسوأ من كتاباتى، ولكنى أعتقد أنها جميلة فى الواقع، شبه دينية تقريباً".

رســـائل (٦) ص٢٨٣ :

* * *



البعثة، (مايو ١٩٢٧)، زيت على خيش، ٩٥ × ٩٥سم



العثور على موسى (يونيو ١٩٢٧– ابريل ١٩٢٨)، زيت على خيش ٤٥×٣٧,٥سم.

كان لورنس قد اعتزم العودة إلى إنكلترا فى شهر ديسمبر من أجل تقديم المساعدة فى إنتاج مسرحية ديفيد، ولكنها كانت قد تأجلت حتى مارس، على أن تقدم مسرحية "ترمّل السيدة هولرويد" بدلاً منها فى ذلك التاريخ. فلم يحس لورنس بالحاجة الماسة إليه لإخراج تلك. على أى حال، رجا أصدقاؤه بشدة أن يرسلوا إليه كل ما يتعلق بإنتاجها. فى ١٢ ديسمبر، كتب رولف غاردينر إليه:

نيـــهلز (٣) ص١٢١ : (عدت الآن توًا من مشاهدة السيدة هولرويد. كان العرض جيداً جداً وقد قام بالإخراج إيسمى بيرسى بشكل مناسب. السيدة هولرويد (ماردافان) نفسها كانت ممتازة، وبلاكمور (كولن كيت - جونسون) والأطفال وكل الشخصيات الثانوية كانوا رائعين تمامًا. ولكن الرجل الذى لعب دور هولرويد لم يكن فى المستوى المطلوب. أعتقد أنه لم يعكس ذلك التوقد والروعة المادية الطبيعية التى أحسها كمعدن نفيس مخفى فى جسده، وهو ما قصدته أنت. الأجواء كانت ملائمة وكنت أنت فيها بكل معنى الكلمة، فقط لم يكن ممكنًا التحدث باللهجة العامية لمنطقة ديربى. برناردشو الذى كان هناك، قال : إن الحوار من أروع ما سمعه حتى الآن، وكانت مسرحيته "حلاق شارع فليت"، فى موضع المقارنة. لقد أحب الممثلون المسرحية، فهكذا يحس المرء. الحشد الهائل للجمهور، لا أستطيع التحدث عنه. ولكن على أى حال، الحضور فى مثل هذه العروض، هم فى الغالب، لا يرحمون.

بعد وفاة لورنس، كتب شو:

تايم وتايد : لجهلى، لم أعلق أهمية على لورنس حتى إحدى الأمسيات فى مسرح السوسايتى، عندما شاهدت مسرحية له والتى اندفعت بفورة نشاط عارمة من البداية وحتى النهاية، مع حوار مؤثر حيوى، بحيث بدت مسرحيتى ميتة بالمقارنة. لقد استمتعت بقوة بتقنيتها.

لم يكن شو قط مسرفًا فى مديحه لكتاب مسرح آخرين، مع ذلك، فالمسرحية قد جذبت عمومًا، اهتمامًا قليلاً.

فى ملكية ميريندا كانت هناك أسرتان كبيرتان من الفلاحين، عائلة أورسينى، وعائلة بينير وباندليز، سبعة وعشرين بأجمعهم. وكانت للورنس علاقات ممتازة معهم، خاصة الأطفال منهم:

رســـائل (٥) ص٦٠٩ : نحن نستعد لنصب شجرة عيد الميلاد للفلاحين، سيكون هناك اثنا عشر طفلاً، وأتوقع أن يحضر أولياء أمورهم أيضًا. عدد كبير من الناس يعملون فى هذه الملكية. والأطفال مخلوقات جامحة. إنهم لم يروا قط شجرة عيد الميلاد، ولكنهم سمعوا أن أشخاصًا إنكليزيين وضعوا واحدة منها للفلاحين، ولهذا فإنهم يأملون أن نفعل لهم ذلك. لقد جهزنا كل الألعاب الخشبية من فلورنسا، وعدداً من الأشياء البراقة وشيئا من الحلوى والتمر والشموع. وسيكفيهم هذا. إنهم لا يحصلون على حلوى أو أى شيء مشابه إلا من نهاية عام حتى نهاية عام آخر. إنهم أفقر حالاً بكثير من الفقراء الحقيقيين فى إنكلترا.

وقام لورنس بتزويد جميع الفلاحات بالحليب مجانًا طيلة فترة إرضاعهن لأطفالهن. غيوليا، كبرى بنات بينيز، ستة عشر عامًا من العمر، كانت فى خدمتهم:

فـــــريدا : "أحببنا غيوليا... لم يكن أى عمل مرهقًا بالنسبة لها، كانت مرحة مسلّية وعاقلة". عندما غادرا ميريندا، كتب لورنس بانتظام إليها حتى بقية حياته.

كان اهتمام لورنس بالآخرين واضحًا عبر الرسائل المعتادة المتكررة والممتعة التى أرسلها إلى صديقته فى إيستوود وجارته القديمة جيرتى كوبر، والتى كانت آنذاك ترقد ذابلة برئة واحدة فى المصحة. فعل لورنس ما فى وسعه من أجل رفع معنوياتها، وعرض تقديم جنيهٍ أسترلينى فى الأسبوع، تغطية لنفقاتها فى المصحة، إن احتاجت.

فى شهر فبراير، أنهى لورنس النسخة المعدلة الثانية من عشيق الليدى تشاترلى:

رسائل (٦) ص٢٩ : إنها الشىء الذى سيسميه العالم، غير لائق جداً. ولكنها ليست غير لائقة حقًا - أنا أعمل دائمًا فى نفس الموضوع، أن أجعل العلاقات الحسيّة صحيحة وسليمة بدلاً من أن تكون مخجلة. وهذه الرواية هى أبعد ما وصلت إليه. إنها بالنسبة لى جميلة ورقيقة وسهلة الانقياد كما هى النفس العارية، وأنا أجفل حتى من طبعها.

***

إنتاج مسرحية ديفيد تأجل ثانية. لهذا اقترح لورنس على الإيرل بريويستر، الذى كان انتقل توًا إلى رافيلو، أن عليهما الذهاب معًا فى الجولة السياحية التى كانا قد خططا لها فى مواقع إيتروسكانيا، فى حين ذهبت فريدا إلى بادن.

رسائل (٦) ص٢٨ : بعد أسبوع من البقاء فى رافيلو، غادر لورنس برفقة الإيرل بريويستر، فى أوائل أبريل، إلى روما، ثم سيرفيتيرى وتاركوينيا، فولجى، فولسى، غروسيتو ومولتيرا. وجد لورنس القبور، "أكثر إشراقًا وحيوية بكثير من بيوت الناس".

رسائل (٦) ص٣٣ : "المدافن فى إيتروسكانيا مثيرة للاهتمام، جميلة وجديرة أن يشغف بها المرء. كان يعيش هناك أناس أصحاء وسعداء بأنفسهم دون رغبة للسيطرة على حياة آخرين".

اندمج لورنس بشكل حميم مع الأتروسكانيين، وبفعل ذلك كان عليه تجاهل بعض الأمور التى كان يعرفها تمامًا - ذلك أن الأتروسكانيين كانوا يستعمرون البلدان ويتاجرون بسكانها ويستغلونهم فى العمل بمناجم بوبيلونيا ولم يمضوا حياتهم فى "الرقص والنفخ على آلة موسيقية بين أشجار الزيتون الخفيضة".

كل الكتب التى كان لورنس قد قرأها عن الأتروسكانيين، لم تقدم له إجابات عن أسئلة كان مهتمًا بها حقًا - معنى لغتهم، وفنونهم، وابتساماتهم، ونوعية دينهم وحياتهم اليومية. أحس أنه حر فى تفسير الحقائق الفنية المتبقية، عبر خياله، ليبعث سلالة بشرية، يحسّ أنه الناجى المفقود منها:

هناك بساطة ممتزجة بأغرب فطرية طبيعية، غير متحفظة وتلقائية، فى أشكال وحركات الجدران والفراغات التحتية التى تؤكد فى الحال الروح... إنهم يتركون الصدر يتنفس حرًا وبشكل لطيف مع تمتع محدد بالحياة. حتى المدافن.



مدفن إتروسكانى كبير فى سرفتيرى

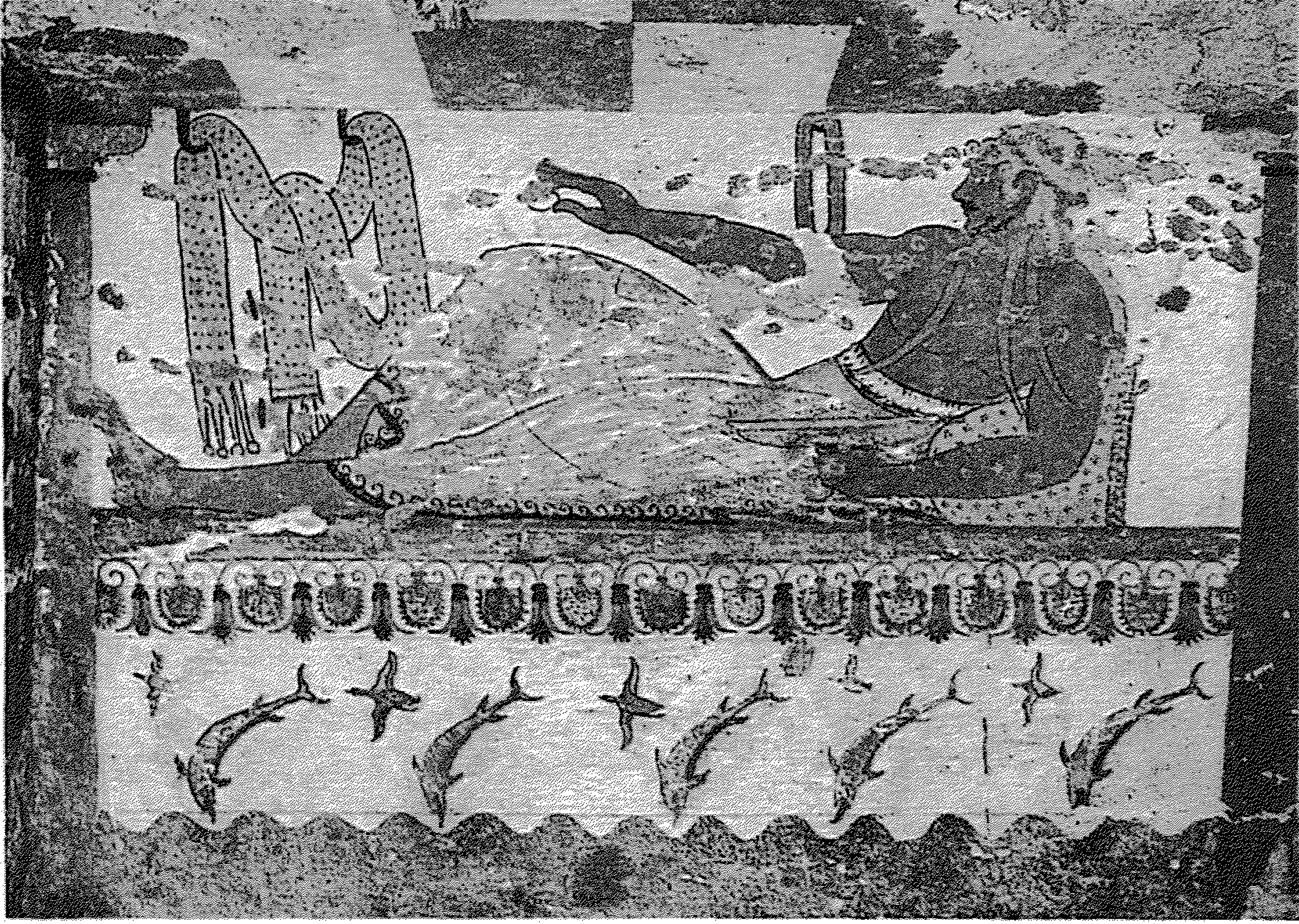
وتلك هى حقيقة الأتروسكانى، راحة، طبيعية، وفيض من حياة، ولا حاجة لإرغام العقل أو النفس فى أى اتجاه. ورحلته الطويلة قد جلبته أخيراً إلى هذه القبور، وفيها وجد الحياة البشرية المشوبة بالحيوية التى كان يبحث عنها، حياة وعى تام، متصلة من دون الثنائية العرجاء للعقل ضد الجسد، إنسانى ضد لا إنسانى، مادية ضد غيبية، حياة ضد موت. كل هذه الأمور كانت قد حلّت ولو لقرن أو اثنين فقط، قبل أن يسحق الرومان حضارة إيتروسكانيا تحت أقدامهم.

الأمر المثير للاهتمام أن صورة لورنس لهذا الكمال الإنسانى هى أيضًا صورة لصحته الشخصية الطيبة – "التنفس بحرية وباستمتاع". ولو أن لورنس كان قد أصيب بالملاريا فى ماريمّا، فلم نكن نحصل على كتاب "مواقع إيتروسكانيا".

إن كان قد نشأ يومًا مجتمع إنسانى متكامل، إذن لنشأ ثانية، فى "حلم حياة" الذى كتبه لورنس بعد أشهر، كان عليه دمج هذه السجايا للإتروسكانيين مع تلك الخاصة بسكان ديربى شاير من أجل خلق يوتوبياه(*) الوحيدة. ولكنه لم يتمكن من إنهاء هذه القصة، لنفس السبب الذى منعه من العثور فى الحياة الحقيقية على – الازدهار.. إنه لم يقدر على التوفيق بين مطالبه وطموحات الفرد وبين اتساق المجموع. صورته الأولى لمجتمع مثالى هى عبارة عن قطيع من الدلافين أو سرب طيور، حيث يتعذر تمييز الأفراد الذين تعوزهم الخصائص الفردية. إلا أن فردية كل شخص كانت أيضًا واحدة من معتقداته الرئيسية والجوهرية.

(*) يوتوبيا – المدينة الفاضلة. (المترجمة)





قبر اللبوءات، تاركوينيا. الدلافين تقفز في كل أركان الغرفة، كلها تقفز نحو الأسفل في البحر المائج في حين تطير الطيور بين الأسماك. على الجدار الأيمن، يتكئ رجل ضخم جداً يرتدي غطاء رأس عجيب، لباس للرأس، له أزيال طويلة مثل الجدائل الطويلة – ويمسك بيضة في يده اليمنى، وفي يده اليسرى فنجال ضحل من فناجيل البنيذ الخاص بالوليمة. تلفيعته، وإن شئت فقل بطرشيل الكهانة، الدال على مكانته الإنسانية، يتدلى من شجرة موجودة أمامه، ويتدلى إكليل مرحه الإنساني على جابنه وهو يمسك بيضة البعث رافعا إياها إلى الأعلى، وداخل هذه البيضة تنام العلقة والروح في القبر، قبل أن تكسرا قشرة البيضة وتخرجان من جيديد (أماكن إتروسكانية).

مواقع إيتروسكانية، لم يكن أول ما شرع لورنس فى كتابته بعد عودته من جولة إيتروسكانية. ففى فولتيرا، كان لورنس والايرل بريويستر، قد مرّا فى صبيحة عيد الفصح بدكان كان فى نافذته ديك جاثم على بيضة. واقترح بريويستر تجسيد قصة من قصص البعث باسم الديك الهارب. فى ٣ مايو، كتب إليه لورنس:

رســائل (٦) ص٥٠ : كتبت قصة عن الانبعاث، حيث ينهض المسيح ويحس بضجر شديد من كل شىء، ولا يعود يتحمل الجمهور القديم أبداً - لهذا ينصرف فجأة - وعندما يشفى، يبدأ فى البحث عن ماهية وجود هذا العالم غير الاعتيادى، الأكثر روعة من أى خلاص أو من السماء - ويشكر حظه أنه لم يعد أبداً فى حاجة إلى أن تكون له "رسالة". القصة تحمل عنوان "الديك الهارب"، عن تلك اللعبة فى فولتيرا.

فى نهاية أبريل، كان لورنس قد كتب، "توسكانيا المزدهرة"، وبدأ فى كتابة، مواقع إيتروسكانية. وقد وصفت فريدا البقعة التى كان يجلس فيها لورنس على التلال فوق ميريندا، وتحت ظلال شجرة صنوبر ضخمة:

كان مكاناً ساحراً حيث كان لورنس يذهب يومياً للكتابة، وخاصة فى الربيع. كان عليه أن يسير قليلاً بجوار أشجار الزيتون للوصول إلى مظلته الصنوبرية. كان ينمو على طول الطريق، الزعتر والنعناع وشقائق النعمان الأرجوانية والغلاديولى البرى وسجاجيد من البنفسج وشجيرات الآس. ثيران بيضاء هادئة تقوم بالحرث. كان يجلس هناك، بلا حراك تقريباً، ماعدا الكتابة السريعة. كان يبقى ساكناً إلى حد أن السحالى تجرى فوقه وتحلق الطيور قريبة فى دائرة من حوله. ولو وُجِد صياد صدفة، فإنه كان سيجفل من شخصه الصامت.

وأخيراً حصل لورنس على تاريخ مؤكد لإنتاج "ديفيد"، فى نهاية مايو. وبدأ لورنس كارهاً فى وضع خطط للسفر، خائفاً من تشويه العمل من دونه، ولكنه سقط طريح الفراش فى ٤ مايو لإصابته ثانية بالملاريا. رسالته فى ١٩ مايو إلى شقيقته أدا، هى الأولى التى تظهر أن صحته المتردية بدأت تقعده:

رســائل (٦) ص٦٣ : أتمنى لو كنت أكثر صلابة. عندما يصبح المرء فى الأربعين من عمره يبدو كما لو أن مرضه المزمن القديم يهاجمه بضراوة مضاعفة. يتراءى لى، أنى لم أصبح أبداً حراً بشكل حقيقى. ثم إن المرء يصاب بنوع من خيبة أمل. أحس وكأنى أتحول إلى ناسك، مختفياً عن الأنظار بقية حياتى، بعيداً عن الجميع.

الافتتان بحياة النسّاك يأتى ذكره مرات عديدة فى رسائل هذه المرحلة. ولكن مع تحسن صحته، وبعد هجاء نفسه والايرل بريوستر فى "الرجل الذى كان انتهى مع العالم" نجح لورنس فى التخلص من الإغراء:

رســائل (٦) ص٧٢ : "لا فائدة من التفكير بالتراجع: أستيقظ وأحس ألا رغبة لى للعمل. عملى كفاح، ويتوجب على مواصلته". توجه لورنس بعدئذ إلى أقصى النقيض، محدثاً تريجانت بورو، إن مرضه ليس إلا غمّاً كان سببه "إحباط تام من غريزتى الاجتماعية البدائية". وبطبيعة الحال فإن الأوضاع ليست على النقيض حقّاً:

رســائل (٦) ص١١٣ : بالنسبة لى، فأنا أعانى بشكل كبير من كونى منقطعاً عن الآخرين تماماً. ولكن ماذا يفعل المرء؟ المرء لا يستطيع الاتصال مع الناس بلا وعى. فى بعض الأحيان يرغم المرء أن يكون ناسكاً أساسياً. أنا لا أريد أن أكون. إلاّ أن كل شىء هو إما صراع شخصى أو صراع من أجل المال. الأمر يدفع إلى

السأم، ماعدا، بطبيعة الحال، مجرد المعرفة الشخصية، التى تبقى معرفة. لا يمتلك المرء أى علاقات إنسانية حقيقية - ذلك مدمر تماماً.

كان هكسلى وزوجته قد اتخذا منزلاً فى فورتى دى مارمى ووجّها دعوة للورنسين لتمضية بضعة أيام معهما فى منتصف يونيو. كان لورنس قد اعتزم القيام بجولة أخرى فى أتروسكانيا بعد عودته، مع فريدا فى هذه المرة لزيارة أريزو، كورتونا، جيوسى، أوفيتو وبيروجيا. كان قصده أن كتاب، مواقع أتروسكانية، يجب أن يتضمن اثنتى عشرة أو أربع عشرة مقالة وحوالى مائة صورة، والتى كان يقوم بجمعها بجهد. كره لورنس فورتى والسباحة فى البحر هناك سببت له نزفًا بعد عودته إلى ميريندا:

نيهلز (٣) ص١٤٦ : فى أمسية ساخنة، كان لورنس قد جمع خوخًا من الحديقة ودخل البيت حاملاً سلة رائعة من الفواكه - أرانى إياها - بعد زمن قصير جداً، نادى من غرفته بصوت متقطع، هرعت إليه ووجدته مستلقيًا على سريره، نظر إلى بعينين مرتجفتين ذعرًا، بينما سيل من الدم يتدفق من فمه. قلت له (لا تتحرك، ابقَ ساكنًا). أمسكت برأسه، ولكن الدم استمر بالتدفق ببطء وبفظاعة من فمه. لم يكن بإمكانى فعل أى شىء، غير الإمساك به ومحاولة إبقائه ساكنًا وهادئًا والإرسال فى طلب الدكتور جيجليولى. جاء الطبيب ومرت أيام وليال قلقة. كان تمريضه فى تلك الأيام الحارة أمرًا صعبًا، وقدم جيجليولى والفلاحون أفضل ما فى إمكانهم. جاء هكسلى وزوجته لرؤيته، وقدمت له ماريا باقة كبيرة من أجمل أزهار اللوتس، وكان جيجليولى يحضر يوميًا، وجاء أوريولى للمساعدة. ولكنى قمت بمفردى بالاعتناء به ليلاً ونهارًا فى تلك الأسابيع الستة حتى أصبح قويًا بما فيه الكفاية ليستقل قطار الليل إلى التيرول.

كان لورنس يحتقر لطف آل - ولكنسون إلى حد ما كان لورنس روما يقف يرجرج القارب المتعفن بأقصى ما وسعته قوته. كان آل. وتكنسون متفقون على التشخيص لكنهم كانوا مختلفين على طريقه التعامل مع هذا التشخيص. وفى مثل هذا العالم المجنون كيف يتعين علنيا العيش ممتنين إذا ما استطعنا العيش عيشة هادئة، وبسيطة بلا ضرر ولا ضرار . لكن الرعايه التى أولاها ولكنسون وزوجته

رسائل (٦) ص١١٢ : للورنس أثناء مرضه، هى التى جعلته يعدل رأيه فيما بعد "كان آل - ولكنسون هما الحنان نفسه، وعليه أن يتعين على المرء عدم التسرع فى الحلم .

كان الطبيب قد أوصاه، (إلى غابات الصنوبر)، على مسافة ٨٠٠ م. ولكن التدهور فى صحة لورنس، فى هذه المرة، لم يكن فى المقدور إيقافه.

* * *

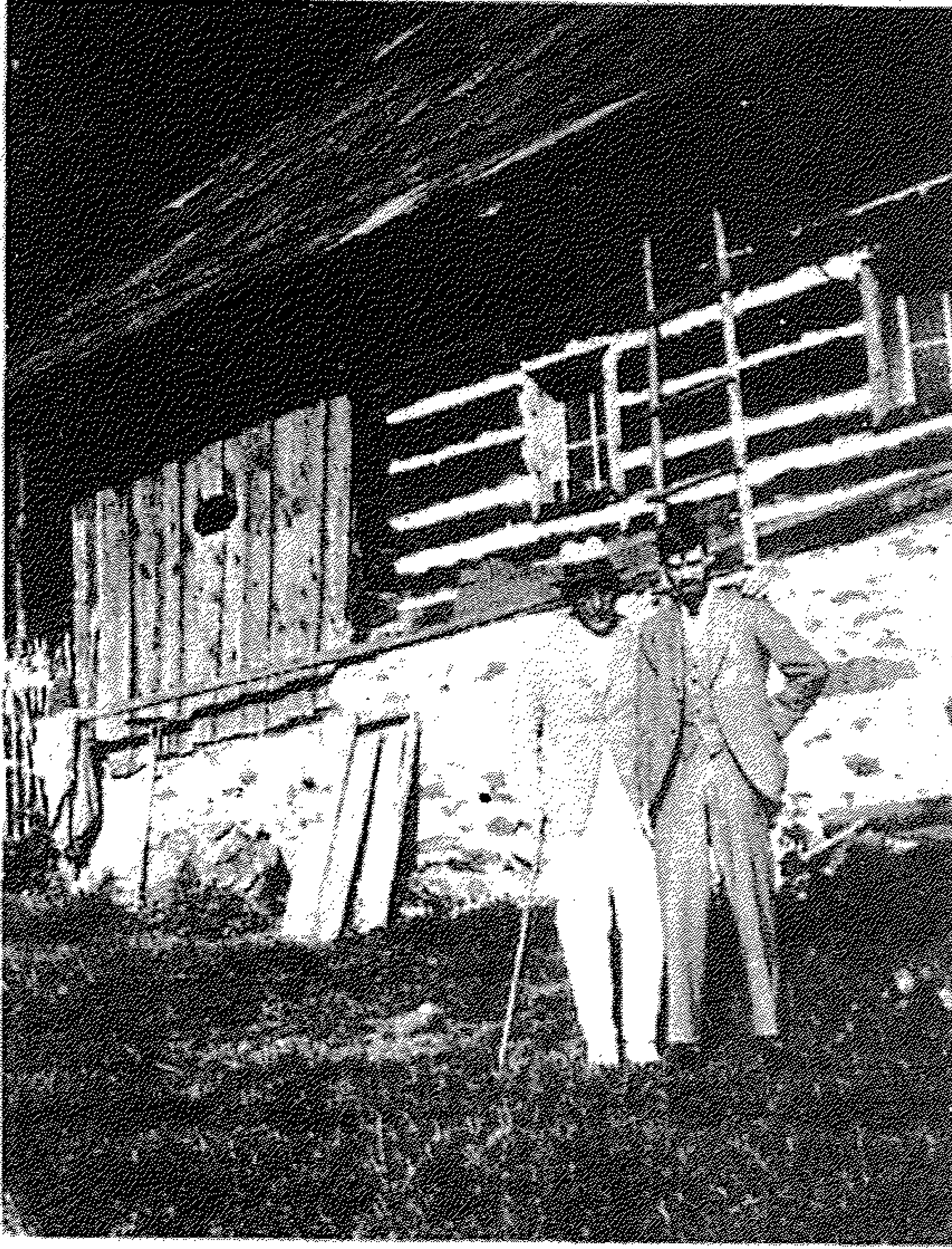
غادر اللورنسان فيلاً ميريندا إلى فيلاج - النمسا، فى ٤ أغسطس. فى نهاية الشهر انتقلا إلى فيلاّ جافى أرشينهاوزن، وكانت تعود لشقيقة فريدا، إيلز، والتى كان زوجها إدجارجافى قد توفى عام ١٩٢١ .

كان الأمر راحة للورنس بعد جفاف توسكانيا، أن يكون فى أرض أرطب وأبرد وأكثر خضرة. كانت أرشينهاوزن من أهدأ الأماكن التى عرفها. ارتاح هناك، احتسى حليب الماعز وبيرة الشعير المنقع فى الماء: وازداد وزنه بفعل السلمون ولحوم الحجل والغزلان وتجول فى الغابة وترجم فيرجا...

كتب إلى أسرة ويلكينسون بمعنوية عالية:

رســـــائل (٦) ص١٥٨ : الغابات ببساطة، عامرة بالفطر، كافة الأنواع والأحجام والأشكال والروائح، بمجموعات، فى حلقات وبالمفرد – الأكثر احمراراً، الأكثر سواداً واخضرار أشد أعشاب **البحر** خضرة، زهرة الجيتين الزرقاء الداكنة الخريفية قد ظهرت.





لورنس مع جهانة وإميل كروج، فى فيلاش، فى شهر أغسطس من العام ١٩٢٧ "أحبها حبا جما – نقوم برحلات قصيرة فى الحافلات، إلى مختلف البحيرات، شديدة الجمال. شقيقة فرايدا تعيش فى أوسياشيرس القريبة من هذه المنطقة – ولذلك نحن نزورهم مرات عديدة – لكنها، شريكتى ليست راضية تماماً، لأنها تزوجت من موظف مصرفى يكبرها بعشر سنوات، بدلا من زوجها ضابط الجيش السابق، غيَّرت هذين الزوجين منذ أربع سنوات – موظف البنك يضايقها ويسيء معاملتها، وحالتها سيئة، بعد أن كانت تحيا حياة مرحة بصفة دائمة؛ وأنا اعتقد أنها تمر باختبار فى هذه الأيام.

الغزلان تتجول والأيائل الصغيرة تجتاز الممرات، تماماً مثل صورة فارسية ثم تتوقف مبهورة بجاكيتتى البيضاء الشهيرة. طيور الزرياب وقحة للغاية، تكاد تسرق الدموع من عينيك. أنا فى الحقيقة، أحب الحياة هنا – ولكن عندما يحل الظلام وتهطل الأمطار، يغنّى المرء عندئذ: سفينة صغيرة كانت فى البحر – كأن محيطات الزمن الماضى تبدو وهى تكتسحك بقوة.

فى بداية أكتوبر، سافر اللورنسان إلى بادن لأسبوعين. بدأ لورنس علاجاً بالهواء الساخن للاستنشاق. ولكن هانز كاروسا، فحصه ونصحه ضد ذلك العلاج، لذلك بدأ الاستنشاق بالهواء البارد بدلاً عنه. كان كاروسا كاتباً مبدعاً إلى جانب كونه خبيراً بارزاً بمرض السل:

رســـــائل (٦) ص١٥٦ : "إن لم يستطع شاعر وهو طبيب أن يخبرنى بما أفعل بنفسى فمن يقدر؟"

ولكن كاروسا أخبر صديقاً أن العلاج لم يعد نافعاً مع لورنس:

نيـــهلز(٣) ١٦٠ : "رجل اعتيادى له تلك الرئتين كان سيموت منذ مدة طويلة".

أوصاه بتمضية شهرين فى مصحة، ذعر لورنس غريزيًا من ذلك:

رسـائل (٦) "الأطباء والمصحات تدنّى دائمًا معنوياتى".

ص١٧٧ : بادن نفسها خفّضت من معنوياته:

رسـائل (٦) حقًا، فى بادن، على المرء أن يكون فى الخامسة والسبعين من عمره على الأقل، وأن يكون صاحب

ص١٨٤ : السعادة على الأقل جداً، وأن يكون جنرالاً. هذا المكان، مدينة عتيقة الطراز جداً، مثل فصل من تاريخ مضمحل، المرء لا يكاد يجرؤ على العيش تماماً. أنا أطمس كل معالم إنسانيتى وأعيش قدر ما أستطيع مثل صورة ظلية لى.

ارتد لورنس على إيطاليا، كما ارتد من قبل على مكسيكو، لائمًا إياها لمرضه، ولم يحس بالسعادة لعودته المحتملة، إلا من أجل أرجحية أشعة الشمس الحقيقية، ولأن الشتاء كان قد بدأ يقترب فى بادن. وكان هو يفضل العودة إلى إنكلترا وإلى ديفون شاير، لولا الأمطار الدائمة والرطوبة. بدأ يتوق بشدة إلى فضاء وحرية المزرعة.

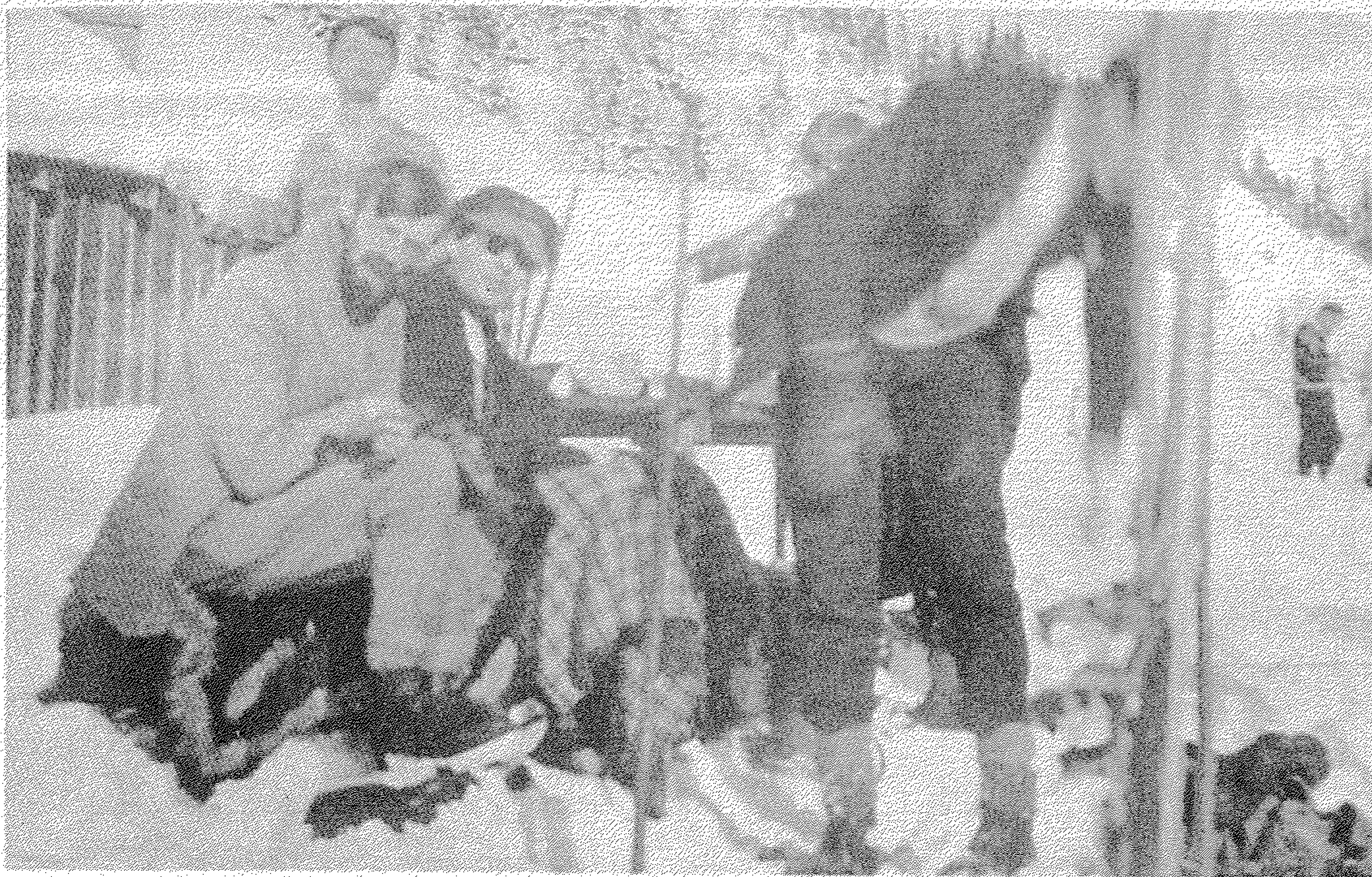
* * *

عائداً إلى ميريندا، بدأ لورنس فى مراجعة مجموعة قصائده من أجل سيكر:

رسـائل (٦) نحن نجلس هنا لسبب غير واضح فى الواقع، ولم أذهب حتى الآن إلى فلورنسا... افعل القليل من

ص٢١٤-٢٢٣ : الأمور - أرفو ملابسى الداخلية وأحاول أن أطبع القصائد - القديمة منها... عجبًا، أى أشباح تبزغ حية! ولكنى أرتب لهم ملابسهم فحسب رافضًا أن أسحب منها خيوطًا.

كان سيكر يطبع أيضًا مجموعة جديدة لقصص قصيرة وكانت بعنوان (المرأة التى رحلت بعيداً). وكان من المفترض أن تكون قصة "الرجل الذى أحب الجزر" ضمن المجموعة، ولكن كومبتون ماكنزى لدى قراءته لها فى صحيفة لندن ميركورى، اعترض على سيكر مدعيًا أن كاتكارت، هو صورة افترائية لشخصه.





لـورنـس هـو والـدوس هـيـكـسـلـى فـى لادپابليـريتـر."وصلنا بواسطة زحـافـة الجليد أمس إلى قمة الممر - فريدا وأنا - بينما جاء الآخرون عن طريق التزحلق على الجليد - وتجولنا على الممر، العالى جداً، وشديد التوقد، وعظيم ورائع - قام بعض الرجـال بالتـزحلق على الجليـد. استـلطفت هذه المسـألة تمامًـا - ويبـدو أنها تبث الحياة فى الإنسان".

أحس لورنس أنه يجب إطراء ماكزى مادام كاتكارت يستحق أن يؤخذ بجدية أكثر من ماكزى نفسه. كان لورنس قد وضع فى بطله كاتكارت كل حبة للجزر، وتوقه الشديد لحياة الناسك، مضافًا إلى ذلك القليل من المظاهر السطحية لماكزى. ولكن كان ذلك الموضوع نهاية تلك الصداقة:

بواسطة نورمان دوغلاس، أصبح لورنس صديقًا للناشر وصاحب مكتبة فلورنسى وهو بينو أوريولى. وفى هذا الوقت، وضع فى اعتباره فكرة قيام أوريولى بطبع، عشيق الليدى تشاترلى، بصورة شخصية كما فعل مع عدد من روايات دوغلاس. وبتلك الوسيلة، كان يأمل الحصول على مبلغ من المال يكفى لعودته إلى المزرعة. إلا أنه كان لابد من إعادة كتابة الرواية. النسخة المعدلة النهائية، التى فكر لورنس أن يسميها، (رقة)، بدأت فى ٣ ديسمبر وانتهت فى ٨ يناير.

أولى علامات المشاكل جاءت فى اليوم نفسه، عندما تسلَّم لورنس رسالة، من نيلى موريسون، التى كانت قد تطوعت لطباعتها، تقول فيها : إنها وجدت الرواية عملاً يثير الاشمئزاز، مروِّجة للذوق الداعر. ألح لورنس بلطف، كما كان عليه الإلحاح أكثر وأكثر مناضلاً فى سبيل ذلك، "على الرغم من وقوفك إلى جانب الملائكة والغالبية العظمى، أعتقد أن وجهة نظرى هى الأصح أخلاقيًا وموقفًا دينيًا"، قامت كاثرين كارسويل بطبع النصف الأول منها، وماريا هكسلى النصف الثانى.

رسائل (٦) ص٢٦٠ :

أمضى اللورنسان عيد الميلاد مع هكسلى وزوجته، اللذين سافرا بعده إلى سويسرا، مع توجيه دعوة للورنسين للحاق بهما هناك. كان الطبيب قد أخبر لورنس أن لاديا بليريتز (٤٠٠٠ قدم) هو المكان المناسب لرئتيه، فى حين ستكون المزرعة شديدة الارتفاع. تغلب لورنس على كراهيته للثلوج وجاهد فى نهاية يناير للذهاب إلى ديابليريتز، آملاً أن تقوى رئتاه بما فيه الكفاية ليسافر بعد ذلك إلى المزرعة.

رسائل (٦) ص٢٧٧ :

يجب أن أقول: أنا لا أحب الذهاب. أنا لست طائر ثلج. أكره أنا البياض المطلق الكفنى، أبيض وأسود. إنه لون يؤذى الرسام إنه رسمى جداً - باستثناء وجود خطوط جميلة تحدد الأشياء فيه - أحيانًا، وبعض الومضات الشاحبة الزرقة. إنه ضد الحياة.

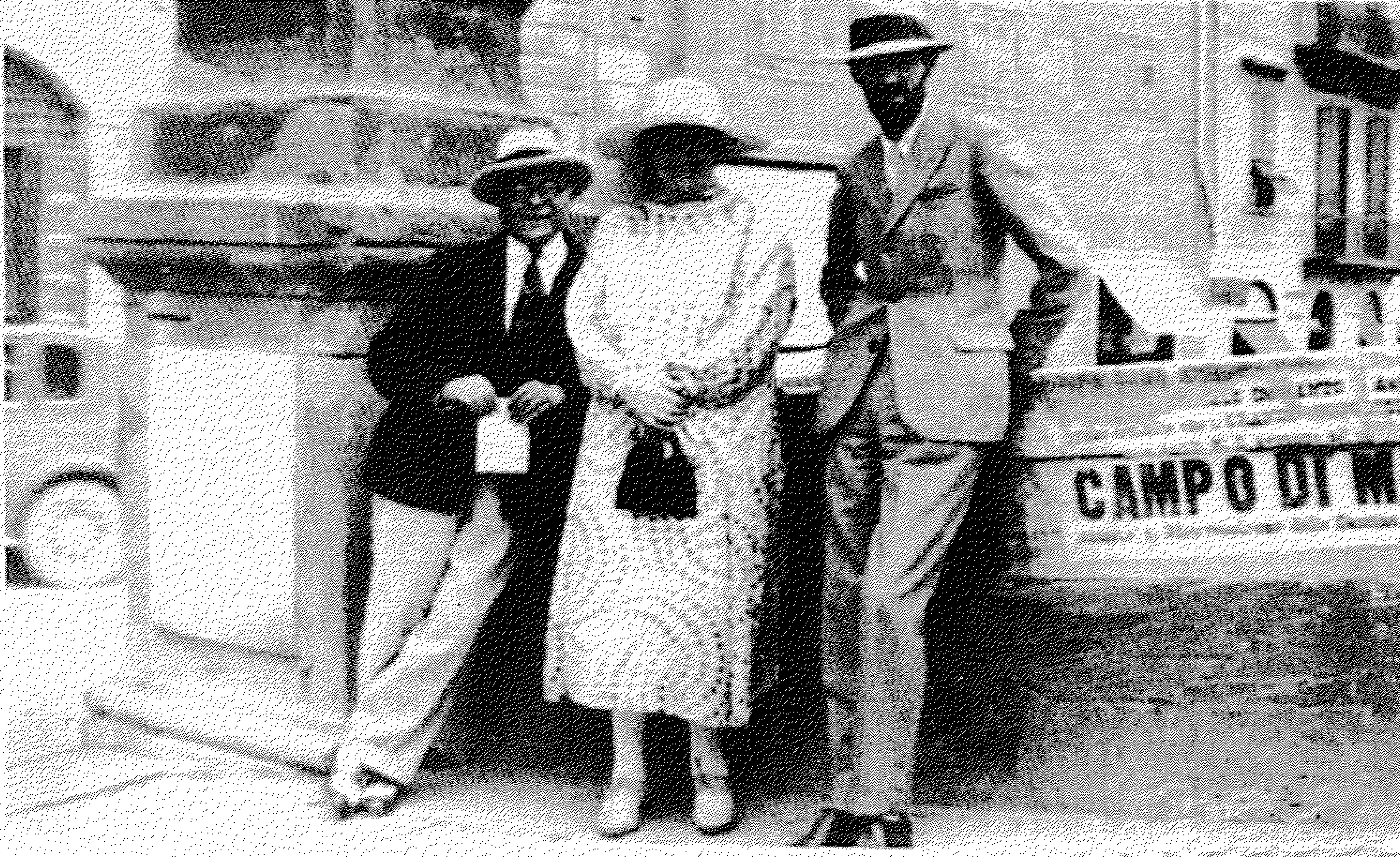
فى لأديابليريتز أنهى لورنس عمله فى قصائده المختارة واستعد لكتابة نسخة مهذبة من الليدى تشاترلى:

رسائل (٦) ص٣٠٨ :

أنجزت جزءًا لا بأس به من الحذف والتغيير ثم أصبت بنوع من عمى الألوان، ولم أعد أعرف بعد ذلك ما الذى سيكون مناسبًا أو أى شىء غير مناسب).

أحس لورنس أنه لابد من تغيير بعض الكلمات المعينة الخاصة بالعلاقات الحسية، ولكنه بالكاد أدخل تحسينات عليها بتبديل أخرى بها. فمثلاً تعبيرات، "التطاعن بالرماح"، و"تسديد الرماح"، أو "الحيوان الصغير"، أصبحت، "ممارسة الحب"، "مغازلة امرأة" و"مدرك بالحواس" أو "إثارة الحواس". ولابد أنه كان متعاميًا حقًا عندما اقترح على الناشرين عنوانًا للنسخة المهذبة وهو، جون توماس والليدى جين. كان لورنس، فى كل الحالات، يبدد جهده، مادام كل من كنوبف وسيكر يرفضان طبع تلك النسخة.

عاد اللورنسان إلى ميريندا فى بداية مارس. فى ٩ مارس، سلم لورنس نص رواية، الليدى تشاترلى، مطبوعًا إلى أوريولى . لحظة عظيمة، لأنه طوال الشهرين التاليين لم يفعل شيئًا غير الرسم ومتابعة الليدى تشاترلى عبر مراحل طبعها:



بينو أوريولي وفريدا ولورنس على جسر سانتا ترينتا، على جانب الطريق المقابل لمكتبة أوريولي، على اللونجارنو.

رسـائل (٦) ص٣٥٧ : أنا مشغول جداً بروايتي – شراء الأوراق – تصليح التجارب الطباعية يدوياً – رسم طائر العنقاء ينبعث من عش يحترق. مثل الختم الذى أعطيته لمورى، علامة على تميّز الغلاف – تهيئة غلاف الرواية وغير ذلك من الأمور.

تصحيح التجارب الطباعية كان ورطة، مادام الذى يقوم بالطبع شخص لا يعرف اللغة الإنكليزية:

رسـائل (٦) ص٣٥٣ : إنه يخطئ فى الأحرف، يضع الواحد مكان الآخر.

وجد لورنس أنه من المناسب إخبار عامل الطباعة بمضمون الكتاب:

فـونيكس (٢) ص٥١٥ : "وعندما أخبرته، قال لى بلا مبالاة فلورنسية: "أوه، ولكننا نفعل ذلك يومياً".

* * *

فى نهاية فبراير، تسلّم لورنس رسالة من الشاعر والناشر الأمريكى العابث، هارى كروسبى، يسأل فيها إن كانت لديه أية مخطوطة للبيع، ومن الأفضل أن تكون لها علاقة بالشمس. كان كروسبى قد تبنى الشمس رمزاً مثالياً له. أرسل لورنس إليه مجموعة قصائده، (عربة الشمس).



صورة للورنس التقطها روبرت هـ دافيز فى مكتبة أوريولى، فى شهر مايو من العام ١٩٢٨ "اختر بقعة على الضفة المقابلة من النهر وأبد اهتمامك بها. وسِّع صدرك وسوف تسجل العين ذلك الاهتمام. على كل حال، هذه هى نظريتى عن التقاط الصور" رد لورنس "لقد فهمت ما تقول" وتهلل وجهه. "هذه قطعة من العمارة النادرة – خطوط جميلة" مضاءة بواسطة سطوع شمس الربيع، المكتبة الصغيرة، تلمع فى ضوء عاجى منعكس من بعض الأغلقة القديمة المصنوعة من الجلد؛ (روبرت هـ دافيز)

كانت مطبعة كروسبى تحمل اسم مطبعة الشمس السوداء، وبيته اسم طاحونة الشمس، وحصانه للسباق ضربة شمس. وقد عرض على لورنس منحه المكافأة بالذهب النقى. وكانت رسالته كتبت وهو يطوف فى مركب على النيل، وبدأت رحلتها إلى لورنس بواسطة جمل. الذهب الموعود وصل عن طريق أكثر تطرفًا. كان عليه أولاً تهريبه من بوسطن إلى باريس فى حذاء صديقه، وما إن وصل، حتى كان على هارى كروسبى رزم الطرد ثم الإسراع إلى المحطة وتسليمه لأول رجل يراه فى القطار المتجه إلى فلورنسا، تبدو على ملامحه سيماء الأمانة، سائلاً إياه أخذ الطرد معه إلى فلورنسا، "بكل سرور – إنه ليس قنبلة – أنا واثق"، قال الرجل الإنكليزى تلك العبارة، بينما تحرك القطار، "لا.. إنه ذهب"، صاح كروسبى مضيفًا، (ذهب لشاعر). وكان اختيار كروسبى موفقًا. فقد سلم الذهب شخصيًا من قبل الدوق أرجيل.

نيـــهلـــز (٣) ص٢٠٠ : **كان** شيئًا لطيفًا منك أن ترسل لى كتابًا زائفًا مملوءًا بذهب أحمر. كم هو جميل الذهب! من المؤسف أنه أصبح عملة. على المرء أن يحبه لحياته الصفراء، مستجيبًا للشمس.

من المؤسف أن لورنس كان غير قادر على إرسال قصائده. كتب مذعورًا إلى نانسى بيرن فى مكتب كيرتس براون:

رســـــائل (٦) ص٦٤٧ : هل لديكم بالمصادفة، مخطوطة "شمس"، شخص أمريكى يطلبه منى بشكل خاص ويقدم ١٠٠ دولار، ولهذا سيكون حظى جيداً إن وجدت. يالفقرى إن لم تكن موجودة. لأن المخطوطة ليست لدىّ.

أجابت نانسى بيرن:

هذه قائمة بالمخطوطات الحديثة العائدة إليك لدينا. وكم أنا آسفة لأن "شمس" هى من تلك التى أعيدت إليك سابقًا. هل أنت متأكد من أنك أحرقتها جميعًا. قل لى : هل سيكون فى الأمر خدعة، إن أعدت كتابتها بخطك الجميل لبيعها لليانكى المتحمس؟ إن كان الجواب لا، فلم لا؟

عمل لورنس بنصيحتها، ولكن كروسبى كان مثمّنًا جيداً. لأن لورنس لم يستطع مقاومة فرصة مراجعة القصة وهو يعيد كتابتها. وبالتالى تمت طباعة المجموعة فى مطبعة الشمس السوداء لاحقًا.

فى إبريل نيسان كانت هناك زيارة ثانية من باربى. ذهبت فريدا معها إلى ألاسيو، ثم منفردة لرؤية أنجيلورا فاجيلى فى سبوتورنو. أدار لها لورنس عينًا عمياء، قائلاً:

نيـــهلـــز (٣) ص١٨٩ : "كل قلب له الحق فى أسراره".

كان لورنس قد اكتفى من إيطاليا الآن، ولكنه بقى فى فلورنسا بسبب بطء عملية الطبع، حيث لم تكن هناك آلات كافية لطبعها كاملة مرة واحدة. وأخيرًا، فى ٧ حزيران، وقع على الملزمة الأخيرة وأصبح حرًا. بعد ثلاثة أيام غادر إلى سويسرا للبحث عن مسكن على ارتفاع ٣,٠٠٠ قدم، حيث يمكنه تقوية

بريويســـتـــر : رئتيه. كانت خطته فى الخريف، الإبحار حول العالم، على ظهر ميساغرى مارتيميز بمبلغ ١٢٠ دولار، مختتمًا الجولة فى سان فرانسيسكو:

رســـــائل (٦) ص٣٦٧ : أو أنّا سنذهب إلى المزرعة مباشرة. ولكن الأمر سيكون جميلاً، أن يبتعد المرء بعض الشىء، بعيدًا عن متناول البريد أو الحقد، لا رسائل، لا أدب، لا ناشرين أو وكلاء أو أى شىء – أية جَنَّه! أنا مجهد بشكل فظيع من ذلك الجانب من العالم.

كان شك لورنس قليلاً فى الجحيم الذى كان ذلك الجانب من العالم، يذكى النار من أجله.

(١٨)

المحرقة

قرر بريويستر وزوجته مرافقة اللورنسين إلى الألب. وجدا لورنس أشد هزالاً، إلا أنه تقدم غيره، فى القطار المتوجه نحو تورين، فى غناء التراتيل الخاصة بالمنشقين عن الكنيسة الإنكليزية وأناشيد جيش الخلاص وبدا وكأنه يعرف كل كلماتها.

ترفقت المجموعة فى جامبرى إكس – لا– بينز وغرينويل وبعد أن وجدوا "أكثر المناطق وفرة بالزهور" اعتزموا البقاء مدة من الزمن فى فندق ذا توروريست فى نيزير دى بارينسيت وفى الليل أوى لورنس إلى فراشه بمعنويات مرتفعة وفى صبيحة اليوم التالى أعلمهم صاحب الفندق أن لورنس كان يسعل فى الليل وعليه مغادرة المكان. غضب لورنس وتحركت المجموعة إلى فندق غراند فى جيركبريس – سور– فيفى حيث كانت أسرة الأيرل بريويبستر معروفة تماما، وهناك وبالقرب من مياه نهر ليمان كتب لورنس آخر أعماله القصصية التى كان مقدرا أن يكتبها، النصف الثانى من "الديك الهارب"و"الأفعى السامة الزرقاء" ومن هنا وصاعدا، كان يمتلك قوة ورغبة فى كتابة مقالات قصيرة للصحف ، قصائد ، ورسم عدداً من اللوحات وتكملة: رؤية نبوئية" التى لم تنته بعد ..

فى بداية يوليو عثر اللورنسان على كوخ صينى باسم كاسيلمات على سفح جبل فوق جيستج محاطٍ بسهول مزهرة وغابات صنوبر وجبال مكسوة بالثلج. أصيب لورنس بنزيف طفيف ولكنه لم يهتم به مستخفا به. وهنالك جالسا عند منضدة خشبية ريفية بسيطة بين الصنوبرات، كتب معظم مقالاته الصحفية التى جمعت لاحقا تحت عنوان "مقالات متجانسة" لم يكن يقدر على السير حتى جيستج على بعد مسافة ميل بسبب الطريق الصاعد. كان بريويستروز وزوجته اللذان يقيمان فى فندق فى القرية يزروانهما كل يوم تقريبا وأحيانا مع أصدقائهم الهنود ومنهم ذان جوبال موكيرجى وبوشى سين ، الذى قام بتدليك لورنس .لكن صحته لم تتحسن وفى نهاية يوليو كان يكتب لهكسلى وزوجته أنه نَفَّذ تصميما لشاهدة قبرة فى باحة كنيسة جيستج : رحل عن هذه الحياة، إلخ، إلخ، وهو كاره لها !".

كان لورنس قد تسلم نسخة من رواية عشيق الليدى تشارلى فى ٢٨ يونيو كتب فى الحال إلى أوريولى:

جاءت الليدى تشاترلى إلىَّ فى هذا الصباح وسببت اهتياجا لدى الجميع وكل واحد منا يعتقد أنها ظاهريا جميلة جدا. أنا أعتقد أنها حقا كتاب جميل ومحترم – حجم رائع ومتناسب وأنا أحب كثيرا لون الطين المفخور وأعتقد أن العنقاء هو الطير المناسب للغلاف. والآن دعنا نأمل أن تجد طريقها بسلام وسرعة إلى كل غاياتها . رســـــائل (٦) ص٤٤٠ :

كانت الطبعة من ألف نسخة موقعة بسعر جنيهين إنجليزيين للنسخة ، الشكر لكل من ساهم بالمساعدة وخاصة كوت (على الرغم من اعتراضه عليها)، أينيد هيلتون وريتشارد الدينغنون اللذان قاما بتوزيع الكتاب بنفسيهما عندما رفض أصحاب المكتبات الجبناء الطلب عليها. وقد وصلت النسخ إلى الأفراد المقصودين فى إنكلترا، أما عن وصول النسخ إلى أمريكا فقد تأكد صعوبة ذلك وشحنت ١٤٠ نسخة فقط ولابد أن تكون

الصعوبات الكثيرة التى واجهت توزيع الكتاب مضافة إلى حجم التضخم للمراسلات التى أجراها لورنس والمتعلقة به قد كلفته الكثير.

رســـائل (٦) ص٤٨٦ : من الطبيعى أن يؤدى نشر رواية ليدى تشاترلى إلى كشف العديد من الأصدقاء أو أنها بالأحرى ساعدته على اكتشاف من هم الأصدقاء. "أنا سعيد جدا لفقدان حثالة من الأصدقاء! خاصة ذلك النوع العذرى القديم.

عدد من قاعات الرسم أعربت عن اهتمامها بإقامة معرض للوحات لورنس. تردد الرجل بعض الشىء بين قاعتى وارن وكلاريدج وأخيرا . اختار دورثى وارن على الرغم من اعتقاده بعدم الاعتماد عليها من منطلق أنها مثل "الصعود إلى القمر على رغوة صابون" كانت دورثى وارن فى نهاية المطاف ابنة أخت الليدى أوتولاين وكان لورنس قد التقاها سابقا فى أيام غارسينتغون وقبل افتتاحها القاعة عام ١٩٢٧ كانت وارن قد حصلت على بعض الشهرة بوصفها مصممة ومزخرفة للديكورات الداخلية للبيوت. وكانت قد عملت بشكل متقطع فى صناعة الفلم . والآن وهى فى الثانية والثلاثين كانت على وشك الاقتران بفيليب تروتر. أولى معارضها فى القاعة كانت منحوتات ولوحات لابن أحد عمال المناجم غير معروف من يورك شاير يدعى هنرى مور، وتقرر أن يقام معرض لورنس فى شهر أكتوبر.

رســـائل (٦) ص٤٤٦ :

رســـائل (٦) ص٥٢٢ : بعد أن تضايق الناس "ضيقا شديدا" من رواية الليدى تشاترلى، أنذر لورنس دوروتى وارين بأن هذا الأمر"قد يتفاقم أكثر وأكثر" : وأناشخصا أرى زن هذه الأشياء الحقيرة ينبغى تأثيمها حتمه النهاية؛ وعلى الرغم من المرض والارهاق روت دوروثى وارن رداً شجاعًا:

نيـــهلـز (٣) ص٣٢٩ : أنا بطبيعة الحال أتوقع اعتراضات مفرطة فى الاحتشام وهجوما علىَّ فى القاعة. يجب مواجهة كل تلك الأمور وهى لن تكون تجربة جديدة جدا مع أنها واحدة لم أتمرس عليها تماما ولكنى أعتقد أن لوحاتك جميلة وصريحة ومستقلة لهذا أريد عرضها.

فى نهاية أغسطس كان قد رأى ما فيه الكفاية من سويسرا وجبالها اللانهائية ولكن كان عليه البقاء لمدة أطول بسبب توجيهه دعوة لشقيقته إميلى التى لم تكن قد غادرت إنكلترا قط وابنتها مارغريت ١٩ سنة لتمضية أسبوعين فى كيسلمات. كان عليه إخفاء الليدى تشاترلى مثل فضيحة فى خزانة ملابسه . أمضى معظم الوقت فى الفراش بسبب الأنفلونزا وساهم معارفه فى زيادة أحزانه وكان لورنس جد متشوق لرؤية لوحاته:

رســـائل (٦) ص٥٤٢ : أنا أذوب أسى لرؤيتها مؤطرة ومعلقة. ولكنى لا أعرف إن كنت أمتلك القوة لأدس أنفى فى القدر النتن للجزيرة. لا أعلم. وأشك به كثيراً جداً.



لورنس وشقيقته إيملى فى شاليه كاسلمات. صورة التقطتها مارجريت كينج. وأنا لست واقعيًا " بيرتنا **Bert**" يصل إلى هذا الحد، لم يخطر ذلك على بالى مطلقا. كانت الفجوة بين نظرتهم ونظرتى آخذة فى الاتساع، كان ذلك واضحا لى بشكل كبير".

زيارة إلى بادن كانت مطلوبة. غادر اللورنسان جيستج برفقة بريويستر وزوجته فى ١٨ سبتمبر.

رســــائل (٦) ص٥٦٨ : لم يتغير شيء فى بادن مطلقًا: نذهب إلى كورهاوس، ونحتسى المياه الساخنة ونستمع إلى الموسيقى، و – نأكل، بطبيعة الحال. من أجل الاحتفال بالعيد الخمسين للأيرل بريويستر، استأجر لورنس عربتين يجر كل واحدة حصانان، وتجولوا بهما فى الغابات ثلاث ساعات، بمهابة وفى منتهى السعادة. ولكن فوق كل شيء، كانت نزهتهم القصيرة على الأقدام، ومع كل حماسة لورنس الشديدة، فإنه سرعان ما شعر بالإنهاك وأخذ يجر قدميه خلفهم.

* * *

غادر لورنس بادن – بادن فى ١ أكتوبر، بحثًا عن الشمس، رافقه بريويستر وزوجته حتى الريفيرا الفرنسية. فى طريقهم إلى إيطاليا، توقفوا فى ستراسبورغ لرؤية الكاتدرائية القوطية التى يفضلها لورنس، ولكن البرد الشديد دفعهم إلى دار سينما كانت تعرض فيلم بن هور. ولكن خلو الفيلم من أى مضمون إنسانى دفع لورنس إلى الغثيان، وكان عليهم مغادرة القاعة.

رســــائل (٦) ص٥٩٠٦-٧ : ذهب لورنس إلى لافاندو فى انتظار فريدا، التى كانت ذهبت إلى ميريندا لإغلاقها (ولزيارة حبيبها أنجيلو رافاجلى فى تريستا.

أحس لورنس بالسعادة والاطمئنان وهو يمضى الوقت مسترخيًا بكسل على الرمال تحت الشمس. وعندما وصلت فريدا، غادرا إلى بورس كروس، الجزيرة التى كانا قد دعيا لتمضية أسبوعين فى ضيافة أسرة الدينغتون، فى قلعتهم المسماة، لافيجى. ولكن فريدا كانت قد جلبت معها زكامًا قويًا من إيطاليا ونقلته إلى لورنس، الذى ما إن وصل فيجى، صاعدًا مسافة ميل بجهد شديد حتى بقى فى مكانه هناك غير قادر على النزول ومشاركة الآخرين فى السباحة، متطلعًا نحو الأسفل، "والجزيرة الخضراء والصنوبرات المظلية الشكل والبحر الأزرق والجزر الأخرى، وأيضًا نحو البر الرئيسى على مسافة عشرة أميال". فى الأسبوع التالى، حدث نزف له ومكث فى الفراش يقرأ رواية الدوس هكسلى الجديدة التى أشيد بها كثيرًا (قوة ضد قوة)، ورأى فيها نفسه مجسدًا بشكل يثير الإعجاب فى شخص مارك رامبيون، الذى قال عنه لورنس: "ثرثار" يثير الضجر.

بعد يومين جاءت أنباء عن استقبال روايته هو فى إنكلترا. تحت عنوان كبير "الكتاب المشين للروائى المتميز، علامة للفساد)، ووصفت جول بول بأنها:

أسوأ شر وفساد ينهمر لتلويث الأدب فى بلادنا. بالوعات الإباحة الفرنسية لن تجد مثيلاً لقذارتها.

أطلق على لورنس "الشهوانى الملتحى"، (مع صورة منقّحة له لتأكيد الأمر)، و "العبقرى المتبلد بالجنس، الذى يجب حجزه لفترة طويلة". الذى يثير السخرية، أن هذا الأمر كاد يحدث لهوراشيو بوتوملى، المسئول عن تحرير جون بول، لاتهامه بعدد من قضايا الاحتيال. ضحك أصدقاء لورنس لمقالات النقد، ولكنها جرحت لورنس فى الصميم.

ظاهرًا، كان الجو السيئ هو الذى أعاد اللورنسين من القلعة إلى البر الرئيسى، ولكن لورنس كان قد أحس أن علاقة قد نشأت بين الدينغتون وبريجيت باتمور، وعارض تلك العلاقة بقوة. ولم يكتب ثانية لآلينغتون.

أرادت فريدا منزلاً، ولكن رأيها لم يكن مستقراً بين لوغودى غاردا، أو تورمينا أو المزرعة. لورنس شخصياً، أراد العودة إلى إيطاليا من أجل إنهاء المقالات الأتروسكانية، أو الذهاب إلى أسبانيا، أو إلى بلاد الزولو "من المفروض أن يكون المناخ ملائماً". وفى ذلك الوقت، لم يبتعد إلى مسافة أبعد من باندول، "والحيرة والتردد جعلاه يبقى هناك":

رسائل (٧) ص٢١ : الجو ممتع بشكل لا يصدق والمكان جميل جداً، يسبح فى أشعة الشمس الذهبية - الحليبية، زوارق بيضاء، نصف ذائبة، وقت الغروب فى البحر الأبيض الغسقى، وأشجار النخيل تسفع نهاياتها فى الغرب الوردى ونهايات صفوفها السميكة الداكنة فى الأسفل حيث نجلس نحن فى الظلمة، مع أولاد مظللين يركضون وينادون، ومصابيح برتقالية صغيرة، تحت أوراق الشجر فى الغسق وراء الأفق.

رسائل (٧) ص١١٥ : أقبل ديسمبر وبدأ لورنس يمل باندول، "مكان صغير كئيب، باستثناء الشمس". أراد الذهاب إلى أسبانيا ولكن كان من المتوقع وصول باربى وإلسا فى عيد الميلاد. أخذ يسلّى نفسه بقصائده:

رسائل (٧) ص٦٤ : كنت مشغولاً بكتاب عن بينسيه(*) التى أسميها أنا بانسيه، نوع من الشكل الشعرى الطليق، فريدا تقول بجذل: "هزلية مع خروج عن قواعد الوزن الشعرى".

ديفيز الذى مكث بضعة أيام مع اللورنسين قبل حلول عيد الميلاد، تأثر بشكل خاص بالحياة التى كان يبثها فى لوحاته:

نيهلز (٣) ص٢٧٤ : مع كل غضبه وثورته، حصل على تسلية كبيرة من كتابة بانسيه. كان يكتب وهو فى الفراش صباحًا، مرحًا ومبتهجًا، وهواء بحرى معتدل يهب إلى الداخل من مشربية صغيرة وجميلة خارج النافذة... ولكن الرسم، كما بدا، كان مصدر البهجة الأشد بالنسبة إليه، متوجهًا نحوه بارتياح وبنوع من الهروب... كان فى الغالب حزينًا فى استغراقه فى تلك اللوحات، وقال : إن الكلمات بدأت تضجره الآن.

كان ديفيز روائيًا شابًا من ويلز، قدم للعيش فى نيس. أصبح لورنس على اتصال به بواسطة أحد أصحاب المكتبات فى لندن وهو جارلز لاهر، المسئول عن تحرير، نيو كوتيرى وناشر مجموعة، شمس، القصصية للورنس، ولاحقًا قصائد " بانسيه" غير المعدّلة. كان لاهر قد بعث إلى لورنس أول رواية لديفيز، كان كتبها حديثًا، (الجذر الذاوى)، والتى وجدها لورنس جيدة وحقيقية:

رسائل (٦) ص٥٣٤ : "كنت سعيداً بالكتاب، وأحسست بغرابة التربة التحتية الداكنة، وبنكهة ويلز الكئيبة". كما أكد لاهر الأقاويل، من أن طبعة منتحلة، غير مرخص بها من رواية الليدى تشاترلى، قد ظهرت فى أميركا. وظهرت طبعات أخرى على إثرها. أطلق لورنس فى الحال النسخ الـ (٢٠٠ الاعتيادية، بجنيه إنكليزى واحد للنسخة، فى محاولة البيع بسعر أقل من قراصنة الكتب، ولكن النسخ كانت قليلة جداً، فبدأ البحث عن ناشر لإصدار طبعة رخيصة.

كانت لوحات لورنس ماتزال تنتظر فى قاعة دورثى وارن. دون تحديد موعد الافتتاح. ولكن اقتراحاً قدم إلى لورنس، فى هذا الوقت، من شاب أسترالى متحمس وهو، ب . ر . ستيفنسون، الذى رغب فى طبع كتاب مصور عن اللوحات. كان سيتفنسون قد اشترك مع جاك لند ساى فى التعاون مع مطبعة

(*) بانسيه، زهرة الثالوث، نوع من البنفسج وتعنى أيضاً شاب مخنّث (المترجمة)

فانفروليكو، ودار أفروديات فى لندن. إلا أنه كان فى مرحلة الافتراق عن ليند ساى، ليبدأ العمل فى مطبعته الخاصة، الماندريك، ولوحات لورنس ستكون أولى مطبوعاته. أثار المشروع لورنس، الذى عرض

رســـائل (٧) أن يكتب "مقدمة لاذعة ومناسبة رداً على كل ذلك الهذيان حول الشكل".

ص٨٢ : فى الليدى تشاترلى، كان لورنس طالب أن تكون الرواية:

بإمكانها أن تُعلِّم وتقود تدفق وعيَنى المتعاطف، إلى أماكن جديدة، وهى قادرة على أن تقود تعاطفنا بعيداً عن أمور أصبحت ميتة.

كان يؤمن أنه بتعديل الوعى التعاطفى للأفراد، ليس فى رواياته فحسب، بل بلوحاته وحتى بقصائده القصيرة، بانسيه، كان يقدم مساهمته للثورة التى أحس وجوب مجيئها. وقد بعث بمناسبة العام الجديد رسالة قصيرة إلى شارلز ويلسون، قائد عمال مناجم دورهام:

رســـائل (٧) إنه الزمن الذى كان يجب وجود ثورة هائلة فيه – لا لتنصيب السوفيت، بل لأجل منح الحياة نفسها

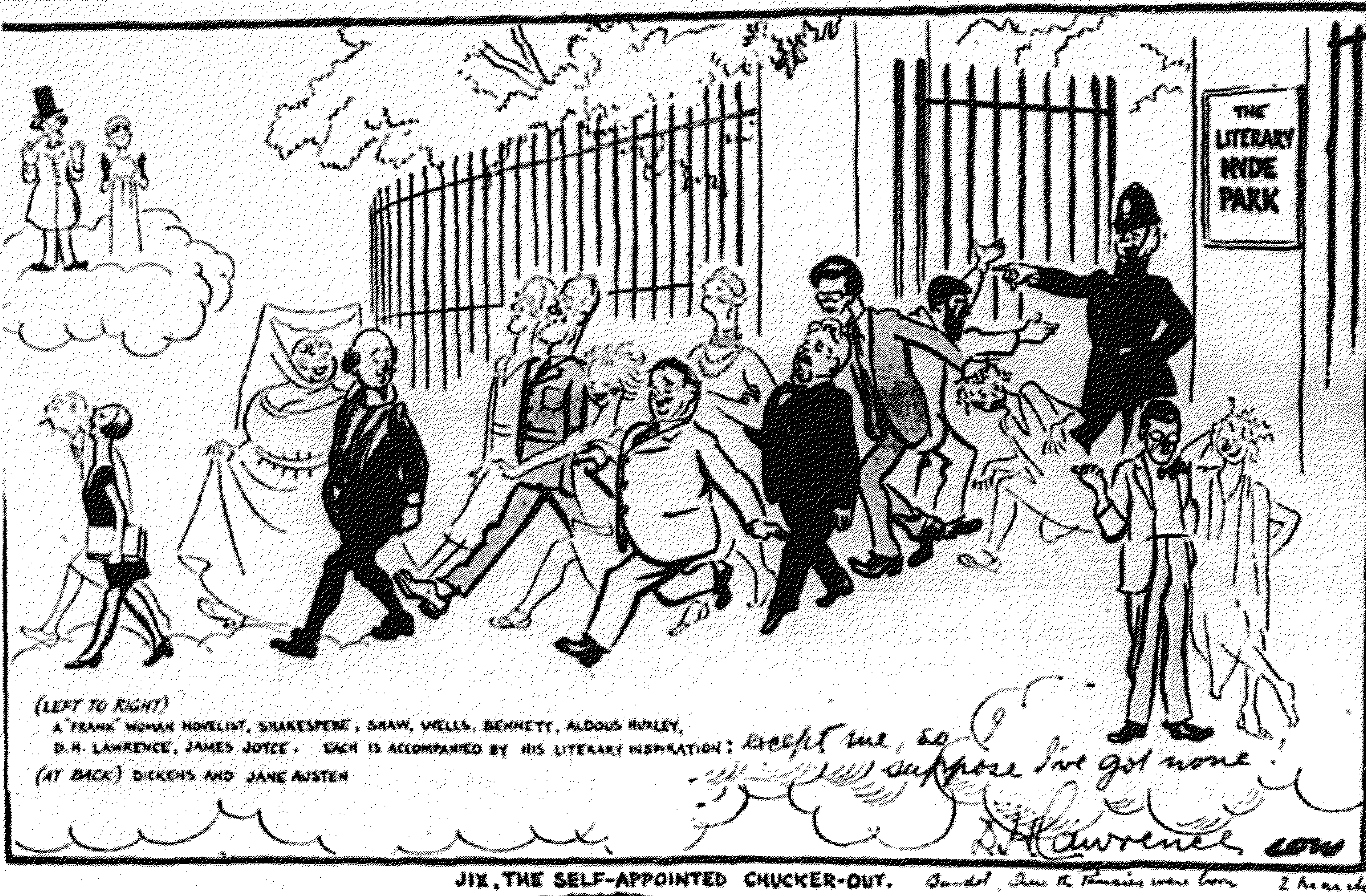
ص٩٩ : فرصة، ما فائدة نظام صناعى يكدس النفايات، بينما لا يعيش أحد.

تحسنت صحة لورنس. وهو منذ وصوله باندول، لم يرقد يوماً واحداً فى فراشه. وهو فى هذا الوقت، قد روّض نفسه لتمضية الشتاء بأكمله فيها. والحياة كانت ممتعة جداً ومريحة كما تتذكرها فريدا:

فـــريدا ٢١١ : فندق مشمس بجوار البحر، المكان ودود ومطمئن كما تكون مقاطعة بروفانس فقط... كتب لورنس، بانسيه، صباحاً، فى غرفته، ثم كنا نذهب لتناول المشهيات، قبل تناول الغداء، فى مقهى على البحر ٥ كنا نعرف كلاب المكان الصغير كلها ، وشاهدنا القوارب قادمة بحمولتها الفضية من السردين، تتألق على رمال الشاطئ. لورنس... راقب الرجال يلعبون بعد الغداء على الشاطئ نوعاً من البولينغ. بدا لنا أننا نتقاسم حياة هذه المدينة الصغيرة، التى تمضى فى سهولة ويسر. ذهبنا بواسطة " الباص" إلى طولون. رأينا الجنود الملونين. ذهبنا إلى سيرك جميل. نعم، مريحاً ومشمساً كان الشتاء فى باندول.

متأخراً، فى منتصف يناير، بدأت الشرطة بمصادرة نسخ الليدى تشاترلى الداخلة إلى إنكلترا. لم يعد الأمر هاماً، مادامت النسخ المتبقية منها قليلة. الأهم أنهم حجزوا النسخة المطبوعة من بانسيه، الموجهة إلى كيرتس براون. كتب الدوس هكسلى، الذى زار اللورنسين فى باندول، إلى صديقه جون هاجينسون، المحامى فى المحاكم العليا، والمرشح للبرلمان، الذى كان قد تعرف على لورنس من أيام الحرب. كتب هاجينسون أنه يعرف عدداً من الأعضاء الراغبين فى إثارة المسألة فى المجلس وأنهم قد يقنعون رامزى ماكدونالد (الذى سيصبح قريباً رئيساً للوزراء)، أن يفعل ذلك. وفى ذلك الحين، طرح الموضوع على جدول أعمال وزير الداخلية، **من** قبل إليس ويلكينسون.

Tuesday, February 26, 1929.



جكس الذى عين نفسه رقيبا من تلقاء نفسه.

قال السير ويليام جونسون – هيكز ("جيكس") إنه قد أمر أن تحفظ المخطوطة لمدة شهرين، لأجل إتاحة المجال للمؤلف أن يثبت أن عمله لا يتضمن أمرًا مشينًا. وأكد للمجلس أنهم قد فعلوا ذلك. قرر لـورنس ألا يكافح أكثر. فهى لم تكن النسخة الوحيدة، وأيضًا، تعارك، فى الحقيقة، مع سيكر حول الفقرات التى يجب حذفها أو إسقاطها. سيدع سيكر يفعل ما يشاء، ويقدم نسخته غير المعدّلة، بشكل خاص مع جارلى لاهر. وقد ابتهج لورنس بعد زمن قصير لفوز حزب العمال فى الانتخابات العامة، والتى عنت بطبيعة الحال، مغادرة (جيكس) الكريه لمجلس اللوردات، كلورد برينفورد.

رسـائل (٧) فى شهر فبراير وصلت أدا لتمضية عطلة. وعلى الرغم من محبة لورنس لها، فقد أثارت أحزانه: أحس
ص١٨٣ : أن كل الأجزاء الوسطى من إنكلترا تقف خلفها، نفس إحساسهم بخيبة الأمل، أريد أن ألقى بقصائد بانسيه فى النار، ونفسى معها... أوه – يا عزيزى!".

كان الجو باردًا جدًا فى باندول، بحيث إن كل أشجار النخيل واليوكالبتوس، تجمدت حتى الموت. كان لورنس عازمًا على الانتقال بسرعة، ولكن إلى أين؟ قرر المجازفة والسفر، على أى حال، إلى أسبانيا. ولكن تغييرًا مفاجئًا طرأ فى الدقيقة الأخيرة، جعل لورنس يتوجه بصحبة رايزديفيز إلى باريس، لبحث إمكانية الترتيب لطبعة رخيصة من الليدى تشاترلى. شعر أن الترتيبات الجديدة مناسبة:

رسـائل ٢٠٩ : "سأبرز ببدلتى الرمادية الجديدة وحتى بزوج من القفازات، أخذتهما من طولون، مناسب جدًا..".

ولكن الذى كان يريده حقًا، كما أخبر هكسلى، كان (التناسخ فى جسد مفعم بالحياة، لا يسعل.

رســـائل (٧) ص٢٠٧ : وصل لورنس باريس فى ١١ مارس ويقى فيها ثلاثة أشهر مع أسبوع خارجها، فى سورينيه، فى منزل هكسلى. وعلى الرغم من هزاله إثر إصابته بالأنفلونزا، نجح لورنس فى الوصول إلى اتفاق حول عمله. كان اقتراحه الأول لسيلفيا بيج، ناشرة يوليسيس لجويس، ولكنها بدت قانعة فى استراحتها على أكاليل غارها. كان الثانى، إدوارد تينوس، صاحب مكتبة، خلف مقهى الدوم، المحرر فى مجلة (هذا الفصل)، وزوج خبيرة التجميل الثرية، هيلينارو بنشتاين. وافق تيتوس على الإشراف على إنتاج طبعة رخيصة من ٣٠٠٠ نسخة من الليدى تشاترلى، يشار إليها من الآن فصاعداً فى مراسلاتهما باسم (سيدتنا).

فريدا التى كانت فى بادن، انضمت إلى لورنس فى ٢٥ مارس. وديفيز الذى كان بادى القلق من السعال الليلى للورنس والأرق الذى لازمه، ارتاح لعودة فريدا. وكان فى الخارج يتسوق بعد الظهر، حال وصولها.

ديفيز ١٥٧ : عدت، طرقت على باب لورنس وأذن لى بالدخول. كان الزوجان يستلقيان على السرير تحت فوضى لحاف مكوم من القطيفة الحمراء ورأس لورنس الملتحى يرتاح قانعًا على الصدر الحنون المنتعش بأنفاس أسبوعين من الوطن.

أمضى اللورنسان عطلة نهاية الأسبوع التالية مع أسرة كروسبى فى منزله المسمَّى" طاحونة" الشمس، فى أرمينو نفيل. تقول يوميات هارى كروسبى ليوم ٢٩ مارس:

كروسبى ٢٤٤ : إنه يتجول فى الحقول ويقطف الزهور، وأنا أتضرع إلى الله من برجى الشمسى إلى الشمس الغاربة. كاريسما تزرع التيوليب، وفريدا تسير فى الغابة. فى وقت العشاء، أمام موقد النار، أدير (الكرامفون)، نصغى إلى جيمس جويس يقرأ بصوت عال من يوليسيس، وبعد الاستماع إليه، قال لورنس: أجل، لقد تذكرت واعظًا كذلك، واعظًا يسوعيًا، يؤمن بالصليب مقلوبًا رأسًا على عقب. وكم يكره هو أغنية السرير الفارغ، وكم كانت صدمته كبيرة عندما أبديت ملاحظة فى صالح العض فى ممارسة الحب.

أصغت فريدا كثيراً فى عطلة نهاية الأسبوع تلك إلى أغنية السرير الفارغ، لبيسى سميث، إلى حد أن لورنس كسر الأسطوانة فوق رأسها. اشترى هارى كروسبى نسخة أخرى منها مع جهاز (كرامفون) لتتمكن من الاستماع إليها، مع قرف لورنس الشديد:

رســـائل (٧) ص٥٦٦ : "الكرامفون" – "أقبل يدك سيدتى"، أنا لن أسمح به إلا فى المطبخ، أنا أكرهه بشدة.

فى يوم أحد عيد الفصح، أخذ هارى لورنس لرؤية سباق الخيل:

كــروســبى : عيد الفصح، توجهت برفقة لورنس بالسيارة إلى شانتيللى، للتفرج على الحصانين "كوكتيل جين" و"ضربة شمس"، وفى وقت العشاء، كنا حول النار، أخذ يتحدث عن كتاب جديد له لم يطبع بعد، بعنوان (الديك الهارب)، وهو عن تجوال المسيح بعد البعث، وكيف أنه قابل كاهنة لايزيس فى معبد صغير على الساحل الفينيقى، وكيف أنهما عاشا معًا، وكيف أن هذا الأمر هو حلقة الربط المفقودة فى تاريخ المسيح. وقد استشارنى وكاريسا الموضوع، وعرضنا عليه تقديم الكتاب لمطبعتنا، مطبعة الشمس السوداء، وفى تلك الأمسية ذابت جميع الشموع ووهنت ونحن ننعم النظر فى اللون الذهبى الأحمر للنار، وكان الأمر مثل مشاركة فى مؤامرة.





Le Moulin du Soleil





كان الوقت مصادفا لموسم النرجس الأزرق، ولذا رحنا نبحث عنه. ورحت أنا ولورنس ونحن راكبان فى عربة يجرها حمار نبحث عن أماكن زهور النرجس الأزرق. بحثنا فى كل الأماكن غير المحتملة وكان لورنس يضع شالا على ركبتيه) وياقة معطفه مرفوعة إلى الأعلى، وقبعته متدلية على عينيه، رحنا نبحث عن النرجس ونحن نتكلم طول الوقت. (كارس كروسبى).



هاري وكارس كروسبي ومعهما كلبهما.

الديك الهارب، بطبعة مطبعة الشمس السوداء، كانت ستصبح أجمل طبعة ظهرت لأعمال لورنس.

بعد بضعة أيام، ذهب لورنس ثانية إلى منزل غروسبى، لتقوم كاريسا بنحت تمثال له. ذهب هارى إلى جويس لتوقيع اتفاق معه حول "حكايات قيلت عن شيم وشون"، وبعد ذلك عرض على جويس تقديمه للورنس، ولكن جويس كان خجولاً، واعتذر بحجة ألم فى عينيه.

من الصعب أن يتصور المرء وجود شخص أكثر اختلافًا عن لورنس من هارى كروسبى، بدخله السنوى البالغ ١٢,٠٠٠ دولار، مع كلاب، وخيول، وخدم، وعشيقات، وقمار، ورحلات طيران، ومشروبات ومخدرات. كل تلك الأمور أرضت رغباته الجامحة، لكنها سرعان ما تبخرت واستبدل بها أخرى أكثر جموحًا حتى اتخذت طريقًا لولبيًا نحو الجنون:

كروسبى ٢٤١: أنا شخص كثير الأوهام أحب أن أحلق عاليًا، وهو مستغرق فى الجد وفى خاصية الأرض الفطرية وفى الجسد وتعقيدات علم النفس، إنه غير مباشر وأنا مباشر. هو يعترف بالهزيمة وأنا لا أعترف، هو شخص عادى مألوف، أنا لا، هو غير أرستقراطى، أنا أرستقراطى، كان له منظر رث، وأنا أكره ذلك، أعتقد أنه مريض، أنا أسامحه كثيرًا بسبب (الأفعى المريشة)، ولكنى لا أرى عذرًا لكتابة الليدى تشاترلى ... مكث لورنس حتى الرابعة، مهاجمًا مخيلاتى الوهمية، ولكن قلعتى صمدت أمام القذائف، وبدأت أرتب قواتى من أجل هجوم مضاد، وكل هذه الأمور استغرقت وقتًا، ولهذا لم أستطع الذهاب لافتتاح السباقات المباشرة فى ميزون لافيت، حيث أردت رؤية، سيدة الحصان الذهبى ومراقبة (السهم) وهى تفوز بنسبة سبعة إلى واحد، وكنت قد راهنت بألفٍ عليها للفوز.

فونيكس ٢٥٧ : وجد لورنس فى قصائده "مجرد تكرار للشمس، الشمس، الشمس، ليس بوصفها رمزًا مشعًا، بل بوصفها شيئًا مذهلاً ومخدرًا". كان كروسبى قد وشم ظهره بصورة كبيرة للشمس، وشمس محفورة على سلاحه النارى الأوتوماتيكى، به قتل عشيقته ونفسه فى ١٠ ديسمبر ١٩٢٩".

* * *

رســـائل (٧) ص٢٤٨ : فى ٧ أبريل غادر اللورنسان باريس إلى إسبانيا – "كان سعيدًا جدًا لمغادرة المدينة ذات الليل الفظيع". رفض لورنس الذهاب إلى الجانب الآخر من مايوركا للتمتع كما فعلت فريدا. انتقد الخمر المحلى بقوله،

رســـائل (٧) ص٢٦٠ : البول المشبع بالكبريت لحصان متقدم فى السن" والوجوه المحلية الأسبانيشية(*)، وأصيب بالملاريا مجددًا بحيث إن "أسنانه كانت تصطك مثل زوج من الصنجات". وعلى الرغم من الشمس والبحر والزهور، شعر أنه جد منزعج ليعمل أو يستقر، على الرغم من بقائه هناك مدة شهر:

رســـائل (٧) ص٣٠٩ : هذا مكان رائع لعمل اللاشىء – الوقت يمر مسرعًا فى امتداد طويل للاشىء – وهو ينكسر بمجىء أحد ما ليأخذنا فى سيارة أو شخص آخر على عربة حمار. إنه مكان مناسب لصحتى تمامًا. هذه الرسالة هى المساهمة الأدبية الأكثر جدية خلال الأسابيع الستة هذه.

(*) أى الشبيهة بوجوه من يعيشون فى أمريكا الجنوبية بالقرب من البحر الكاريبى (المراجع).



لورنس : صورة التقطها إرنستو جوارديا فى بالما، فى شهر يونيو من العام ١٩٢٩ .

كان لورنس قد انتهى إلى قرار من أن قدره لن يدعه يعود إلى المزرعة، التى ربما ستعرض للبيع، من أجل دفع ثمن البيت الجديد المقترح. ولكن بريت أصرت على حقها فى القبول أو الرفض قبل بيعه للآخرين، وعرضت مبلغ ٥٠٠٠ دولار، مع معرفة لورنس عدم امتلاكها، لأى مبلغ من النقود. وهو فى الحقيقة شك بقيامها ببيع بعض المخطوطات التى كان قد تركها فى المزرعة. ومن أجل تجنيب لورنس المزيد من الإزعاج، عرضت فريدا، أن تسمح لبريت بالعيش فى المزرعة، بلا مقابل، إن قامت بتسليم المخطوطات المتبقية. وقد فعلت بريت ذلك. وغالبية المخطوطات المفقودة كانت فى أماكن أخرى.

فى ١٨ يونيو، غادر اللورنسان مايوركا، لورنس للبقاء مع أسرة هكسلى فى فورت دى مارمى، ولتذهب فريدا إلى لندن لرؤية معرض قاعة وارن، الذى افتتح أخيراً، متزامناً مع صدور كتاب ماندريك، عن اللوحات. وجدت فريدا علماً زاهياً يحمل اسم لورنس يرفرف خارج القاعة. كانت الرسومات نفسها مناسبة جداً للغرف العارية الكبيرة فى ميريندا، ولكنها بدت متطرفة ومربكة تماماً فى الغرف الأنيقة المرهقة للقاعة. عشرون لوحة عرضت، خمس عشرة زيتية وعشرة بالألوان المائية.

معظم ملاحظات الصحف كانت متلهفة ومناصرة وظريفة. لم تحرك السلطات ساكناً إلا بعد شكوى قدمت من قبل شخص عادى. كان اليوم الخامس من يوليو، عندما جاء رجال الشرطة إلى القاعة. وحتى ذلك الوقت كان أكثر من ١٢,٠٠٠ شخص قد شاهدوا اللوحات. رفضت دورثى وارن ومعها فيليب تروتر إغلاق القاعة إثر غارة الشرطة. قام رجال الشرطة بإدارة لوحتى، كونتادينى وتخطيط للرقص نحو الجدار، وفى الوقت نفسه، دخل الأغاخان، متأنقاً بعد خروجه من حفل كان أقيم فى حديقة قصر باكينغهام. وقد وصف فيليب تروتر بشكل جميل ما حدث هناك:

نيهلز (٣) ص٣٤٥ : توسلت أن أجد طريقاً للأغاخان نحو لوحة بوكاشيو، التى كان دورها قد حان الآن، والتى كان مصيرها محتوماً، وهناك التقيا، الأغاخان ومفتش الشرطة السرية هيستر، انحنيا بعضهما البعض، مع ارتباك الأخير. وفى أعقاب الأغاخان، جاء رجل رث الثياب من نوتنغهام، ليشاهد اللوحات التى رسمها ابن بلدته الشهير. أعربت له عن أسفى، لأن الوقت قد فاته كثيراً لرؤية كونتادينى. لكنه سار نحوها وبدأ يدير الإطار مسترقاً النظر. هيستر سعيداً بالتخلى عن بوكاشيو للأغاخان، شق طريقه عائداً إلى كونتادينى: قال الشرطى بصرامة: "قف جانباً رجاءً، تلك الصورة ليست للعرض بعد الآن". ابتعد الرجل الضئيل، ولكن الأغاخان تبع هيستر، مشيراً بعصاه الرائعة، إلى كونتادينى:

"هل لك بإدارة تلك اللوحة رجاء؟ أود أن أراها".

جُعل أفراد الشرطة من أنفسهم مسنداً لها، "الأمر هين جداً، حسن جداً، صاحب السمو؟"

ثم أشار الأغاخان إلى الرجل القادم من نوتنغهام ليكون إلى جانبه، واستمتعا معاً بلوحة كونتادينى.

حجزت الشرطة على ثلاث عشرة لوحةً: قصة بوكاشيو، قتال مع امرأة مسترجلة، تخطيط – رسم، عائلة فى الشرفة، كونتادينى، حادثة فى منجم، بحر الشمال، ربيع، غناء البجع المغنىِّ، ليدا، تثاؤب، رقصة النار، تحت شجرة المانجو.



صالة عرض وارن. الرسوم من اليسار إلى اليمين، العودة إلى الجنة، قبلة العناق، البعث، وأشجار الصفصاف الحمراء .



– دوروثي وارن وفيليب تروتر.

كما أن الشرطة حجزت من إعادة **استنساخ** ماندريك للوحات: نبات من الفصيلة الباذنجانية، إنسان غريب لجورج غروز، تخطيطات قلمية لبليك، وغيرها من التى اعتبرها المفتش هيستر مشينة، استمر المعرض مفتوحاً وغطيت الفراغات ببعض لوحات لورنس الأولى.

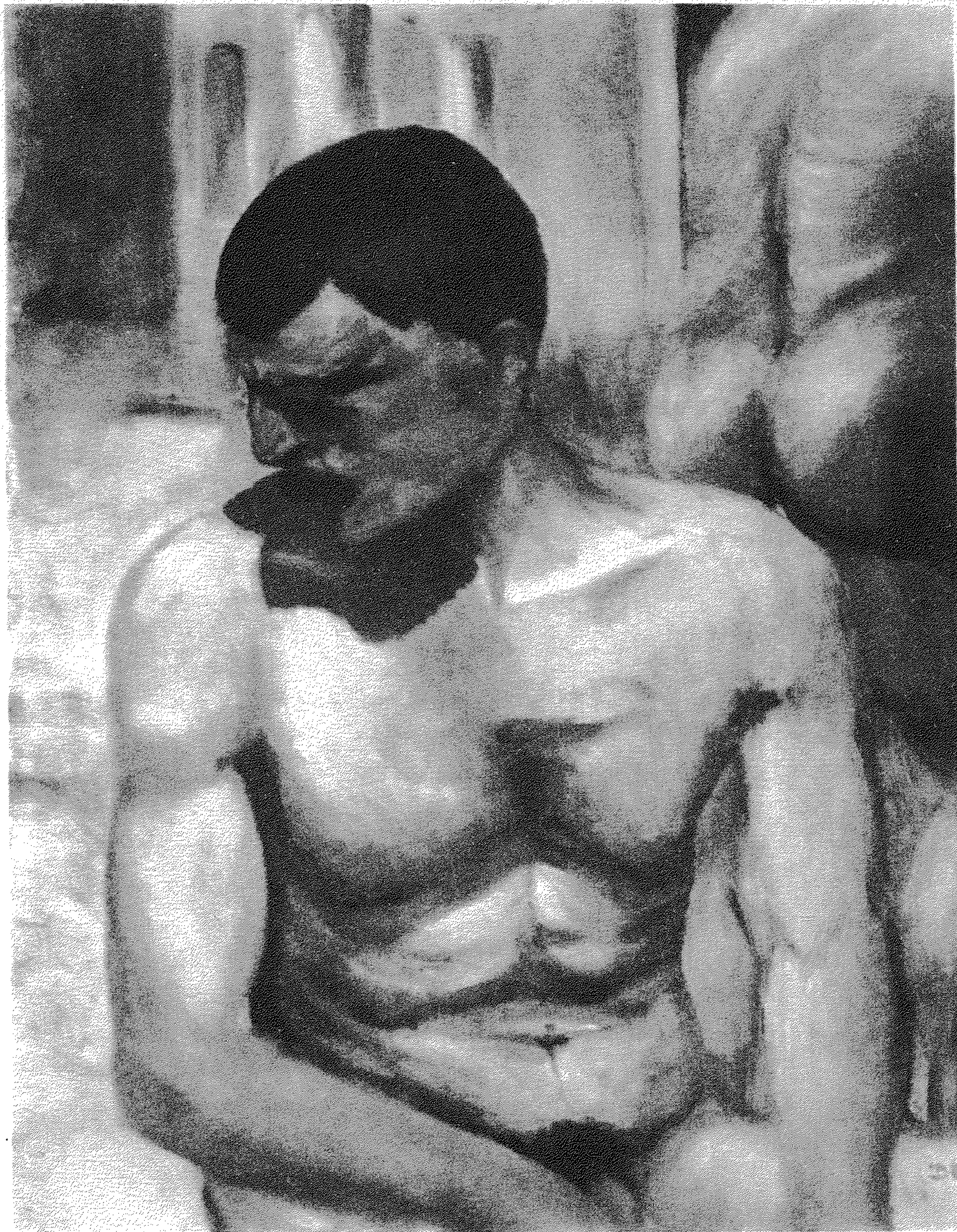
فى اليوم نفسه الذى جرى فيه الهجوم، كان لورنس فى فورت، يعانى بشدة من آلام مرض فى المعدة. وعلى الرغم من ذلك، سافر إلى فلورنسا فى اليوم التالى، وهناك استاء أوريولى كثيراً من مظهره، رأسه وذراعاه تتدليان برخاوة إلى جانبى السرير، وكأنه قد أنزل من الصليب، بحيث اضطر إلى جلبه بالسيارة إلى مسكنه، والاتصال برقياً بفريدا للمجيء فى الحال. بعد بضعة أيام، تحسنت صحته إلى درجة سمحت له بالسفر معها إلى بادن.

غضب لورنس غضباً شديداً لدى سماعه أخبار الغارة:

رسـائل (٧) ص٣٦٤ : "الخنازير القذرون، سيعجبهم أن يفكروا أنهم جعلوك تبكى". وقد أعطى تعليماته لدروثى وارن، أن تجعل من الأمر قضية اختيار، أن تعيد لوحاته سليمة، مهما كلف الأمر، وخاصة أثيرته بوكاشيو.

رسـائل (٧) ص٣٦٩ : أن أعترف أن لوحاتى يجب حرقها، من أجل تغيير القانون الإنكليزى، سيكون اعترافًا بالتضحية بالحياة استجابة للظروف وذلك أمر أستنكره بشدة، لا، مهما كلف الأمر، وبأى ثمن، لا أريد أن تحرق لوحاتى، لا مزيد من (الصلب) والعذاب والمعاناة القاسية، لا مزيد من الاستشهاد، لا مزيد من المحارق، إن كان بإمكانى منعها.

كان أمام آل – تروتر مجال حتى ٨ أغسطس لإعداد الدفاع. وقد استعد هو وأصدقاؤه لذلك بتجنيد الفنانين وخبراء الفن للشهادة بأن لورنس كان فناناً حقيقياً، ومن أولئك: أغسطس جون كولن أغنيو – خبير وتاجر لوحات ذو مكانة عالمية، د . تانكريد بورينيوس – مؤرخ فنى شهير، غلين فيلبوت والسير ويليام أوربن كما وقَّع عدد آخر من المشاهير: فنانون، كتاب وأعضاء فى البرلمان، التماسًا، ومن بينهم من كان موضع ازدراء لورنس فى المقدمة التى كتبها لكتابه (رسومات)، ومنهم كليف بيل وروجر فراى مضافًا إليهم أعضاء جماعة بلومزبرى.



لوحة كونتاديني

فى تلك الأثناء، رفض السيد جاستيس ميد بيّنة الخبراء على أساس أن "أروع اللوحات الملونة فى الكون قد تكون مشينة". عند هذه النقطة الأساسية، نهضت الليدى أوتولاين موريل فى الخلف من الغرفة، مشيرة بإصبعها نحو السيد ميد وقالت وبنغمة، "يجب أن يحرق". السيد هيربت ماسكيت، الذى كان قد مثّل أمام رجال الشرطة من قبل فى القضية التى أثيرت ضد قوس القزح، أكد أن "هذه اللوحات فاضحة، رديئة، شنيعة وغير مقبولة بالنسبة لأى وجهة نظر، جمالية أو فنية، وهى بطبيعتها فاضحة". السيد جون هاجينسون، ممثلاً لقاعة وارن، ناقش بقوة أن القضية خلقت سابقة والتى بموجبها يمنح رجال الشرطة سلطة رفع قطع فنية رائعة من قاعات عامة ويقومون بإتلافها إن وافق أى قاضٍ على كونها فاضحة. مع ذلك، وحسب تمنيات لورنس، تمت الموافقة على اقتراح للتسوية يقضى بإعادة اللوحات إلى أصحابها، شرط عدم عرضها ثانية فى **إنكلترا**. تم قبول الاقتراح، وحفظت اللوحات. أما الأعمال الأربعة المستنسخة لماندريك فقد صدر أمر بإتلافها. وقد دفعت قاعة وارن نفقات الدعوى وقيمتها خمسة جنيهات وخمسة شلنات.

وفى هذا الوقت، كان لورنس فى كورهاوز بلاتينغ، وصحته كانت تحسنت إلى درجة كافية لكتابة "عدد من قصائد البانسيه، اللاذعة، القارصة فى ذلك الوقت":

رسائل (٧)٤٠٠ :

رأيت مؤخراً منظراً غريباً.

قصائد ٦٨٠ :

رجال شرطة لندن يشبهون الزنبقة، يغمى عليهم

غضب عذرى ينتابهم عندما يشاهدون

عرى لوحة للورنس عارية!

رسائل (٧) ص٤٢٥ :

ماذا كانت ميزة صب طاقات المرء المتلاشية فى عمل جاد "لأمة من الجبناء أمام الحياة!... تصدر إليهم أوامر من قبل غوغاء يفتقرون إلى الذكاء ونفاية مستهلكة للقرن التاسع عشر الميت؟" مع ذلك، فالمشكلة حول الليدى تشاترلى والرسومات حفّزت لورنس على كتابة ثلاثٍ من أفضل مقالاته، (اللورد الناهض)، (الإباحية والقذارة)، و(مسألة عشيق الليدى تشاترلى).

(١٩)

الرحلة الأطول

كان لورنس لايزال يفكر بمنزل دائم فى إيطاليا:

رســــائل (٧) ص٤١٠ : سيكون فى الأمر متعة كبيرة إن عثرت على منزل وامتلكت عدداً من البط والماعز. لم أجرب يدى من قبل فى تربية الخنازير، ولكن لمَ لا؟ لابد أنها أفضل من الخنازير البشرية. وسيكون بإمكاننا أيضاً إعداد لحم خنزير مقدد، وأن نعلّق قطعة من خاصرة خنزير على الجدار. كان والدى يقول دائماً : إنها أجمل صورة على جدار – قطعة من لحم الخنزير! ومن الممكن تعليق لوحة بوكاشيو على الجدار المقابل – كافة الخطايا معاً.

للمرة الأولى فى حياته، لم تكن للورنس مشاكل مالية – التسوية التى أجراها مع أوريولى، بيّنت أن الليدى تشاترلى حققت ربحاً مقداره ١,٦١٦ جنيه أسترلينى، ذهب منه نسبة عشرة بالمئة فقط لأوريولى. بل إن لورنس كان قادراً على رفض ٣,٠٠٠ دولار ثمناً للمخطوطة.

رســــائل (٧) ص٤١٧ : فى هذه الأثناء كانت الأقاويل تنتشر بأن لورنس على وشك الموت، وصلت بعضها إليه: لقد قرروا أن أموت. لهذا وبطبيعة الحال، سأعيش مائة عام وأضع الأكاليل على قبورهم جميعاً. أُعلم لورنس من قبل أحد الأطباء أن رئتيه شفيتا، ولكن الالتهاب الرئوى والربو قد أصبحا أسوأ من ذى قبل وأن عليه الذهاب ناحية البحر. من جديد انحدر اللورنسان إلى فندق لوين، حيث احتفلت فريدا بعيد ميلادها الخمسين. كانت قد أصيبت بخلع فى كاحلها على الصخور فى مايوركا، ومازال تعرج. كان لورنس معتمداً على مسألة عدم إصابتها بمرض ما مطلقاً، أو حتى أن تكون متقلبة المزاج، وكونها أبداً ينبوع بهجة راسخة.

فى نهاية أغسطس غادرا بادن إلى بافاريا، ليكونا على مقربة من ماكس موهر فى روتاج. كان موهر كاتب مسرح وروائياً وطبيباً ومعجباً كبيراً بلورنس، وكان قد زاره فى إرشينها وزن فى ١٩٢٧ وفى لاديابليرتيز فى ١٩٢٨ كان موهر يشبه رولف غاردينر فى بعض الصفات، منها حبه لتسلق الجبال وممارسة بعض الأنشطة الخلوية والشبابية والموسيقى الشعبية. والأهم فى هذه المرحلة من السن، أن لورنس وجد رفقته مقبولة ومن دون متطلبات.

فى روتاج، واجه لورنس، وللمرة الأولى احتمال كونه موشكاً على الموت:

جاءت شقيقتى إيلز لرؤيتى مع ألفريد ويبر. عندما أصبح بمفرده مع ويبر، قال له: "هل ترى تلك الأوراق وهى تتساقط من شجرة التفاح؟. عندما تريد الأوراق السقوط، عليك أن تدعها تسقط". كان ماكس موهر، قد جلب عدداً من الأطباء من ميونيخ، ولكن الدواء لم يساعد لورنس. كان بمجمله إنساناً ضعيفاً ورقيقاً ذا حساسية بالغة. أتذكر بعض ليالى الخريف عندما بدت النهاية وشيكة. أصغيت طوال الليل

إلى أنفاسه عبر الباب المفتوح، وكانت بومة تنعب من فوق شجرة حور فى الخارج. فى الفجر الباهت العتمة، بدت حزمة كبيرة جداً من زهر الجينتين، كنت وضعتها على الأرض، عند سريره، بدت الشىء الوحيد الحى فى الغرفة.

وضع الأطباء حمية غذائية خاصة بلورنس، ووضعوا الزرنيخ، الذى جعله أسوأ. كان ١١ سبتمبر، عيد ميلاده الرابع والأربعين، علم أنه قد يكون أيضاً الأخير:

قصائد ٩٥٩ : أية رحلة لروحى

فى الكآبة المظلمة الزرقاء

للجينتين هنا فى الغرفة المشمسة!

* * *

كان لورنس قد طلب من أوريولى البحث عن مسكن ملائم فى الجبال، فوق فلورنسا. ولكنه قرر أنه يجب أن يعود إلى باندول، حيث كان مبتهجاً وفى حالة حسنة فى الشتاء السابق. كان سعيداً لفكرة عودته إلى البحر الأبيض المتوسط. "مازلت أحب المتوسط. إنه مازال شاباً مثل أوديسيوس فى الصباح" **رسائل (٧) ص٥٠٩ :**

رسائل (٧) ٤٩٢-٥٦٦ : سرعان ما وجدت فريدا منزلاً – فيلاّ بيو سوليل، "واحدة من تلك الشاليهات الريفية، من طابق واحد، إنها "أشبه بمبنى محطة قطار صغيرة"، ولكن مع أفضل تدفئة مركزية، "تبدو جميلة من ناحيتى الهواء والضياء". **رسائل (٧) ص٤٩٤ :**

فى أغسطس كان لورنس قد أعاد علاقته مع فريدريك كارتر، وبحلول أكتوبر، كانا يخططان لمشروع مشترك، يساهم فيه لورنس بكتابة تعقيب حول كتاب سفر الرؤيا، مقدمة لشرح كارتر الأكثر خفية والمقصور على فئة قليلة. أرسل لورنس فى طلب عدد من الكتب العلمية حول الموضوع. فى الشهر التالى جاء كارتر ليقيم فى باندول. ولكن لورنس لم يعجب بشخصيته وانطفأت الومضة فيه. ومع ذلك، فقد أوحى للورنس كتابة آخر أعماله المؤجلة (رؤيا نبوئية):

رسائل (٧) ٥٠٩ : (أريد جداً أن أضع فى العالم ثانية، الرؤيا الوثنية القديمة).

فى ١٥ أكتوبر، وصلت أخيراً الطبعة المنتظرة لـ"الديك الهارب"، الصادرة عن مطبعة الشمس السوداء. إلا أن لورنس فى نفس الرسالة التى عبر فيها عن شكره لكاريسا غروسبى، كشف للمرة الأولى أنه من المتوقع أن يذهب إلى مصحة، "إلا إذا استعدت عافيتى بسرعة". لم يكن قادراً على السير إلى أقرب زاوية، وهو للمرة الأولى، بدأ يتذمر من عدد الرسائل التى عليه كتابتها – "تعبت حتى الموت منها". **رسائل (٧) ص٥٣٠ :** والرسائل التى يكتبها، كانت مخفّفة ومليئة بالشكوى من صحته ولا فاعليته. وفى أيامه تلك، لم يكن يسمح بإغلاق مصاريع النوافذ أو إسدال الستائر، كى يتمكن من رؤية السماء ليلاً وهو مستلق فى فراشه، يسعل قبل بزوغ الفجر، يصارع، ديمون(*)، فى صدره:

فريدا ٣٠٢ : "ولكنه، بعدئذ، وقت الفجر، وكما أعتقد، كان يشعر بالامتنان لأن يوماً آخر قد وهب له. قال لى: "تعالى عندما تبزغ الشمس"، وعندما جئت، كان سعيداً، سعيداً جداً حقاً، وكأنما يقول: "انظرى، يوم آخر وَهب

(*) ديمون – عفريت أو شيطان، نصف إله فى الميثولوجيا اليونانية. (المترجمة)

لى. بزغت الشمس بشكل باذخ مقابل سريره بألوان الأحمر والذهبى، عبر مشربية النافذة، والصيادون واقفون فى قواربهم يبدون مثل شخوص أسطورية خالدة، داكنة اللون وحيّة فى مواجهة روعة البحر والسماء. شجاعته وروحه غير الوجلة، تعملان ما بوسعهما للعيش قدر ما يمكن فى هذا العالم الذى أحبه كثيراً جداً. شجاعته قد منحتنى الشجاعة أيضاً.

عندما وهن جسده، أصبحت حياة الحواس والمنح الطبيعية للعالم، أثمن وأثمن بالنسبة إليه. قصائده الأخيرة تحتفى "بروعة الحياة فى الجسد"، بالشجاعة والثقة بالنفس وبالبهجة. وحتى قصائده عن الموت، على الرغم من كونها مثيرة للمشاعر، لا تتذبذب فى يقينها من أن الموت ما هو إلا جزء من الحياة، الرحلة الأطول، وربما المغامرة العظمى:

قصائد ٧٢٧ : وإن فى المراحل المتغيرة لحياة الإنسان

سقطتُ مرضاً وشقاء

يبدو معصماى مكسورين، وقلبى ميتاً

ذهبت القوة، وحياتى

مجرد بقايا حياة

ومع ذلك، وبين كل ذلك، نتف من نسيان ومن زهور شتائية غريبة ومتجددة على ساق ذابلة، ومع ذلك فهى زهور جديدة وغريبة وما أشبه ذلك بحياتى التى لم تثمر قبلاً ولم تزهر جديداً منى –

آنذاك علىَّ أن أعرف أنى مازلت

بين يديّ الرب المجهول

إنه يخضعنى لنسيانه.

ليرسلنى فيما بعد إلى صباح جديد، رجلاً جديداً.

بقى ماكس موهر فى باندول للمساعدة فى رعاية لورنس. وفى الوقت الذى كان يستعد فيه للمغادرة، وصل بريويستر وزوجته، لتمضية الشتاء فى الجوار.

سيأتى الإيرل بريويستر يومياً لتدليك جسد لورنس الهزيل ،بزيت جوز الهند . تحسنت صحة لورنس فى نهاية نوفمبر وأصبح قادرا على القيام بنزهات قصيرة على القدمين. كان قد وصل إلى نتيجة وهى أن مرضه يعود "إلى نوع من الاحتدام الداخلى" ، وكتب إلى باينر قائلاً: إنه لم يقدر على هضم كآبته فى أوربا، وأنه سيحاول بكل قوته العودة إلى نيومكسيكو فى العام الجديد. كان قد ابتهج بعض الشيء للمبيعات الكبيرة التى حققتها كراسته ، (الإباحة والقذارة) – ١٢٠٠ نسخة فى أسبوع واحد – وكانت دار فيبر قد طبعتها، وأيضا بسبب ما كتبته عنها، جريدة نيو ستيسمان، تحت عنوان "يقف بجرأة

درابـــــر ص٣١٤-٧ : بالنيابة عنى"، بقلم ، ر.أ. باركلى: إنه عمل أصيل عن تحليل جوهرى كتب من قبل رجل عبقرى ، ومن أعماق قلبه. قطعة أدبية من أقوى وأحكم والأكثر تغلغلاً وتأثيراً فى النفوس، قد ظهرت منذ أعوام عدة. كراسته هى، كراسة إن حازت تفهماً وإدراكاً ، ستؤشر بحق عهداً جديداً ليس فى تاريخ الرقابة على المطبوعات فحسب بل فى التقدير المنطقى لحقائق مبادئ الأخلاق الجنسية والاستقامة الجنسية وآداب حسن السلوك.

سمع لورنس أن مورى قد صمم على أنه لا وجود لله. قال لورنس، "أنا أعرف الآن أنه موجود". وهو فى ذلك لم يكن مثرثراً فحسب، لأنه قال للإيرل بريويستر:

بروستر ٢٢٤ : أقصد أن ألاقى الله: أود أن أدرك علاقتى به، أنا لم أعد أعترض على كلمة الله. لقد تغير موقفى تجاه هذا الأمر. يتوجب علَّى تأسيس علاقة واعية مع الله.

فى شهر نوفمبر، كتب كوت إلى لورنس عن طبيب يدعى مورلاند، مقيم فى مصحة مونديسلس، جيث تم معالجة كل من جيرتى كوبر ومارك جيرتلر ببعض النجاح، وكان من المقرر أن يمر ذلك الطبيب عبر

فـــريدا ٢٣٩ : جنوب فرنسا فى يناير، فهل سيراه لورنس؟ أجاب لورنس بغير حماس، ولكن فريدا كتبت: قل لذلك الطبيب كم سأكون سعيدة إن جاء لرؤية لورنس. غادر كارتر باندول فى أوائل ديسمبر ، إلا أن زوّاراً جدداً جاء وا – إدا رو من سانتا فى ، ودى كيباراس من كابرى. ومن أجل عيد الميلاد، كان هناك معجنات الخوخ وكيك الكريسمس من شقيقات لورنس. ولكن لورنس كان فى الفراش مع كمادة من بذر الكتان – "موسم حقيقى للكريسمس!"

رســـــائل (٧) ص٦١٩–٦١٤ : فى العــام الجــديد، كـانت هناك زيارات خـاطفـة من أوريولى ونورمـان دوغـلاس، "بمناسـبة المرح الصاخـب للعطلة" ، وجاء لورنس بوليغر وإيلز لتمضية بضعة أيام، ثم باربى . كان لورنس قد وصل إلـى أقـصى حـد لتحـمله ، محـاولاً تعـزية نفـسه بمناقشة خططه للعودة إلى نيومكسيكو فى الربيع ، مع أدا رو.

قـام الـدكتـور مـورلاند بفحص لـورنـس فـى ٢٠ ينـايـر، وفـى اليـوم التـالى كتـب لـورنـس إلى ميبل لوهان:

رســـــائل (٧) ص٦٢٤–٥ : فى يوم الاثنين، جاءنى طبيب من إنكلترا – يقول : إن الالتهاب الشعبى فى القصبات الهوائية شديد وقد ازداد سوءاً بسبب الرئة . على أن أستلقى ساكنا مدة شهرين – أحاديث تدور حول ذهابى إلى

رسائل (٧) ٦٣٣ : مصحة بالقرب من نيس ، ولكنى لا أعرف إن كانت ملائمة .

وكتب إلى ماكس موهر، "غدت روحى متعبة"، كان عليه ألا يحاول العمل أو القراءة أو رؤية أحد ما. بعد عشرة أيام كتب إليه مورلاند من البندقية مزكيا المصحّة التى هناك. كان لورنس معارضاً على الرغم من

مـــــــــور : أن وزنه هبط إلى أقل من ٤٠ كغم: إن حققت تقدماً جيداً، كما أفعل الآن، فلن أذهب إلى البندقية وإلا، سأذهب": بعد ثلاثة أيام كان قد قرر الذهاب:

رســـــائل (٧) ص٦٣٦ : أكد لى الطبيب مورلاند أنى سأتحسن بصورة أسرع فى المصحة، وسأكون قادرا على السير ثانية – وذلك ما أريده. أريد أن تعود ساقاى إلى.



"وهى لا تختلف مطلقا عن الوجود فى فندق – اللهم باستثناء أن هناك ممرضة تقوم على قياس درجة حرارتي وأنا أتناول الطعام المعتاد فى الفنادق – وأفعل ما أريد – ويجرى الاعتناء بى أكثر مما كنت عليه فى مصحة الشمس الساطعة. وهذا كثير جداً على المصحة".

فى ٦ فبراير، شرع لورنس فى رحلته الأخيرة، من فيلاً بيو سوليل "إلى مصحة "أد أسترا من "(*) .

فـــريدا ٣٠٦ : وهناك استلقى فى غرفة زرقاء، ستائرها صفراء، ونوافذها كبيرة مفتوحة ، وشرفة تطل على البحر. عندما فحصه الأطباء ووجهوا إليه العديد من الأسئلة حول نفسه، أخبرهم: "كان لدىّ التهاب قصبات وأنا فى الأسبوع الثانى من عمرى".

بعد أسبوعين كتب لورنس إلى ماريا هكسلى:

رســـائل (٧) ص٦٥١ : أنا فى الواقع فى حال أسوأ هنا. أى ليال سيئة، وسعال وقلب، وآلام أشد، من غير ريب، هنا، الأمر يبعث على الشقاء. إنه يبدو لى مثل مرض الأنفلونزا، ولكنهم ينفون ذلك. إنه ليس بالمكان الجيد – لن أمكث طويلاً – أنا أفضل حالاً فى المنزل – أنا أحس بالتعاسة.

باربى مع فريدا وكذلك إدارو – متى تفكرين بالمجىء؟

ملاحظة: هذا المكان لا فائدة فيه).

مـــورلاند ٤٨ : لعدة ليال، طلب من فريدا البقاء معه، وقد نامت على كرسى من الخيزران فى غرفته. وقد فشل د. مورلاند فى تحديد مدة بقاء لورنس على قيد الحياة: لعدة أعوام، إنها مسألة إرادة:

أتمنى الآن لو أنى لم ألح عليه أبداً فى الذهاب إلى البندقية، فإننى خائف أن جهودى لم تفلح إلاّ فى جعل أسابيعه الأخيرة أكثر حزنًا.

(*) سوليل تعنى الشمس، أسترا تعنى النجوم (الترجمة)

كتب لورنس ، فى آد أسترا، شيئا واحداً فقط، وهو نقده لكتاب هراء الفن، لمؤلفه إيرك جيل. ونقلا عن فريدا:

بـــاول ٦٥ : كتب لورنس نقده هذا غير المكتمل قبل أيام من وفاته. لقد أثار الكتاب اهتمامه، واتفق مع الكثير مما جاء فيه. بعدئذ، بدا متعباً من الكتابة وأقنعته بعدم الاستمرار، إنه آخر ما كتبه.

كانت مكتوبة، مثل أولى كتاباته، فى دفتر مدرسى للأطفال. وكان لورنس قد عزم على كتابة مقالة بعد الانتهاء من كتابة النقد. فى منتصف مراجعته للكتاب، كتب العنوان: "الله والفن"، وما تبقى أبيض فارغ.

رسائل ٦٥٣ : وفى ٢٤ فبراير، زار هـ . ج . ويلز لورنس "روح مؤقتة"، وبعد ثلاثة أيام، زاره الأغاخان: جاء اليوم الأغاخان برفقة زوجته – أعجبت به – شىء من الدين الحقيقى فى منتصف وجهه السمين".

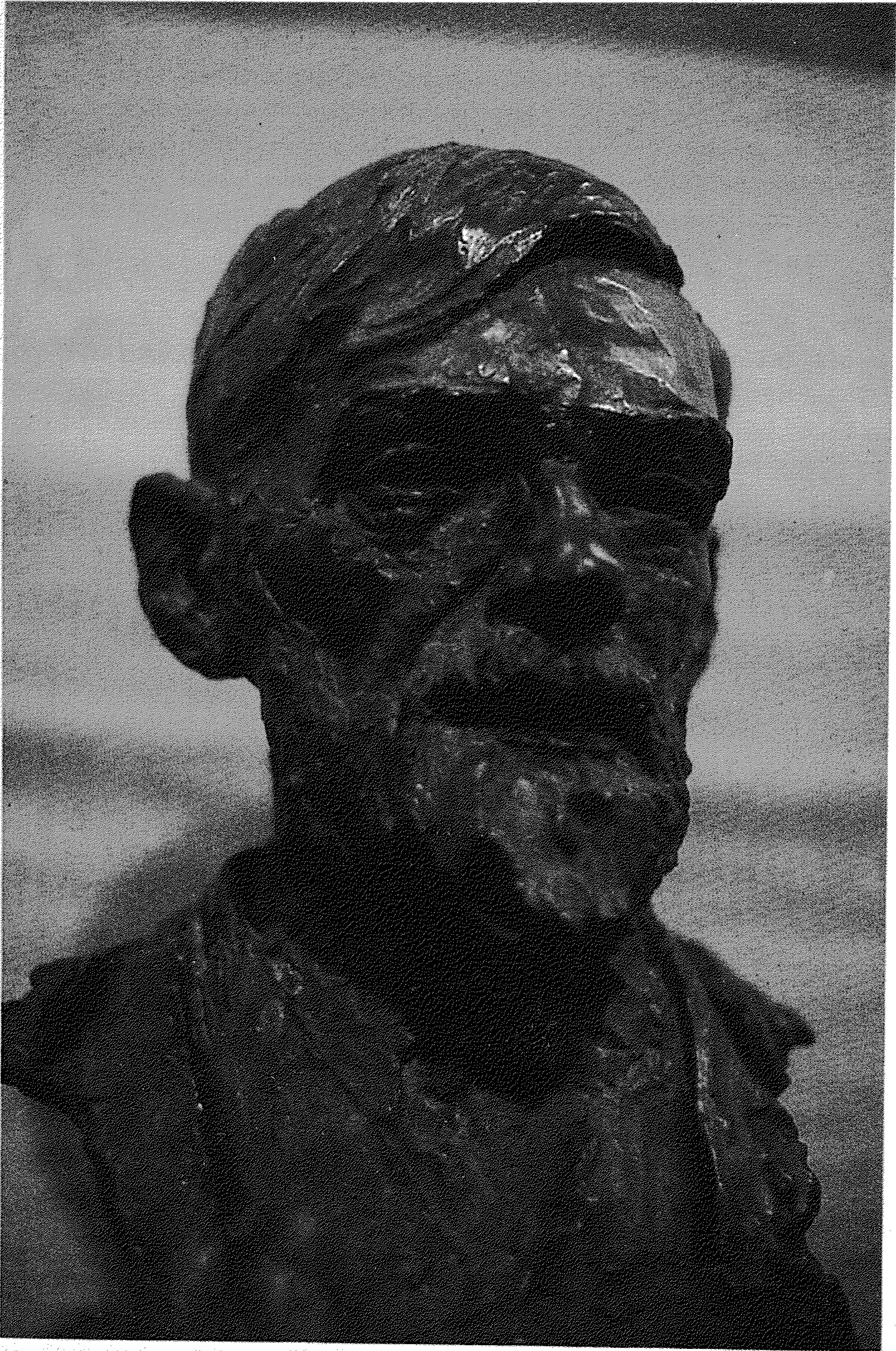
فى ٢٥ فبراير كتب د. مورلاند إلى مارك جيرتلر:

مـورلند ٤٧ : وأخيراً سمعت من د. ميدينير من البندقية عن لورنس. أخشى ألا يكون تقريره جيداً. ظهر أن رئتيه مصابتان بدرجة متوسطة الخطورة. ولكن ما يثير القلق هو حالته العامة، شهيته قليلة، ولا يبدو مستجيباً للعلاج. من الواضح أن حالته لا تتلاءم مع أى علاج خاص، وأن الاعتماد يجب أن يتركز على راحة طويلة وطعام جيد... أنا لا أحبذ تماماً ما يخص مصحة فرنسية، وأعتقد أن الأمر لن يكون حكيماً فى الإلحاح عليه بالبقاء فى المصحة مدة أطول.

فى الواقع، كان لورنس قد قرر تأجير منزل فى البندقية، مع ممرضة إنكليزية من نيس.

الانتقال إلى فيلا روبرموند تمّ فى الأول من مارس، فى سيارة أجرة متداعية. كان الأمر أكثر مما ينبغى بالنسبة للورنس. فى تلك الليلة، جلست فريدا عند سريره، تغنى له الأغانى التى كثيراً ما غنياها معاً، فى أمسيات كثيرة فى الماضى.

فريدا ٣٠٨-٩ : كان اليوم التالى هو الأحد. "لا تتركينى"، قال لى: "لا تذهبى!" وهكذا جلست عند فراشه وقرأت. كان يقرأ، "سيرة كولومبس". بعد الغداء، أخذ يعانى كثيراً، وفى حوالى موعد تناول الشاى تقريباً قال: "لابد أن لدىّ حمًّى، إنى متهيج جداً، أعطنى الترمومتر". هذه هى المرة الأولى التى بكيت فيها وأنا أرى وجهه المعذّب، وقال لى: "لا تبكِ"، بصوت سريع آمر. ولذلك توقفت عن البكاء بعد ذلك. نادى على ألدوس وماريا هكسلى اللذين كانا معنا، وللمرة الأولى صاح ملتمساً فى نزعه. "يجب أن أُعطى بعض المورفين الآن"، قالها لى ولابنتى، وهكذا ذهب ألدوس ليبحث عن طبيب ليعطيه شيئًا منه. ثم قال: "أمسكى بى، أمسكى بى، أنا لا أعرف أين أنا، لا أعرف أين يداى ... أين أنا؟". ثم جاء الطبيب وأعطاه حقنة مورفين. قال بعد قليل، أنا أفضل الآن...، لو أتعرّف سيتحسن حالى... ، ثم قال ثانية " أنا أفضل الآن". مرت الدقائق، كانت معى فى الغرفة ماريا هكسلى. كنت أمسك بكاحله الأيسر من وقت إلى آخر، أحسست أنها ممتلئة تماماً بالحياة، وسأبقى كل أيامى ممسكة بكاحله فى يدى.



تمثال رأس لورنس، من عمل جو ديفيدسون، فى ٢٤ فبراير من العام ١٩٣٠ .

كان يتنفس بهدوء أكثر، ثم أصبحت هناك انقطاعات فى أنفاسه، ثم جاءت اللحظة التى تمزق فيها خيط الحياة فى صدره المرتفع، تغير وجهه، غار خداه وفكه واستحوذ الموت عليه...

* * *

فونيكس ٦٩٨ : هل أخاف أنا اقتراب الإبداع الغريب المجهول من بابى؟ أخافه فحسب بألم وبفرح لا يمكن التعبير عنه. وهل أخاف أنا من اليد السوداء الخفية للموت، أن تقتلعنى بقوة إلى الظلمة، مستجمعة إياى زهرة بعد زهرة، من ساق حياتى إلى مجهول سيأتى لاحقًا؟

أخافه فقط تبجيلاً لقناعة غريبة. لأن هذا هو التعويض النهائى. أن يتم جمعى زهرة بعد زهرة، كل حياتى بطولها، نحو الحقيقة المطلقة للمجهول الذى هو نهايتى.

* * *

إلى إى . م . فورستر، كتبت فريدا:

توفى لورنس ببهاء شديد – ناضل بوصة بعد بوصة، ولم تفقد الحياة معه سحرها مطلقًا، غير عادلة كانت حتى النهاية، عندما التمس المورفين، وتوفى بلا ألم أو عناء – بدا غير مهزوم، ومنجزًا وعندما أصبح ميتًا، سكنت تمامًا كل المعاناة. إن كانت إنكلترا أنتجت يومًا وردة مثالية، لكان هو تلك الزهرة، شوكًا وعطرًا وروعة – لقد ترك لى حبه من دون شكوى، كان لنا ما نتذمر منه، وهو من ذلك الجانب الآخر، الذى لم أعرفه قبل رحيله، يمنحنى قوته وحبه مدى الحياة – لا تحزنى من أجلى، سيكون ذلك باطلاً، أنا غنية جدًا، أى امرأة كان لها ما كان لى؟ والآن، لدىَّ أحزانى – أسفًا، للناس الآخرين، أستطيع أن أقول، أولئك الذين لم يعرفوا قط سحر وإشراقة الأشياء.

كانت كلمة رثاء فريدا هى الأفضل:

تيدلوك ١٠٦ : ما رآه وأحس به وعرفه، أعطاه لكتاباته، إلى من هم صنوه من الرجال، منح روعة الحياة والأمل فى المزيد والمزيد من الحياة، هبة نبيلة لا حدود لها.

فـريدا ٣١٠ : ثم دفناه، ببساطة شديدة، مثل طائر دفناه، بضعة منا، نحن الذين أحببناه. وضعنا زهورًا فى قبره، وكل ما قلته كان: "وداعًا لورينزو"، بينما كان أصدقاؤه وأنا نضع كميات كثيرة من (السنط) على تابوته. وبعدئذ، كان قد غطّى بالثرى، فى حين كانت الشمس تطلع على قبره الصغير، فى المقبرة الصغيرة لمدينة البندقية، المطلّة على البحر المتوسط الذى نال اهتمامه كثيرًا.

فنان محلى، صنع شاهدة قبره ونقش عليها طائر العنقاء ببلورات صخرية ملونة. بعد عدة أشهر، عادت فريدا إلى المزرعة برفقة أنجيلو رافاجلى، الذى تزوجته فيما بعد. فى عام ١٩٣٤، بنى أنجيلو كنيسة صغيرة بيضاء على منحدر التل القابع خلف المزرعة، وفى قمتها طائر العنقاء، والنوافذ على هيئة الشمس. زخرفت بريت المدخل.

أوفدت فريدا أنجاى إلى فينيس لعمل الترتيبات اللازمة لنقل رفاة لورنس، وإحضارها إلى المزرعة. وفى المزرعة خلطت رفاة الرجل بالخرسانة على شكل كتلة ضخمة فى الضريح؛ لأنها كان قد بلغها أن ميبل

خططت لإرسال بعض الهنود لسرقة الرفاة. توفيت فريدا فى العام ١٩٥٦ الميلادى وجرى دفنها هى الأخرى فى مدخل الضريح. لكن بعد وفاتها اعترف أنجاى بأنه ضاق ذرعا بالبيروقراطية والتكاليف التى ترتبت على نقل الرفاة، وأنه تخلص من تلك الرفاة فى مرسيليا ، وأرسل الوعاء خاليا إلى نيويورك، ديلانيناس ثم تسلَّم الوعاء فى نيويورك وملأه بأول محروقات عادية صادفته؛ وعلى الرغم من استئثار فريدا الواضح بحب الرجل، ليس هناك من الأسباب ما يجعلنا نسلم بأن روح لورنس كانت مربوطة إلى رفاته بعد الموت. وبوسعنا تخيل هذه الروح وهى تطيل النظر عبر المسافة المنيونية(*) لمحبوبه البحر الأبيض المتوسط، أو العودة إلى الأرض التى يحبها حول مزرعة هاجز، أو التحليق مثل نسر لونه الأصغر ضارب إلى السمرة فوق صخور العاصمة المكسيكية.

ديلافينى (٢) ص١١٨ :



(*) المقصود هنا هو فترة حضارة العصر الطباشيرى الجيولوجى (المراجع).

المصادر

أدا (لورينزو الشاب)، السنوات الأولى لـ د . هـ . لورنس.
إدا لورنس، جى ستوارت، جيدلر، أزريولى. فلورنسا ١٩٣١

أسكويت (يوميات ١٩١٥ – ١٩١٨، الليدى سينتيا أسكويت، هاجينسون ١٩٦٨)

باينز الزمن الذى فرقنا، روزالند ثورى كروفت، أكملتها شوبوى باينز، باتكومب ، ١٩٦١.

قصائد ديوان د. هـ. لورنس : تحرير بنتو وروبرتس، هاينمان، ١٩٦٤.

بريت (لورنس وبريت: صداقة)، دورثى بريت، سانتا فى ١٩٧٤

بريويستر (د. هـ . لورنس: ذكريات ومراسلات)، إيرل وأكسابريويستر، سيكر، ١٩٣٤

باينر (رحلة مع عبقرى)، ويتر باينيبر، بيتر ينفيل، ١٩٥٣

قصائد ديوان د. هـ . لورنس : تحرير بنتووروبرتس، هاينمان، ١٩٦٤

كارسويل (الرحلة الوحشية)، كاثرين كارسويل، جاتوو ويندوس ١٩٣٢

كورك (فى طفولتنا)، هيلين كورك، كامبريدج، ١٩٧٥

كروسبى (ظلال الشمس: يوميات هارى كروسبى)، غريمان، مطبعة بلاك سبارو، سانتا بابرة، ١٩٧٧

ديفيز (بصمة قدم أرنب وحشى)، رايز ديفيز، هانيمان ١٩٦٩

ديلانى (كوابيس د . هـ . لورنس)، هارفيستر، ١٩٧٩.

ديلافينى (١) (د. هـ . لورنس: الرجل والعبقرى)، إيميلى ديلافينى، كليسيك.

ديلافينى (٢) (د. هـ . لورنس: الرجل وأعماله)، إيميلى ديلافينى، هانيمان، ١٩٧٢

درابر (د. هـ . لورنس: التراث النقدى)، ر. ب، درابر، روتليدج، كيغان بول، ١٩٧٠
الطبعة الأولى من كيدى شاترلى، ١٩٤٤.

فريدا (لست أنا بل الريح...)،، فريدا لورنس، سانتافيث ١٩٣٤

غراى (كراسى موسيقية)، سيسيل غراى، هوم وفانثال ١٩٤٨

هكسلى (رسائل د . هـ . لورنس)، الدوس هكسلى، هانيمان ١٩٣٢

إيرفن (١) (د . هـ . لورنس: رسائل إلى غوردون وبياترسى كامبل)، بإشراف بيتر إيرفن وآن كيلى، ١٩٧٣.

إيرفن (٢) (د . هـ . لورنس وفريدا لورنس: رسائل إلى دروثى بريت) ١٩٧٦.

جيسى (د . هـ . لورنس: مدونة شخصية)، جيسى شيمبرز، كب ١٩٣٥، كامس، ١٩٦٥ .

رسائل (١) (رسائل د . هـ . لورنس، المجلد ١)، تحرير جيمس ت . بولتن، كامبريدج، ١٩٧٩

رسائل (٢) المجلد الثانى تحرير ج ورج زيتاروك وجيمس تى بولتون، كيمبردج ١٩٨١.

رسائل (٣) المجلد الثالث ، تحرير جيمس بولتون وأندرو روبرتسون، كيمبردج ١٩٨٤.

رســــــائل (٤) المجلد الرابع، تحرير وارن روبرلس، جيمس ت. بولتون وإليزابيث ماتسفيلد ، كيمبردج ١٩٨٧.
رســــــائل (٥) المجلد الخامس ، تحرير جيمس بولتون وليندث فاسى، كيمبردج ١٩٨٩.
رســــــائل (٦) المجـلد الســادس، تحـرير جيـمس ت. بولتـون ومـارجـريت هـ بولتـون ، بمشـاركة جيـرالد لاسى، كيمبردج ١٩٩١.
رســــــائل (٧) تحرير كيث ساغار وجيمس ت. بولتون، كيمبردج ١٩٩٣.
انــــظـــــر (انظر، لقد نجحنا ! د . هـ . لورنس)، مطبعة آرك، مارازيون ١٩٥٨
لــــويــــل (آمى لويل: يوميات س. فوستر دامون، هوتون ميفلين، بوسطن ونيويورك، ١٩٣٥
لوكــــاس (فريدا لورنس)، روبرت لوكاس، نيويورك،١٩٧٣
لــــوهــــان (لورينزو فى تاوس)، ميبل دودج لوهان، كنوبف، نيويورك، ١٩٣٢
مــــاكــــينزى (حياتى وزمانى)، أوكتاف فايف، كومبتون ماكينزى، جاتو وويندوس، ١٩٦٦
مــانســفــيلد (رسائل كاثرين مانسفيلد إلى جون ميدلتون مورى)، كونستيبل، ١٩٥١
مــــيـــريلد (شاعر ورسامان، كنور ميريليدج، ١٩٣٨
مــــورلانـد (الأيام الأخيرة لـ د . هـ . لورنس: رسائل لم تطبع بعد لـ د . أندرو مورلاند، تحرير زيتاروك، ١٩٦٨
مـــــورى (١) (ذكريات عن د . هـ . لورنس)، جون ميدلتون مورى، كاب، ١٩٣٣
مـــــورى (٢) (بين عالمين)، جون ميلالتون مورى، كاب، ١٩٣٥
نيهيلز ١، ٢، ٣ (د . هـ . لورنس: سيرة مركبة)، إدوارد نيهيز، ويسكونسن، ١٩٥٧، ١٩٥٩، ثلاثة مجلدات.
أوتـــولايـــن (أوتولاين فى غارسينغتون)، تحرير غارتون – هاردى، فيبر وفيبر، ١٩٧٤
فــونيكس (١) (فونيكس: أوراق د . هـ . لورنس، تنشر بعد وفاته)، تحرير إدوارد ماكدونالد، هاينمان، ١٩٣٦
فــونيكس (٢) (فونيكس ٢: د . هـ . لورنس)، تحرير روبرتس ومور، هاينمان ١٩٦٨
بـــــوويــــل مخطوطات د. هـ لورنس، لورنس كلارك بوويل، لوس أنجلوس ١٩٣٧
راهــــــب (راهب الحب)، هارى ت . مور، هاينمان، ١٩٧٤
ســـيلتـــزر (رسائل د . هـ . لــورنــس إلى توماس واديل سيليتزر، تحرير لاسى، مطبعة بلاك سيارو، سانتا باربارا، ١٩٧٦
ســكــيــنــر (العصفور الدورى الخامس)، م . ل . سكينر، أنغوس وروبرتسون، ١٩٧٣
تيـــــدلوك (فريدا لورنس: الذكريات والمراسلات)، تحرير تيدلوك، هاينمان، ١٩٦١

المؤلف فى سطور :

كيث ساغار

– ناقد أدبى معروف ، أصدر أكثر من (٢٠) كتاباً كرّس أغلبها لتناول الجوانب المختلفة لحياة وأعمال كل من لورنس وتيد هيوز .

– ولد عام ١٩٣٤ فى برادفورد فى إنجلترا ونال شهادة الدكتوراه عن (لورنس) عام ١٩٦٢ ، وبدأ من ذلك الحين فى الجمع بين التدريس فى جامعة مانجستر والتأليف وإلقاء المحاضرات فى جامعات دول مختلفة ، وبالأخص الجامعات الأمريكية .

من أبرز أعماله :

– فن د. هـ. لورنس ١٩٦٦ / فن تيد هيوز ١٩٧٨ / حياة د. هـ . لورنس ١٩٨٠ / تيد هيوز : ببلوغرافيا ١٩٤٦ – ١٩٨٠ / د. هـ. لورنس فى المكسيك ١٩٨٢ / لوحات ورسومات لورنس ٢٠٠٣ .

– كما شارك فى إعداد جزء من مجموعة رسائل لورنس للنشر (الجزء السادس ، عن كمبريدج) ، وقدم للعديد من مجموعاته القصصية المعروفة التى نشرت عن (بنغوين ١٩٧٠ – ١٩٨٢) .

– آخر أعماله كتاب بعنوان (الأدب والجريمة ضد الطبيعة ، ٢٠٠٤ مطبعة جوسر) .

المترجمة فى سطور :

إبتسام عبد الله

- صحفية وروائية عراقية تعيش فى بغداد .

- صدرت لها أربع روايات ومجموعتان قصصيتان.

- ترجمت العديد من الكتب منها : "يوميات المقاومة فى اليونان" ، و "مذكرات أنجيلا ديفيز" ، وآخرها "فى انتظار البرابرة" تأليف ج . إم . كوتزى ، صدر عن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة فى مصر .

المراجع فى سطور :

صبرى محمد حسن :أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجالات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية - الرياض - المملكة العربية السعودية ، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية ، ومجلة الهلال - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية .

١ - التفكيكية : النظرية والممارسة ، تأليف كرسيتوفرنوريس ، دار المريخ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر والشكل ، تأليف : جدسون جيروم ، دار المريخ .

٣ - الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه ، دار المريخ .

٤ - الأطفال والمخدرات ، دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبدا ع العالمية للنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١ - الموظف المشاكس .

٢ - عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال . القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١ - هارون الرشيد ، تأليف : فيلبى .

٢ - الكاكائين والمرهقين .

٣ - بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال .

١ - حلم ليلة إفريقية .

(هـ) كتب روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية .

١ - سبعة أنماط من الغموض ، تأليف : وليم أمبسون .

٢ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف : بالجريف (جزءان) .

٣ – حركات التحرر الإفريقى ، تأليف : ريتشارد جبسون .

٤ – إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ – قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ – سيرتى الذاتية ، تأليف : أحمد بللو .

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

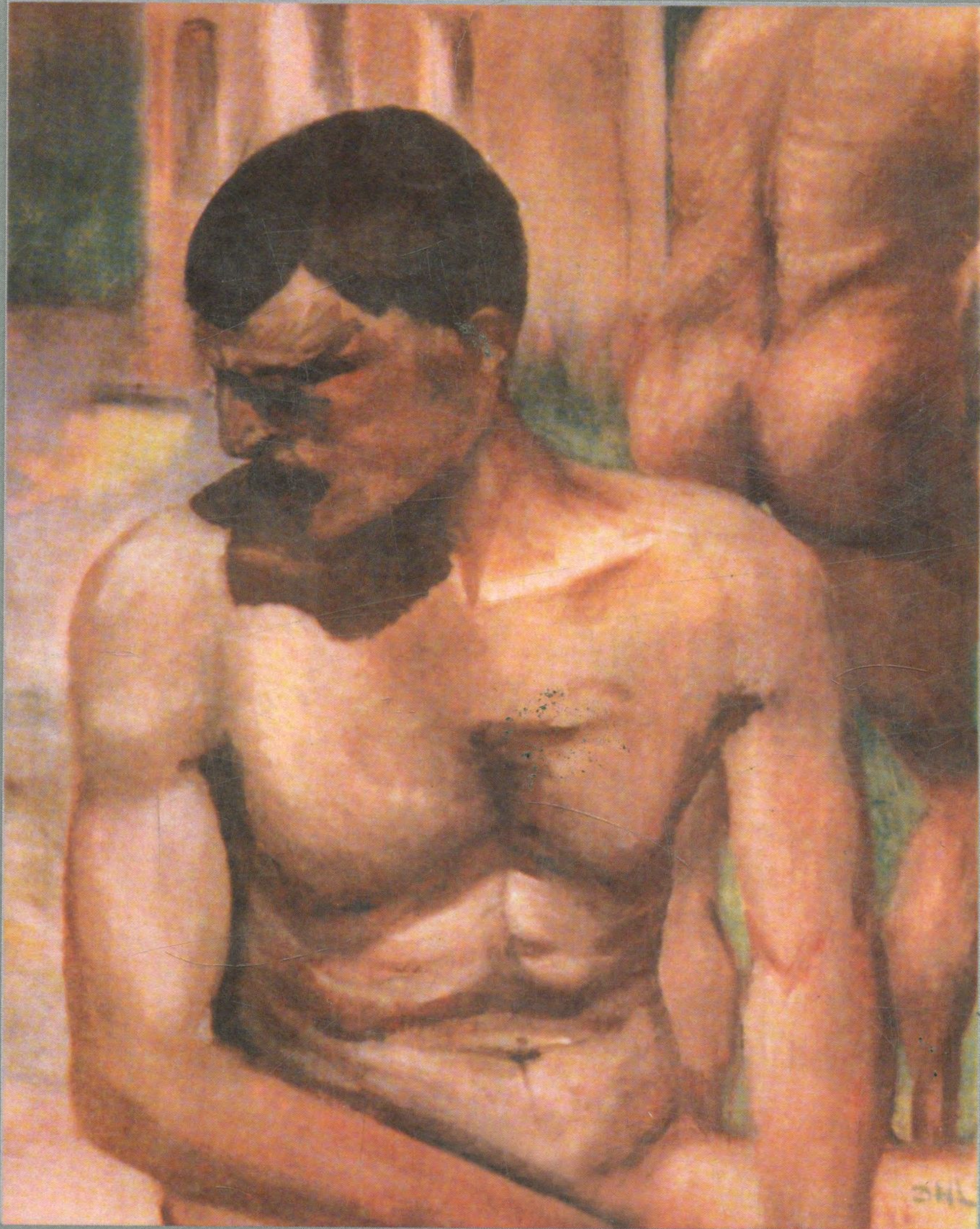
١ – سكين واحد لكل رجل .

٢ – نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ – المهمة الاستوائية .

التصحيح اللغوى : محمود غيضان .

الإشـــراف الفنى : حســن كـامـــل .



يقدم الكتاب الصورة الحقيقية التى لا يعرفها الكثيرون عن لورنس 1930/1885 روائيا وشاعرا ورساما وكاتب مقالات. يتتبع المؤلف بدقة حياة لورنس فى مراحلها المختلفة مبينا تأثير الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية فى عصره على تطوير وبلورة أفكاره وعلاقاته بأعلام عصره من المثقفين.

تناول لورنس فى رواياته (أبناء وعشاق، قوس قزح، نساء فى الحب، الليدى تشاترلى) أدق الأحاسيس الإ مركزًا على تحليل التدفق الطبيعى الأول من المشاركة الوجدانية بين شخصين قبل أن يكبح أو يسيطر عليه الـ العقل أو التقاليد. ويتفق النقاد أن روايته قوس قزح هى أول أعماله فى مجال الرواية الحديثة.

عاش لورنس معظم حياته بعيدا عن موطنه إنجلترا مخلصا باستمرار لمبادئه، رافضا حياة المدن الصناعية وعلاقاتها الزائفة المتآكلة، وقد عاش حتى النهاية عيشة ناسك بسيط فى أحضان الطبيعة البكر التى عشقها

الكتاب غنى بالتفاصيل المتعلقة بحياة لورنس فى مختلف المدن التى زارها أو أقام فيها وهو الأول الذى مقتطفات من رسائل لورنس التى لم تكن نشرت قبل عام 1980.

تنفيذ غلاف الطبعة العربية: نسرين كشك